إعراب الاسم الواقع بعد (إلا) في ظاهرة الاستثناء في العربية

د. / فيصل ابراهيم صفا(*)

ملخص

تقدم هذه الدراسة قراءة لظاهرة «الاستثناء» في العربية الفصحى، وتصب الاهتمام على العلامة أو العلامات الإعرابية التي يحملها الإسم الصريح الواقع بعد أداة الاستثناء (إلا)، خاصة، وتعيد النظر في السبب أو الأسباب التي تدعو إلى حمل مثل تلك العلامة أو العلامات.

هذه الدراسة تعمل بالتالي على مناقشة بعض المفاهيم والأفكار التي غلب دورانها في أحاديث النحاة عن الإعراب في مثل هذا الإسم والخلوص إلى مفاهيم ربما تخالف بعض ما استقر من مفاهيم في هذا الباب. ولذلك كان من المتوقع أن ينظر هذا البحث في النصوص التي يوردها النحاة - عادة - في هذا الباب النحوي، وفي نصوص أخرى غيرها، لاختبار تلك المفاهيم.

- 1 -

1 - الأحكام الجزئية في باب الاستثناء، في كتب النحو العربي كثيرة والمفيد في هذا السياق، البحث عن أكثر هذه الأحكام دورانا وحضورا. من هنا كان الجهد، الذي قام به بعض الباحثين(1) للوصول إلى هذه الغاية، رائدا في ميدان التيسير على المتعلمين، وفي مجال التخطيط لمراحل التعليم العام.

غير أن ما دفعني إلى هذه القراءة في باب الاستثناء لم يكن القصد إلى التيسير في قواعده وقوانينه، وإنما كان رغبة في اختبار بعض أحكام إعراب المستثنى(2)، واختبار التفسيرات التي تقدم لإيضاح وظيفة العلامة الإعرابية التي قد يحملها ذلك المستثنى. البحث منصب إذاً على مسألة الإعراب في المستثنى حين يكون إسما صريحا بعد (إلا) على وجه الخصوص. هذا الإعراب يتوقع، كما هو الحال في الظواهر اللغوية عموما، أن يكون

(*) أستاذ بجامعة اليرموك / اربد - الأردن

مطردا. لقد وصفت(3) اللغة التي تحكم للمستثنى، في سياق كلام تام موجب، بالنصب بأنها «اللغة المشهورة». مثل هذا الوصف يوحي بالطبع أن هناك لغة أخرى أقل شهرة، وهي عند النحاة تلك التي تحكم على المستثنى - في سياق مماثل - بأن يتبع(4) المستثنى منه في العلامة الإعرابية(5). مثل هذا الحديث عن اختلاف إعراب المستثنى استنادا إلى اختلاف اللهجة المنظور فيها يفترض أن لا يعني وجود خلط من أي نوع يؤدي إلى تداخل قواعد أي منها في قواعد الأخرى، حتى في حال التشابه. ثم إن استخدام عبارة «اللغة المشهورة» ليس في مكنتنا فهمه إلا على أنه العربية التي يفترض أن تنتظمها القواعد على العموم، وأن الناس مطالبون بتعلمها. لكن النحاة القدماء صححوا، مثلا، حكمين مختلفين خاصين بإعراب المستثنى في سياق الاتصال والنفي؛ فقد جعلوا(6) اتباع المستثنى للمستثنى منه على البدلية حكما راجحا، في حين جعلوا (7) نصبه على الاستثناء حكما مرجوحا منسوبا إلى عرب غير الذين نسب إليهم حكم الاتباع البدلي.

شبيه بما سبق من اختلاف في الأحكام قد قيل في المستثنى في سياق النفي وما سمي بالانقطاع. فقد نسب(7) لبني تميم النصب وغيره (وهو الاتباع على البلدية، في تفسير النحاة)، في حين نسب(8) النصب وحده لأهل الحجاز.

هكذا إذاً ينصب بنو تميم المستثنى، استنادا إلى ما نسب إليهم في الإيجاب والاتصال وفي الإيجاب والانقطاع، وفي الإيجاب والاتصال عند تقدم المستثنى، في حين يبدلون، حسب فهم النحاة للإبدال، وينصبون في النفي والاتصال. أما أهل الحجاز فإنهم يبدلون فقط في النفي والاتصال، وينصبون فيما عداه من السياقات. يضاف إلى هذا أن بعضا آخر لا ينتمي إلى هذين القبيلين يبدل فقط في الإيجاب والاتصال، وبعضا ثالثا يبدل عند تقدم المستثنى في سياق النفي والاتصال.

كل هذا يذكر على أنه، في المحصلة النهائية، أحكام للغة واحدة يكثر دوران بعضها ويقل في بعض آخر. ويكون العمل أكثر دقة لو ذكرت الأحكام المخالفة على سبيل الموازنة والمقابلة، لا على أنها أحكام للغة واحدة.

إن اختلاف إعراب المستثنى بين لهجة وأخرى، على الرغم من وحدة التركيب في جملة الاستثناء في السياق الواحد، أمر غير مستغرب؛ لكن المستغرب هو استنباط قواعد وأحكام، استنادا إلى هذه الاختلافات اللهجية، على أنها للغة الفصحى.

2 - هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد أرجع النحاة سبب اختلاف إعراب المستثنى إلى اختلاف العوامل، وهذا في الحق مما يضاف إلى الاضطراب في هذا الباب. إن اختلاف النحاة في تعيين العوامل المسببة لاختلاف إعراب المستثنى(9) يشير الى أنه ليس لاختلاف العامل من علاقة واضحة في اختلاف هذا الإعراب. إن حديث النحاة عن عامل الإعراب في المستثنى، مثلاً، ليس بالإمكان قبوله، كما سوف يتبين. ولولا الاضطراب فيما نسب إلى اللهجات من تغير إعراب المستثنى فيها لكان المنسوب إليها أقدر على تفسير التخالف في إعرا ب المستثنى من القول باختلاف العوامل(10).

1 - إن حديث النحاة عن طبيعة العامل، الذي يحدث النصب أو غيره في المستثنى، لا يبدو متوائما مع ما ترمز إليه العلامة الإعرابية التي يحملها هذا المستثنى في السياق اللغوي الواحد، ذلك أنهم نسبوا اختلاف إعراب المستثنى في السياق الواحد لأكثر من لهجة، لكنهم من ناحية أخرى عملوا على تفسير هذا الاختلاف باختلاف الوظيفة التي يسندها العامل أو العوامل؛ وهذا من شأنه أن يؤدي إلى ضياع معنى الاستثناء الذي يفترض إعرابا خاصا للمستثنى من حيث هو متلق لمعنى الاستثناء. لقد ربط النحاة، ومنهم سيبويه (11)، بين الإعراب في المستثنى وعامل ما، فغاب إلى حد بعيد أي نظر فاعل يجعل لتغير الإعراب فيه سببا غير العمل، أو يجعل مثلا العمل مع معنى المخالفة، المستند إلى السياق، سببا لذلك التغير. فالمستثنى - منصوبا - كالمفعول به عندهم(12)، وعامل المفعول الفعل أو شبهه، الذي عدل عنه - في أنظارهم - إلى (إلا) التي تقتضي المستثنى على معنى الاستثناء، وهو بدل عامله يعمل في المبدل منه أو عامل مستقل، وهو منصوب بـ (أستثني) مضمرا(13)، أو على أن (إلا) مركبة، كما هو عند الفراء(14)، من (إن) التي خففت واتصلت بـ(لا)، فالنصب إذاً عنده من عمل (إن) المخففة. أما الكسائي من الكوفيين فقد حكي(15) عنه أنه يرى النصب أثرا من آثار (أن) من حيث أن الأصل، في فهمه، هو (إلا أن). ويذكر الأشموني(16) أن عامل النصب في المستثنى هو لفظ (إلا) «لا ما قبلها بواسطتها، ولا مستقلا، ولا أستثني مضمرا، خلافا لزاعمي ذلك...»؛ وهذا (أي النصب بلفظ (إلا))، عند بعض النحاة، هو مذهب المحققين منهم(17).

أما عامل نصب المستثنى في سياق النفي وما سمي بالانقطاع، فهو - عند كثير من النحاة(18) - ب(إلا) نفسها، في حين يرى بعضهم أن نصبه حاصل بما قبل (إلا). غير أن المتأخرين من النحاة، كما يذكر الصبان(19)، يرون أنه منصوب بـ(إلا) على معنى (لكن).

إن من ضمن ما يومىء إليه خلاف كهذا بين النحاة، في تحديد ما سمي بعامل النصب (على غير الإبدال) في المستثنى، هو أن فكرة العمل النحوي لم تكن وحدها - في هذا المقام - قادرة على تفسير تغير العلامة الإعرابية. ولا أظن أن السيوطي(20) كان مغاليا في التعليق على ما سبق من أقوال، في تعيين العامل في المستثنى، حين قال: «ولم يترجح عندي قول منها...».

ومن الجدير بالملاحظة أن السيوطي قد شمل بتعليقه السابق رأيا عرف لبعض الكوفية وهو أن المستثنى في سياق الإيجاب والاتصال منتصب لمخالفته المستثنى منه في الحكم. ويعد السيوطي هذا من أقوى الأقوال في سبب نصب المستثنى في السياق المذكور، على الرغم من أنه لم يترجح عنده. المستثنى، بناء على هذا القول، منصوب على الخلاف، والخلاف هنا مخالفة بين حكمين أحدهما قبل (إلا) والآخر بعدها، ولا علاقة له بطبيعة العلامة الإعرابية التي يحملها المستثنى منه، فالمستثنى أبدا منصوب، وعلامة النصب فيه تعبير عن وجود مثل هذا الاختلاف.

2 ـ إن من مظاهر الاضطراب كذلك، في هذا الباب، اختلاط فكرة العمل النحوي، في تفسير التغير في العلامة الإعرابية في المستثنى، اختلاطها عند النحاة بملاحظ (جمع ملحظ) من غير جنس فكرة العمل. من ذلك، مثلا، محاولة بعض النحاة(21) التفريق بين القول بإعراب المستثنى على البدلية في سياق النفي والاتصال، والقول بنصبه على الاستثناء في مثل: (1) ما قام إلا زيد / زيدا، من حيث أن النصب يعني عندهم جعل معتمد الكلام النفي، أي أن الحكم المنفي المعطى للمستثنى منه هو المراد، والمستثنى مذكور فضلة، في حين أن الإبدال يعني جعل معتمد الكلام الإيجاب من قبل أن البدل، عندهم، هو المقصود بالحكم، والمبدل منه مجرد توطئة للبدل، وهذا أمر مختلف عن القول بفكرة العامل.

وإنه وإن كان كل من النصب، على الاستثناء، والقول بالإبدال يعتمد ـ من منطلق النحاة ـ على عامل لفظي، فإن اختيار واحد منهما لا يستند إلا إلى المعنى المراد، فكان الإعراب قرينة تلفت النظر إلى ذلك المعنى.

على أنه لم يقدر للملاحظ السابقة أن تحدث أثرا فاعلا في تفسير التغير في العلامة، التي يحملها المستثنى بعد (إلا)، بعيدا عن نظرية العمل النحوي التي لا تبدو، وحدها وفي ضوء الأفهام النحوية المشار إليها الخاصة بالحيرة في تعيين العامل، قادرة على ذلك.

3 ـ تفسيرات إعراب المستثنى عند المحدثين:

ليس من الشطط الذهاب إلى أن الرأي النحوي القديم القائل(22) بأن المستثنى يكون حاملا علامة النصب على معنى (أستثني) وأن أداة الاستثناء (إلا) قد أبدلت بذلك الفعل، هو ما استرشد به بعض الدارسين المحدثين(23) في وضع قانون تحويلي ظن أنه يضبط به ظاهرة الاستثناء، فقد ضمنه، في الواقع، في قانون تحويلي، متسق مع المرحلة الأولى للنظرية التوليدية التحويلية، يعم ما أطلق عليه اصطلاح «الأفعال الخاصة»، ومن هذه الأفعال (أستثني). والحق أن القانون الذي صاغه الدارس إنما ينطلق من ذلك الرأي النحوي المشار إليه، أو أنه ـ على الأقل ـ يبدو كذلك، لأن فكرة وجود الفعل (أستثني) إنما كانت من المعنى المستفاد من استخدام (إلا)، يؤكد هذا أن معنى الاستثناء يمكن أن يحصل أحيانا بغير (إلا)، بيد أن العلامة الإعرابية، التي يحملها التركيب الإسمي الذي هو في المعنى مستثنى وليس قبله (إلا)، تكون حينذاك راجعة لسبب آخر، وهذا يعني أن العلامة الإعرابية في المستثنى بعد (إلا) تقوم على أساس آخر مختلف. من هنا يمكن عد هذا القانون قاصرا لأنه يتجاهل العلامة الأخرى الغالبة التي يكون عليها المستثنى في سياق كلام آخر، وهي العلامة المعتمدة ـ عند جمهور النحاة ـ على أساس الاتباع البدلي، وما قول النحاة بفكرة العامل (أستثني) إلا لتفسير النصب على وجه الاجمال.

لقد كان «الاستثناء» عند بعض الدارسين(24) هو الباب أو المعنى الذي تدل عليه علاقة «الإخراج» السياقية، والتي هي فرع على علاقة سياقية كبرى هي علاقة «التخصيص». وقد حاول الدارس المشار إليه أن يربط بين علامة النصب الإعرابية، التي تظهر

في التراكيب القائمة بوظيفة من الوظائف النحوية، وفروع علاقة «التخصيص» كلها(25)، ونص(26) على أن علامة النصب قرينة لفظية تبرز علاقة «الإخراج» كما تبرز غيرها ضمن علاقة «التخصيص». لكنه مع ذلك يشير(27) الى أن حركة نصب المستثنى المنقطع في سياق النفي تبرز قرينة المخالفة، أي مخالفة المستثنى للمستثنى منه من حيث كان الأول ـ في نظر بعض النحاة ـ من غير جنس الثاني. غير أن الدارس يقرر هنا أن قرينة المخالفة يمكن أن تؤدى بأكثر من قيمة خلافية كقيمة النصب المذكورة، لكنه لم يذكر علامة غير علامة النصب الإعرابية(28) التي قد يحملها التركيب القائم بوظيفة المستثنى. ولا أدري أكان سكوته عنها راجعا إلى حيرة في هذا الاختلاف في إعراب المستثنى، أم كان أخذا بالقول بالإبدال، والإبدال في نظر النحاة والباحث فرع على علاقة «التبعية»، وهي علاقة سياقية أخرى مختلفة عن علاقة «الإخراج»، وكلاهما (أي: «التبعية» و«الإخراج») يدل على معنى نحوي خاص. وسواء أكان الجواب الأول أم الثاني، فإن المستثنى عندهم جميعا متغير في إعرابه.

ـ 3 ـ

مداخل النحاة إلى إعراب المستثنى وقيمتها

ليس ببعيد أن يكون اختلاف أوضاع المستثنى الإعرابية هو ما دفع ببعض الباحثين المحدثين(29) إلى أن يهملوا نهائيا التطرق إلى علامات الإعراب (غير النصب) التي يحملها المستثنى في سياقات لغوية خاصة، وإلى أن يقتصروا على علامة النصب رغبة في التوحيد والتيسير، لكنهم بهذا يتوسلون لهذين الأمرين بالإجحاف بنصوص العربية التي تناهت كثرة، ويلجون بابا غير الباب.

لقد سلك النحاة القدماء مداخل متعددة لتفسير التغير العجيب في إعراب المستثنى، ولا أظن أن الخوض، في قضية إعراب المستثنى، يكتمل من غير مناقشة لتلك المداخل:

1 ـ اتباع المستثنى معطوفا عطف نسق:

إنه لمن الغريب أن يقول بعض الكوفية(30) بعطف المستثنى عطف نسق، إذ يبدو أن ما أملى مثل هذا الموقف هو رفضهم أن يكون المستثنى بدلا، وقولهم بتركب (إلا) من (أن) ـ مخففة ـ و(لا)، فالمستثنى عند عدم النصب معطوف بـ(لا) على ما قبله، وبالطبع فإن التركيب المعطوف عليه هو المستثنى منه.

إن التعاطف بين المستثنى والمستثنى منه مستحيل، في حقيقته، في سياق النفي من حيث كان المحكوم به للمستثنى منه غير ما حكم به للمستثنى، إذ من المعروف أنه، فيما سمي عند النحاة بعطف مقدر على مفرد، يجب أن يكون المحكوم به لكل من المعطوف والمعطوف عليه واحدا، ولذلك قالوا باشتراكهما في الحكم والعملَ (أي: عمل العامل). فقولنا مثلا:

(2) أ ـ حضر محمد وأحمد

ب ـ لم يصل محمد وأحمد،

يعني، في الحقيقة واستنادا إلى فكرة «عطف المفرد على المفرد» المشار إليها، أن التركيبات السابقة

هي - كما قال النحاة بذلك صراحة(31) - كما يلي :

(3) أ - حضر محمد وحضر أحمد

ب - لم يصل محمد ولم يصل أحمد .

فإذا ما عدنا إلى ادعاء عطف النسق في الاستثناء، وجدناه لا يستقيم من قبل أن (لا) - على فرض القبول بتركب (إلا) أو بأنها تستخدم حرف عطف بمثابة (لا) - لا يعطف بها إلا بشرط تقدم إيجاب عليها لا تقدم نفي(32)، فحين يقال مثلا :

(4) ما سلم المغادرون (إلا) علي،

فهو يعني، على القول بالعطف :

(5) ما سلم المغادرون (إن لا) لا سلم علي،

أي أن (عليا) حكم له بعدم التسليم، وهو خلاف ما يفيده أسلوب الاستثناء في المثال (4) .

في سياق الإيجاب، تحدث بعض النحاة(33) عن شبه (إلا) بأداة النفي العاطفة (لا) من حيث إن كلا منهما تخرج الثاني مما دخل فيه الأول، غير أنه ذكر من الفروق بين سياقي العطف بـ(لا) والاستثناء بـ(إلا) ما جعله لا يقول - على ما يبدو - بالعطف بـ(إلا)، بل إنه حين مثلّ بـ:

(6) قام القوم إلا زيدا

أبقى على (زيد) في حال نصب على الرغم من الرفع في (القوم)، وعقد المشابهة بالعطف بـ(لا) كما يلي: «فهي (أي: إلا) تشبه حرف نفي .. فالمعنى (يقصد في المثال السابق) : قام القوم لا زيد .. «حيث وقع (زيد) بدلاً بعد (لا) مرفوعا . وهذا يعني أنه لم يجعل ما بعد (إلا) معطوفا، ولو فعل لجعله رفعا تبعا لـ (القوم)، وعليه فقد كان من الحكمة قوله : « فالمعنى .. » .

2 - اتباعه على البدلية :

لا شك في أن بعض نحاة الكوفة كأبي العباس ثعلب(34)، كانوا محقين في اعتراضهم على إبدال المستثنى، عند جمهور البصرية، من المستثنى منه مستندين في اعتراضهم هذا إلى أن الأول (أي : المستثنى) موجب - في سياق كلام منفي متصل - وأن الثاني (أي: المستثنى منه) منفي، على التوالي . هذا الملحظ بالغ الأهمية في نسبة فكرة الإبدال إلى الضعف . ومن عجب أن السيرافي(35) يفسر الأمر على أنه «بدل منه في عمل العامل فيه» من غير نظر إلى اختلاف الحكم «فتخالفهما في النفي والإيجاب - كما يذكر الأشموني(36) مسوغا فهم السيرافي - لا يمنع البدلية» . وهذا يعني، من غير إسراف في الحكم، أن بعض النحاة - كالسيرافي في هذا السياق - كان يغيب عنهم حقيقة التركيب في ظاهرة الإبدال . وهذا في الواقع منطق غريب، أقصد : كيف يقال بالإبدال من غير إلقاء بال إلى حقائق التركيب وعناصره حين يوقعون ما بعد (إلا) موقع المستثنى منه ليتمكنوا من إيصال عمل العامل إلى المستثنى . هذا مع العلم بأن بعضهم(37) - كالسيرافي - يجري الإبدال على أن المستثنى وحده - من غير (إلا) - مبدل من المستثنى منه، متجاهلا وجود (إلا) كعنصر في التركيب ودالة من دوال المعنى . لعل هذا التفكير هو ما حمل بعض النحاة(38) على التصريح بأن البدل مكون من (إلا) والمستثنى معا، على الرغم مما يتصف به هذا من عدم التدقيق .

إن من الجدير بالملاحظة في هذا السياق أن بعض النحاة قد ربط(39) بين صحة إبدال المستثنى من المستثنى منه، وكون الأول من جنس الثاني - ولو على سبيل التغليب، فقولنا:

(7) أ - ما زارني أحد إلا رجل (بالرفع في المستثنى).

ب - ما جاءني أحد إلا حمار

أبدل فيه (رجل) من (أحد) (إذ الأول من جنس الثاني)، وأبدل (حمار) من (أحد)، على أن الأول من جنس الثاني على سبيل تغليب الآدميين. لكنه لم يفطن، أو لنقل لم يلق بال، إلى أنه، حتى يصح الإبدال، لابد من اتفاق طرفي الاستثناء فيما حكم به لكل منهما. وهذا غير وارد بالطبع.

إنه على الرغم من أن القول باتباع المستثنى، على البدلية في سياق النفي والاتصال، قد استحوذ على أفهام أكثر من عرض لباب الاستثناء، فقد كان النحاة غير متفقين في مسألة تعيين التركيب الواقع بدلا، كما سبقت الإشارة، ففي قولنا:

(8) ما أتاني أحد إلا زيد

وقعت (إلا) ومابعدها بدلا من (أحد) عند بعض النحاة(40)، لكن الأمر عند بعض آخر مختلف، فالبدل هو المستثنى وحده، من غير إشارة إلى (الأ)(41). ولقد أشار الصبان (42) إلى ما يراه بعض النحاة من وقوع المستثنى بدلا، وذكر أنه المشهور في المسألة، غير أنه ينسب إيقاع (إلاّ)، مع المستثنى، إلى المحققين من النحاة.

وإذا ما عملنا على تطبيق فكرة تبعية البدل للمبدل منه في الحكم والإعراب، أمكن تصوره (8) على النحو التالي:

(9) ما أتاني أحد ما أتاني إلاّ زيد

على أن (إلاّ زيد) كالكلمة الواحدة. ومن الضروري هنا ألا ينظر إلى عبارة (ما أتاني إلا زيد) على أنها من قبيل الاستثناء المفرغ(43). هي ليست كذلك لأجل وجود المبدل منه وهو (أحد). هذا، إذا ما قبلنا بفكرة الإبدال في الاستثناء.

حقيقة الإشكال هنا تكمن في عبارة (إلاّ زيد): ما هي؟ أهي مساوية (أحد) كما أن (ما أتاني)، المحكوم بها لـ (أحد)، مساوية لـ (ما أتاني)، المحكوم بها لـ (إلاّ زيد)؟ (إلا زيد) ليست في واقع الأمر مساوية لـ (أحد). الكلمة الصالحة لأن تساوي (أحد) هي في الواقع (زيد)، وليس (إلاّ زيد).، ولما كانت (أحد) في سياق النفي تعمّ، فهما بالتالي غير متساويتين، على الرغم من أن التساوي أحد شرائط الإبدال المطابق، وهذا يعني أنه لا (إلاّ زيد) ولا (زيد) - وحدهما - تصلحان أن تكونا بدلين مطابقين.

إذاً، تكون (إلا زيد) بدل بعض من (أحد)، التي قلنا إنها تعم في سياق النفي. ولما كنا ملزمين بالعودة إلى القول بأن (زيدا) وحدها هي الصالحة لأن تكون بدل بعض، فإن عبارة (إلا زيد) لا تصلح للإبدال.

على أنه قد يظن في (إلاّ زيد) صلاحية ذلك إذا كانت (إلا) بمعنى (غير)؛ عندها لا بد من التدقيق في المعنى الذي قد تفيده (غير) حين تستخدم في أسلوب الاستثناء. فحين نقول مثلا، مستخدمين

(غيرا) في موقع (إلاّ) :

(10) ما أتاني أحد غير زيد،

فإن (غير) تصلح أن تكون مستخدمة للاستثناء، فيكون (زيد) مستثنى بـ (غير) . وانطلاقا من قول النحاة برجحان الإبدال في شبه هذا المثال، فإن عبارة (غير زيد) تكون بدلا من (أحد) . ولما كان البدل ـ كما هو في بابه ـ لا يكون بدلا إلا بوجود المبدل منه، إذا يفترض أن (غير زيد) مطابق لـ (أحد) أو بعض منه.

وإذا سلمنا أنه يحكم للبدل عادة بما حكم به للمبدل منه، فإن التركيب الذي يقتضيه الإبدال المعروف يكون :

(11) ما أتاني أحدٌ ما أتاني غير زيد،

على أن (ما أتاني) حكم مسند لـ (غير زيد)، وهذا يعني أننا لا نثبت لـ (زيد) إتيانا، إذ هو ـ في المنطوق ٤٤) ـ مسكوت عنه. في حين يكون المعنى عند إرادة الاستثناء بالمثال نفسه، أي (10)، كالتالي :

(12) إسناد عدم الإتيان إلى كل أحد باستثناء زيد؛

وعليه، فإن منطوق الكلام يفيد نفي الإتيان عن كل أحد ويثبته لـ (زيد) ؛ وهذا المعنى المباشر متناف مع منطوق التركيب عند إرادة الإبدال.

أما إذا كان مراد النحاة بإبدال (إلاّ) مع ما بعدها (وهو الاتجاه الأول) الإحلال المكاني، أي : اختصار (8) و(10) إلى :

(13) ما أتاني إلا زيد،

(14) ما أتاني غير زيد

على أن (8)و(10) في منزلة واحدة مع (13 و(14)، إذا كان هذا مرادهم، فلطالما رددوا هذا وحسنوه واعتمدوه (45) . إلا أنه لا يسلم للنحاة أن يستندوا إلى هذا المعنى الإبدالي المخالف لما عليه ظاهرة الإبدال في بابها.

هذا كله إذا أخذنا بالاتجاه الأول في الإبدال في الاستثناء، وهو إبدال (إلاّ) مع ما بعدها. أما إذا كان معتمدنا هو إبدالَ ما بعد (إلاّ) فحسب، ففي ذلك من الإشكال ما فيه. إن ما بعد (إلاّ) إما موجب الحكم أو منفيه؛ وهو الأول في سياق النفي والتمام، ذلك السياق الذي يرجح النحاة اتباع المستثنى فيه على البدلية. إذا قلنا بالإبدال، حسب ما هو في بابه، وقعنا في الإشكال، إذ كيف يبدل الموجب من منفي؟ هذا التساؤل هو ما طرحه بعض نحاة الكوفة، فدفعهم إحساسهم بعدم الارتياح لهذا التصور إلى القول بغيره(46) كما سبقت الإشارة.

قد يكون بعض النحاة ممن يجري إبدال ما بعد (إلاّ) من المستثنى منه على سبيل الإحلال المكاني؛ بل إن بعضهم يعد هذا قسما قائما برأسه لم يسبق ذكره بين أقسام البدل المعينة فيه، ويرى أنه الوجه الحق(47) . على أنه ليس ثمة سبب يدفع إلى مثل هذا القول إلا الإحساس بأن الإبدال لا يكون كذلك إلا بوجود المبدل منه حسب ما تقضي بذلك أحكام البدل المعروفة في بابه. فإذا ما قبلنا بإجراء الإبدال على هذا الوجه، فلابد أننا سنجد بين أيدينا تركيبات غير نحوية أو متنافية مع المعنى المراد. فحين يقال :

(15) ما رأيت أحدا إلا زيدا (بالنصب - عند النحاة - على الإبدال)

فهذا يعني، عند الإبدال بالإحلال المكاني، التركيب التالي:

(16) ما رأيت زيدا إلاّ

إذ تبرز إلاّ في التركيب نحو ساذج غير أصولي، ويناقض معناه المتحصل المعنى المفهوم من (15). أما إذا كان المقصود بالإحلال إيقاع (إلاّ) مع الإسم بعدها موقع (أحدا)، فهذا يعني أن التركيب سوف يؤول إلى التفريغ، الذي سيفرد له حديث خاص والتفريغ اصطلاحا يقدم معنى تركيبيا مختلفا عن معنى (15) التركيبي، على سبيل المثال /

وأما إذا كان الهدف إيقاع ما بعد (إلاّ) موقع (أحد)، وحذف كل من (ما) و(إلاّ)، فإنه على الرغم من أن المعنى التركيبي الناتج، في المحصلة النهائية، هو إثبات وقوع الرؤية على (زيد)، فإن التركيب يكون ساعتئذ مختلفا تماما عن (15)، ونكون بذلك غير مكترثين لحقيقة التركيب الظاهر الذي يفترض بالحديث أن ينصبّ عليه.

هكذا، إذاً، تبدو فكرة القول بالإبدال، كمدخل لتفسير إعراب المستثنى، مفتقرة إلى التدقيق. ومما يقوي هذا الحكم ما نسب(48) إلى الكسائي من تجويز الرفع في (زيد) في مثل:

(17) ما قام إلا زيد.

وإن تعجب فعجب حمل بعض النحاة القراءة الشاذة(49):

(18) ﴿فشربوا منه إلاّ قليل منهم﴾(50)

بالرفع في (قليل) على الإبدال، مشترطين تأويل الفعل الموجَب (شربوا) على معنى (لم يكونوا مني) المتضمن نفيا. لعل الدافع إلى مثل هذا أن النحاة قد قالوا بالإبدال في سياق النفي ولم يقولوا به في السياق الموجب، الذي أوجبوا فيه النصب.

لاشك في أن المستثنى بعد (إلاّ) موجب في الكلام المنفي أو الشبيه به، ومنفي في غير ذلك، أي أن المستثنى - عند إرادة الاستثناء - مخالف حكم المستثنى منه في أي من السياقين. فإذا كان يمتنع الإبدال في سياق النفي، كان امتناعه في غير ذلك أولى، قياسا منطقيا، وبالتالي لم تكن بأبي حيان أو غيره حاجة إلى تأويل الفعل الموجب على نحو يتضمن نفيا. هذا، علاوة على أن تأويل الموجب بالمنفي يفتح بابا لا يغلق في تأويل المنفي بموجب على نحو من الأنحاء، فلا يبقى بالتالي مجال لاستمرار شيء على حاله(51).

على أن النحاة استندوا (52) - حين منعوا الإبدال عموما في سياق الإيجاب إلى أنه لا يجوز أن نقول، مثلا، عند الإبدال:

(19) شرب إلا قليل،

على التفريغ، كما يجوز في مثل:

(20) لم يشربوا إلا قليل.

حين نفرّغ فنقول:

(21) لم يشرب إلا قليل؛

لهذا اضطر أبو حيان إلى تأويل الموجب بالمتضمن نفيا.

ومما يقوي الحكم السابق بافتقار القول بالإبدال

إلى التدقيق أن المرء يدهش لما يذكره ابن يعيش(53) من أن الكوفيين يجيزون الإبدال على اللفظ بخفض في الإسم الواقع بعد (إلاّ) إذا كان نكرة، ولا يجيزون ذلك إذا كان معرفة؛ فيقال مثلا:

(22) أ ـ ما أتاني من أحد إلاّ رجل

ب ـ ما أنت بشيء إلا شيءٍ لا يستهان به،

بالخفض في (رجل)، وفي (شيء) الثانية. يدهش المرء لسماع هذا من قبل أنهم لم يلاحظوا أنه لو كان الإتباع البدلي مقبولا في المستثنى لكان جائزا فيه الخفض أو غيره لِمَا هو معروف في ظاهرة الإتباع البدلي من كون الحكمين الدلالي والإعرابي متطابقين في كل من البدل والمبدل منه. ولما كان ما بعد (إلا) ـ عند إرادة الاستثناء ـ مختلف الحكم عن المستثنى منه، كان إبدال المستثنى غير ممكن. وحين رفض البصريون الإتباع بالخفض، وحملوا على ما أسموه محل المتبوع، كان ذلك منهم استنادا إلى ملحظ بالغ الأهمية هو أن المخفوض بـ(من) أو بـ(الباء) ـ في المثالين (22 / أ وب) على التوالي ـ منفي، وما بعد (إلا) موجب، فخفضه بالتالي يفسد المعنى سواء أكان ما بعد (إلا) نكرة أم معرفة. وشبيهٌ بهذا حملهم(54) على محل المستثنى منه الواقع في نطاق (لا) التي لنفي الجنس في مثل:

(23) لا أحد فيها إلا زيد.

لكن فات البصريين وغيرهم أن يمنعوا الإبدال على المحل كما منعوه على اللفظ، فالمستثنى منه ـ تجوزا ـ متأثر بالنفي سواء أكان مجرورا بـ(من) أو (الباء) أم لم يكن. فإذا كانوا منعوا الإتباع على اللفظ لملحظ النفي، فالنفي قائم حتى عند القول بالإتباع على المحل. من هنا كانت ـ على ما يبدو ـ حيرة النحاة في تعيين مبدل منه في مثل:

(24) لا إله إلا الله.

فمنهم من جعل (55) لفظ (الله) بدلا من لفظ (إله) على أن التركيب مقدر كالتالي:

(25) ما في الوجود إله إلا الله.

ومنهم من أبدل(56) لفظ (الله) من موضع (لا) وما عملت فيه معا، في حين أبدله أبو حيان(57) من الضمير المستكن ـ في فهمه ـ في الخبر المحذوف المقدر بـ(كائن أو موجود). وينقل الأستاذ عضيمة(58) عن بعضهم أن الزمخشري يزعم أن الأصل في هذا القول هو:

(26) الله إله،

فحصل تقديم الخبر وإدخال النفي عليه والإيجاب على المبتدأ، ثم ركبت (إلا) مع الخبر. كل هذه الحيرة إنما أوقع النحاة فيها قولهم بالإبدال. وليس أيسر في هذا التركيب (أقصد (24)) من القول بأن لفظ (الله) مستثنى موجب رفع بـ(إلا) مخالفة لحكم النفي في المستثنى منه (إله). ولا عجب، إذاً، أن يحاروا(59) أمام إشكال القول بالإبدال عند تقديم المستثنى مع (إلا) على المستثني منه كما في:

(27) ما لي إلا أبوك أحد،

فمن قائل بعكس الوضع، وذلك بجعل (أبوك) ـ الذي كان بدلا ـ مبدلا منه، وجعل (أحد) ـ الذي كان مبدلا منه ـ بدلا، ومن معترض على هذا ومبق مثل لفظ (أبوك) بدلا لكن على نية التأخير، ومن مبدل (أحدا) المؤخر من (إلا) مع الإسم بعدها.

كل هذا التأويل في لغة لم يعدها النحاة مقيسة.

ولعلنا لا نكون مغالين إذا قلنا أن الكوفيين كانوا في الحقيقة مطبقين للحكم العام القائل بإبدال المستثنى من المستثنى منه بالخفض على الظاهر، في حين كان البصريون، برفضهم، خارجين على قاعدة الإبدال التي أقاموا صرحها. وإنه وإن كان رفض البصرية لإجراء الإبدال على اللفظ في مثل (22 / أ وب) صحيحا، فإنه، لم يشمل - والصحيح شموله - كل موضع قيل فيه بالإبدال، ذلك لأن استخدام (إلا) ليس من المواطن التي يصح فيها إبدال ما بعدها من شيء قبلها.

3 - اتباعه نعتا:

من الغريب أن حديث النحاة عن وقوع (إلا) مع ما بعدها نعتاً للمستثنى منه كان قليلا، واقتصر في تطبيقه على نصوص قليلة جدا، بل يمكن القول أن حملة النحاة (إلا) وما بعدها على الإتباع النعتي ما كان يمكن أن يكون لولا أنهم ووجهوا ببعض النصوص التي لم يستقم حمل الترحيب فيها على الاستثناء.

لا يفهم من حديث سيبويه(60) عن وقوع (إلا) نعتا ما يشير إلى اشتراط صحة وقوع الاستثناء أو اشتراط عدم ذلك، فقد احتج بما يصلح أن يقع استثناء ونعتا. كذلك لم يشترط - صراحة - مجيء الموصوف منكرا أو شبيها به، أو مجيئه جمعا أو شبهه، غير أنه مثلّ بالمنكر المفرد ليكون موصوفا كما في:

(28) لو كان معنا رجل إلا زيد لغُلبنا.

ومع هذا فقد اشترط بعض النحاة مثل ما سبق. يذكر ابن يعيش(61)، مثلا، «أنه لا يجوز أن تكون (إلا) صفة في الموضع الذي يجوز أن تكون فيه استثناء»، بل أضاف الشروط الباقية المذكورة آنفا. أما ابن الحاجب فقد رفض(62) وقوع النعت بها مع صحة الاستثناء، واشترط عكس ذلك، اشترط تعذر الاستثناء.

ولقد أشار الأستاذ عضيمة(63) إلى أن الظاهر من صنيع سيبويه أن الموصوف بـ(إلا) يكون نكرة، والموصوف إذا لم يكن نكرة صريحة، فهو شبيه بها من حيث أن إضافته إلى المعرفة - مثلا - لا تفيده تعريفا كلفظ (غير)؛ فقد احتج سيبويه على جواز وقوع النعت بـ(إلا) بما يلي:

(29) لو كان غيري، سليمى، اليوم غيّره
وقع الحوادث إلا الصارم الذكر(64)

فقوله (إلا الصارم...) يصلح نعتا من قوله (غيري).

قد يكون الموصوف كذلك نكرة غير صريحة من قبل أن ما اتصل به من (لام) ليس للتعريف ولكن للجنس.. ومما احتج به سيبويه علي مثل هذا قول الشاعر(65):

(30) أنيخت فألقت بلدة فوق بلدة
قليل بها الأصوات إلا بغامها.

فقد عد (إلا) - مع ما بعدها - نعتا لـ(الأصوات)؛ وهذا اللفظ نكرة في معناه لأن اللام فيه للجنس لا للتعريف. وبناء على هذا، فإن الأمر الوحيد الذي تؤيد النصوص كونه شرطا لوقوع (إلا) مع ما بعدها

نعتا هو مجيء الموصوف نكرة أو شبيها بها.

من المعروف أن حذف المنعوت وإقامة النعت مقامه ممكن وكثير، وهذا يعني أن يستخدم النعت استخدام المنعوت(66)، وهذا مما وقع كثيرا في القرآن الكريم وغيره، من ذلك:

(31) «وعندهم قاصرات الطرف عين»(67)،

أي: حور قاصرات..، ومنه قول الشاعر في قراءة(68):

(32) ربّاء شماء لا يأوى لقُلتها
إلا السحاب وإلا الأوْب والسَّبَل

أي: رجل رباء ربوة شماء. مثل هذا الحذف في المبدل منه غير ممكن، إذ بحذفه لا يتبين أن عنصرا قد حذف، بل لا يتبين أن في التركيب إبدالا، فقولنا مثلا:

(33) جاء محمد،

ليس فيه ما يشير إلى أن المقصود بـ(محمد) هو (أبو عبد الله)، مثلا. هذا الإيضاح لا يقوم إلا إذا اقترن الإسمان في التركيب.

إن ظهور النعت من المنعوت أمر يسير، فلفظ (الضالون) مثلا، في الآية الكريمة:

(34) «ومن يقنط من رحمة ربه إلا الظالون»(69).

قد وقع بعد (إلا) معها وصفا لإسم حذف ويمكن تقديره بـ(القوم)، مثل هذا المنعوت مذكور في اية أخرى هي:

(35) «فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين»(70).

ما قيل عن (غير)، من حيث صلاحيتها لأن تستخدم وصفا أو استثناء، ينطبق على (إلا) من قبل أنها تقع موقع (غير)، أو لأن (غيرا) تقع موقعها. ومن هنا نفهم لم لم يجز فيما بعد (إلا)، أقصد في المستثنى - شكلا - فيما دعي بالاستثناء المفرغ، إلا الإعراب حسب موقع (غير) أو موقع الإسم الذي بعد (إلا) من الجملة، أعني أن (غيرا) أو (إلا) مع ما بعدها قد وقعت وصفا للمستثنى منه قبل حذفه، وبالتالي كان التركيب بعد حذف المستثنى منه مفرغا. ولو أن (غيرا) أو (إلا) وما بعد إحداهما استخدمت استثناء، لما جاء التفريغ ولفسدت علاقة النعت التركيبية، فحين يقال مثلا:

(36) أكرمت إلا لئيما (أخذا بالتفريغ في الإيجاب)، أو

(37) ما قاتلت إلا عدوا،

فإن (لئيما) أو (عدوا) لا يمكن أن يكون مستثنى ومفعولا به في آن لتنافي قيامه بهاتين الوظيفتين النحويتين؛ فكونه مستثنى يعني أنه بينه وبين الفعل في المثالين علاقة تعدية من حيث كان ما بعد (إلا) مختلف الحكم - كما سبقت الإشارة - عن المستثنى منه، وكونه مفعولا به يعني أن علاقة تعدية قد قامت بينه وبين الفعل؛ وهذا يفيد بأن حكم ما قبل (إلا) قد طبق على ما بعدها.

ويتراءى لي أن أبرز ما لفت أنظار النحاة إلى فكرة وقوع (إلا) وما بعدها صفة هو وقوع ما بعدها حاملا غير علامة النصب على الاستثناء، في الوقت الذي لا يكون فيه السياق منفيا بحيث يحمل المستثنى على

الإبدال، وكذلك امتناع تفسير هذا المرفوع بعد (إلا) في بعض النصوص على الابتداء، وهو التفسير الذي كان يقول به بعض النحاة(71)؛ فالآية:

(38) لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا»(72).

ليس بالإمكان أن يفسر الرفع في لفظ (الله) فيها على الابتداء، كما أن لفظ (الله) مع (إلا) أو من غيرها لا يصلح أن يبدل عندهم - وعلى طريقتهم في الإبدال في سياق الاستثناء - من (آلهة)، أولا لأن السياق - عند بعضهم - ليس نفيا، إذ أن (لو) لا تفيده، وعليه فليس الإيجاب كلاما صالحا للابدال في سياقه(73)، وثانيا لأن المعنى يفسد، عند هؤلاء، بالإبدال. فابن يعيش(74) يرى المعنى فاسدا حين يقال:

(39) لو كان فيهما إلا الله لفسدتا.

ولا أدري كيف يتسرب الفساد إلى المعنى في هذا التركيب. حقا ليس المنطوق في (39) هو عينه في الآية، لكن عدم اتفاقهما في ذلك لا يؤدي على الإطلاق إلى فساد معنى أحدهما، وليس فساد المعنى أمرا ضروريا إن اختلف تركيباهما. قد يكون دافعهم إلى وصف المعنى بالفساد أننا حين نبدل، على النحو السابق كما يدعون، نكون قد أجرينا التفريغ في الإيجاب(75)، وهو ما لا يجيزه النحاة إجمالا. وإذا كان أحدنا يقول في هذه الآية بالإبدال - على ما هي أحكامه في بابه النحوي - فلن يكون هذا متأتيا من قِبَل أن ما بعد (إلا) - كما تكررت الإشارة إلى ذلك - ذو حكم مخالف لحكم المبدل منه. وإذا أريد ابدال (رلا) مع ما بعدها من (آلهة) على أن (إلا) بمعنى (غير)، فإنه يجب التنبه إلى أن هذا موضع تتبع فيه (غير) أو (إلا) - التي بمعناها - مع ما بعدها اتباعا وصفيا لا إبداليا، لسبب تيسر ملاحظته وهو أن حذف (آلهة) غير ممكن حين يبدل منها؛ إذ تنعدم ساعتئذ الدلالة على وقوع الإبدال أصلا، إذ لابد من ذكر كل من البدل والمبدل منه في التركيب. أما حذف الموصوف وإقامة الوصف مقامه فأمر كثير الحدوث لأن الوصف بحد ذاته مشعر بوجود الموصوف.

إن حمل (إلا) مع ما بعدها على النعت لا يؤدي إلى معنى غير صحيح في الآية السابقة، فمنطوق الآية حينئذ هو:

(40) وجود آلهة موصوفة بمغايرتها لله، في السموات والأرض، يفسدهما،

وهذا - عقيدة - معنى صحيح. أما مفهومها فيكون، على ذلك:

(41) وجود آلهة موصوفة بأنها غير مغايرة لله - في السموات والأرض - لا يفسدهما، أي: لو اتصفت الآلهة فيهما - على فرض وجودها - بما يتصف به الله، فلن تفسدا، وهذا معنى مقبول كذلك على فرض تحقق شرطه. في حين تنتج الآية مفهوما فاسدا لو حملت (إلا) فيها على الاستثناء(76)، فمفهومها وقتها هو التالي:

(42) وجود آلهة مع الله فيهما لا يفسدهما،

وهو فاسد على الرغم من أن منطوق الآية - محمولة على الاستثناء - غير فاسد، إذ هو:

(43) وجود آلهة باستثناء الله فيهما يفسدهما.

4 ـ مدخل التفريغ:

حين يخلو التركيب من المستثنى منه ـ وهو ما يقع فيما يسمى بالاستثناء المفرغ ـ لا يعود التركيب ـ بوضعه الذي يصير إليه ـ أسلوب استثناء، وهذا هو ما قصد إليه ابن يعيش(77) بتأكيده ضرورة وجود المستثنى منه حتى يصح معنى الاستثناء من حيث كان تخصيص صفة عامة. لكن الإشكال هو في أن بعض النحاة يرى(78) أن المستثنى منه مراد بعد حذفه، وأن حذفه لم يكن على سبيل ابدال «المستثنى» منه، على الحقيقة. فإذا كان المستثنى منه مرادا من حيث التركيب، فما تكون، إذا، قيمة التفريغ الذي قالوا به، والذي هو إعمال ما قبل (إلا) فيما بعدها حسب ما تقضي به الجملة(79)؟ إذ بوجود المستثنى منه لا يكون تركيب المستثنى ذا وظيفة متطابقة لوظيفته بعد الحذف. بمعنى آخر، تكون علاقة ما قبل (إلا) بما بعدها ـ في حال وجود المستثنى منه ـ غيرها في حال حذفه. أما اذا كان مرادا من حيث المعنى، فقد سبق التنويه بأن المعنى التركيبي (أي: المنطوق) المستفاد من مثل:

(44) ما محمد شيء إلا رسول

هو

(45) نفي كون (محمد) شيئا غير الرسالة،

في حين يكون معنى التركيب في مثل:

(46) ما محمد إلا رسول

هو:

(47) نفي كون (محمد) غير رسول.

فإذا كان (غير الرسالة) في (45) يصلح استثناء ووصفا، فإن (غير رسول) في (47) لا يصلح إلا لوظيفة واحدة كان يشغلها المستثنى منه قبل حذفه.

وبناء على هذا، فإن ما يسمى بالتفريغ في هذا السياق لا يقدم على الإطلاق أي سند للقائلين بإبدال المستثنى من المستثنى منه في حال النفي والتمام، ولكن يبقى التفريغ أسلوبا خاصا لا يتضمن في بنيته السطحية* استثناء على الرغم من كونه يسلك في عداد أساليب الاستثناء. على أنه لما كان ما بعد (إلا) يحمل علامة أو علامات إعرابية في أسلوب الاستثناء عموما، فقد كان لابد للنحاة أن يبينوا سببا لوجودها. ومن الطبيعي بالنسبة لهم أن يربطوا هذا بأحكام بنظرية العامل سواء أكان الاستثناء في سياق النفي أو الإيجاب أم في سياق النقص مع النفي، وهو ما أطلقوا عليه سياق التفريغ. إن ما بعد (إلا) في سياق التفريغ يؤدي، عند النحاة الوظيفة التي يؤديها في حال عدم وجود (إلا). وهذا ليس دقيقا؛ فما بعد (إلا) ليس هو العنصر الوحيد الذي يقوم بهذه الوظيفة، وانما هو، بالإضافة إلى (إلا) نفسها. إن علاقة التركيب الذي قبل (إلا) بما بعدها يجب أن تفهم مع الدلالة التي تقدمها أداة الاستثناء، لا بعيدا عنها؛ إذ ليس من الدقة أن يقال في مثل:

(48) «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»(80).

ان العلاقة بين التركيب الذي قبل (إلا) و(رحمة) علاقة العلية (الغائية)، فليس ذلك هو منطوق الآية. الآية في الواقع تنفي أن يكون الإرسال لغير الرحمة. أما كون الرحمة سببا للارسال ـ على

سبيل الحصر ـ فذلك مأخوذ من المفهوم؛ وعليه لابد أن تكون (إلا) ذات أثر واضح في المعنى التركيبي حين يكون من شأن مثل هذا المعنى أن يوضح علاقات عناصر التركيب. فإذا كان لأداة النفي أثرها في بيان هذا المعنى المباشر، فيجب أن يكون لـ(إلا) كذلك أثرها. لكن ما عليه النحاة أنهم يجعلون مثل (48) في منزلة تركيب ذكر فيه المستثنى منه، من ناحية، ومن ناحية أخرى يرون هذه الآية تؤدي في النهاية معنى التركيب التالي:

(49) أرسلناك رحمة للعالمين.

والحق أن ثمة فروقا، بين هذين التركيبين في البنية والمعنى، تقضي بعدم جواز النظر إليهما على أنهما شيء واحد، وإن كان بينهما قدر مشترك من الدلالة.

ويبدو أن النحاة لم يلاحظوا السبب في هذا التفريغ، أو لنقل الحال التي يجوز فيها التفريغ. لقد كان إدراك بعضهم بنية التفريغ الأصلية ناقصا، فقد قالوا(81) بوجود مستثنى منه في تلك البنية، غير أنهم حملوا ما بعد (إلا) فيها على الإبدال ـ وهو ما نراه ممتنعا بناء على ما سبق ـ أو على النصب على أصل الاستثناء، كما يقولون.

والحق أن الطريق لا يكون ممهدا للتفريغ إلا إذا أوقعنا (إلا) وما بعدها نعتا، وهذا يجلي لنا السبب الذي لأجله نفرق بين اتباع ما بعد (إلا) ـ معها أو من غيرها ـ اتباعا بدليا ـ وهو ممتنع في ضوء هذه الدراسة ـ واتباعهما اتباع وصف ـ وهو ما يطمئن إلى إمكان وقوعه في بعض السياقات، وإلى وجوب ذلك في سياقات أخرى.

إن (إلا) مع المستثنى الشكلي، فيما سمي بالاستثناء المفرغ، يقومان ـ في الحقيقة ـ بوظيفة نعت المستثنى منه الشكلي، وحين يحذف المستثنى منه تقوم (إلا) مع ما بعدها مقامه، ومن هنا يحكم على ما بعد (إلا) في هذا الأسلوب أن يحمل علامة إعرابية مطابقة للعلامة التي يفترض بالمستثنى منه ان يحملها.

إن مما يجدر ذكره هنا أن التفريغ ليس مقصورا على سياق النفي ـ وهو ما سبقت اليه الإشارة ـ في حين يكاد النحاة يجمعون(82) على منعه في الإيجاب. وقد جوز ابن الحاجب(83) التفريغ في الإيجاب ولكن على استحياء(84) وفي أضيق نطاق، في حين يوضح الأستاذ عضيمة(85) أنه قد كثر وقوع التفريغ في القرآن الكريم في سياق الإيجاب وعلى نحو جاء فيه الإثبات مؤكدا «مما يبعد تأويل هذا الثبات بنفي»، كما في:

(50) أ ـ «وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين»(86).

ب ـ «لتأتنني به إلا أن يحاط بكم»(87).

وحجتهم في منعه في الإيجاب أنه يؤدي إلى الإحالة إلا ما كان يؤدى منه فائدة بوقوعه فضلة(88). فقولنا مثلا:

(51) قرأت إلا يوم كذا

لا يحيل، لأنه يجوز أن نقرأ في جميع الأيام إلا يوم كذا، أما قولنا:

(52) ضربت إلا زيدا،

فإن من المحال أن يضرب جميع الناس إلا واحدا. وبناء على هذا الفهم لم يجوزوا وقوع التفريغ إلا في سياق النفي وكأنه لا يمكن حمل ما عدوه محالا في

الإيجاب على المبالغة كما هو كذلك في (51).

لما كان موقف النحاة من التفريغ في الإيجاب هو ما سبقت الإشارة إليه، فقد كانوا يرون أن من واجبهم إيضاح الحال الإعرابية التي يكون عليها ما بعد (إلا)، وهداهم تفكيرهم إلى القول بتأويل الموجب بمنفي ليقولوا في ما بعد (إلا) ما قالوه فيه في سياق النفي الصريح.

غير أنه لما كان التفريغ يقع في الإيجاب والنفي، فإن إعراب ما بعد (إلا) في الإيجاب كاعرابه في النفي؛ أقصد أنه مع (إلا)، وليس وحده، يقوم بالوظيفة التي يقتضيها التركيب.

فإذا كنا لا ننوي التخلي عن مصطلح التفريغ الذي وضعه النحاة الأقدمون، فلا يجوز أن نبقي له مدلوله السابق من غير أن نميل عليه بالتعديل. فمعناه الذي رأى النحاة هو: تفريغ ما قبل (إلا) للعمل فيما بعدها على ما يقتضيه التركيب وكأن (إلا) غير موجودة. أما معنى التفريغ الذي تقترحه هذه الدراسة فهو: إقامة العلاقة، التي يقتضيها التركيب، بين ما قبل (إلا) وبينها مع ما بعدها مباشرة؛ وبالتالي يكون كل من (إلا زيد) و(غير زيد) في:

(53) أ ـ ما أتاني إلا زيد،

ب ـ ما أتاني غير زيد

فاعلا للتركيب (أتاني). وهكذا يكون اسناد الإتيان لـ(زيد) ـ على سبيل الحصر ـ مستفادا من معنى المعنى.

نتيجة لما تقدم، لا يكون ما بعد (إلا) مستثنى، في التفريغ، وإنما هو في الأصل مع (إلا) أو (غير) وصف قام، في سياق التفريغ، مقام الموصوف، فحكم بالتالي لما بعد (إلا) أو (غير)، في المفهوم، عكس ما حكم به لتركيبي (إلا ...) و(غير...)، في المنطوق.

ويبدو أن السبب الذي لأجله قال النحاة بتفرغ ما قبل (إلا) للعمل فيما بعدها حسب ما يقتضيه التركيب أنهم عدوا(89) (إلا) مجرد فاصل بين مكونين في التركيب: كالمبتدأ والخبر، أو الصفة وموصوفها. لكن يبدو أن الأمر على غير ذلك. إن (إلا) مع ما بعدها بمثابة وحدة متماسكة ـ كما سبقت الإشارة. فإذا كان ابن يعيش قد اختزل مثل:

(54) ما زيد إلا قائم،

بناء على القول باستخدام (إلا) فاصلا في التفريع، إلى:

(55) زيد قائم،

فقد عقب على مثل هذا الاختزال بقوله(90): «لكن فائدة دخول (إلا) إثبات الخبر للأوّل ونفي خبر غيره عنه، والمستثنى منه كانه مقدر، والتقدير ما زيد شيء إلا قائم.» وهذا في الحقيقة عكس مفهوم التفريغ في هذه الدراسة. فابن يعيش يقصد إلى أن المنطوق هو اثبات القيام لـ(زيد)، غير أن هذا ليس هو على الدقة ما يفيده (54)، وانما يفيده ـ ضمن أمور اخرى ـ التقدير الذي ذكره ابن يعيش فيما اقتطف من كلامه. (54) يفيد إثبات القيام لـ(زيد) في المفهوم لا في المنطوق من قبل أن منطوقه، على عكس ما يذكر ابن يعيش، هو:

(56) نفي كون (زيد) غير قائم.

وليس من دقيق القول أنه «لا تنافي بين كون تالي (إلا) في التفريغ مستثنى، وكونه فاعلا أو مبتدأ - مثلا - في نحو ما قام إلا زيد وما زيد الا قائم، لأن الأول بالنظر إلى المعنى.. والثاني بالنظر إلى اللفظ»(91)، فمعنى التركيب المباشر إنما يؤخذ من البنية الظاهرة، أما ظلال المعنى فشيء لا يفيده التركيب الظاهر عادة، ولكن يعطيه معنى المعنى.

5 - مدخل اتصال المستثنى وانقطاعه(92):

سبقت الإشارة إلى أن النحاة، عموما، يكادون يوجبون نصب المستثنى إذا كان من غير جنس المستثنى منه في سياق النفي (93)، وإلى أن هذا كان ملحظا غير ذي اتصال وثيق بفكرة العامل في المستثنى، ولكن بكون النصب قرينة تبرز اختلاف المستثنى عن المستثنى منه في الجنس.

غير أن النحاة ظلوا مصرين على إرجاع النصب في المستثنى المنقطع إلى العامل اللفظي الذي لم يتفقوا بصدده. لم يقولوا في هذا النوع من المستثنى بالإتباع على البدلية على الرغم من أن قولا كهذا هو أولي لطرد القاعة في هذا النوع من المستثنى بالإتباع على البدلية على الرغم من أن قولا كهذا هو أولي لطرد القاعدة في هذا النوع من الاستثناء، وللإقلال من عدد القواعد التي تذكر في هذا الباب، خاصة أن المستثنى المنقطع أقرب إلى أن يقال فيه بالإبدال لأجل هذا الانقطاع. على العكس من هذا، فقد عدوا عدم النصب في مثل هذا المستثنى لغة غير مشهورة منسوبة لتميم(94).

مثل هذا الملحظ - وإن لم يكن خالصا من شائبة القول بالعمل النحوي - لم يقولوا به في إعراب المستثنى عندما يكون منقطعا في سياق الإيجاب؛ لم يقل أحد، مثلا، برفع هذا المستثنى في مقابل نصبه عندما يكون متصلا من حيث كان هذا الرفع، ولو من طرف خفي، قرينة لإبراز اختلاف جنسي المستثنى والمستثنى منه.

وعلى الرغم من أن النصب وغيره قد قيل بهما إعرابين للمستثنى في سياق النفي والتمام مع ما سموه بالانقطاع، فإن النحاة لم يحملوهما (أي النصب وغيره) على الجواز كما حملوهما على الجواز في سياق النفي والتمام مع ما دعوه بالاتصال. في الأول قالوا بالنصب على نحو شبه واجب ووصفوه بأنه لغة جميع العرب، في حين رجحوا في الثاني الإعراب على البدلية.

ليست مسألة الانقطاع في المستثنى مما اتفق على وقوعه، إذ يذكر الآمدي(95) أن علماء أصول الفقه وبعض النحاة قد اختلفوا في صحة الاستثناء من غير الجنس، وأن غير المجوزين عملوا على إيجاد الصلة بين المستثنى والمستثنى منه في بعض النصوص التي يبدو فيها أن المستثنى غير متصل، كما يقلون. إن كلا من الأشموني والصبان(96) يشير إلى إمكان حمل المستثنى على الاتصال بالمستثنى منه بنوع تفسير.

مهما يكن من أمر، فإنه يمكن تفسير النصب في المستثنى بعيدا عن القول بالانقطاع فيه، أولا، لأن الانقطاع - على فرض وقوعه - لم يكن ذا أثر في جعل إعراب المستثنى معه مختلفا عن إعرابه اذا كان متصلا في سياق الإيجاب(97)، ولأن الانقطاع،

ثانيا، ليس أما متفقا عليه، ولأن معظم النصوص التي تذكر في هذا المجال يمكن، ثالثا، ومن غير اعتساف في التأويل، أن يحمل المستثنى المنصوب فيها على ما يؤكد أن المستثنى في سياق النفي والتمام يكون مرفوعا، كما هو الأصل فيه ضمن هذا السياق وحسب ما ترى هذه الدراسة.

لاشك في أن النصوص التي تبدو غير متفقة مع ما تأخذ به هذه الدراسة جديرة منا بالنظر والتأمل:

أ) إن النصوص التي جاء فيها المستثنى مرفوعا، عديدة(98) على الرغم من الانقطاع المزعوم ومن القول بوجوب النصب، إلا على ما لم يشتهر من لغة. فإذا كان سيبويه(99) قد حمل الرفع في المستثنى في:

(57) في ليلة لا نرى بها أحدا

يحكي علينا إلا كواكبها(100)

على أن المستثنى مخرج من ضمير الرفع المستكن في (يحكي)، فإن صحة الاستثناء تقضي بأن يكون (كواكبها) مستثنى من (أحد) الموصوف بقوله (يحكي علينا) والواقع في سياق النفي، هذا الوصف من شأنه أن يجعل المستثنى منه غير مطلق. (كواكبها) المرفوع مستثنى إذاً من (أي أحد (موصوف بانه يحكي))، وقد وقع هذا المستثنى منه منصوبا.

ب) هذا، ويمكن النظر في النصوص، التي جاء فيها المستثنى حاملا علامة النصب، بناء على ما يلي:

1) هناك نصوص(101) استخدمت فيها (غير) أداة استثناء وهي، في العادة، تحمل العلامة الإعرابية التي يفترض بالمستثنى ان يحملها. من هذه النصوص:

(58) ولا عيب فهم غير أن سيوفهم

بهن فلول من قراع الكتائب(102)

(59) وما سجنوني غير أني ابن غالب

وأني من الأثرين غير الزعانف(103).

يغلب على الظن أن الفتح الظاهر في (غير) في البيتين ليس فتح نصب، ولكنه فتح ملتزم في (غير) إذا ما تليت بما يسمى (أن) المصدرية الناصبة أو بـ (أن) الناسخة. مثل هذا الالتزام قائم في لفظة نظيرة لـ(غير) هي (بيد) التي يلزم اضافتها إل (أن) الناسخة وصلتها(104). ذكر ابن هشام(105)، مثلا، أنه يجوز بناء (غير) على الفتح إذا أضيفت إلى مبني، ويستشهد بقول الشاعر(106):

(60) لم يمنع الشربَ منها غيرَ أن نطقت

حمامة في غصون ذات أوقالِ؛

اذ يرى أن (غيرا) قد بنيت على الفتح لأنها أضيفت إلى (أنْ) وصلتها على الرغم من أنه يفترض بـ(غير) ان تحمل علامة الرفع لأن التركيب مفرغ، وموقع (غير)في الشاهد الرفع على الفاعلية. ويذكر ابن يعيش(107) أن (غيرا) و(مثلا) قد أجريتا مجرى الظرف، اذ أضيفتا، في اكتسابهما البناء من المضاف اليه. وعلى الرغم من أن سيبويه يروي(108) الشاهد (60) بالرفع في (غير) كما يقتضي التركيب، فانه يشير(109) إلى رواية الفتح على ما سموه البناء.

هذا، وليس يقوى القولُ بالنصب في (59) على الاستثناء في سياق النفي مع الانقطاع من حيث كان ضمير النصب في (سجنوني) سيكون المستثنى منه. ان من الجيد القوي حمل النصب، ان لم نقل بالبناء، علي أن (غيرا) وما أضيفت اليه مفعول له؛ ومحقق كتاب سيبويه (110) يذكر أن المبرد يقول بالحمل على المفعول له. أما البيت التالي:

(61) ليس بيني وبين قيس عتابٌ
غيرُ طعن الكلى وضربِ الرقاب(111).

فان سيبويه(112) يذكر أن بني تميم ينشدونه بالرفع في (غير)، في حين ينصبه أهل الحجاز. أما ابن يعيش(113) فيرويه نصبا، ويذكر أن بين تميم يرفعون في (غير).

2) لقد سبق بيان أن حمل (إلاّ) وما بعدها على النعت، حين لا يكون المستثنى منصوبا على الاستثناء في سياق الإيجاب والتمام أو مرفوعا على الاستثناء كذلك في سياق النفي والتمام، مقبول ومقنع، وهو ما تأخذ به هذه الدراسة؛ وعليه فإنه يمكن الاستناد إلى هذا في تفسير النصب الواقع في المستثنى في سياق النفي وما سموه بالانقطاع، فعلى الرغم من ان طبعتين لديوان النابغة وكتابا عنه(114) يروى فيها ما بعد (إلاّ) في البيت التالي، في إحدى قصائده بالرفع:

(62) حلفتُ يمينا غيرَ ذي مثنوية
ولا علمَ إلاّ حسنُ ظن بصاحب

فإن سيبويه(115)، مثلا، يرويه بالنصب ويرجع هذا النصب فيه إلى أنه منقطع وليس من جنس العلم. وعلى الرغم من تجويز النحاة النعت بـ(إلاّ) مع ما بعدها، فان أحدا لم يقل بذلك في هذا النص على ما أعلم. ويحمل البيت على النعت يكون المعنى (ولا علم غير حسن...)، أي: ولا علم مغايرا حسن ظن..

على ما سبق أيضا يمكن حمل (إلاّ) وما بعدها في الآية الكريمة:

(63) ﴿قل لا أسالكم عليه أجرا إلاّ المودة في القربى﴾،

التي عد فيه المستثنى محتملا للاتصال والانقطاع(117).

3) ان كثيرا مما عد فيه النصب في المستثنى مبنيا على الانقطاع يمكن حمل الاستثناء فيه، بيسر ومن غير اعتساف، على التفريغ، اي: وقوع (إلاّ) مع ما بعدها حسب ما يقتضيه التركيب. فالآية الكريمة، التي يذكرها الأستاذ عضيمة(118) على أن الاستثناء فيها واقع في كلام منفي تام ومن غير إشارة إلى احتمال الاتصال والانقطاع، وهي:

(64) ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلاّ أماني﴾(119)

تحتمل الانقطاع حسب ما قيل من تفسيرات للفظة (أماني(120). لكن النصب في (أماني) ييسر حمله على أن التركيب، الذي هي فيه، مفرغ من قبل ان (يعلمون) هنا تصلح فعلا ناسخا ينصب، كما يقول النحاة، مفعولين أولهما: الكتاب، اما الثاني فقد حذف ولم يكن إلا موصوفا بـ(إلاّ) وما بعدها، وبحذفه اقيم وصفه مقامه، فصار المفعول الثاني، وعليه يكون التركيب في بنيته

العميقة كما يلي:

(65) ... لا يعلمون الكتاب علما غيرَ أماني، اي: مغايرا إلا أماني.

لقد عد النحاة(121) نصب (ابتغاء في الآية:

(66) «وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاءَ وجه ربه الأعلى»(122).

على الانقطاع لأنه ليس داخلا في لفظ (نعمة)، التي ينظر اليها على أنها اللفظ الأكثر مناسبة للاستثناء منه. والحق انه ليس هناك ما يحول دون حمل التركيب على التفريغ الذي جوزه الزمخشري بحمله ما بعد (إلاّ) على المفعول له علاوة على حمله النصب فيه على الانقطاع(123). إذاً، (إلاّ) وما بعدها يقومان بوظيفة المفعول له، تلك الوظيفة التي كان يشغلها الموصوف المحذوف، وعليه يكون المعنى التركيبي: (أنه لا يجزي نعمةً من النعم إلاّ لأجل ابتغاء رضا ربه)، أي: لغير ابتغاء.... ويكون معنى التركيب في الأصل: (أنه لا يجزى نعمة من النعم لغاية غير ابتغاء رضا ربه)، أي: لغاية مغايرة لابتغاء رضا ربه. وبهذا لا يكون النصب هنا مسببا على الانقطاع.

ومما يذكر على أن المستثنى فيه منصوب على الانقطاع(124) الآية الكريمة:

(67) ﴿ما لهم به من علم إلاّ اتباعَ الظن﴾(125)؛

أما الآية التالية:

(68) ﴿قل آيتك ألاّ تلكم الناس ثلاثة أيام إلاّ رمزا﴾(126).

فقد عد الأستاذ عضيمة(127) ما بعد (إلاّ) فيها مما يحتمل الانقطاع والاتصال في سياق النفي من حيث كان التكلم يشتمل أو لا يشتمل على الرمز.

والحق أن حمل (إلاّ) مع ما بعدها على التفريغ في (68) بعيد جدا عن التكلف، فتركيب (إلاّ رمزا) يصلح ان يكون وصفا لمفعول مطلق قبله يقدر مثلا بـ(تكليما)، على أن (إلاّ) فيه بمعنى (غير)، كما هو الأمر في كل نعت بـ(إلاّ)؛ ويكون ما تحت السطح، بالتالي، هو:

(69)... ألاّ تكلم الناس ثلاثة أيام تكليما إلا رمزا،

أي: تكليما غير رمز، أي: تكليماً مغايرا للرمز. فلما حذف المفعول االمطلق، قام وصفه مقامه فصار مفعولا مطلقا، وعلى ما سبق من فهم يمكن حمل (67)؛ فـ(إلاّ) مع ما بعدها محمول فيه اذاً على التفريغ من حيث أصبح مفعولا مطلقا بعد أن كان وصفا لمفعول مطلق. يذكر ابن يعيش(128) أن النصب في مثل قولنا:

(70) أ ـ إنما أنت سيرا سيرا

ب ـ ما أنت إلاّ قتلا قتلا

محمول على انه مفعول مطلق من حيث كان نائبا عن الفعل، وعليه يكون حمل (إلاّ) مع ما بعدها، في (67)، على المفعول المطلق من هذا الباب.

قد يتراءى لأحدنا، من النظر الأول، أن لفظ (حاجة) المنصوب والواقع بعد (إلاّ) في:

(71) «ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلاّ حاجةً في نفس

يعقوب قضاها ﴾(129) .

مستثنى من (شيء) المذكور قبل (إلاّ) ؛ فيكون الاستثناء بذلك تاما منقطعا في سياق نفي . لكن بعض النحاة المفسرين(130) وجدوا مجيء ما بعد (إلاّ) مفعولا له أمرا مقبولا ؛ هذا علاوة على احتمال القول بوقوع (إلاّ) مع ما بعدها نعتا لـ (شيء) اذا كان الإعراب على المحل (وهو النصب هنا) مأخوذا به(131) .

بمثل هذا التفسير غير المتجني نجنب قاعدتي النصب والرفع على الاستثناء في سياق الإيجاب والنفي على الترتيب، ان تكونا عرضة للخروج عليهما وشذوذ النصوص عنهما .

4) لكن ماذا عن الشواهد(132) التي لم يجئ فيها المستثنى مرفوعا في سياق النفي والتمام مع ما دعي بالاتصال، كما ترى هذه الدراسة، ووروده بعكس ذلك منصوبا؟

معلوم ان مجيء المستثنى حاملا علامة نصب في السياق المذكور مخالف لما يأخذ به هذا البحث من اعطاء المستثنى علامة رفع ما دام الاستثناء مرادا .

إن كثيرا من النصوص التي يبدو، للنظر الأول، أنها مخالفة لحكم رفع المستثنى في سياق النفي والتمام والاتصال يمكن من غير ما تجنّ ان تفهم على أساس التفريغ في التركيب، وبعض هذه النصوص هومما قال فيه النحاة الأقدمون بذلك . لنتأمل الآيات التالية :

(72) أ ـ ﴿ . . . فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾(133)

ب ـ ﴿ بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا ﴾(134)

ج ـ ﴿ فتلك مساكنهم لم تُسكن من بعدهم إلاّ قليلا ﴾(135)

فما بعد (إلاّ) فيها كلها احتمل، كما يذكر الأستاذ عضيمة(136) ، أن يكون مستثنى من لفظ اعم، ولذلك فان بعض النحاة، وهم يجيزون نصب المستثنى في مثل هذا السياق، رأوا(137) ان المستثنى منه هو (واو) الجماعة في الأول والثاني، و(مساكن) في الثالث .

غير أن أحد الباحثين(138) يضع (72) /أ) فيما يحتمل التفريغ، على أن ما بعد (إلاّ) فيه ـ وهو (قليلا) ـ منصوب على أنه مفعول مطلق . وابن كثير(139) يفسر الآية على نحو يجعل ما بعد (إلاّ) منصوبا على أنه مفعول مطلق . وعليه يكون المعنى في الأول (إلاّ ايمانا / قدرا قليلا) ، وفي الثاني (إلاّ فقها / قدرا قليلا) ، وفي الثالث (إلاّ سكنا / قدرا قليلا) .

ولما كانت هذه الدراسة تقف من تركيب التفريغ موقفا مغايرا بعض الشيء لموقف النحاة الأقدمين منه، فان الأمر يقتضي أن نجعل (إلاّ) مع ما بعدها في موقع المفعول المطلق، من حيث كان التركيب في الأصل قد استخدمت فيه (إلاّ) مع ما بعدها نعتا لمفعول مطلق حذف فقام النعت مقامه؛ فيكون منطوق الأول : نفي الإيمان غير القليل عنهم، ومنطوق الثاني : نفي الفقه غير القليل عنهم، ومنطوق الثالث : نفي السكنى غير القليلة في مساكنهم . وهذا يعني في المفهوم : نفي الإيمان الكثير عنهم، واثبات الإيمان القليل لهم؛ ونفي الفقه الكثير عنهم واثبات الفقه القليل لهم؛ ونفي

السكنى الطويلة في المساكن، واثبات القليلة فيها، على الترتيب. مثل هذا الحمل مقبول، بل هو لائق بالمعنى(140).

ما قيل من تفريغ في النصوص السابقة قال به عدد من النحاة المفسرين، بلا تردد، في:

(73) ﴿ ... ثم لا يجاورونك فيها إلاّ قليلا ﴾(141)؛

فالزمخشري(142) يعد (قليلا) ظرفا في حين يعدها أبو حيان(143) محتملة لتقع مفعولا مطلقا أو ظرف زمان.

ومن النصوص التي قال بعض النحاة(144) ان الاستثناء فيها وقع في سياق التمام والنفي والاتصال، مع أن المستثنى جاء نصبا، الآية:

(74) ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجدُ لك به علينا وكيلا. إلاّ رحمةً من ربك ﴾(145).

إلا أن هذا النص، كغيره من النصوص، ليس يستعصي على التفسير غير المتعسف، وذلك بأن يحمل على التفريغ. ولقد أشار بعض النحاة المفسرين(136) إلى إمكان حمل النصب في (رحمة) على أنها مفعول له او مفعول مطلق؛ وبالتالي لا تعود الآية نصا في الاعتراض على ما تذهب اليه هذه الدراسة.

إن بعض الشواهد لتبدو مشابهة لـ(74) من حيث نصب المستثنى في سياق نفي وتمام واتصال. هذا النصب يتعارض عموما مع قول هذه الدراسة بالرفع في مثل هذا السياق. من ذلك الشاهدان التاليان:

(75) أ ـ ﴿ لا يسمعون فيها لغوا إلاّ سلاما ﴾(147)،

ب ـ ﴿ لا يسمعون فيها لغوا ولا تاثيما. إلا قيل سلاما سلاما ﴾(148).

على أنه يمكن حمل كل منهما على التفريغ، أيضا، بالنظر إلى أن (إلاّ) مع ما بعدها، فيهما، مفعول مطلق او مفعول له؛ فاللغو في (75/أ) كلام، والسلام كذلك كلام من حيث يكون تسليما، اما اللغو في (75/ب) فكلام ايضا، وقيل السلام مثل ذلك. وعلى الرغم من أن مثل هذا الحمل ممكن، فإن حمل (إلاّ) مع ما بعدها على النعت ممكن كذلك(149) من قبل كانت (إلاّ) بمعنى (غير)، ومن جهة أن ما بعدها يحمل علامة المطابقة الإعرابية ما يصلح ان يكون منعوتا بها وما بعدها.

على أنه يشتبه وقوع ما بعد (إلاّ) نصبا، على الاستثناء المتصل في سياق نفي، في الآية:

(76) ﴿ لا يذوقون فيها الموت إلاّ الموتةَ الأولى ﴾(150).

غير أن الزمخشري(151) قدم مخرجا من المخارج المحتملة بحمله ما بعد (إلاّ) فيها على الظرفية من حيث كان الكلام مفرغا، وكان المستثنى منه المحذوف هو (أعمّ الأزمنة)، اي: البتة. ويومىء كلامه في:

(77) ﴿ أفما نحن بميتين. إلاّ موتتنا الأولى ﴾(152).

إلى أن (موتتنا..) محمول على ما حملت عليه الآية(76)، أي: على الظرفية. هكذا. إذاً، يكون

ترتيب (إلاّ) مع ما بعدها، لا (إلاّ) وحدها، قائما مقام الظرف المحذوف، بعد أن كان نعتا لذلك المحذوف. هذا على الرغم من صلاحية (إلاّ) مع ما بعدها في (76) أن يحملا على النعت من لفظ (الموت)، من حيث كان الكلام مفرغا.

5) هذا، وقد وقع في بعض الآيات أكثر من قراءة بحيث يعطى للإسم التالي لـ (إلاّ) في قراءة إعراب مختلف عنه في قراءة أخرى. فالآية التي تقول:

(78) ﴿ ما فعلوه إلاّ قليل / قليلا منهم ﴾(153).

عدت فيها (قليل) مستثناة من (واو) الجماعة في (فعلوه)، وأسندت لها قراءة الجمهور الرفع في حين حملتها احدى القراءات السبعية(154) علامة النصب.

واستنادا إلى ما قررته هذه الدراسة من اعتماد الرفع على الاستثناء في سياق النفي والتمام، فان الاختيار انما يقع على قراءة الرفع من غير قول بالإبدال الذي يذهب اليه معظم النحاة.

أما الآن فلننظر في الآية التالية:

(79) ﴿ فاسر بأهلك... ولا يلتفت منكم أحدٌ إلا امرأتُك ﴾(155)

فقد قرئت(156) بالرفع في (امرأتك) وبالنصب كذلك.

لاشك في أن نصب (امرأتك) على الاستثناء من (أحد) وهو واقع في سياق النفي لا يتفق مع ما تذهب اليه هذه الدراسة؛ اما الرفع فيها فهو، لا ريب، متوائم معه. غير أن بعض النحاة(157) كفونا مؤونة بيان أن (امرأتك)، بالنصب لا يجب ان يكون محمولا على الاستثناء من (أحد) في سياق النفي، وانما يحمل على الإخراج من (أهلك) الواقع في سياق الإيجاب. بل ان الصبان(158) يذكر أن بعضهم يرى المستثنى في قراءتي الرفع والنصب على الإخراج من (أهلك).

ولا يظنن ظان أن التعارض ينشأ، هنا، من القول باستثناء (امرأتك) من (أحد) أو من (أهلك)، اذ على الأول(159) لا يفترض ان تكون امرأته ممن أسري بهم، وان كانت معهم، ونهوا عن الالتفات باستثنائها؛ وعلى الثاني يكون الأمر بالإسراء بالأهل من غير امرأته؛ ففي كلا الحالين تكون امرأته غير مسرى بها.

استنادا إلى هذا، فإن بالإمكان اعمال قراءتي الرفع والنصب: الأولى على الإخراج من (أحد) في سياق النفي، والثانية على الاستثناء من (أهلك) في الإيجاب؛ ولا يبقى بالتالي في هذه الآية، بقراءتيها، خروج على ما هو مأخوذ به في هذه الدراسة. بناء على هذا يكون السياق الشبيه بالنفي في (ولا يلتفت منكم أحد) معترضا بين المستثنى منه (أهلك) والمستثنى مع الأداة (إلاّ امرأتك)؛ اي أن التركيب في الأصل هو:

(80) ﴿ انكم لذائقو العذاب الأليم. وما تجزون إلا ما كنتم تعلمون. إلا عباد الله المخلصين.

أولئك لهم رزق معلوم(160)؛

اذ إن عد المستثنى (عبادا)، في البنية الظاهرة، منصوبا بعد سياق منفي هو (وما تجزون ...)، يتعارض مع ما تعتمده هذه الدراسة خاصة أنه لا يمكن حمل (إلاّ) مع ما بعدها على النعت من شيء

قبلها. ان الحمل على الاستثناء من (أنكم لذائقو...)(161)، وهو سياق موجب، ليس معتسفا ولا متكلفا، بل انه حمل تتواءم فيه معاني الآيات على الرغم من وقوع سياق النفي (وما تجزون...) معترضا بين المستثنى منه والمستثنى.

ومما هو جدير بالذكر أن الآية الرابعة (أولئك لهم...) لائقة بالآية الثالثة ان على الاستثناء من السياق الموجب او السياق المنفي.

6) ان صنفا آخر من الشواهد، التي جاء فيها ما بعد (إلاّ) منصوبا في سياق النفي والتمام مع الاتصال، ليس من العسير حمله مع (إلاّ) على الإتباع النعتي، وبالتالي لا تكون هناك ضرورة للقول بجواز نصب المستثنى في مثل هذا السياق على أصل الاستثناء. لنتأمل ما يلي:

(82) أ ـ لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا. إلا طريقَ جهنم»(162)

ب ـ «ولا يخشون أحدا إلا اللهَ»(163)

ج ـ «ولن تجد من دونه ملتحدا. إلا بلاغا من الله ورسالاته»(164)

د ـ «لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا إلاّ حميما وغساقا»(165).

فإذا ما حملنا (إلاّ) على معنى (غير)، وهي كما سبق تأتي عليه، أصبح المعنى في (72/أ) مثلا:

(83)... ولا ليهديهم طريقا غير طريق جهنم.

أي: طريقا مغايرا طريق جهنم. وعلى مثل هذا تحمل بقية الشواهد المذكورة آنفا.

6 ـ مدخل تقديم المستثنى:

يفهم مما ينقله سيبويه(166) عن الخليل، من تفسير للنصب في المستثنى، اذا ما قدم ـ مع (إلاّ) ـ على المستثنى منه، يفهم أن النصب لم يكن إلاّ لإبراز مخالفة التركيب للمعهود في مثله؛ أي أن علامة النصب استخدمت قرينة على حصول المخالفة، وعلى أن المستثنى منه ليس بدلا من المستثنى المقدم. مثل هذا التفسير (أقصد: عد العلامات الإعرابية مستخدمة في بعض الأحيان لإبراز إرادة المخالفة) مقبول ابتداء؛ لكن لا يعني الأخذ به عدم صحة قاعدة الرفع على الاستثناء المزعومة في سياق النفي والتمام؛ لكن لا يعني الأخذ به عدم صحة قاعدة الرفع على الاستثناء المزعومة في سياق النفي والتمام؛ وعليه يكون النصب امرا عارضا عند التقديم.

على أن سيبويه يجيز بقاء المستثنى المتقدم على ما كان عليه من اعراب ولكن على أنه مبدل منه بعد أن كان بدلا، في نظره وأنظار النحاة غيره عموما، وان المستثنى منه بدل، ناسبا ذلك إلى بعض العرب الموثوق بهم.

ومما احتج به(167) على النصب ما يلي:

(84) وما ليَ إلاّ آلَ أحمدَ شيعةٌ
وما ليَ إلاّ مشعبَ الحق مشعبُ(168)

(85) والناس ألبٌّ علينا فيك ليس لنا
إلاّ السيوفَ وأطرافَ وزرُ(169).

هكذا، وقع المستثنى منه مرفوعا في كلا البيتين: فـ(مشعب) في الأول مبتدأ و(وزر) في الثاني اسم لـ(ليس)، كما يقول النحاة.

أما وقوع غير النصب في المستثنى المقدم، فما ذكر(170) له البيت التالي :

(86) فـانـهـمُ يـرجـون مـنـه شـفـاعـة
إذا لـم يـكـن إلاّ الـنـبـيـون شـافـعُ

إذ رفع المستثنى ورفعه مفسر عند النحاة على استمرار إبداله من المستثنى منه أو على إبدال الأخير من المستثنى، كما أشرنا إلى ذلك غير بعيد عن سيبويه. هل لنا، والحال هذه، أن نغلب النصب على غير ذلك مستندين إلى أن للأول شاهدين وللثاني شاهدا واحدا؟ في الحق لست أحس ميلا إلى التغليب اعتمادا على هذا الأساس الكمي الهزيل. اما النصب، مستخدما لإبراز معنى المخالفة، فمقبول من حيث الأساس، وهو لا ينقض الأخذ بالرفع في المستثنى، كما اشير، في سياق النفي؛ وأما الرفع في المستثنى المقدم، والذي يمدنا به الشاهد(86)، فانه يجري على ما تأخذ به هذه الدراسة، عموما. فاذا علمنا انه يروى(171) بالنصب في (النبيين)، كان الشاهد متوائما مع (84) و(85).

ليس هناك ما يحمل على تغليب النصب إلاّ القبول، أولا، بمبدأ استخدام العلامات الإعرابية لإظهار إرادة المخالفة، وهي المعنى الذي يفسر على أساسه النصب في سياق الإيجاب والتمام، والرفع في سياق النفي والتمام؛ من حيث كان حكم المستثنى في الأول إيجابا وبعكسه حكم المستثنى منه فيه، وكان حكمه في الثاني نفيا وبعكسه حكم المستثنى منه فيه. وأن مما يقوي استخدام النصب ـ عند تقديم المستثنى في سياق النفي ـ لإبراز معنى المخالفة أن المستثنى ـ عند التقديم وعند إرادة الاستثناء ـ يحمل علامة الرفع؛ فيكون النصب بالتالي لافتا للانتباه إلى التركيب غير المعهود فيه. يضاف إلى ما سبق، ثانيا، أن الإجماع أو شبهه قد انعقد ـ من لدن الخليل وسيبويه حتى متأخري النحاة ـ على القول بنصب المستثنى المقدم.

قد لا يكون السبب الثاني قويا بالقدر الذي يمكنه من الوقوف وحيدا لإثبات حكم من الأحكام؛ لكنه مع ذلك مما يؤنس به.

ـ 4 ـ

خاتمـــــة

على هذا النحو يمكن النظر في النصوص، ويكون في مكنتنا بالتالي أن نخلص إلى أنه ليس من عقبة حقيقية تعترض سبيل ما استقر في هذه الدراسة من مراجعات أدت إلى صوغ قواعد إعراب المستثنى الواقع بعد (إلاّ) على النسق التالي :

1 ـ ما بعد (إلاّ) ينصب فقط على الاستثناء، منفي الحكم، في سياق الإيجاب والتمام.

2 ـ ويرفع فقط على الاستثناء، موجب الحكم، في سياق النفي والتمام.

3 ـ تكون (إلا) بمعنى (غير)، وتحمل مع بعدها ـ جوازا على الإتباع النعتي من تركيب المستثنى منه، في أي من السياقين السابقين، ويكون مثل هذا الحمل واجبا حين تتخلف القاعدتان الأولى والثانية.

4 ـ تكون (إلاّ) بمعنى (غير) وتقوم مع ما بعدها، في تركيب التفريغ، بالوظيفة النحوية التي كان يقوم بها التركيب المحذوف قبل (إلاّ)، ويرث ما

بعد (إلاّ) إعراب ذلك التركيب المحذوف.

5 ـ ينصب المستثنى اذا وقع مع أداة الاستثناء قبل المستثنى منه، في سياق النفي والتمام.

6 ـ ليس لاتصال المستثنى أو انقطاعه اثر في إعرابه على نحو من الأنحاء السابقة.

الحواشي والتعليقات

1) هو نهاد الموسى في بحثه المرسوم بـ «النحو العربي بين النظرية والاستعمال ـ مثل من ظاهرة الاستثناء»، مجلة «دراسات» (الجامعة الاردنية): مجلد 6، عدد 2 1979، ص9 ـ 98.

2) ليس يصلح الإسم الواقع بعد (إلاّ) في هذا السياق ان يكون مستثنى، حقيقة، ومعربا إعرابه. ومع ذلك فانه لاباس من تسميته كذلك، على سبيل التجوز والاتساع.

3) ينظر مثلا: محمد بن علي الصبان، حاشية الصبان على شرح الأشموني: دار احياء الكتب العربية، مصر (غير مؤرخ)، 2 .155 في تعليقه على كلام الاشموني (شرحه 2/154 ـ 155) بوجوب نصب (غير) في نحو (قام القوم غير زيد).

4) سوف يكون لنا موقف من مسألة الإتباع في المستثنى ان في سياق النفي او الإيجاب.

5) انظر مثلا: الصبان، حاشيته 2/155.

ودار الرفاعي ـ السعودية 1979، 2/316،337؛

وينظر: علي بن محمد الأشموني، شرح الأشموني علي الفية ابن مالك (ضمن حاشية الصبان) دار احياء الكتب العربية، مصر(غير مؤرخ)، 2/144؛

وينظر: بهاء الدين بن عقيل، شرح ابن عقيل: المكتبة التجارية الكبرى، مصر 1948، 1/600،601،602.

7) سيبويه، الكتاب 2/320،321؛ وينظر: ابن عقيل، شرحه1/600.

8) سيبويه، الكتاب 2/320،321.

9) ينظر مثلا: شهاب الدين القرافي (ت 682)، الاستغناء في أحكام الاستثناء (بتحقيق طه محسن): وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد 1982،ص144 ـ149.

10) لقد دفع تضارب احكام المستثنى الإعرابية ببعض الدارسين المحدثين (مثل: عباس حسن، النحو الوافي/باب الاستثناء: دار المعارف. مصر 1963، 2/248،255) إلى التسوية في الاخذ ببعض أحكام إعراب المستثنى، ولو كانت مختلفة، فالقول بإبدال المستثنى ونصبه في النفي والاتصال جائز عنده من غير ترجيح لأحدهما على الآخر، والنصب والإبدال في الكلام المنفي المنقطع مساو أحدهما للآخر عنده في صحة الاخذ. هذه الأحكام دفعت بآخرين (مثل: نهاد الموسى في بحثه المنشور في مجلة «دراسات»، مجلد 6، عدد 2، ص 38 ـ48، نقلا عن ابراهيم مصطفى وآخرين) إلى تجاهل كل خلاف واختلاف في اعراب المستثنى، وإلى القول بالنصب فقط في أحواله كلها.

11) سيبويه، الكتاب2/311،315.

12) ينظر مثلا: موفق الدين بن يعيش، شرح المفصل: نسخة مصورة عن طبعة محمد منير، مصر 1928، عالم الكتب، بيروت، 76/6.

13) القرافي، الاستغناء ص 145، 146.

14) ابن يعيش، شرحه 2/76،77، وينظر: القرافي، الاستغناء ص 129 ـ 130 في الرد على هذا القول.

15) ابن يعيش، شرحه 2/77.

16) الاشموني، شرحه 2/143. هذا، وليس النحاة القدماء بدعافي القول بأن أحد العوامل قد يتقوى بغيره، فقد قال بما يشبهه بعض انصار نظرية العمل والربط (أو الربط العاملي)، حين قالوا بأن العامل في حالة الرفع في المسند اليه (الفاعل) هو علامات المطابقة (AGR)أو علامات المطابقة مرورا بالتصريف الفعلي (INFLECTION)، ينظر:

FRITS BEUKEMA AND PETER COOPMANS (1989): AGovernmennt -Binding Perspective on the imperative in English; in Journal of Iinguistics, Vol.25 No.2,Sep.1989.PP.427-8.

17) الصبان، حاشيته /143. هذا، ويرى تشومسكي أن الحالة الإعرابية يسندها للمركب الإسمي عامل، وان الأدوات عوامل لفظية تسند لما بعدها حالة إعرابية غير مباشرة (Oblique). وفي حالة المستثنى، فإنه استنادا إلى نظرية العمل النحوي والربط (Governement BindingTheory) تكون (إلا) هي العامل في المستثنى بعدها. اما العلامة الإعرابية قد يحملها المستثنى، فقد يكمن السبب فيه في الاختلاف في السياق الذي يرد فيه الاستثناء، أي أن (إلا) تقتضي فيما بعدها حالة إعرابية قد تمثلها علامة نصب أو علامة رفع تبعا للسياق. انظر:

Chomsky, N. (1981): Lectures on Government and Binding; Dorddrecht: Foris; PP.170-1.

18) الصبان، حاشيته 2/143.

19) السابق نفسه.

20) جلال الدين السيوطي، همع الهوا مع شرح جمع الجوامع

(بتحقيق: عبد العال سالم مكرم)، دار البحوث العلمية، الكويت 1977، 3/ 253.252.

21) ينظر: ابن يعيش، شرحه 2/ 87.

22) السابق2/ 76.

23) محمد الخولي، قواعد تحويلية للغة العربية: دار المريخ الرياض (198، ص 147.

24) ينظر: تمام حسان، اللغة العربية - معناها ومبناها: ط 3 الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1985، ص 194، 199 - 200.

25) وهو يربط على نحو جيد بين الإعراب - عموما - والوظائف النحوية التي تضطلع بها التركيبات في السياق اللغوي.

26) تمام حسان، اللغة العربية ص 199 - 201.

27) السابق نفسه ض 201.

28) من الجدير بالذكر هنا ان العلامة الإعرابية غير مقصورة، عند القول بإبدال المستثنى، على علامة الرفع، بل إن العلامات الأخرى ممكنة بالطبع في المستثنى تبعا للمستثنى منه الذي يعدونه ساعتئذ مبدلا منه.

29) ينظر: الحاشية رقم (10) فيما يخص نهاد الموسى.

30) ينظر: الاشموني، شرحه 2/ 145.

31) ينظر: ابن يعيش، شرحه 3/ 75.

32) ينظر: جمال الدين بن هشام الانصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (بتحقيق: مازن المبارك وزميله)، طه دار الفكر، بيروت 1979، ص 318.

33) ينظر: أبو بكر بن السراج، الاصول في النحو (بتحقيق: عبد الحسين الفتلي): ط مؤسسة الرسالة، بيروت 1985، 1/ 282.28.

34) ينظر: الاشموني، شرحه 2/ 145.

35) السابق نفسه

36) السابق نفسه

37) السابق نفسه

38) ينظر: الصبان، حاشيته 2/ 145.

39) عبد القاهر الجرجاني، كتاب المقتصد في شرح الإيضاح (بتحقيق: كاظم بحر المرجان) وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر بغداد 1982، 2/ 720.

40) السابق نفسه 2/ 712.702؛ وابن يعيش، شرحه 2/ 89.

41) ينظر مثلا: سيبويه، الكتاب 2/ 311، 313، والاشموني، شرحه 2/ 145، وأبو علي الفارسي، كتاب الإيضاح (ضمن كتاب المقتصد للجرجاني) 2/ 700.

42) الصبان، حاشيته 2/ 145.

43) من العسير ان نرجئ الإشارة إلى فكرة التفريغ عند الحديث عن الإبدال في سياق الاستثناء فلطالما امتزج الحديث عن التفريغ بالقول بإبدال المستثنى في سياق النفي.

44) المنطوق: هو المعنى التركيبي، اي: المعنى الذي يفيده مجموع الفاظ النص مباشرة.

45) ينظر مثلا: محمد بن يزيد المبرد، المقتضب (بتحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة)، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة 1388هـ، 4/ 389؛وأبو علي الفارسي، الإيضاح، 2/ 700، والجرجاني، كتاب المقتصد 2/ 702، وابن يعيش شرحه 2/ 93.

46) الاشموني، شرحه 2/ 145.

47) السيوطي، الهمع 3/ 254

48) السابق نفسه، ص 252.

49) ينظر مثلا: الصبان، حاشيته 2/ 142، وينظر في المعنى نفسه ص 144 من المصدر نفسه.

50) سورة البقرة (2)، اية 249.

51) عباس حسن، النحو الوافي 2/ 257

52) الاشموني، شرحه 2/ 150، والصبان حاشيته، 2/ 150

53) ابن يعيش، شرحه 2/ 91

54) ابو علي الفارسي، والجرجاني، كتاب المقتصد 2/ 705.704، والاشموني، شرحه 2/ 146، والصبان، ح حاشيته 2/ 146.

55) الصبان، حاشيته 2/ 146.

56) ابو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، إملاء ما منّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن (بتصحيح وتحقيق: ابراهيم عطوه عوض)، ط2 مصطفى البابي الحلبي، القاهرة 1969، 1/ 71؛

وينظر: محمد عبد الخالق عضيمة، دراسات لاسلوب القرآن الكريم: ط1 مطبعة السعادة القاهرة 1972، قسم 1ج 1/ 163.

57) أبو حيان محمد بن يوسف الاندلسي، تفسير البحر المحيط: دار الفكر، بيروت 1983. 1/ 463، وينظر: عضيمة، دراسات قسم 1ج 1/ 163.

58) عضيمة، دراسات قسم 1ج 1/ 164.

59) السيوطي، الهمع 3/ 257.256.

60) سيبويه، الكتاب 2/ 335.331.

61) ابن يعيش، شرحه 2/ 89_90

62) عثمان بن عمر بن الحاجب، كتاب الكافية في النحو (بشرح رضي الدين الاسترابادي): دار الكتب العلمية، بيروت 1982، 1/ 245.

63) عضيمة، دراسات قسم 1ج 1/ 154.

64) سيبويه، الكتاب 2/ 333؛ والبيت للبيد بن ربيعة العامري، ينظر: ديوان لبيد بن ربيعة العامري؛ دار صادر، بيروت 1966، ص57.

65) سيبويه، الكتاب 2/ 332، والبيت لذى الرمة (غيلان بن عقبة)، ينظر: ديوان ذي الرمة (بتحقيق: كارليل هنري هيس)، كمبردج 1919، ص 638

66) ينظر مثلا: ابن يعيش، شرحه 3/63.58.
67) سورة الصافات (37)، آية 48.
68) ينظر مثلا: ابن يعيش، شرحه 3/58، والبيت للمتنخل الهذلي (مالك بن عويمر)
69) سورة الحجر (15) اية 56.
70) سورة الانعام (6)، اية 77.
71) ينظر مثلا: الصبان، حاشيته 2/142.
72) سورة الأنبياء (21)، آية 22. وينظر: ابن هشام، المغني ص 99.
73) ينظر مثلا: القرافي، الاستغناء ص 331 ـ 332.
74) ابن يعيش، شرحه 2/89.
75) الجرجاني، كتاب المقتصد 2/712
76) ينظر: القرافي، الاستغناء ص 346، 350، 351، وابن هشام، المغني ص99، هذا ويرى ابن هشام ان الاستثناء غير ممكن من جهة اللفظ كما لم يجز من جهة المعنى، اما جهة المعنى فكما سبق البيان، واما اللفظ، فلان مايدعى مستثنى منه ـ شكلا ـ قد وقع في الآية (38) نكرة، وهذا لا يصلحه عنده لان يكون مستثنى منه؛ اذ لم تقع هذه النكرة في سياق نفي حتى تعم. هذا مع العلم أن بعض النحاة (ينظر: ابن يعيش، شرحه2/90.89) قالوا في الآية بجواز النعت والاستثناء، وقد جوز المبرد، كما يذكر ابن هشام (المغني ص 99)، الاستثناء والإبدال في هذه الآية محتجا بان (لو) «تدل على الامتناع، وامتناع الشيء انتفاؤه». والحق أن ما ذهب اليه المبرد يحمل على الاستغراب، اذ من العسير تصور الحال التي يمكن أن يكون عليها التركيب لو جيء بالنفي في سياق هذه الآية، فوجود النفي يجعل من المستحيل على النص حينئذ أداء المعنى، بل لا نكاد نجد وسيلة يضمن بها النص نفيا شريطة بقاء المعنى المواد.
77) ابن يعيش، شرحه 2/86.
78) السابق نفسه
79) السابق نفسه
*) هذا الاصطلاح، وغيره مثل البنية الظاهرة والبنية العميقة والمعنى التركيبي... الخ. من استخدامات النظرية التوليدية التحويلية.
80) سورة الانبياء (21)، آية 107
81) ينظر مثلا: الاشموني، شرحه 2/52.
82) ينظر مثلا: الاشموني، شرحه 2/149ـ150، والصبان، حاشيته 2/150؛ ولمزيد من التفصيل ينظر: عضيمة، دراسات قسم 1ج 1/172ـ187 حيث يستعرض مواقف النحاة والنحاة المفسرين من التفريغ في الإيجاب.
83) ابن الحاجب، الكافية 1/235،232
84) عضيمة، دراسات قسم 1ج 1/173.
85) السابق نفسه ص 185ـ 177.
86) سورة البقرة (2)، آية 45.
87) سورة يوسف 12٠)، آية 66.
88) الصبان، حاشيته 2/150
89) ينظر مثلا: ابن يعيش، شرحه 2/93
90) السابق نفسه.
91) الصبان، حاشيته 2/149.
92) يكون الحديث عن الاتصال والانقطاع في الاستثناء اذا كان المستثنى منه مذكورا. فاذا كان المستثنى من جنس المستثنى منه المذكور فهو متصل، واذا كان غير ذلك فهو منقطع. ينظر في تفصيل كثير في هذا: القرافي، الاستغناء ص496.382، ويقدم القرافي (383) صوغا جديدا فيه زيادة على تعريفي الاتصال والانقطاع، غير أنه ينطلق من الأساس الذي وضعه النحاة.
93) السيوطي، الهمع 3/255
94) السابق نفسه ص 256.
95) سيف الدين ابو الحسين علي بن محمد الآمدي، الاحكام في أصول الأحكام: دار الكتب العلمية، بيروت 1980، 2/464.426؛ وينظر كذلك: سيبويه الكتاب 2/323، وعضيمة، دراسات قسم 1ج 1/238.237.
96) الاشموني، شرحه 2/147، والصبان، حاشيته 2/147.
97) يذكر القرافي في الاستغناء اكثر من شاهد لم يكن فيه للانقطاع اثر في تغيير اعراب المستثنى في الإيجاب. ينظر مثلا: ص 457، 458، 468.
98) ينظر مثلا: سيبويه، الكتاب 2/312، 322 ـ 325، والاشموني، شرحه 2/147.
99) سيبويه، الكتاب 2/312، والصبان، حاشيته 2/146.
100) ابو الفرج الأصبهاني علي بن الحسين بن محمد، الأغاني: نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، دار احياء التراث العربي، القاهرة (غير مؤرخ)، 15/36 حيث ينسبه إلى احيحة بن الجلاح، وينظر: عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولي لباب لسان العرب: نسخة مصورة عن طبعة بولاق 1299 هـ، دار الثقافة، بيروت (غير مؤرخة) 2/20 حيث يؤكد نسبته للشاعر المذكور.
101) ينظر: سيبويه، الكتاب 2/326، 327.
102) البيت للنابغة الذبياني، ينظر: ديوان النابغة الذبياني: دار المعارف، القاهرة (غير مؤرخ)، ص 44.
103) البيت لهمام بن غالب (الفرزدق)، ينظر ديوان الفرزدق: الصاوي، القاهرة 1354 هـ ص 536.
104) ينظر مثلا: ابن هشام، المغني ص 155.
105) السابق نفسه ص 211، وينظر: القرافي، الاستغناء ص 182.
106) هو ابو قيس بن الأسلت (صيفي بن عامر)، وينسب لقيس بن

رفاعة، وللشماخ بن ضرار (وليس في ديوانه)، ينظر: البغدادي، الخزانة 2/46، 49 .

107) ابن يعيش، شرحه 3/81 .

108) سيبويه، الكتاب 2/329 .

109) السابق نفسه ص 330 .

110) السابق نفسه ص 327 حاشية رقم (3) .

111) ينسبه ابو عبد الله محمد بن عمران المرزباني في « معجم الشعراء » (بتحقيق عبد الستار احمد فراج) ص 70 لعمرو بن الايهم التغلبي .

112) سيبويه، الكتاب 2/323 .

113) ابن يعيش، شرحه 2/80 .

114) يروي البيت في ديوان النابغة: دار المعارف، القاهرة (غير مؤرخ)، ص 41 برفع (حسن)، وكذلك في ديوانه: الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية للتوزيع .

115) سيبويه، الكتاب 2/322 .

116) سورة الشورى (42)، آية 23 .

117) محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: دار الكتاب العربي، بيروت 1986، 3/402، وينظر: عضيمة، دراسات قسم 1 ج 1/ 266 .

118) عضيمة، دراسات قسم 1 ج 1/186 .

119) سورة البقرة (2)، آية 78 .

120) اسماعيل بن كثير القرشي، تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت 1969، 1/116 ـ 117 .

121) ينظر مثلا: ابن يعيش، شرحه 2/80 .

122) سورة الليل (92)، آية 19 ـ 20 .

123) الزمخشري، الكشاف 4/764 ـ 765، هذا، ويذكر الزمخشري ان لفظ « ابتغاء » يقرأ بالرفع من كذلك، وينظر ايضا: القرافي، الاستغناء ص 149 .

124) سيبويه، الكتاب 2/322، وابن يعيش، شرحه 2/80 .

125) سورة (4)، آية 157 .

126) سورة آل عمران (3)، آية 41 .

127) عضيمة، دراسات قسم 1 ج1/260 .

128) ابن يعيش، شرحه 1/15 .

129) سورة يوسف (12)، آية 68 .

130) الزمخشري يذكر في كشفه (2/489) ان المستثنى منقطع، لكن العكبري في تفسيره (2/56)، مثلا، جوزكون (حاجة) مفعولا به .

131) ينظر، مثلا، في إعراب المستثنى على موضع غيره: القرافي، الاستغناء ص 177 ـ 187 .

132) تجدر الإشارة هنا إلى ان الاستقراء الذي قام به الأستاذ عضيمة لأسلوب الاستثناء في القرآن الكريم (دراسات قسم 1 ج 1/136 ـ 288) قد اعان كثيرا في اعداد هذا البحث .

133) سورة النساء (4)، آية 46، 155 .

134) سورة الفتح (48)، آية 15 .

135) سورة القصص (28)، آية 58 .

136) عضيمة، دراسات قسم 1 ج 1/234 ـ 235 .

137) الزمخشري، الكشاف 1/518 .

138) عضيمة، دراسات قسم 1 ج 1/234 ـ 235 .

139) ابن كثير، تفسيره 1/507، 573 .

140) هذا، على الرغم من ان الشاهد (72/أ) يمكن حمل (إلا قليل) فيه على النصب على الاستثناء من « مساكنهم » في سياق الإيجاب والتمام مع الاتصال من حيث كان التركيب متصورا على النحو التالي: ((فتلك مساكنهم إلا قليلا لم تسكن من بعدهم))، وعلى هذا لا يكن الشاهد بحاجة إلى تاوبل النصب فيه .

141) سورة الأحزاب (33)، آية 60 .

142) الزمخشري، الكشاف 3/561 .

143) أبو حيان، البحر 7/251 .

144) الزمخشري، الكشاف 2/691 حيث يذكر أنه يمكن حمله على الانقطاع، وهذا يعني تحقق التمام من حيث كان المستثنى منه (وكيلا) .

145) سورة الإسراء (17)، آية 86 ـ 87 .

146) الزمخشري، الكشاف 2/691، وينظر القرافي،الاستغناء ص 475 .

147) سورة مريم (19)، آية 62 .

148) سورة الواقعة (56)، آية 25 ـ 26 .

149) ينظر: القرافي، الاستغناء ص 488 .

150) سورة الدخان (44)، آية 56 .

151) الزمخشري، الكشاف 4/283 .

152) سورة الصافات (37)، آية 58 ـ 59، وينظر: الزمخشري، الكشاف 4/45 .

153) سورة النساء (4)، آية 66 .

154) ينظر محمد بن الجزري، النشر في القراءات العشر (بعناية علي محمد الضباع): دار الكتاب العربي، بيروت (غير مؤرخ)، 3/250 .

155) سورة هود (11)، آية 81 .

156) ابن الجزري، النشر 2/290 .

157) الصبان، حاشيته 2/146، وينظر كذلك: القرافي، الاستغناء ص 415 ـ 416 .

158) الصبان، حاشيته 2/146 .

159) السابق نفسه .

160) سورة الصافات (37)، آية 38 ـ 41، وينظر الزمخشري، الكشاف 4/42.

161) ينظر: ابن كثير، تفسيره 4/6.

162) سورة النساء (4)، آية 168 ـ 169.

163) سورة الأحزاب (33)، آية 39.

164) سورة الجن (72)، آية 22 ـ 23.

165) سورة النبأ (78)، آية 24 ـ 25.

166) سيبويه، الكتاب 2/335 ـ 336، 337.

167) ينظر مثلا: سيبويه، الكتاب 2/336، وابن يعيش، شرحه 2/79، وابن عقيل، شرحه 1/601.

168) ينسبه ابن هشام في شرح شذوذ الذهب في معرفة كلام العرب: ط. 10 المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة 1965، ص 263 للكميت بن زيد، وليس في ديوانه.

169) ينسب في كتاب سيبويه (2/335) لكعب بن مالك.

170) ابن عقيل، شرحه 1/602.

171) حسان بن ثابت الأنصاري، ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، دار صادر، بيروت (غير مؤرخ)، ص 148.

إفادات التقديم وأشكاله الدلالية

(قراءة في بعض التشكيلات والأغراض ذات الطابع المعنوي)

الدكتور / رشيد أحمد بلحبيب(*)

تقديم : اختلاف دلالة التركيب بالتقديم والتأخير :

لقد أصبح من المسلم به أن معنى الجملة ليس هو مجموع معاني المفردات التي تتألف منها بل هو حصيلة تركيب هذه المفردات في نمط معين حسب قواعد لغوية محددة تماما كما أن الساعة مثلا، ليست مجموع القطع المعدنية التي تتألف منها وإنما هي آلة تتكون من هذه القطع حسب قواعد معدنية لتؤدي وظيفة لا تؤديها أي من القطع وحدها ولا تؤديها كل القطع مجتمعة إلا إذا ركبت بطريقة محددة(1).

لأن نسق الجملة وكيفية ترتيب الأجزاء فيها مما ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار، يقول الجرجاني : « وإن أردت أن ترى ذلك عيانا فاعمد إلى أي كلام شئت وأزل أجزاءه عن مواضعها وضعها وضعا يمتنع معه دخول شيء من معاني النحو فيها فقل في:

قفَا نبكِ مِنْ ذِكرَى حبيبٍ ومنزلِ *

(من نبك قفا حبيب ذكرى منزل) ثم انظر هل يتعلق منك فكر بمعنى كلمة منها(2) ذلك لأن المعنى إنما يتولد فقط من ترتيب الألفاظ والعبارات(3) والمعاني هي معاني النحو بالتقديم والتأخير كما يقرر ذلك «السيرافي»(4).

ومعنى هذا أن لكل تركيب نظمه وترتيبه ومواقع ألفاظه، وقد صرح «باسكال» بأن الكلمات المختلفة الترتيب يكون لها معنى مختلف وأن المعاني المختلفة الترتيب يكون لها تأثيرات مختلفة أيضا(5).

إن تقديم ما هو متأخر وتأخير ما هو متقدم لمناسبة تقتضي ذلك جائز لا مشاحة فيه(6) وهذا الجواز ليس مجانيا بل ما من مقدم أو مؤخر يزال عن موضعه إلا ويترك ظلالا معنوية يخالف الوضع الثاني فيها الوضع الأول ومن ثم كان تقسيم التقديم إلى مفيد وغير مفيد مما أثار حفيظة الجرجاني حيث حاول حسم هذه المسالة بقوله: « واعلم أن من الخطإ أن يقسم الأمر في تقديم الشيء وتأخيرِه قسمين،

(*) كلية الآداب والعلوم الانسانية ـ جامعة محمد الاول ـ وجدة (المغرب)

فيجعل مفيدا في بعض الكلام وغير مفيد في بعض وأن يعلل تارة بالعناية وأخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب حتى تطرد لهذا قوافيه ولذلك سجعه ذاك لأن من البعيد أن يكون في جملة النظم ما يدل تارة ولا يدل أخرى، فمتى ثبت في تقديم المفعول مثلا على الفعل في كثير من الكلام أنه قد اختص بفائدة لا تكون تلك الفائدة مع التأخير، فقد وجب أن تكون تلك قضية في كل شيء وفي كل حال، ومن سبيل من يجعل التقديم وترك التقديم سواء أن يدعي أنه كذلك في عموم الأحوال، فأما أن يجعله شريجين فيزعم أنه للفائدة في بعضها وللتصرف في اللفظ من غير معنى في بعض فمما ينبغي أن يرغب عن القول به »(7).

ويقول في موضع آخر: « ثم انظر إلى قول العرب: (ليس الطيِّب إلا المسك)

وقول جرير: ألستم خيرَ من ركبَ المطايَا

ونحو قول المتنبي: ألستَ ابن الأُلَى سعِدُوا وسَادُوا

وأشباه ذلك مما لا يحصى ولا يعد وأرد المعنى على أن يسلم لك مع قلب طرفي الجملة وقل: (ليس المسك إلا الطيب) و(أليس خير من ركب المطايا إياكم) و(أليس ابن الألى سعدوا وسادوا إياك)، تعلم أن الأمر على ما عرفتك من وجوب اختلاف المعنى بحسب التقديم والتأخير(8).

ولقوة هذا الأمر كان الطبري ـ وهو يرى أن التقديم يكون مفيدا وغير مفيد، يجد في نفسه شيئا يمنعه من التصريح بأن تقديم إحدى الجملتين على الأخرى كتأخيرها عنها وذلك في قوله تعالى (إِيَّاكَ نعبدُ وإِيَّاكَ نستعينُ) [الفاتحة /4](9).

لقد حاول البلاغيون التدليل على اختلاف الدلالات باختلاف التراكيب بالتقديم والتأخير واجتهدوا في بيان الفروق الدقيقة بين عبارات أصبحت رائجة في مصادرهم قديمها وحديثها من مثل: « زيداً ضربتُ » و« ضربتُ زيداً »، و« زيدٌ المنطلقُ » و« المنطلقُ زيدٌ » و« الحبيبُ أنتَ » و« أنتَ الحبيبُ » و« جَاء زيدٌ ضاحكاً » و« جَاءَ ضاحكاً زيدٌ ».

* « زيداً ضربتُ » و« ضربتُ زيداً » عبارتان ليستا بمعنى واحد « فإن في قولك »زيداً ضربتُ» تخصيصا له بالضرب دون غيره، بخلاف قولك: « ضربتُ زيداً » وبيانه هو أنك إذا قدمت الفعل فإنك تكون بالخيار في إيقاعه على أي مفعول أردت بأن تقول: « ضربتُ زيداً » أو عمراً أو بكراً أو خالداً، وإذا أخرت الفعل وقدمت مفعوله فإنه يلزم الاختصاص للمفعول على أنك لم تضرب أحدا سواه(10).

* « زيدٌ المنطلقُ » و« المنطلقُ زيدٌ ».

وأما قولنا « المنطلق زيدٌ » والفرق بينه وبين أن تقول « زيدٌ المنطلقُ »، فالقول في ذلك أنك وإن كنت ترى في الظاهر أنهما سواء من حيث كان الغرض في الحالين إثبات انطلاق قد سبق العلم به لزيد، فليس الأمر كذلك. بل بين الكلامين فصل ظاهر وبيانه: أنك إذا قلت: « زيدٌ المنطلقُ » فانت في حديث انطلاق قد كان وعرف السامع كونه، إلا أنه لم يعلم أمن زيد كان أم من عمرو، فإذا قلت « زيد المنطلق » أزلت عنه الشك وجعلته يقطع بأنه كان من زيد بعد أن كان يرى ذلك على سبيل الجواز ـ وليس. كذلك إذا قدمت « المنطلق »، فقلت: « المنطلق

زيد »، بل يكون المعنى حينئذ على أنك رأيت إنسانا ينطلق بالبعد منك، فلم تثبته ولم تعلم أزيد هو أم عمرو، فقال لك صاحبك: « المنطلق زيد »، أي هذا الشخص الذي تراه من بُعد هو زيد(11).

قال الخوارزمي وأما زيد المنطلق فكلام مع من سمع بزيد ولا يعرفه بعينه فيعرفه كأنه يقول: زيد هذا المنطلق، وأما المنطلق زيد فكلام مع من سمع بالمنطلق ولا يعرفه فتعرفه إياه(12).

* « الحبيبُ أنتَ » و« أنتَ الحبيبُ »:

ومما يدل دلالة واضحة على اختلاف المعنى - إذا جئت بمعرفتين ثم جعلت هذا مبتدإ وذاك خبراً تارة وتارة بالعكس قولهم: « الحبيب أنت وأنت الحبيب »، وذلك أن معنى: « الحبيب أنت » أنه لا فصل بينك وبين من تحبه إذا صدقت المحبة، وأن مثل المتحابين مثل نفس يقتسمها شخصان كما جاء عن بعض الحكماء أنه قال: « الحبيب أنت إلا أنه غيرك » فهذا كما ترى فرق لطيف ونكتة شريفة، ولو حاولت أن تفيدها بقولك: « أنت الحبيب » حاولت ما لا يصح، لأن الذي يعقل من قولك: « أنت الحبيب » هو ما عناه المتنبي في قوله:

أنتَ الحبيبُ ولكنّي أعوذُ بِهِ
من أنْ أكونَ مُحباً غيرَ محبوبِ

ولا يخفى بُعد ما بين الغرضين.

فالمعنى في قولك: « أنت الحبيب » أنك الذي اختصه بالمحبة من بين الناس، وإذا كان كذلك عرفت أن الفرق واجب أبدا وأنه لا يجوز أن يكون « أخوك زيد » و« زيد أخوك » بمعنى واحد(13).

* جاءَ ضاحكاً زيدٌ « وجاءَ زيدٌ ضاحكاً »

فإنك إذا قدمت الحال فقلت: « جاء ضاحكاً زيد »، فإنه جاء على هذه الصفة مختصا بها من غيرها من سائر صفاته بخلاف ما لو قلت: « جاء زيد ضاحكا »، فإنه كما يجوز أن يجيء على هذه الصفة فإنه يجوز مجيئه على غيرها من الصفات فافترقا(14).

لقد أثارت محاولات البلاغيين التمييز بين هذه الأزواج من العبارات بعض الدارسين من أمثال إبراهيم أنيس الذي قال عن الجرجاني: « وقد حاول عبد القاهر الجرجاني أن يفرق بين مثلين من صنعه هما: « زيد المنطلق » و« المنطلق زيد » فلقي من العنت والمشقة ما أجهده وأجهدنا معه، ويظهر أن صعوبة تمييز المسند من المسند إليه في مثل هذه الجمل هو الذي ألجأ عبد القاهر وغيره إلى تكلف الشطط في علاجها »(15).

وحاول حسم هذه المسألة بقوله إن هذه المزاوجات « لا تعدو أن تكون أمر أسلوب إذ لا يكاد المعنى يختلف بتأخير أحدهما أو تقديمه »(16).

ولعل إبراهيم أنيس حين أصدر حكمه هذا كان واقعا تحت تأثير التصور النحوي الذي لا شأن له بالدلالات الجزئية « فالمعنى لا يختلف سواء قدمنا أو أخرنا بينما يحدث التغيير في الدلالة ذاتها ففي قوله تعالى (وجَعَلُوا لله شُركاءَ الجنَّ) [الأنعام/101] وجدنا المعنى العام أنهم جعلوا الجن شركاء وعبدوهم مع الله، أما الدلالة فتاتي من وراء الصياغة الإبداعية في التقديم والتأخير(17).

ولهذا لم يستطع برجشتراسر أن يقف عند حدود

قوله: «والأقرب إلى الاحتمال هو أن يكون معنى زيد جاء عين معنى جاء زيد» بل اعترف بالفرق في قوله: «وإنما الفرق بينهما أني إذا قلت: «جاء زيد» أخبرت عن مجيئه إخبارا محضا ولا يخالطه شيء غيره، فتقديم الفعل هو العبارة المألوفة، وإذا قلت: «زيد جاء» كان مرادي أن أنبه به السامع إلى أن الذي جاء هو زيد، كأني قلت: زيد جاء لا غيره.

فتقديم الفاعل عبارة عن أن الأهم كون زيد هو الفاعل لا كونه فعل الفعل، وما ينبه به السامع على هذا المعنى شيئان:

الأول: تغيير الترتيب العادي، فكل شيء يخالف العادة هو أكثر تأثيرا في الفهم من المألوف.

والثاني: أن أول كلمة في الجملة هي على العموم المضغوطة في اللغة العربية إذا صرفنا نظرنا عما تبتدىء به الجملة من الأدوات كإن وأخواتها إلى غير ذلك(18).

فلم يجد بدا من الاعتراف بهذه الفروق الدلالية الدقيقة وإرجاعها إلى تغبير الترتيب الذي يجعل بداية الجملة مضغوطة مُعتنى بشأنها، وهذا الضغط هو ما سماه تمام حسان «بالمعنى الشأني» أو «البؤري»(19) وهو ما يفهم من تحديد بؤرة الاهتمام بمضمون اللفظ بواسطة التقديم والتأخير.

يمكن أن نستخلص مما سبق أن أي تغيير في النظام التركيبي للجملة يترتب عليه بالضرورة تغير الدلالة وانتقالها من مستوى إلى مستوى آخر، وملاك ذلك كله وتمامه الجامع له - كما ينص عليه البلاغيون ويلخصه الجرجاني - صحة الطبع وإدمان الرياضة فإنهما أمران ما اجتمعا في شخص فقصرا في إيصال صاحبهما عن غايته ورضيا له بدون نهايته - وأقل الناس حظا في هذه الصناعة.. لا يعبأ باختلاف الترتيب واضطراب النظم وسوء التأليف.. ولا يقابل بين الألفاظ ومعانيها ولا يسبر ما بينهما من نسب ولا يمتحن ما يجتمعان فيه من سبب(20).

علل التقديم وإفادته:

لقد كان الدارسون قبل عبد القاهر يكتفي أكثرهم ببيان أصل العبارة في دراسة التقديم دون أن يحاولوا الكشف عن المعاني الإضافية للنصوص المختلفة بإدراك جانب من العلاقات الداخلية، فالفرّاء - مثلا - لا يتجاوز تلك النظرة المحدودة التي تحصر التقديم والتأخير في وضع كلمة موضع الأخرى، وتبادل مكان الكلمتين فتفسح إحداهما مكانها للأخرى كأن يقول في قوله تعالى: (ولولاَ كلمةٌ سبقَتْ من ربّكَ لكانَ لِزاماً وأجلٌ مُسَمّى) [طه127] يريد: ولولا كلمة وأجل مسمى لكان لزاما مقدم ومؤخر(21).

وقد سار على هذا النهج كل من أبي عبيدة في مجاز القرآن(22) وابن فارس(23) والثعالبي(24) دون أن يقفوا على الأسرار البلاغية والدلالية لأسلوب التقديم والتأخير.

وكذلك فعل ابن قتيبة حيث قال: «ومن المقدم والمؤخر قوله تعالى (الحمدُ لله الذي أنزلَ على عبده الكتابَ ولم يجعلْ لهُ عوجاً قَيِماً) [الكهف /1] أراد: أنزل الكتاب قيما، ولم يجعل له عوجا، ومنه (فَضَحِكتْ فبَشّرنَاهَا بإسحاقَ) [هود/70] أي بشرناها فضحكت، وقوله (فَكَذّبوهُ فَعَقروهَا) [الشمس/14] أي: فعقروها فكذبوه بالعقر(25).

إلا أن الكتابات البلاغية المتخصصة تجاوزت بيان أصل العبارة بالنظر في أسباب التقديم ودلالاته، وتوصل أصحابها إلى أن ما قدم أو أخر لا يكون إلا لعلة بلاغية، وجعلوا علم المعاني مجال درسه وخاصة منه ما تعلق بتقديم المسند والمسند إليه ومتعلقات الفعل وجعلوا لكل قسم عللاً وأغراضا:

فالمسند إليه يتقدم:

1 - لأنه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه كتقديم الفاعل على المفعول والمبتدإ على الخبر.

2 - أو ليتمكن في ذهن السامع لأن في المبتدإ تشويقا إليه.

3 - أو أن يقصد تعجيل المسرة إن كان في ذكر المسند إليه تفاؤل أو المساءة إن كان فيه ما يتطير به.

4 - أو إيهام أن المسند إليه لا يزول عن الخاطر.

5 - أو إيهام التلذذ بذكره.

6 - أو تخصيص المسند إليه بالخبر الفعلي إن ولي حرف النفي.

7 - أو تقوية الحكم وتقريره.

8 - أو لإفادة العموم(26).

كما يتقدم المسند لأغراض منها:

1 - تخصيص المسند بالمسند إليه مثل (ولله ملكُ السمواتِ والأرضِ) [النور/41].

2 - التنبيه من أول الأمر على أنه خبر لا نعت مثل (لَهُ هممٌ لا مُنتهى لكبارِهَا...).

3 - التفاؤل بتقديم ما يسر مثل: عليه مِنَ الرحمنِ ما يستحقُّه.

4 - التشويق إلى ذكر المسند إليه مثل: ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها(27).

ومن أغراض تقديم متعلقات الفعل:

1 - الاختصاص كقوله تعالى (إيّاكَ نعبدُ وإياكَ نستعينُ) [الفاتحة/4].

2 - الاهتمام بالمقدم كقوله تعالى (قلْ أغيرَ الله أبغي ربًّا وهو ربُّ كلِّ شيءٍ) [الأنعام/166].

3 - التبرك مثل: قرآنا قرأت.

4 - ضرورة الشعر.

5 - رعاية الفاصلة كقوله تعالى (فأمَّا اليَتيمَ فلاَ تقهرْ وأمَّا السَّائلَ فلا تَنهرْ)

[الضحى/9-10](28)

وهذه العلل أو الإفادات أو الأغراض يمكن تقسيمها إلى قسمين:

1 - قسم لفظي له صلة بالنظم والهدف منه تحسين العبارة من الناحية الشكلية وإضفاء طابع الجمالية والانسياب على العبارة كمراعاة الفاصلة والضرورة الشعرية.

2 - قسم دلالي يختص بالمعاني الإضافية المتولدة عن التقديم كالعناية والاهتمام والتخصيص والتقوية.. وقد ارتأيت أن أقف عند هذه الثلاثة باعتبارها كبرى الدوال التي ارتبطت بالتقديم وارتبط التقديم بها، أما ما عداها من المعاني الجزئية فقد اعتبرتها من مظاهر العناية وليست أقساما مستقلة بذاتها.

التقــديــم والعنايـــــة:

مفهوم العناية:

لقد صاغ البلاغيون بعض المبادىء التي يجدر بالباحث أن يضطلع بها في أثناء مقاربة التقديم والتأخير منطلقين من مبدإ عام يتعلق بإفادات العلاقات النظمية، ثم عن مصدر تلك الإفادات، وفسروا ظاهرة التقديم على أنها تركيز العناية والاهتمام بالعنصر المقدم، فالمتكلم يختار ترتيبا دون آخر باعتبار الظروف والمقاصد وهو يقدم ما العناية به أشد قصدا الى التأثير في السامع الذي اصبح معتبرا في العملية التواصلية.

إن مفهوم العناية يمكننا من النظر في التحويلات الممكنة فرغم أن كل مكونات الجملة تهم المتكلم إلا أن هذا الاهتمام وهذه العناية ليسا على درجة واحدة، فالمقدم درجة الاهتمام به تفوق غيره يقول الجرجاني: «وإنما يكون التقديم والتأخير على قدر العناية والاهتمام»(29).

إذن فالأهم واجب التقديم(30) هذا أصل في تعليل التقديم - أو كالأصل - وهو من جوامع الكلم وله اطراد في تعليل حالات التقديم والتأخير المختلفة فتقديم المسند إليه وتقديم المسند وتقديم متعلقات الفعل كل ذلك يكون من أجل العناية والاهتمام ولهذا عد «إلياس ديب» بيان الأهمية أهم الدواعي البيانية لتعليل التقديم وأصلا لباقي المتعلقات البلاغية الأخرى(31).

وتفسير هذا أن التقديم دليل على أن المقدم هو الغرض المتعمد بالذكر وأن الكلام قد سيق لأجله ففي قوله تعالى (لَقدْ وُعدنَا هذَا نحنُ وآباؤُنا مِنْ قبلُ) [النمل/70] قدم إسم الإشارة الذي يريد به البعث فكان ذلك دليلا على أهمية البعث وأن الكلام قد سبق لأجله، وفي قوله تعالى (لقد وُعدنَا نحنُ وآباؤُنا هذَا مِن قبْلُ) [المؤمنون/84] قدم (نحن وآباؤنا) على (هذا) فكان ذلك دليلا على أهمية المبعوثين وهم القصد من الحديث وليس البعث(32).

إن قضية «العناية» التي تناولها علماء النحو والبلاغة واللغة ومازلنا نقرأ عنها حتى يومنا هذا في كتب النحووالنقد والبلاغة هي في أساسها من صنع سيبويه فهول أول من أشار إليها وطرق بابها، يقول في (باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى المفعول): «فإذا قدمت المفعول وأخرت الفاعل كقولك: ضربَ زيداً عبدُ الله.. وكان حظ اللفظ فيه أن يكون الفاعل مقدما وهو عربي جيد كثير كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم»(33).

وفي باب «كسى وما ينصب مفعولين ليسا المبتدإ والخبر» يرى أن التقديم لبيان العناية والاهتمام كما كان في تقديم المفعول على الفاعل، يقول: «وإن شئت قدمت وأخرت فقلت: كسي الثوبَ زيدٌ وأُعطي المالَ عبدُ الله كما قلت: ضربَ زيداً عبدُ الله فالأمر في هذا كالأمر في الفاعل.(34).

كما يرى هذه العناية والاهتمام في تقديم الظرف أيضا يقول: «والتقديم ههنا والتأخير فيما يكون ظرفا أو يكون إسما في العناية والاهتمام مثله فيما ذكرت لك في باب الفاعل والمفعول وجميع ما

ذكرت لك من التقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربي جيد كثير»(35) .

ويقول « في باب إن » أيضا : « واعلم أن التقديم والتأخير والعناية والاهتمام ههنا مثله في باب كان »(36) .

لقد وضع سيبويه للتقديم والتأخير قاعدة عامة هي أنهم يقدمون ما يعنون به « وذلك أن من عادة العرب الفصحاء إذا أخبرت عن مخبر ما ـ وأناطت به حكما ـ وقد يشركه غيره في ذلك الحكم أو فيما أخبر به عنه، وقد عطفت أحدهما على الآخر بالواو المقتضية عدم الترتيب فإنهم مع ذلك إنما يبدءون بالأهم والأولى قال سيبويه : « كأنهم يقدمون الذي شانه أهم لهم . . »(37) .

ولعل سيبويه بلفته النظر إلى هذا السر البلاغي الذي تلقفه علماء النحو والبلاغة يكون قد أثرى كثيرا من المباحث البلاغية(38) ولاشك أن هذا يدل على أنه كان من الأوائل الذين أسهموا في تأسيس البعد التعليلي النظري للتقديم وفيه ما فيه من مراعاة موقع الوحدات داخل الرسالة اللسانية والشروط المتميزة التي يفرضها عليه المقام التخاطبي .

وكنا نتوقع عند قراءة كتاب معاني القرآن للفرّاء وهو يعالج مسألة التقديم والتأخير أن يخطو بها خطوات عما كانت عليه عند سيبويه أول القائلين بالعناية والاهتمام . . ولكننا لم نجد في معاني القرآن هذا التوقع في تطور نظرته إلى التقديم والتأخير وأسراره البلاغية بل إننا لم نجد أنه انتفع بالأسرار البلاغية التي ذكرها سيبويه في هذا الباب، واكتفى الفراء بالقول إن في الآية تقديما وتأخيرا، أو هو من المقدم والمؤخر مسايرا في ذلك أبا عبيدة في نظرته الجامعة الخالية من كل إدراك لحقيقة التقديم والتأخير(39) .

ولعل من أهم الذين انتفعوا بمبدإ الاهتمام الذي أقره سيبويه عبد القاهر الجرجاني، فقد ذكر ذلك في دلائله وسعى إلى تسويغ تقدم اللفظ أو تأخره بالنظر إلى ما يمثله في السياق وذلك بتوظيف « الاعتبارات » في البحث عن مصدر اهتمام المتكلم ببعض الأجزاء الكلامية دون بعض يقول الجرجاني : « واعلم أنا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئا يجري مجرى الأصل غير العناية والاهتمام قال صاحب الكتاب وهو يذكر الفاعل والمفعول : كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم . . » ثم قال : « إن معنى ذلك أنه قد يكون من أغراض الناس في فعل ما أن يقع بإنسان بعينه ولا يبالون من أوقعه كمثل ما يعلم في حال الخارجي، يخرج فيعيث ويفسد ويكثر به الأذى، أنهم يريدون قتله ولا يبالون من كان القتل منه ولا يعنيهم منه شيء، فإذا قتل وأراد مريد الاخبار بذلك فإنه يقدم ذكر الخارجي فيقول : قتلَ الخارجيَّ زيدٌ، ولا يقول قتلَ زيدٌ الخارجيَّ لأنه يعلم أن ليس للناس في أن يعلموا أن القاتل له « زيد » جدوى وفائدة فيعنيهم ذكره ويهمهم »(40) .

وقال في المقتصد معقبا على قول سيبويه : « يريد أنهم كانوا يقصدون ذكر كل واحد من المفعول والفاعل في قولك : ضربَ الأميرَ زيدٌ، فإنهم يقدمون الذي هو أجزل حظا من العناية والاهتمام مفعولا كان أو فاعلا(41) .

فالتعليل بالعناية عند الجرجاني ذو طابع عقلي،

يقول تامر سلوم: «وفي التقديم نرى أن المعنى الوجداني ليس أصلا في حديث عبد القاهر إذ القول بالأهمية أو العناية وتأكيد الحكم ودعوى الانفراد ذو صبغة عقلية لا يتضح فيه تلمس الجانب الوجداني أو المعنى الأدبي»(42).

لقد أصبح مبدأ العناية والاهتمام أصلا معتمدا عند البلاغيين المتأخرين الذين تابعوا سيبويه والجرجاني في دعوتهما إلى تسويغ تقدم اللفظ أو تأخره بالنظر إلى ما يمثله في السياق يقول الزمخشري في قوله تعالى: (إنَّ خيْرَ من استأجرتَ القويّ الأمينُ) [القصص/26].

«هذا كلام جامع لا يزاد عليه.. فإن قلت: كيف جعل «خير من استأجرت» إسما «لإن» و«القوي الأمين» خبرا؟

قلت: هو مثل قوله:

ألاَ إنَّ خيرَ الناسِ حيّا وهالكاً
أسيرُ ثقيفٍ عندَهُم فِي السَّلاَسِلِ

في أن العناية هي سبب التقديم(43).

ويقول في قوله تعالى أيضا: (أراغبٌ أنتَ عن آلهتِي يَا إبراهيمُ) [مريم /46] لأنه أهم عنده وأعنى، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته وأن آلهته ما ينبغي أن يرغب عنها أحد(44).

وقريب منه قول ابن الأثير في الآية نفسها: «ولم يقل: أأنت راغب لأنه كان أهم عنده وهو به شديد العناية(45).

ولم يخرج السكاكي - وهو مقعد البلاغة العربية ومصنف أبوابها - عن ملاحظة سيبويه في التقديم، يقول: «والحالة المقتضية هي كون العناية بما يقدم أتم وإيراده في الذكر أهم والعناية التامة بتقديم ما يقدم والاهتمام بشأنه نوعان:

أحدهما أن يكون أصل الكلام في ذلك هو التقديم ولا يكون في مقتضى الحال ما يدعو إلى العدول عنه..

وثانيهما: أن تكون العناية بتقديمه والاهتمام بشأنه لكونه في نفسه نصب عينيك وأن التفات الخاطر إليه في التزايد كما تجدك قد منيت بهجر حبيبك وقيل لك: ما تتمنى؟ تقول: وجه الحبيب أتمنى(46).

لقد جعل السكاكي التقديم للعناية مطلقا أي سواء كان المقدم من معمولات الفعل أو غيرها كما جعل الأهمية ههنا قسيما لكون الأصل التقديم، ومراده بالأهمية، الأهمية العارضة بحسب اعتناء المتكلم أو السامع بشأنه واهتمامه بحاله لغرض من الأغراض كقولك: «قتلَ الخارجيَّ فلانٌ» بتقديم المفعول لأن المقصود الأهم قتل الخارجي ليتخلص الناس من شره(47).

تقديم المفعول وتظاهر العناية:

لقد نبه البلاغيون على ما تفيده متعلقات الأفعال من تحديد المعنى وتصويره أو توكيده ورفع احتماله، وأشاروا إلى أن ما يقصده المتكلم في كلامه يكون هو الجزء الأهم ولذلك يذكر مقدما منصوصا عليه وخلافه من الأجزاء التي يمكن أن تتعلق بالأفعال تكون مطروحة ملقاة لا يلتفت إليها ما دام الغرض لم يتعلق بها، وفي هذا تحديد لأهمية متعلقات الأفعال على حسب أغراض المتكلم ومقاصده.

يقول الزمخشري: «وإذا كان الكلام منصبا إلى غرض من الأغراض جعل سياقه له وتوجهه إليه كأن ما سواه مرفوض مطروح» (48).

إن رتبة المفعول به التأخر عن الفعل والفاعل (49) إلا أنه يمكن أن يتقدم على الفاعل وعلى الفعل والفاعل (50) لعلل من بينها الاعتناء به ولكون الكلام إنما جيء لبيان المفعول (51) أو كانت الحاجة إلى ذكره أشد (52).

لقد شاع المفعول عند العرب واطرد من مذاهبهم كثرة تقدمه على الفاعل حتى دعا ذلك أبا علي إلى أن قال: إن تقدم المفعول على الفاعل قسم قائم برأسه كما أن تقدم الفاعل قسم أيضا قائم برأسه (53).

وقد بلغ تقديم المفعول على الفعل مرتبة أن أصبحت الصناعة النحوية تقبله دون أن تشير إلى أنه خرج عن أصل الرتبة العاملية التي تقتضي أن يكون المعمول بعد العامل (54) فالمفعول إذا تقدم صار الوضع له وكأنه لم يتقدم وإنما حل موضعه الطبيعي يقول ابن جني: «فصار تقديم المفعول لما استمر وكثر كأنه هو الأصل» (55).

وواضح أن ابن جني في معالجته لوضع المفعول به في التركيب قد وقف عند سرد ما يتفق مع قواعد النحو وما يختلف عنها مراعيا صحة القياس أو ضعفه أو فساده دون أن يذكر لنا أسباب التقديم البلاغية حتى إذا تقدم به الزمن وصنف المحتسب وجدناه يركز تركيزا شديدا على تقديم المفعول به وأهميته البلاغية.

وتظهر هذه الأهمية عند ابن جني من ناحيتين:

الأولى: تقديم المفعول.

والثانية: حذف الفاعل وإسناد الفعل إلى المفعول.

وابن جني يشعر بخطورة ما يرمي إليه يقول: «ينبغي أن يعلم ما أذكره هنا، وذلك أن أصل وضع المفعول أن يكون فضلة، وبعد الفاعل كضربَ زيدٌ عمراً،

ـ فإذا عناهم ذكر المفعول قدموه على الفاعل فقالوا: ضربَ عمراً زيدٌ،

ـ فإذا زادت عنايتهم به قدموه على الفعل الناصب فقالوا: عمراً ضربَ زيدٌ،

ـ فإذا تظاهرت العناية به عقدوه على أنه رب الجملة وتجاوزوا به حد كونه فضلة فقالوا: عمرو ضربهُ زيدٌ، فجاءوا به مجيئا ينافي كونه فضلة، ثم زادوا على هذه الرتبة فقالوا: عمرو ضربَ زيدٌ، فحذفوا ضميره ونووه ولم ينصبوه على ظاهر أمره رغبة به عن صورة الفضلة وتحاميا لنصبه الدال على كون غيره صاحب الجملة، ثم إنهم لم يرضوا له بهذه المنزلة حتى صاغوا الفعل له وبنوه على أنه مخصوص به وألغوا ذكر الفاعل مظهرا أو مضمرا فقالوا: «ضُرِبَ عمرٌو»، فاطرح ذكر الفاعل البتة بل أسندوا بعض الأفعال إلى المفعول دون الفاعل البتة مثل قولهم: امتُقع لونُه ولم يقولوا: امتقعه كذا.. وهذا كله يدل على شدة عنايتهم بالفضلة لأنها تجعل الجملة تابعة في المعنى لها حتى إنها إذا لم تكن تابعة لها وكان المفعولُ مقدما منصوبا فإنه لا يعدم دليل العناية وهو تقديمه اللفظ منصوبا، وهذه صورة انتصاب الفضلة مقدمة لتدل على قوة العنايةِ (56).

فابن جني يقرر أن تقديم المفعول يكون لنكتة

بلاغية هي العناية بشأنه وأن هذه العناية تقوى وتضعف بحسب الحالات، وكلما قويت العناية اتخذ التقديم صورة جديدة وهذه الصورة تصل إلى أربع مراتب:

الأولى: أن يتقدم المفعول على الفاعل فقط.

الثانية: أن يتقدم على الفعل منصوبا.

الثالثة: أن يتقدم على الفعل مرفوعا ويصبح عمدة بعد أن كان فضلة مع الإبقاء على الضمير.

الرابعة: وهي أقواها وأرفعها منزلة لأنها تفضل الثلاثة بأن الجملة التي بعد المقدم تصبح مختصة به عندما تخلو من الضمير.

ولاشك أن كل حالة من هذه الأحوال تستعمل في مكانها المناسب وما يتفق مع حال المتكلم أو السامع.

وتمثل صورة بناء الفعل للمجهول وإسناده إلى المفعول في تحليل ابن جني قمة العناية، وعنده أن هناك درجات من هذه العناية سابقة على هذه الرتبة(57).

ويحاول ابن جني في مواضع متفرقة تأكيد ما في بناء الفعل للمجهول وترك الفاعل من عناية، ففي قوله تعالى: (يقومَ يُقالُ لِجهنَّمَ) [ق/30] بالبناء للمجهول وهي قراءة ابن مسعود والحسن والأعمش، يقول إن هذا يدل على أن قولنا: ضُرب زيدٌ ونحوه لم يترك ذكر الفاعل للجهل بل لأن العناية انصرفت إلى ذكر وقوع الفعل بزيد عرف الفاعل به أو جهل(58).

وهو تفسير ذكي للأسلوب الذي وقف عنده من قبلُ سيبويه ومن بعدُ عبد القاهر الجرجاني، أسلوب البدء بالمفعول مع رفعه على الابتداء ثم بناء الفعل بعد ذلك عليه مع محاولة لتطوير هذا الأسلوب بالتطرق إلى مرحلة أبعد بحذف الضمير العائد إلى المبتدإ الذي كان في الأصل مفعولا، وكذلك تفسير لأسلوب البناء للمجهول بالنظر إلى هذا الأسلوب باعتباره ذروة العناية بالمفعول به وأن ذلك مرحلة تتعدى مجرد التقديم المكاني له على فاعله أو فعله أو كليهما(59).

ويبدو أن صاحب الخصائص قد اتخذ من كلا الأسلوبين أصلا يقيس عليه حالات أسلوبية أخرى، وعلى سبيل المثال نراه يقوي قراءة الجماعة لقوله تعالى: (كشجرةٍ طيبةٍ أصلُها ثابتٌ) [إبراهيم/26] على قراءة أنس بن مالك (كشجرةٍ طيبةٍ ثابتٌ أصلُها) لأن الثبات في الحقيقة هو الأصل، فبقدر ذلك حَسُن تقديمه عنايةً به، ومسارعةً إلى ذكره، ولأجل ذلك قالوا: « زيد ضربته » فقدموا المفعول لأن الغرض هنا ليس بذكر الفاعل وإنما هو ذكر المفعول فقدموه عناية بذكره(60).

إن فيما ذكرت دليلا قويا على تقدم المفعول به للعناية والاهتمام « فإن قدمت الإسم فهو عربي جيد كما كان ذلك عربيا جيدا وذلك قولك: « رأيتُ زيداً » والعناية والاهتمام ههنا في التقديم والتأخير سواء مثله في « ضرب زيد عمرا، وضرب عمرا زيد »(61).

ولهذا يعتبر من ضروب الغفلة عن التراكيب العربية ما يذهب إليه بعض الباحثين المعاصرين من أمثال ميشال زكريا الذي يرى أن استعمال المفعول

مقدما على الفاعل أمر مشكوك فيه(62) وإبراهيم أنيس الذي يقول: «وليس يشفع في انحراف الفاعل عن موضعه أو المفعول عن موضعه ما ساقه سيبويه من حديث العناية والاهتمام بالمقدم.. فما قاله النحاة من جواز تقدم المفعول عن فاعله حين يؤمن اللبس لا مبرر له من أساليب صحيحة ولا يعدو أن يكون رخصة مَنَّ بها علينا بعض النحاة دون حاجة ملحة إليها..»(63).

إن عدم امتلاك تصور شامل ومتين عن الامكانات التركيبية في اللغة العربية هو ما شكل - في نظر بن حمزة - حائلا دون محاولة تطبيق مقتضيات أي فهم لغوي معاصر على اللغة العربية(64) فضلا عما في مثل هذه الأحكام من نقص استقراء المادة اللغوية والشواهد المثبتة لهذا الاستعمال والتي تُعد ملء السمع والبصر.

مظاهر العناية والاهتمام:

إن تقديم بعض المعمولات على بعض لا يكون إلا بكون ذلك البعض أهم، لكن ينبغي أن يفسر وجه العناية بشأنه ويعرف له معنى ولا يكفي أن يقال: قدم للعناية والاهتمام من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية وبم كان أهم(65).

وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال: إنه قدم للعناية.. ولتخيلهم ذلك قد قصر أمر التقديم والتأخير في نفوسهم وهونوا الخطب فيه، ولعل ذلك قد ذهب بهم عن معرفة البلاغة ومنعهم أن يعرفوا مقاديرها(66).

قال ابن يعقوب: «ثم كون الذكر أهم لا يكفي في علية التقديم لذاته، لأن الأهمية نفسها حكم يفتقر إلى علة توجبها إذ الأهمية بالشيء هي الاعتناء به والاعتناء لابد له من سبب، فلذلك لو قيل: هذا أهم من ذلك كان هذا القائل بصدد أن يقال له لماذا كان أهم؟ ومن أي وجه كانوا به أعنى؟»(67).

ولذلك حين ألف شمس الدين بن الصائغ كتابه «المقدمة في سر الألفاظ المقدمة» قال فيه الحكمة الشائعة الذائعة في ذلك كما قال سيبويه في كتابه «كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى» قال: «هذه الحكمة إجمالية وأما تفاصيل أسباب التقديم وأسراره فقد ظهر لي منها في الكتاب العزيز عشرة أنواع: التبرك والتعظيم والتشريف والمناسبة والحث عليه والحض على القيام به والسبق والسببية والكثرة والترقي من الأدنى إلى الأعلى والتدلي من الأعلى إلى الأدنى»(68).

وبهذا يكون ذكر الأهمية كذكر القانون الجامع الجملي(69) الذي سنسعى إلى تفصيله من خلال عرض بعض مظاهر وتجليات العناية الدائرة في فلك الانفعالات النفسية من تعجب واستعظام وفرح وحزن وتفاؤل وتشاؤم ومدح وذم وتشويق وتبكيت(70) باعتبار أن الأهمية هي المعنى المقتضي للتقديم وجميع المذكورات تفاصيل له(71) ومن مظاهر العناية:

* التشويق:

يكون تقديم المسند لتشويق السامعين إلى ذكر

المسند إليه، ووجود التشويق في المسند يكون بسبب اشتماله على طول بذكرِ وصفٍ أو أوصافٍ تُشوِّق إلى صاحب الوصف أو الأوصاف، والغرض من التشويق أن يكون المشوق إليه يقع في النفوس ويكون له فيها محل من قبوله وذلك لأن الحاصل بعد الطلب أعز وأمكن من المنساق بلا تعب، وإنما يرتكب هذا إذا كان مناسبا للمقال كقول الشاعر:

ثلاثةٌ تشرقُ الدنيَا بِبهجَتِهَا
شمسُ الضُّحى وأبو إسحاقَ والقمرُ

فالنفوس تشتاق إلى معرفة من ببهجته تشرق الدنيا وهو المسند إليه الذي هو قوله « شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر »(72).

يقول السكاكي: «إن تقديم المسند « ثلاثة » قد أثار نوع تشويق إلى ذكر المسند إليه « شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر »، مما جعل نفس المتلقي متطلعة لمعرفة من هم هؤلاء الثلاثة حتى إذا استحكم ذلك منها ذكرهم لها، فكان هذا أدعى لتقبلها وتوكيد المعنى لديها وإحداث الاستجابة فيها لانشغالها عن تفقد موضع المبالغة غير المقبولة بما أثارته الظاهرة فيها من انفعال التشويق واتطلع(73).

فالحاصل - إذن - بعد التشوق ألذ وأمكن في النفس.

ومن شواهد هذه الظاهرة قول الآخر:

والذي حَارتِ البريَّةُ فيه
حيوانٌ مستحدثٌ من جَمادِ

فكون المسند إليه موصوفا بحيرة البرية فيه يوجب الاشتياق إلى أن الخبر عنه ما هو وقوله « حيوان مستحدث من جماد » خبر مسوق بعد التشويق إليه فيتمكن في ذهن السامع والحال قد اقتضى مزيد اهتمام بتمكينه في أذهان السامعين المحترز عن الضلال فيه ويزداد المهتدي فيه هدى، ولكونه أمرا عجيبا في نفسه تفزع النفوس إلى التهمم بتصوره(74).

ومن ذلك تشويق السامع إلى المسند إليه لغرابة المسند كقول الشاعر:

وكَالنارِ الحَياةُ فمِن رَمادٍ
أَواخرُها وأولُها دُخَانُ(75)

فتقديم الكلمة مسندا إليها أو مسندا أو متعلقا من متعلقات الفعل يشوق النفس لتلقي الحكم المراد إثباته، وهذا يسرد في كثير من الظواهر الأسلوبية التي يكون ترتيب الألفاظ فيها في النطق على غير ترتيب وجودها الذهني المعتاد.

*** تعجيل المسرة أو المساءة / التفاؤل والتشاؤم:(76)**

يحصل الاهتمام بتقديم المسند إليه لما في تقديمه من تعجيل المسرة أو تعجيل المساءة وذلك بما فيه من التفاؤل فيفيد تقديمه تعجيل المسرة للسامع، أو لما فيه من التطير فيفيد تقديمه تعجيل المساءة، ولأجل هاتين الإفادتين كان لذكر المسند إليه المفيد لإحداهما مزيد اهتمام - فالأول وهو ما فيه تعجيل المسرة للسامع لأجل التفاؤل نحو: « سَعدٌ في دَارِكَ »، ولا يخفى ما في لفظ « سعد » من التفاؤل -(77).

وهو سماع المخاطب من أول وهلة ما يسر يقول الشاعر:

سَعِدتْ بغُرةِ وجهِكَ الأيامُ
وتزيَّنتْ ببقائِكَ الأعوامُ

يقول الدسوقي: فتقديم «سعدت» في هذا التركيب المؤدي إلى كون المسند إليه فاعلا مع صحة تأخيره باعتبار تركيب آخر لأجل ما ذكر من التفاؤل، بخلاف لو أخر سعدت بالنظر للتركيب الآخر فلا يكون فيه تفاؤل(78).

والثاني هو ما فيه تعجيل المساءة للتطير نحو: «السَفَّاحُ في دارِ صَديقِكَ»، ولا يخفى أيضا ما في لفظ «السفاح» الدال على سفك الدماء من التطير لإشعاره بالقتل والإهلاك(79).

وربما كان أيضا مما روعي فيه تأخير كلمة كريهة بالنسبة للنفس الإنسانية تلك الآيات الأربع التي ذكرت فيها كلمة «الضر» مثل:

(وإذَا مسَّ الانسَانَ الضرُّ دعَانَا لجنْبِهِ) [يونس12].

(وإذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوا ربَّهم) [الروم/32].

(فإذَا مَسَّ الانسان ضرٌّ دَعَانَا) [الزمر/46].

وشبيه بها بعض الآيات التي وردت فيها كلمة «الموت» مؤخرة في قوله تعالى:

(أم كُنتم شهداءَ إذْ حضَر يعقوبَ الموتُ) [البقرة/133].

(كُتب عليكم إذا حَضَرَ أحدكم الموتُ) [البقرة/179].

(حتى إذَا جاءَ أحدكم الموتُ) [الأنعام/62].

(من قبلِ أن يَأتيَ أحدكم الموتُ) [المنافقون10].

ولعل السر في هذا أن يكون - والله أعلم - نفورا من التعجيل بذكر كلمة كريهة على النفس البشرية(80).

فالنكتة في التقديم - كما قد تكون في التأخير - تعجيل المراد من الكلام لأجل خوف فوات الفرصة(81).

*** المدح والافتخار:**

ومن مظاهر العناية التقديم من أجل المدح أو الافتخار لأن من شأن المادح أن يمنع السامعين من الشك فيما يمدح فيه ويبعدهم عن الشبهة وكذلك المفتخر،

أما المدح فكقول الحماسي:

هم يَفرِشُونَ اللِّبدَ كُلَّ طِمِرةٍ

وقول الحماسي: هُمَا يلبسَانِ المجدَ أحسنَ لِبسَة

وقول الحماسي: فهُم يضربُونَ الكبشَ يَبرقُ بيضُه

وأما الافتخار فكقول طرفة:

نحن فِي المشتاة ندعو الجفلى(82)

فتقديم هذه الضمائر دليل على الاعتناء بالممدوحين وتوكيد أوصاف المدح لهم، ولا تستقيم هذه المعاني إلا بالتقديم لأن في التأخير إضعافا وتبديدا للعناية وضياعا للمراد.

*** التعظم والتحقير:**

يقدم المسند إليه لإظهار تعظيمه أو تحقيره(83).

والمقصود بالتعظيم تهويل الحكم المراد إثباته

للمحكوم له وتعظيمه وتفخيمه في نفس المتلقي وإثارة الانفعال المناسب عنده، والمقصود بالتحقير خلافه.

يقول المغربي: «قلنا «تعجيل» لأن إظهار التعظيم والتحقير حاصل بالتأخير أيضا والمختص بالتقديم تعجيل الإظهار أو شبه ذلك كالاحتراز من أن يحصل في قلبه تخيل غير المحكوم عليه(84).

وهذا البعد النفسي من الأبعاد التي اكتفى البلاغيون بالاشارة السريعة إليها أيضا ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن الأسس النفسية التي تعتمد عليها والتي بها أصبحت قادرة على إثارة مثل هذه الانفعالات، وقد وجدناهم يكتفون بإيراد الشاهد والإشارة إلى الانفعال المناسب الذي يثيره لا غير(85).

* التبكيت والتعجب:

وقد يكون التقديم لإرادة التبكيت والتعجب من حال المذكور كتقديم المفعول الثاني على الأول في قوله تعالى (وجعَلوا للهِ شُرَكاءَ الجِنَّ) [الأنعام/101.] والأصل: الجن شركاء وقدم لأن المقصود التوبيخ، وتقديم الشركاء أبلغ في حصوله(86).

* التهكم:

وقد يؤخر المسند للتهكم بالسامع كقول الشاعر:

تَعالَلتِ أشجَى وما بكِ علّةٌ
تُريدينَ قتلِي قد ظَفرْتِ بذَلِكِ(87)

* التنبيه:

ويقدم المسند لتنبيه السامع من أول الأمر على أنه خبر لا نعت كقوله تعالى (ولكُم في الأرضِ مستقرٌّ ومتاعٌ إلى حين) [البقرة/35].

وكقول الشاعر:

لهُ هممٌ لا مُنتهَى لكبارِها
وهمتُه الصُّغرَى أجلُّ منَ الدهرِ

يقول عبد القاهر: «وهذا الذي ذكرت من أن تقديم ذكر المحدث عنه يفيد التنبيه له قد ذكره صاحب الكتاب في المفعول إذا تقدم فرفع بالابتداء وبنى الفعل الناصب كان له عليه، وعدي إلى ضميره فشغل به كقولنا في «ضربتُ عبدَ اللهِ» «عبدُ الله ضربتُه»، فقال: وإنما قلت عبد الله فنبهته ثم بنيت عليه الفعل ورفعته بالابتداء(89).

ويقول الزمخشري في قوله تعالى (إنَّ الذينَ آمنوا والذينَ هادُوا والصَّابئِينَ والنَّصارَى مَن آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ) [المائدة/71].

فإن قلت: ما التقديم وما التأخير إلا لفائدة، فما فائدة هذا التقديم؟

قلت: فائدته التنبيه على أن الصابئين يتاب عليهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح فما الظن بغيرهم، وذلك أن الصابئين أبينُ هؤلاء المعدودين ضلالا وأشدهم غيا، وما سموا صابئين إلا لأنهم صبئوا عن الأديان كلها.

كما أن الشاعر قد قدم قوله «وأنتم» في قوله:

وإلاّ فـاعـلَـمُـوا أنّـا وأنـتُـم

بـغـاةٌ مـا بـقـيـنـا فـي شِـقَـاقِ

منبها على أن المخاطبين أوغل في الوصف بالبغاة من قومه حيث عاجل بهم قبل الخبر الذي هو البغاة لئلا يدخل قومه في البغي قبلهم مع كونهم أوغل فيه منهم وأثبت قدما(90).

*** لإيهام أنه لا يزول عن الخاطر :**

بأن يجعل الاهتمام بتقديم المسند إليه لما في التقديم من إيهام أنه لا يزول عن الخاطر حتى إن الذهن إذا التفت لمخبر عنه لم يجد أولى منه فهو بالنسبة إلى الخاطر كاللازم بالنسبة للملزوم وذلك لكونه مطلوبا، والمطلوب لا يفارق تصوره في الذهن(91).

وإنما يقال « لإيهام » لأن عدم زواله عن الخاطر أمر ممكن عادة وإنما الحاصل إيهام عدم الزوال، ويدل على عدم الزوال على وجه الإيهام كون المذكور مطلوبا مرغوبا لأن المرغوب من شأنه لا يزول عن التصور(92).

إن معظم ما ذكر من علل التقديم هو من مظاهر العناية بالمقدم، وهو تفاصيل للعناية(93) إذ كانت العناية بمثابة القانون الجامع(94).. وكانت هذه المعاني النفسية مظهرا لها، وهي لا تنحصر بعدٌ بحيث يمكن تسجيل إلى جانب ما ذكر التقديم الذي يكون من أسبابه ضعف الاعتناء بالمسند إليه(95) أو إدخال الروع في ضمير السامع أو لتقوية داعي المأمور أو الاستعطاف(96) وفي الوعد والضمان(97).

والذي يطبع هذه الظاهرة الأسلوبية البلاغية ويحكمها هو الأبعاد النفسية الانطباعية ذلك أن النفس تُعنى وتتطلع الى تقديم الذي بيانه لها أهم وهي بشأنه أعنى فقد يشغل نفسَ المتلقي أمرٌ من الأمور وتتطلع الى خبره وتتشوق الى ما تم بشأنه لكون التعرف عليه مهما لديها، أو لأن أمورا مهمة تترتب عليه، فحينئذ ولكي يكون التعبير أكثر قدرة وقابلية على التأثير والإثارة يقدم فيه ما انعقد القلب به وإن كان حقه الترتيبي من حيث الوجود الذهني التأخير وذلك حتى يعجل للنفس ما تريد التعرف عليه فتطمئن وتستقر، وإلا فَقَدَ النص قيمته لانشغال النفس عما يرد فيه بما تعلقت به وتأخر بيانه في النطق(98).

وقد كان عبد القاهر الجرجاني - بعد سيبويه - أقرب البلاغيين إلى تفهم حقيقة هذه الظاهرة والكشف عن بعدها النفسي حينما ذهب إلى أن النفس إنما تُعنى بتقديم ما تهتم بشأنه وذلك لأنه ماثل نصب العينين وأن التفات الخاطر إليه في ازدياد.

ولعل هذا ما يجعل الحديث عن تقعيد مظاهر العناية مستعصيا فضلا عن التداخل الحاصل بين مصطلحات الملكات النفسية والطباع المركوزة وكثرة المترادفات التي تنحو منحى تقويا خالصا، فالبهجة والسرور والغبطة والتفاؤل والتعجيل بالمسرة في مقابل الألم والكرب والخوف واليأس والتشاؤم والتطير والتعجيل بالمساءة، ولا نعرف حدود معنى الكلمة وما استعمل بإزائها: أين ينتهي ليبدأ معنى آخر!(99)..

ولعل هذا أيضا ما أزعج إبراهيم أنيس ودفعه الى التصريح بقوله: «لا معنى لأن ننساق مع البلاغيين حين يعزون المسند إليه إلى أمور تلمسوها من شواهد معينة كالتمكين في ذهن السامع والتعجيل بالمسرة أو المساءة والاستلذاذ والتعظيم والتحقير.. ومن التغريب أنهم يجعلون نفس هذه الأسباب أو معظمها داعيا من دواعي تقدم المسند أيضا(100).

إن هذا القول مع ما فيه من صحة من جهة كونه يشرح مشكلا من مشاكل البلاغة العربية وهي الافتقار إلى التأصيل وتوحيد الأدوات والمصطلحات المتداخلة والمتضاربة إلا أنه يتجاهل الجانب الانطباعي أو الشخصي الذي لا مفر منه في التعامل مع لغة النص أو اللغة التي نستعملها «لأن مجال التحليل في هذه الحال أوسع من مجال تحليل الجملة نحويا»(101).

لقد اتضح من خلال ما سبق - بما لا يدع مجالا للشك - أن العناية ومظاهرها أصل من أصول التعليل البلاغي لظاهرة التقديم والتأخير وأن ارتباطها بالملكات النفسية المعبر عنها بما تفرع عن العناية الدالة على حسن مراعاة المخاطب وسبر أغوار نفسه أمر لا يمكن تجاهله البتة.

الهوامش:

(1) ينظر: علم الدلالة العربي، فايز الداية ص.21 والتقدير وظاهر اللفظ، داود عبده ص.6 (الفكر العربي) والاتجاه الوظيفي، يحيى احمد ص.78-88.

(2) الدلائل ص.410.

(3) محاضرات في علم اللسان العام، سوسير ص.176.

(4) المقابسات ص.68-76 والامتاع والمؤانسة 121/1.

(5) نظرية اللغة، عبد الحكيم راضي ص.213.

(6) أضواء على متشابهات القرآن: ياسين: 154/1

(7) الدلائل ص.110-111

(8) المصدر نفسه ص.188-189

(9) تفسير الطبري 53/1، وتفسير القرطبي 145/1 انظر البلاغة القرآنية، أبو موسى ص.288.

(10) الطراز، الشيخ حمزة العلوي 65/2-66

(11) دلائل الاعجاز ص.186-187، ونهاية الايجاز ص.159 وشرح الكافية، للرضي 100/1، ومختصر التفتازاني 98/2-102-103 ومواهب الفتاح 98/2.

(12) التخمير 275/1-276

(13) الدلائل ص.190-191 يقول ابن القيم: «وإن لم يكن الخبر مفيدا لم تفد المسالة شيئا، وكان لا فرق بين تقديم الخبر وتأخيره كما إذا قلت: في الدنيا رجل كان في عدم الفائدة بمنزلة قولك: رجل في الدنيا، فهنا لم تمتنع الفائدة بتقديم ولا تأخير وإنما امتنعت من كون الخبر غير مفيد» بدائع الفوائد 148/2-149.

(14) الطراز 72/2-73

(15) من أسرار اللغة ص.323.

(16) المرجع السابق ص.324 وانظر احياء النحو ص.55.

(17) البلاغة والأسلوبية، عبد المطلب ص.252.

(18) التطور النحوي للغة العربية، برجشتراسر، ص.133.

(19) الأصول، تمام حسان ص.385.

(20) الوساطة ص.412-413

(21) معاني القرآن: 195/2

(22) مجاز القرآن 24/1-13/2

(23) الصاحبي ص.412/413

(24) فقه اللغة وسر العربية ص.322.

(25) تاويل مشكل القرآن ص.158 وانظر: البلاغة القرآنية، ابو موسى ص.99. وأثر النحاة في البحث البلاغي، عبد القادر حسين ص.137 والبلاغة العربية بين القيمة والمعيارية، ابو الرضا ص.22.

(26) مفتاح العلوم ص.93 والإيضاح ص.52 وشروح التلخيص 389/2.

(27) مفتاح العلوم ص.105 الإيضاح ص.101 البرهان 233/3، وشرح التلخيص 109/2

(28) نهاية الإيجاز ص.316 والبرهان 253/3 والايضاح ص.52-53 وانظر: نظرية اللغة، عبد الحكيم راضي ص.215-216.

(29) المقتصد 330/1

(30) مفتاح العلوم ص.194-195
(31) أساليب التأكيد في اللغة العربية ص.66
(32) فن البلاغة، عبد القادر حسين ص.107
(33) الكتاب 14/1-15، والنكت الاعلم الشنتمري ص.113
(34) المصدر السابق 19/1 والنكت ص.129-132
(35) المصدر السابق 27/1
(36) المصدر السابق 285/1 والنكتب ص.631.
(37) البرهان 235/3
(38) نظام الجملة العربية ص.132
(39) أثر النحاة في البحث البلاغي ص.137.
(40) الدلائل ص.107-108. وانظر: نظرية اللغة، عبد الحكيم راضي ص.220، والبلاغة القرآنية ص.100.
(41) المقتصد 311/1
(42) نظرية اللغة والجمال، تامر سلوم ص.131
(43) الكشاف 403/3
(44) المصدر السابق: 20/3
(45) المثل السائر 215/2-216. قال ابن الاثير الحلبي: «فقدم الخبر على المبتدإ للاهتمام به» جوهر الكنز ص.125، وانظر البسيط 310/1.
(46) مفتاح العلوم ص.236 وانظر التلخيص ص.135-136 والإيضاح ص.209، والاشارات والتنبيهات ص.87 وعروس الافراح 160/2 ومواهب الفتاح 154/2.
(47) المطول ص.202.
(48) الكشاف 8/4. وذلك بعد تعليقه على قوله تعالى (وإذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما..) [يس/13].
(49) الكتاب 104/1
(50) المصدر السابق 46/1-68-234، والدلائل ص.131 والحلل ص.98-99.
(51) البسيط 276/1-277
(52) حسن التوسل ص.156-157، والمطول ص.203-204
(53) الخصائص 294/1
(54) البرهان، الزركشي 276/3
(55) الخصائص 298/1
(56) المحتسب 65/1-66-67
وانظر مثل هذا الكلام: المقتصد 229/1. وفن البلاغة، عبد القادر حسين ص.103-104 وأثر النحاة في البحث البلاغي ص.305.
(57) انظر: نظرية اللغة، عبد الحكيم راضي ص.218-219.
(58) المحتسب 284/2، والخصائص 218/2
(59) نظرية اللغة ص.219-220، وأثر النحاة في البحث البلاغي ص.85.
(60) المحتسب 362/2 ـ 363
(61) الكتاب 14/1
(62) الألسنية التوليدية ص.27
(63) من أسرار اللغة ص.244
(64) نظرية العامل ص.313
(65) الكليات، الكفوي 11/2
(66) الدلائل ص.108-109
(67) مواهب الفتاح 389/1، ومختصر التفتازاني 389/1.
(68) الاتقان 35/3
(69) مواهب الفتاح 110/2
(70) ينظر على سبيل المثال مفتاح العلوم ص.194-195، والخواطر الحسان ص.148، والبلاغة العربية في ثوبها الجديد، بكري شيخ أمين من ص.147 إلى ص. 152واساليب التأكيد في اللغة العربية ص.66-67.
(71) المطول ص.186.
(72) مواهب الفتاح 116/2، وفن البلاغة، عبد القادر حسين ص.109.
(73) مفتاح العلوم ص.221، والأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ص.116.
(74) مواهب الفتاح 391/1، وانظر: التلخيص ص.74-75، ومعاهد التنصيص 136/1 والاشارات والتنبيهات، الجرجاني ص.45.
(75) الاشارات والتنبيهات ص.78.
(76) الإشارات والتنبيهات ص.45 والتلخيص ص.125 ومختصر التفتازاني 393/1 وبغية الايضاح 211/1-212
(77) مواهب الفتاح 393/1-394 والايضاح ص.135.
(78) حاشية الدسوقي على السعد 115/2-116
(79) التلخيص ص.74-75.
(80) من أسرار اللغة، إبراهيم انيس ص.246-247.
(81) مواهب الفتاح 114/2
(82) الايضاح ص.140
(83) مختصر التفتازاني 394/1
(84) مواهب الفتاح 395/1 وانظر: الطراز 13/2-14
(85) الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ص.124.
(86) البرهان، الزركشي 236/3 وانظر: التلخيص ص.92 ومعاهد التنصيص 159/1.
(87) الاشارات والتنبيهات ص.78 والتلخيص ص.124-125 وشرح

التلخيص للبابرتي ص .300.

(88) الاشارات والتنبيهات ص .78 والتلخيص ص .124-125 وشرح التلخيص للبابرتي ص .300.

(89) الدلائل ص .131 والكتاب 41/1، وانظر: البلاغة القرآنية، أبو موسى ص .101-102.

(90) الكشاف 661/1، وانظر: البلاغة القرآنية ص .286.

(91) الايضاح ص .136 ومختصر التفتازاني 394/1

(92) مواهب الفتاح 394/1

(93) الاتقان 35/3

(94) مواهب الفتاح 110/2 والكليات 9/2-10

(95) الاشارات والتنبيهات ص .78.

(96) الايضاح ص .140

(97) المصدر السابق ص .156

(98) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ص .117

(99) انظر بتفصيل: حقل المعاني عند البلاغيين المتاخرين، فاضل وهبي ص .29-30-31.

في أصل اللهجات العربية الحديثة

د. / عبد الله حمد(*)

1 ـ المقدمة :

إن البحث في أصل اللهجات العربية الحديثة هو في الواقع بحث لغوي تاريخي يتطلب من الباحث الوقوف على عدد من التطورات في تاريخ اللغة العربية. فهو بحث في تاريخ العربية بشكل عام، ذلك أنه لا يمكن البحث في أصل اللهجات دون الوقوف على تاريخ اللغة الفصحى واللهجات القديمة وعلاقتهما باللهجات الحديثة. إن بحثا كهذا يتطلب كغيره من البحوث اللغوية التاريخية عدداً من المعلومات والأدلة التي يستطيع الباحث توظيفها من أجل تفسير الظواهر اللغوية ومنها أصل اللهجات وبالتالي الإجابة على التساؤلات المتعلقة بهذه المسألة. فهو بحث متشعب إلى حد كبير ولن يكون هناك جواب قطعي بقدر ما يكون هناك جواب ترجيحي.

إن البحث في أصل اللهجات العربية ليس أمراً جديداً بل تناوله عدد من الباحثين عربا وعجما(1) وحاولوا إلقاء الضوء على هذه المسألة والخروج أحيانا بنتائج معقولة بناء على الأدلة المتوفرة وأحيانا ترديد أقوال وآراء سابقة مشحونة بالعاطفة والمشاعر أكثر منها محاولات تقصي واستقراء. ترمي هذه الدراسة تحديدا إلى البحث في أصل اللهجات الموجودة هذه الأيام في البلاد العربية(2). هي محاولة مختصرة للإجابة على السؤال التالي بشقيه وهو: كيف ومتى تشكلت هذه اللهجات؟ نحن لا نزعم أننا سنقدم إجابة شافية ونهائية لهذا السؤال، ولكننا سنحاول طرح تفسير لغوي تاريخي للخلفية اللغوية التي انبثقت منها اللهجات وتشخيص للمراحل اللغوية التي مرت بها اللهجات. وهذه الخطوة ستعتبر شيئا جديدا يضاف إلى محاولات رصد تشكل اللهجات في الماضي. فالدراسة بمجملها ستكون محاولة تحسس وفحص لجانب من التاريخ اللغوي للغة العربية.

إن الناظر في واقع اللهجات العربية الحديثة والباحث في أصلها أو أصولها يقوده إلى طرح عدد من الاحتمالات أو الفرضيات المتعلقة بأصولها من أجل التعامل مع هذه القضية بصورة دقيقة. وهذه

(*) عضو مجمع اللغة العربية الفلسطيني

الفرضيات هي التي تحدد المنهاج الذي سيسلكه الباحث من أجل الوصول في نهاية المطاف إلى الحل المنشود. وعليه فإن هذه الدراسة تقوم على الفرضيات التالية:

أولا : إن اللهجات الحديثة انحدرت من اللغة الفصحى.

ثانيا : إن اللهجات الحديثة انحدرت من اللهجات العربية القديمة.

ثالثا : إن اللهجات الحديثة انحدرت من لغات الأمصار المفتوحة حيث نشأت اللهجات لاحقا.

رابعا : إن اللهجات الحديثة انحدرت من مستوى لغوي مشترك كان سائدا ربما مع بداية الفترة الاسلامية.

خامسا : إن اللهجات الحديثة تشكلت من اللغة الفصحى واللهجات القديمة ولغات الأمصار.

ستتضمن الدراسة البحث في الوضع اللغوي قبل الإسلام أو ما يعرف بالحقبة الجاهلية ومحاولة الوقوف على طبيعة ذلك الوضع وخاصة فيما يتعلق بوضع اللهجات واللغة الفصحى وعلاقتهما ببعضهما البعض، ثم وصف الوضع اللغوي في صدر الإسلام والتطورات التي حصلت مع نزول القرآن الكريم وتأثير ذلك على وضع اللغة العربية. ثم سنبحث في الوضع اللغوي خارج الجزيرة العربية وتحديدا في الأمصار المفتوحة المتاخمة لجزيرة العرب مع الإشارة إلى المغرب العربي أحيانا، حيث توجد اللهجات العربية الحديثة. وأخيرا وعلى ضوء هذا كله سيتم مناقشة فرضيات الدراسة.

2 ـ الوضع اللغوي قبل الإسلام :

إن الوضع اللغوي قبل الإسلام كان غامضا إلى حد كبير وذلك لندرة المعلومات المتوفرة عن تلك الحقبة الجاهلية. فكل ما ورد لنا عن تلك الحقبة هو ما يعرف بالأدب الجاهلي الذي اشتمل على شعر كثير من مطولات وغيرها وبعض النثر وغير ذلك مما يتعلق بالخطابة. إلا أن المهم في تلك الفترة هو ظهور اللغة الفصحى إلى جانب اللهجات التي كانت سائدة في ذلك الوقت. فهذه اللغة باتت تمثل اللغة الراقية والنموذجية وأفضل ما أنتجه العرب آنذاك. على أية حال فإن ما يتحدث عنه المؤرخون واللغويون عن تلك الحقبة لا يعدو أن يكون مجرد تخمينات تعطي صورة ما عن ذلك الوضع. ثم تبلورت الصورة عن ذلك الوضع على شكل مسلمات تتفاوت في درجة أهميتها. ومن هذه المسلمات أنه كانت هناك لغة أدبية مشتركة تستعمل في الأدب الرفيع، وكانت هناك لهجات عربية متنوعة وكثيرة منتشرة في أنحاء الجزيرة بما في ذلك أطرافها المتاخمة للعراق وسوريا وعلى سواحل الخليج العربي. وهناك مسلمة أخرى وهي أنه لم يكن هناك مستوى لغوي ثالث مستقل غير المستوى الفصيح واللهجي. وفي المقابل كانت هناك أمور لم تؤخذ كمسلمات ومنها: هل كانت اللهجات قريبة من بعضها البعض؟ وهل كانت اللهجات نفسها قريبة من الفصحى؟ هل كانت اللهجات منعزلة أم دائمة الاحتكاك؟ وأخيراً وأهمها وهو كيف تشكلت الفصحى وأية لهجة تمثل؟

أما كيف نشأت اللهجات القديمة في الجزيرة العربية فإنها مسألة لم تشغل بال أحد من الباحثين ولم تكن قضية في يوم من الأيام. بل إن المسلم به

هو أن اللغة العربية وهي لغة سامية انحدرت من اللغة السامية الأم ومع الأيام انتشرت بين سكان الجزيرة وبسبب التطور الطبيعي لأية لغة انسانية فقد تفرعت عنها اللهجات ثم تنوعت من حيث قربها وبعدها من اللغة الأم وبات لكل منها خصائص لغوية تميزها عن أخواتها من اللهجات الأخرى. بل إن ما شغل بال الكثيرين من الباحثين هو قضية نشوء اللغة الفصحى أو الأدبية المشتركة ووصولها إلى أوج بيانها من خلال ما حملته من أدب جاهلي قبيل نزول القرآن الكريم على الرسول صلى الله عليه وسلم.

يظن أن اللغة الفصحى قد تشكلت من ائتلاف عريض من اللهجات العربية وقد خلت هذه اللغة من الخصائص اللهجية الموجودة آنذاك مثل الكشكشة والعنعنة والفحفحة وغيرها وغدت النموذج اللغوي الراقي. وعليه فهي بالتالي لا تمثل لهجة قبيلة معينة بل تمثل اللهجات العربية التي قامت عليها هذه اللغة. أي بعبارة أخرى هي، كما يراها ابن جني، خليط من لغات العرب(3). وعلى ضوء هذا فمن المرجح أن تكون هذه اللغة قد ضمت لهجات قبائل كثيرة أكثر من أسماء القبائل(4) التي وردت تاريخيا وعرفت على أنها المصدر الذي أخذ عنه علماء اللغة القدامى المادة اللغوية. فهذا الخليط الكبير والمتنوع الذي يشمل القواعد النحوية والمترادفات التي تعد بالعشرات بل بالمئات أحيانا يشير إلى احتمال تعدد المصادر اللغوية التي أخذت منها المادة اللغوية. وإلا كيف نفسر من يرى أن لغات العرب كلها حجة(5). يقول محمد آل ياسين معللا عدم حصر اللغة بلهجة واحدة «لم تعد الفصحى تمثل لهجة بعينها، ذلك أنه ليس بين المطولات الجاهلية خلافات لغوية واضحة في حين اختلف الشعراء في أنسابهم الى القبائل مما يشير الى أن هذه المطولات منظومة بهذه اللغة الموحدة»(6).

أما عن كيفية تشكلها فحتى الرواد اللغويون العرب المعاصرون يترددون أو يتحاشون الخوض في هذا الموضوع. يقول عبده الراجحي بهذا الصدد «والرأي عندنا.. وهو أن شبه الجزيرة العربية كانت بها لهجات كثيرة مختلفة تنسب كل لهجة منها إلى أصحابها وإلى جانب هذه اللهجات كانت هناك لغة عربية مشتركة تكونت على مر الزمن بطريقة لا سبيل لنا إلى تبينها»(7). ومن جانبه يرى إبراهيم أنيس «إن أقدم ما نستطيع تصوره في شأن شبه الجزيرة العربية هو أن نتخيلها وقد انتظمت لهجات محلية كبيرة، انعزل بعضها عن بعض واستقل كل منها بصفات خاصة، ثم كانت تلك الظروف التي هيأت لبيئة معينة، في شبه الجزيرة، فرصة ظهور لهجتها ثم ازدهارها، والتغلب على اللهجات الأخرى»(8). أما عن انعزال القبائل بعضها عن بعض الوارد في النص فربما كان غير دقيق. فمن المرجح أن القبائل تلك كانت في حركة دائمة ومستمرة تبعا لمقتضيات الحياة(9). فالظروف الحياتية لابد وأن تكون قد هتمت هذا التحرك المستمر أما عن اللهجة التي يعنيها إبراهيم أنيس فهي لهجة قريش كما قال ذلك عدد من الباحثين(10). إلا أنه من الواضح والراجح أن تكون هذه اللغة الفصحى غير مبنية على لهجة قريش تحديداً على عكس ما يرى ابن فارس(11) على سبيل المثال. فالنقاش الذي يورده تمام حسان المتضمن لعدد من الحقائق اللغوية والتاريخية يضعف

إلى حد كبير احتمال كون الفصحى ممثلة للهجة قريش. ومن هذه الحقائق تجنب الرواة الأخذ عن قريش كمصدر للمادة اللغوية ولكنهم أخذوا عن تميم مثلا، وعدم ظهور فحول من الشعراء في قريش، والقرآن لم ينزل بلهجة قريش بل بلهجات العرب الأخرى وأخيراً فإن هذه اللهجة لا تحقق الهمز في حين أن الفصحى تحرص على تحقيقه(12).

ولكن ماذا عن طبيعة هذه اللغة الفصحى في المجتمع الجاهلي؟ هل كانت لغة سليقة ولغة محكية؟ هذه مسألة أثارت الكثير من الجدل وانقسم الباحثون حيالها، فمنهم من قال أن الفصحى لم تكن لغة خطاب قط ويترتب على هذا القول بطبيعة الحال نفي أن تكون لغة سليقة حتى أن رابين Rabin ذهب بعيداً إلى حد القول أنه يوجد «اتفاق بين العلماء الأوروبيين على أن الفصحى كانت إلى حد ما لغة أجنبية بالنسبة لمعظم الذين استعملوها في كتابة الشعر أو بالنسبة لهم جميعا، فكان عليهم أن يكتسبوها بالتعليم. وكان الوضع اللغوي لدى البدو الأقدمين شبيها بالوضع بالنسبة للعرب المعاصرين الذين يكتبون أشعارهم بلغة قديمة قد تكون غير مالوفة لبعضهم»(13). وعن لغة المحادثة يضيف رابين «أن لغة المحادثة عند البدو كانت تختلف عن الشكل الفصيح، ومن الصعب أن نفهم السبب الذي صرف العلماء عن أن يدركوا هذا»(14). أما إبراهيم أنيس فيرى أن وجود اللحن دليل على أنها ليست لغة سليقة ويقول مذكرا «إن صاحب اللغة الذي يتكلمها بالسليقة، يستحيل عليه الخطأ في ظواهر تلك اللغة، دون أن يدرك أنه أخطأ.. ونحن في كلامنا بالعامية لا نخطىء، فإذا زل اللسان في لحظة ارتباك أو تلعثم، رجعنا عن هذا الزلل في لمح البصر وأدركنا أننا قد وقعنا فيه ولا يتصور وقوع الخطأ من صاحب السليقة اللغوية في أي ظاهرة من ظواهر لغته»(15). من ناحيته يرى رمضان عبد التواب(16) الرأي نفسه. أما داود عبده فيرفض فكرة أن تكون اللغة الفصحى لغة محكية نظراً لأن هذا «أمر لا يؤيده الواقع اللغوي، فالفصحى ليست إلا مزيجا من لهجات متعددة لا يمكن أن تكون في مجموعها لغة محكية، ذلك لأن من الأمر الطبيعي في أية لغة محكية أن تكون قواعدها مطردة، أي أن يلزم متكلموها طريقة واحدة في الكلام لا طرقا عديدة مختلفة. فالذي يطابق بين الفعل والفاعل مثلا يفعل ذلك في كل كلامه»(17). ومن الباحثين من يرى أن اللغة الفصحى كانت مطابقة للغة البدو فهي لغة محكية. وعلى رأس القائلين بهذا الرأي علماء اللغة العرب القدامى الذين أصروا على بدوية اللغة العربية وكذلك فك Fuck(18) الذي أصر على نشوء مستوى بدوي محكي مشترك. وفي هذا الصدد يرفض بلاو Blau فكرة مساواة الفصحى باللهجة البدوية المشتركة لأن الأخيرة حسب رأيه لم تكن موجودة أصلا(19). ولنا تحفظ على هذا الرأي.

أما عن قرب اللهجات القديمة من الفصحى. فالواضح أن هذا القرب بين من ناحيتين: الأولى في كون الفصحى أصلا وطبقا للرأي الشائع مبنية على عدد من اللهجات واللهجات بطبيعتها قريبة من بعضها البعض، والثانية أن كلا من اللهجات والفصحى يتشابهان في أنهما من النوع التركيبي Synthetic(20).

فمن خلال المناقشات المطروحة والأدلة المتداولة يرجح أن لا تكون اللغة الفصحى قد استعملت في الخطاب اليومي بصورة دائمة ولكنها كانت تستعمل في مناسبات يومية محدودة. فلهجة القبيلة كانت هي وسيلة الخطاب الرئيسية عند العربي في قبيلته. أما مع أبناء القبائل الأخرى فإنه كان يستعمل مستوى لغويا غير مستقل أو متميز ولكن يغلب عليه الطابع القبلي وربما حوى بعضاً من الفصحى وربما كان ذلك الوضع مشابها إلى حد كبير لما هو جار في البلاد العربية في الوقت الحاضر. فعندما يلتقي السوري والعراقي والمصري والفلسطيني والمغربي والعماني فإنهم لا يستخدمون الفصحى في التخاطب بل يستعملون لهجاتهم الإقليمية والفصحى بشكل أو بآخر. وهذا هو الوصف الدقيق الذي قدمه تمام حسان حينما قال أن «اللهجات القديمة كما هي اللهجات اليوم والفصحى اليوم مع فارق هام هو أن العربي كانت له سليقته في الفصحى إذ يأخذها ويكتسبها مع لهجته القبلية أثناء النشأة أما نحن فإننا نأخذها بالتعلم والتمرين.. وكما تختلف اللغة الفصحى على ألسنة العرب المعاصرين بسبب اختلاف عاداتهم الاستعمالية التي اكتسبوها من اللهجات الدارجة كانت كذلك تختلف على ألسنة العرب الأولين»(21). وهنا نود التعبير عن تحفظنا على العلاقة التي أشار إليها تمام حسان في هذا النص والقائمة بين الفصحى واللهجات القديمة والتي يفهم أنها نفس العلاقات القائمة هذه الأيام بين الفصحى واللهجات الحديثة.

ستبقى قضية تشكل اللغة الفصحى قضية غامضة نوعا ما إلى حين توفر دلائل يقينية تعين على تفسير واقع هذه اللغة. إلا أنه من المعروف لغويا أن لغة كالعربية الفصحى لا يعقل أن تكون قد تشكلت بصورة عفوية وخلال فترة قصيرة وبسبب التقاء القبائل في الأسواق الأدبية القديمة المشهورة أو المناسبات الأخرى. إنه لا ينكر إطلاقا أن هذه اللقاءات قد طورت الفصحى وسمت بها من مرحلة ربما بدائية إلى مرحلة معقدة في بيانها وبلاغتها. إن القضية برأينا أكبر من لقاءات أدبية أو موسمية. ولكن أليس من المحتمل أن تكون الفصحى بنظامها الإعرابي السامي الأصل قائمة منذ فترة طويلة وربما ساحقة في الزمن بصورة لغوية معينة كما هي بقية اللغات السامية. أي أنها انحدرت من العربية القديمة الأولى وتفرعت عنها اللهجات القديمة وهذا هو المقبول لغويا وتطوريا؟ فاللهجات العربية تطورت عن هذه اللغة أي الفصحى بشكلها الأساسي القديم والفصحى نفسها لم تندثر بل تطورت وبقيت اللهجات تغذيها وتعززت مع مرور الأيام وبقي الولاء قائما لهذه الفصحى. فحقيقة كون الإعراب موروثاً في الفصحى يعزز من فكرة قدم الفصحى. ولقد قام نولدكه Noldeke بالتأكيد على إعرابية الفصحى(22) وأن الإعراب هذا ليس من صنعة علماء اللغة القدامى كما يرى بعض الباحثين(23). فيرجح أن العرب في الجاهلية الأخيرة قد تلقوا اللغة الفصحى بصفتها الإعرابية من أجيال عربية سابقة وتوارثتها الأجيال تباعا. إلا أنه من المؤكد أن الفصحى قد بلغت ذروتها من الناحية البيانية والتركيبية في الفترة التي سبقت نزول القرآن الكريم على الرسول صلى الله عليه وسلم. ويبقى تساؤل أخير وهو: أليس من المحتمل كذلك أن تكون قد قامت هناك مملكة أو

ممالك عربية حرصت على تبني الفصحى والمساهمة في تطويرها وبالتالي انتشرت في أرجاء الجزيرة؟ ففي هذا السياق يؤكد فالح العجمي(24) على أن مملكة كندة ساهمت في تكوين اللغة الفصحى.

3 ـ الوضع اللغوي في صدر الإسلام في الجزيرة العربية:

ومع بداية القرن السابع الميلادي بدأ القرآن الكريم يتنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم وجاء القرآن كمصدر تحد كبير للعرب وخاصة البلغاء منهم في ذلك الزمان. فالعرب هم أهل الفصاحة والبلاغة وفن القول ومع هذا يعجزون أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله أو حتى بآية. فمن الواضح في خطاب القرآن للعرب أنه موجه إليهم جميعا وبلسان عربي مبين. قال تعالى «بلسان عربي مبين»(25) و« كذلك أنزلناه قرآنا عربيا»(26) و« كذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا»(27) و« كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا»(28). كل هذا يقودنا إلى القول أن اللغة التي نزل بها القرآن الكريم كانت لغة موجودة عند العرب ومعروفة من قبلهم. وإلا كيف يتحداهم بما هو ليس عندهم؟ وهذا مما يجعلنا نميل في الوقت نفسه إلى الرأي القائل بأن اللهجات كانت قريبة من الفصحى وإلا لما فهم العرب لغة القرآن بهذه الصورة المنقولة ولحصل تعثر في التواصل اللغوي.

وفي هذه المرحلة لم يطرأ تغير جوهري كبير على الوضع اللغوي داخل الجزيرة العربية، أي فيما يتعلق بتركيبة اللهجات والفصحى. ولكن لابد من تسجيل أمرين اثنين وهما صعود اللغة الفصحى إلى أعلى مراتبها وتمكنها أكثر وأكثر في الحياة العامة وحصولها على رصيد شعبي كبير. فقد أصبحت بالإضافة إلى كونها لغة الأدب الموروث، لغة الدين الجديد من قرآن وحديث شريف. وأما الأمر الآخر فهو زيادة احتكاك اللهجات مع بعضها البعض من جهة ومع الفصحى من جهة أخرى. فهذا الدين الجديد أوجد انقلابا في حياة العرب على كافة المستويات وبدأت الوفود تصل إلى مكة أولا ثم إلى المدينة ثانيا للاستفسار عن الدين الجديد، وكذلك حدوث الصراعات السياسية والعسكرية بين أنصار الإسلام وأعدائه والتي أدت إلى الاحتكاك المستمر بين العرب في الجزيرة. وقد ترتب على هذه التطورات أن زحفت الفصحى شيئا فشيئا إلى الحياة العامة، إذ أصبح القرآن يتلى في كل مكان والجميع يتناقل أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم.

4 ـ الوضع اللغوي خارج الجزيرة العربية :

عندما خرج العرب المسلمون من الجزيرة العربية فاتحين للأمصار المجاورة كالعراق وسوريا الكبرى ومصر حصل ثاني أهم تطور لغوي تاريخي في حياة اللغة العربية بعد التطور الأول وهو نزول القرآن الكريم باللغة الفصحى. خرج هؤلاء الفاتحون إلى تلك الأمصار ومعهم بطبيعة الحال مستويان لغويان من العربية وهما لهجاتهم القبلية واللغة الفصحى المشتركة(29). ولكن لابد من الإشارة إلى أن العربية كانت معروفة إلى حد ما في تلك الأمصار بحكم التجاور الجغرافي والأهم من ذلك بحكم وجود قبائل عربية تقطن تلك الأمصار في وقت سابق مثل غسان ولخم وجذام وكلب وقضاعة وربيعة ومضر(30).

وعليه فإنه يمكن القول أن العربية كانت قد سبقت العرب الفاتحين إلى تلك الأمصار بصورة محدودة، وكانت هناك بطبيعة الحال لغات الأمصار المختلفة المنتشرة بين أهل البلاد.

أقام الفاتحون العرب في بداية الفتوحات في معسكرات خاصة ثم تحولت هذه المعسكرات إلى مدن كالكوفة والبصرة في وقت لاحق. وكان احتكاكهم مع أهل البلاد محدوداً في البداية ولكن بحكم المتطلبات الحياتية والدعوية بدأ التفاعل بين الفاتحين وأهل الأمصار. فقد احتاج الفاتحون إلى طهاة وخدم وتعاملوا مع التجار(31). أي كان لابد من حصول احتكاك وتفاعل اجتماعي بين الفاتحين وأهل البلاد وما كان ليتم هذا بدون استخدام المفتاح الأساسي لهذا الأمر وهو اللغة، فتزامن التفاعل اللغوي مع التفاعل الاجتماعي، فأصبح الوضع اللغوي يتألف ابتداء من عناصر ثلاثة وهي اللهجات القديمة والفصحى ولغات الأمصار. واللغات هذه تضم الآرامية في سوريا وأجزاء كبيرة من العراق، وفي العراق أيضا كانت هناك الفارسية والتركية والكردية وبعض اليونانية وكانت هناك القبطية واليونانية في مصر وهناك البربرية في المغرب العربي(32).

فالمعروف تاريخيا أن الفرس كانوا يسيطرون على العراق، والروم كانوا يسيطرون على سوريا ومصر قبل وصول الإسلام إلى تلك الديار.

5ـ مناقشة الفرضيات :

على ضوء ما تقدم يمكننا الآن البحث في الفرضيات التي تقوم عليها هذه الدراسة. فهنا وفي هذه المرحلة من الدراسة قد تم انجلاء عدد من الأمور التي قد رسمت علامات على الطريق للوصول إلى تقويم واضح لهذه الفرضيات. أما بخصوص الفرضية الأولى والتي تنص على أن اللهجات الحديثة قد انحدرت من الفصحى أو تشعبت عنها فقد قال بها عدد من اللغويين وخاصة العرب وعلى رأسهم علي وافي(33) وصبحي الصالح(34) وابراهيم السامرائي(35) وحسني محمود(36) ورضا الشيبي(37). وبقولهم بهذه الفرضية يفهم أن الفصحى كانت لغة الخطاب الأساسية ولغة محكية وبمرور الزمن انحرفت على الألسن في البلاد المفتوحة وتشعبت عنها أو نتجت اللهجات الحديثة. هذا الرأي كما يرى داود عبده(38) لا يؤيده الواقع اللغوي. فوجود التناقض في القواعد التركيبية في الفصحى بالإضافة إلى عدم إطرادها يقلل الكثير من احتمال كونها لغة محكية. فهي لغة الشعر والأدب الرفيع وقد تكون قد استخدمت وبصورة محدودة في التعامل الرفيع بين أبناء الطبقات العليا وأبناء القبائل(39). وهكذا كانت حالها قديما وحديثا، فمن المستبعد كما أسلفنا سابقا، أنها كانت لغة خطاب وتواصل مع بداية الفتوحات بين العرب الفاتحين أنفسهم وبينهم وبين أبناء البلاد المفتوحة كذلك، ولكنها كانت موجودة بشكل أو بآخر. إن هذه الفرضية تقوم في غالبها على الشعور والإحساس العام وعلى تجليات انطباعية ومسلمات مغلوطة أكثر منها تحليلات علمية تستند إلى أدلة حقيقية.

أما الفرضية الثانية والقائلة بانحدار اللهجات الحديثة من اللهجات القديمة فقط فهي مهمة وهناك أدلة جيدة في هذا المضمار والتي تدلل على التأثير

الكبير لهذه اللهجات على أخواتها الحديثة. فالمتتبع لعدد من الظواهر في اللهجات الحديثة يخلص إلى أهمية هذا التأثير كما فعلنا في موضع سابق(40). وكذلك ما فعل إبراهيم أنيس(41) من تبيان أن اسم الإشارة الجمع المنتشر في البلاد العربية بصيغه المختلفة مثل «هاذول» في شرق الأردن، و«ذول» في العراق و«هادول» في بلاد الشام، و«هاذوْل» في بلاد المغرب، و«دبُّل» في السودان له جذور في اللهجات القديمة. وفعل الشيء نفسه برد اسم الموصول «اللّي» وصيغة النفي مع الشين مثل «ماتخفش» و«ماجاش» إلى أصول لهجية قديمة. إلا أنه من الثابت لغويا أن اللهجات الحديثة هي لهجات تحليلية Analytic(42) إذا ما قورنت باللهجات القديمة ذات الطابع التركيبي Synthetic. وهذا يبين مدى الاختلاف في المستوى التركيبي لكلا النوعين من اللهجات. وقد يقول قائل أن هذا الاختلاف مرده إلى تغير لغوي تاريخي فهذا أمر وارد ولا يجوز رده بالكامل، لكن الترجيح على ضعف هذه الفرضية يأتي بالتأكيد على حقيقتين وهما أن هناك كلمات كثيرة في اللهجات الحديثة ذات أصول فصيحة حتى أن الكثيرين يظنها عامية ولكنها في الواقع فصيحة. بالإضافة إلى هذا هناك ظواهر لغوية موجودة في اللهجات الحديثة والتي لا أصل لها في الفصحى ولا في اللهجات القديمة بل ترجع في أصولها إلى لغات الأمصار من فارسية وآرامية وغيرها كما سنبين ذلك لاحقا.

أما الفرضية الثالثة والتي ترى انحدار اللهجات من لغات الأمصار، فإنه ليس من المعقول تقبل هذه الفرضية لأن اللهجات ظاهرها عربي وباطنها عربي عدا ما تحمله من ظواهر غير عربية. فانحدار لغة من اللغة الأم لابد وأن يحمل الصفات التركيبية الأساسية للغة الأم كما هي اللغات الرومانسية المنحدرة من اللاتينية أو اللغات السامية المنحدرة من السامية الأم. وقياسا على هذا فإننا لا نرى صحة لهذه الفرضية إذا نحن قارنا المستوى التركيبي للهجات الحديثة مع المستويات التركيبة للغات الأمصار من آرامية وفارسية وغيرها. إنه لا ينكر أن اللهجات الحديثة تعج بالمفردات ذات الأصول الغير عربية(43) ولكن لا يعني هذا انحدار هذه اللهجات من تلك اللغات. انظر مثلا إلى الانجليزية كم اقْترضت من اللغات الأخرى وانظر إلى عدد المفردات العربية الموجودة في الأوردية وغيرها.

أما الفرضية الرابعة والتي ترى أن اللهجات العربية قد انحدرت من لغة مشتركة The Arabic Koine خلال المرحلة الإسلامية الأولى والقرون التي تلت ذلك فقال بها تشارلز فيرجسون Charles Ferguson، العالم اللغوي المهتم بالعربية. يقول فيرجسون بهذا الصدد «إن اللهجات العربية الحديثة انحدرت من لغة سابقة من خلال شكل أو مستوى لغوي معين يسمى اللغة المشتركة أو السائدة والتي كانت غير متطابقة مع اللهجات السابقة والتي اختلفت في الوقت نفسه عن العربية الفصحى في مجالات مهمة ولكنها استخدمت جنبا إلى جنب مع اللغة الفصحى خلال القرون الأولى للحقبة الإسلامية»(44) يرى فيرجسون أن اللهجات الحديثة هي استمرار لهذه اللغة المشتركة. وعن بداية هذه اللغة المشتركة يقول فيرجسون «أنه من المرجح جدا أن بدايات هذه اللغة قد وجدت قبل التوسع الكبير للعربية مع انتشار الإسلام، ولكن يبدو محتملا كذلك أن التطور

الكامل لهذه اللغة المشتركة تزامن مع هذا التوسع»(45).

وفي معرض البرهنة على صحة فرضيته بيّن فيرجسون أن هناك ظواهر صوتية وصرفية معينة مشتركة بين اللهجات العربية الحديثة التي لا يوجد لها أصل في العربية الفصحى. وعليه فإنه ليس من المعقول أن تكون هذه الظواهر قد فقدت تماما من الفصحى واستمرت في اللهجات. من هذه الظواهر التي ذكرها هي فقدان المثنى ووجود التلتلة وإعادة تركيب الأفعال المضعفة وفقدان المفاضلة المؤنثة ثم اندماج الضاد والظاء وإلى غير ذلك من الظواهر الأخرى(46).

على أية حال فقد تعرضت هذه الفرضية إلى انتقادات من عدد من اللغويين الذين نسفوا هذه الفرضية من أساسها وخاصة فيما يتعلق بالظواهر التي قدمها فيرجسون. فقد أشار كل من بلاو وكوهين Cohen وكورينت Corriente إلى أن هذه الظواهر التي قال بها فيرجسون لا تصلح دليلا مقنعا على وجود اللغة المشتركة. فقد بين بلاو(47) بأن ست عشرة ظاهرة من الظواهر التي قال بها فيرجسون غير موجودة في لهجات البدو واللهجات الحديثة. من ناحيته أشار كوهين(48) إلى أن عدداً من هذه الظواهر غير موجود أصلا في اللهجات الحديثة والبدوية. أما كورينت(49) فقد وجد أن واحدة من هذه الظواهر موجود في اللهجات الحديثة والبدوية. أما بلوك Bloch فقد خلص إلى أن فكرة فيرجسون غير قابلة للبرهنة(50).

من ناحيتنا فإننا نود القول إلى أنه لا يمكن أن تختفي لغة مشتركة وسائدة مثل تلك التي تحدث عنها فيرجسون دون أن تترك آثارا فعلية في تاريخ العربية بصورة واضحة. علاوة على ذلك فإن اللغويين العرب القدامى لم يأتوا على ذكرها إطلاقا، بل كل ما ذكروه هو الفصحى واللهجات القديمة ثم ما سموه بالعاميات الناشئة في الأمصار. ومن الغريب أن نرى فيرجسون يحاول تجنب الخوض في تحديد مكان وزمان وجود هذه اللغة المشتركة سوى ما ذكره بصورة عامة وفضفاضة عن زمان وجودها، بل إنه يكتفي بالتركيز على البرهنة على وجودها في المقام الأول وهذا بالطبع غير كافٍ. إذ كيف يمكن البحث في ظاهرة لغوية ما دون محاولة تحديد مكان وزمان وجودها؟ يقول فيرجسون معللا هذا الموقف «إن صحة الدراسة لا تعتمد على أي تحقيق تاريخي للزمان والمكان متى وحيث وجدت اللغة المشتركة، بقدر ما إن التوثيق التاريخي لحقيقة وجود اللغة المشتركة هو الأهم للتأكيد على صحة الأطروحة»(51).

وأخيرا فإن الفرضية الخامسة ترى أن اللهجات الحديثة هي نتاج عناصر ثلاثة وهي الفصحى واللهجات القديمة ولغات الأمصار. وهذه تفاعلت جميعا بشكل مستمر من خلال التأثر والتأثير. وهناك من قال بهذه الفرضية دون إعطاء تفصيلات للمراحل التي مرت من خلالها هذه اللهجات(52). على أية حال يبدو أن هذه الفرضية هي الأكثر قبولا نظرا لواقعيتها ولأخذها في الاعتبار الأدلة التاريخية المتمثلة في وجود العناصر الثلاثة جنبا الى جنب ووجود آثار هذه العناصر بصورة جلية في اللهجات الحديثة. ولكن ما هي المراحل التي سبقت تشكل

اللهجات وبالتالي أخذت وضعها النهائي؟ نحن نرى أن اللهجات الحديثة تشكلت عبر مرحلتين رئيسيتين وهما مرحلة التهجين والتوليد.

أولا : مرحلة التهجين Pidginization

في هذه المرحلة ومن جراء التقاء العناصر اللغوية الثلاثة مع بعضها البعض وتفاعلها بشكل مستمر بسبب الحاجات التي مر ذكرها وعلى رأسها الحاجات الإجتماعية وكذلك حاجة أهل البلاد المفتوحة للتعرف على الثقافة الجديدة والدين الجديد نشأ مستوى لغوي محدود وبسيط يحوي صفات لغوية من العناصر الثلاثة. وهذه برأينا شكلت البذرة الأولى التي نبتت منها اللهجات الحديثة. يقول فك واصفا الوضع اللغوي الجديد على النحو التالي «نشأت بالضرورة لغة للتفاهم Lingua Franca أو Pid-gin أو غيرهما من اللغات المصطنعة لتقريب التفاهم عند الضرورة. وقد استعانت لغة التفاهم المذكورة بأبسط وسائل التعبير اللغوي، فبسطت المحصول الصوتي، وصوغ القوالب اللغوية، ونظام تركيب الجملة ومحيط المفردات وتنازلت عن التصرف الإعرابي، واستغنت بذلك عن مراعاة أحوال الكلمة وتصريفها. كما ضحت بالفرق بين الأجناس النحوية واكتفت ببعض القواعد القليلة الثابتة عن مواقع الكلمات في الجملة للتعبير عن علاقات التركيب»(53).

وهذه اللغة البسيطة لم تكن واحدة في الأمصار المفتوحة لأنه لم يكن في تلك الأمصار نفس القبائل العربية أو الفاتحين العرب. هذا من جهة، أما من جهة أخرى فإن لغات الأمصار لم تكن متشابهة بل كانت مختلفة. إنه يمكن القول بأن كل مصر أنتج لغة هجينة في بادىء الأمر ذات سمات متميزة ومختلفة بعض الشيء عن اللغة الموجودة في البلد المجاور. علما بأنه لا يمكن نفي وجود تأثير مشترك واحد في بلدين مختلفين كما حصل في العراق وسوريا حيث كانت الآرامية دارجة بني العامة. أما ما يقال(54) عن نشوء مستوى لغوي بدوي مشترك ومحكي في المعسكرات التي أقيمت للجيوش الفاتحة وانطلقت منه اللهجات الحديثة والفصحى المتأخرة فهو أمر مشكوك فيه(55). فلا يعقل أن يكون الفاتحون قد انغلقوا في هذه المعسكرات مدة طويلة وبالتالي أفرز هذا الوضع المستوى اللغوي المذكور. فتحرك الفاتحين وتنقلهم في المناطق وتفاعلهم مع محيطهم لم يعط الفرصة لنشوء مثل هذا المستوى اللغوي. وأما عن نشوء الفصحى المتأخرة من هذا المستوى اللغوي فأمر غير مقبول لأن الفصحى كانت أصلا قائمة وواصلت المسيرة مع بداية الفتوحات وحتى هذا اليوم. ولهذا فإننا نرى أن رأي بلاو في هذا الصدد أكثر دقة من غيره حين يقول معلقا على رأي فك بهذا الخصوص «على الرغم من معقولية حل فك لهذه المسألة، إلا أن هذا الحل يبدو متناقضا سواء مع الاتجاه العام للتطور اللغوي أو مع النصوص المستقاة من المصادر التاريخية»(56) وعليه فهو يضيف أنه بدلا من هذا علينا «أن نفترض أن الانتصارات العظيمة والهجرات أثرت على اللهجات العربية القديمة وانتجت تنوعا في اللهجات فقط ولكنها لم تنتج لهجة بدوية مشتركة»(57). ويتّبنى الرأي نفسه كوهين الذي يرى أن اللهجات الحديثة نشأت مستقلة عن بعضها البعض ولم تنحدر من مستوى لغوي مشترك(58).

إذن يمكن القول أنه كانت هناك لغة هجينة في العراق مكونة من عناصر لغوية عربية بالإضافة إلى العنصر الآرامي وربما اليوناني وبعض المخلفات اللغوية السامية كالكنعانية والأوغاريتية. وهنا لابد من الإشارة إلى حقيقة هامة وهي أن التحول الى العربية في سوريا الكبرى وتعلم العربية من قبل أهلها ربما كان أسرع منه في البلدان الأخرى نظراً لصلة القربى اللغوية التي تربط العربية بالآرامية(59). فمن المرجح أن الأمر كان سهلا. أما في مصر فكانت اللغة الهجينة مشكلة بالإضافة الى العناصر العربية من العناصر القبطية واليونانية، وفي المغرب وفي وقت لاحق من العنصر العربي والبربري.

لقد كان دور القبائل العربية النازلة في الأمصار المفتوحة حاسما في تحديد طبيعة اللغة الهجينة في تلك البلاد وعليه فإن هذه اللغة الهجينة تشكلت تبعا لنوع اللهجة العربية القبلية التي استوطنت تلك الديار. ولقد أشار الجاحظ إلى هذا الأمر حين قال «وأهل الأمصار إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب»(60). ولقد أدى هذا الأمر لاحقا إلى تباين في اللهجات العربية الحديثة(61). من ناحية أخرى لابد من الأخذ بالحسبان التأثير الكبير الذي أحدثه تنقل القبائل العربية وعدم استقرارها في منطقة واحدة وكذلك تحرك الجيوش من بلد إلى بلد آخر وما يتبع ذلك من تفاعلات لغوية إضافية إلى اللغة الهجينة. ومن الأمثلة التي أوردها الجاحظ على هذه اللغة البسيطة قصة الحجاج المعروفة مع تاجر الدواب حين يقول التاجر في رده على الحجاج «شريكانا في هوازها، وشريكانا في مداينها، وكما تجي تكون»(62) ومعنى ذلك شركاؤنا بالأهواز والمدائن يبعثون إلينا بهذه الدواب فنحن نبيعها على وجوهها. فالملاحظ أن المتحدث أضاف علامة الجمع الفارسية «آن» إلى اللفظ العربي المحرف وبذلك نشأت هذه الوضعية الهجينة، كلمة عربية ونهاية جمع فارسية. لقد استمرت هذه اللغة في التشكل فترة من الوقت بحيث يصعب زمانيا تحديد تاريخ دخول المرحلة التالية من التشكيل.

ثانيا : مرحلة التوليد Creolization

وفي هذه المرحلة وبعد أن أخذت اللغة الهجينة البسيطة نوعا ما من الاستقرار الذاتي الداخلي، أي تشكل كيانها اللغوي والخارجي عندما أصبحت لغة لها متكلموها، استمر الطابع العربي في الهيمنة على هذه اللغة لعدة أسباب وعلى رأسها كون العربية اللغة الرسمية للدولة والحكم. إلا أن هذه اللغة استمرت في اقتراض المفردات وحتى الأصوات من لغات الأمصار. ففي هذه المرحلة تولدت اللهجات الحديثة كمستويات لغوية متميزة ولكنها بقيت عرضة للتأثر بشكل كبير. أما بخصوص الفصحى كقواعد وتراكيب فإننا لم نتأثر كثيراً بهذا الوضع ذلك أن اللغة قد قعدت قواعدها وسطرت في الكتب من قبل علماء اللغة، والدليل على ذلك أنها وصلتنا كما هي دونما أي تغيير يستحق الذكر. أما الذي أصابها التغيير الكبير فهي اللهجات المحكية التي كان لها السهم الوافر في تشكيل اللهجات الحديثة، فهي التي كانت وسيلة الخطاب والتواصل لدى العرب في بداية الفتوحات ثم حصل من تغييرات لغوية كبيرة فأصبحت اللهجات القديمة ظاهرة في اللهجات الحديثة بصورة مبعثرة هنا وهناك.

ولقد تفاوت تأثير الوضع السياسي في الدولة الإسلامية على تكوين اللهجات من فترة إلى أخرى، ففي ظل الدولة الأموية كان الاهتمام باللغة العربية كلغة بدوية نقية أمراً هاما ولذلك تنافس الحكام الأمويون فيما بينهم من أجل الحفاظ والغيرة على العربية حتى أن هذه الدولة وصفت بأنها عربية أعرابية(63) . أما في ظل الدولة العباسية والتي وصفت بأنها أعجمية خراسانية(64) فكان الوضع مختلفا، إذ حصلت تطورات اجتماعية وسياسية وثقافية هامة ساعدت بشكل مباشر وكبير على تكوين اللهجات. ففي هذه المرحلة بدأت الجماعات الأعجمية « تتدفق على المراكز العربية في الشام والعراق والحجاز، وتنتشر في المدن والأمصار، وتقتحم على العرب بيوتهم ومنازلهم وحرمهم، فتكون إماءً مرة، وعبيداً مرة، وتكون جواري حينا وخدما حينا آخر.. وما أكثر ما كانت الجواري والإماء موضع التسري والإنجاب »(65) حتى لقد وصل الأمر بالسلاجقة لأن يجعلوا من اللغة الفارسية اللغة الرسمية والعربية لغة الدين والفلسفة(66) .

وفي هذه المرحلة، أي العباسية، وما تلاها من انقسامات واستقلال الأقاليم تميز الوضع اللغوي.بعدد من السمات والتي رسخت تكوين اللهجات وطرح علماء اللغة أموراً وآراء جديدة لا تتفق مع ما أقره علماء اللغة السابقون. ومن هذه الآراء قول ابن جني أن اللغات كلها حجة وكذلك إفراده فصلا في أحد كتبه بعنوان « أغلاط العرب »(67) . فلم تعد العربية في هذه المرحلة تؤخذ عن أهل البادية ولم يعد البدو مقياس الفصاحة، وتم التشكيك في لهجات الأعراب فبدأ الطابع البدوي الذي اصطبغت به العربية يتلاشى ولم تعد العربية تؤخذ بالسليقة ولكن بالتعلم فألّفت كتب من أجل خدمة هذا الغرض(68) . وفي هذه المرحلة ترسخت اللهجات الناشئة من حيث تركيباتها وأنظمتها وغدت نموذجا مستقلا له سماته اللغوية والتي تختلف عن الفصحى وعلى رأس هذه السمات هو خلوها من الإعراب. وبالمناسبة فإنه يمكن تفسير فقدان الإعراب من اللهجات الحديثة من زاويتين الأولى هي أنه من الثابت لغويا وتاريخيا أن اللغات المعربة المحكية تميل مع مرور الزمن إلى التخلص من الإعراب كما حصل في اللغات الرومانسية المتفرعة عن اللاتينية المعربة وكذلك اللهجات العربية الحديثة في جزيرة العرب. أما الثانية فهي أن اللغات التي احتكت بها اللهجات في الأمصار المفتوحة كانت لغات غير معربة كالفارسية والآرامية. وهذا بالتالي أثر بشكل مباشر على وضع اللهجات الحديثة. أما زعم ابراهيم أنيس(69) في أن عدم وجود الإعراب في اللهجات الحديثة دليل على عدم وجوده في اللهجات القديمة ففيه تجاهل لحقائق التطور اللغوي سواء كان لأسباب داخلية ذاتية أم خارجية كتأثير اللغات على بعضها البعض. لقد أصبحت اللهجات المولدة ذات طبيعة تحليلية مشابهة للغات الأمصار. وقد ترتب على هذا الوضع الجديد بروز ما يعرف بالأزدواجية اللغوية Diglossia في المجتمعات المفتوحة كما بينا ذلك في موضع آخر(70) . يلاحظ في هذه المرحلة كذلك أنه على الرغم من تمكن اللهجات العامية وانتشارها بين الناس وبصورة كبيرة إلا أنها لم تنافس الفصحى في الكتابة والثقافة وذلك بسبب أن الأولى لم تستخدم لهذه الأغراض إلا في الحالات النادرة كما في حالة

الأدب الشعبي وهذا ما جعلها في تطور مستمر، إذ لم يعمل لنظامها اللغوي أي تقعيد من قبل اللغويين.

إنه من الثابت أن تأثير لغات الأمصار في تشكيل اللهجات الحديثة كان كبيرا وواضحا في مواضع كثيرة، كما كان واضحاً في الأصوات والمفردات والصرف والنحو. وهذا الأمر جلي على سبيل المثال في التأثير الفارسي على العاميات العربية. فالفارسية لغة تحليلية تماما كما هي العاميات أي اللهجات هذه الأيام، فهي خالية من الإعراب وكذلك أدوات التعريف وعلامات الجنس وصيغة التثنية. إضافة الى ذلك فإن اللهجات تأثرت بصيغة المطابقة في الفارسية بين الفعل والفاعل والذي هو حتمي في هذه اللغة ويختلف عنه في الفصحى. وبلغ التأثير الفارسي إلى الأصوات، فنطق بعض الكلمات المنتهية بتاء مربوطة يسبقة كسر في حسِنة وعربِة(71)، وروي أن أبا مسلم الخراساني لم يستطع النطق بالقاف. فبدلا من «قلب» و«قمر» قال «كلت» و«كمر»(72). وكذلك قلب الضاء ظاء من قبل غير العرب حيث أن الأولى ثقيلة وصعبة النطق(73). وحصل كذلك تخفيف للهمز كما كانت تصنع اللهجة الحجازية سابقا. ولوحظ كذلك عدم التفريق بين الذال والدال بين غير العرب وهذا مرده إلى أن الآرامية التي يوجد بها أحد الصوتيْن كفونيم والآخر كالفون(74). أما عن المفردات الفارسية والآرامية والتركية والقبطية والبربرية التي دخلت العربية فهي كثيرة جداً.

في وصف حي للوضع اللغوي في زمانه يقول ابن خلدون في مقدمته «إعلم أن عرف التخاطب في الأمصار وبين الحضر ليس بلغة مضر القديمة ولا بلغة أهل الجيل بل هي لغة أخرى قائمة بنفسها بعيدة عن لغة مضر وعن لغة هذا الجيل العربي الذي لعهدنا وهي عن لغة مضر أبعد فإما أنها لغة قائمة بنفسها فهذا ظاهر يشهد له ما فيها من التغاير الذي يعد عند صناعة أهل النحو لحنا وهي مع ذلك تختلف باختلاف الأمصار في اصطلاحاتهم. فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب وكذا أهل الأندلس معهما»(75). وفي موضع آخر يقول «إعلم أن ملكة اللسان المضري لهذا العهد قد ذهبت وفسدت لغة أهل الجيل كلهم مغايرة للغة مضر التي نزل بها القرآن وإنما هو لغة أخرى من امتزاج العجمة بها»(76).

الهوامش والتعليقات:

(1) انظر على سبيل المثال:

أنيس، في اللهجات العربية

محمود، اللهجات العامية.. لماذا؟ وإلى أين؟

أيوب، العربية ولهجاتها.

Birkeland, Growth and Structure of Egyuption Arabic Dialect.

Ferguson, "The Arabic Koine"

Al-Toma, The Problem of Diaglossia in Arabic.

Garbell; "Remarks on the Historical Phonology..".

(2) اللهجات العربية المقصودة هنا هي اللهجات العربية الموجودة خارج الجزيرة العربية كالسورية والعراقية والمصرية والمغربية.

(3) الخصائص 379/1

(4) القبائل التي أخذ عنها الرواة هي قيس وتميم وأسد وطيء ثم هذيل حسب ما ورد في كتاب الحروف للفارابي ونقله السيوطي في المزهر 211/1.

(5) الخصائص 411/1

(6) الدراسات اللغوية عند العرب 365

(7) اللهجات العربية في القراءات القرآنية 48.

(8) مستقبل اللغة العربية المشتركة 7.

(9) الجندي، اللهجات العربية في التراث 16-22

(10) انظر على سبيل المثال :

ضيف : تاريخ الأدب العربي 133-134

عون : اللغة والنحو 43-44

(11) الصاحبي في فقه اللغة، 52

(12) الاصول 74-76

(13) اللهجات العربية الغربية القديمة 48

(14) المصدر السابق 49

(15) أسرار اللغة 202-203

(16) فصول في فقة العربية 91

(17) ابحاث في اللغة 79-80

(18) العربية 19

(19) Blau, The Role of Bedouins, 45

(20) المصدر السابق 43

(21) الاصول 77

(22) قام بذلك من خلال الكتاب الذي أسماه العربية الكلاسيكية :
Das Klassische Arabisch; 1910

(23) أهم هؤلاء الباحثين المحدثين هو إبراهيم أنيس في كتابه « أسرار اللغة » 198-211.

(24) ابعاد العربية 78

(25) الشعراء 195

(26) طه 113

(27) الشورى 7

(28) فصلت 3

(29) عبد الرحمن، لغتنا والحياة، 55. سلوم، دراسة اللهجات العربية القديمة، 13.

(30) امين، فجر الإسلام 84

ولفنسون : تاريخ اللغات السامية 204-205

(31) العربية 20

(32) أنيس، اللغة بين القومية والعالمية 276-278

(33) فقه اللغة 132

(34) دراسات في فقه اللغة 360

(35) التطور اللغوي التاريخي 29

(36) اللهجات العامية.. لماذا؟ والى اين؟ 24

(37) بين الفصحى ولهجاتها 71

(38) ابحاث في اللغة 82

(39) حجازي، علم العربية، 235

(40) حمد، أضواء على الظواهر الصوتية في اللهجة الفلسطينية

(41) في اللهجات العربية 235-241

(42) Blau, The Beginning of the A rabic Diglossia,

(43) انظر على سبيل المثال في المصادر التالية :

شير، كتاب الألفاظ الفارسية المعربة.

السامرائي، دراسات في اللغتين السريانية والعربية

Bishai, The Coptic Influence on Eguyption Arabic.

(44) The Arabic Koine, 616

(45) المصدر السابق 617

(46) المصدر السابق 620-630

(47) Blau, The Emergence and Linguistic Background of Judaeo - Arabic, 17

(48) Cohen, "Koine; Langues Communes et Dialectes Arabes" 115-122

(49) Corriente, "From Old Arabic to Classical Arabic", 76-77

(50) Bloch, "The Vowels of the Imperfect Preformatives in the Old Dialects of Arabia" 22-23.

(51) The Arabic Koine, 618

(52) سلوم، دراسة اللهجات العربية القديمة 13

عبد الرحمن، لغتنا والحياة، 55

الموسى، قضية التحول الى الفصحى في العالم العربي الحديث، 70

(53) العربية 20

(54) المصدر السابق 19

(55) هذا ما يرفضه المستشرق الالماني انطون شبيتالر الذي وردت أقواله في تعليقات قدم بها كتاب « العربية » ليوهان فك ويقول ما نصه « ومن غير المقبول عندي كذلك.. أن تكون لغة البدو المشتركة الناشئة في أماكن مختلفة.. أساسا خرجت منه عربية القرون المتأخرة الفصحى » العربية 10

(56) Blau, "The Role of the Bedouins" 115

(57) المصدر السابق 44

(58) "Koine, Langues Communes et Dialectes A rabes" 115

(59) علم اللغة العربية 240

(60) الجاحظ، البيان والتبيين 18/1

(61) في اللهجات العربية 11

(62) البيان والتبيين 161-162

(63) المصدر السابق 366/3

(64) خليل، المولد، 286

(65) فيصل، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول 254

(66) العربية، 13

(67) الخصائص 3/283-332

(68) ومن هذه الكتب: أدب الكاتب لابن قتيبة، كتاب الفصيح لثعلب والألفاظ الكتابية للهمداني.

(69) أسرار اللغة 198-211

(70) Hamad; The Beginning of the A rabic Diglossia

(71) الحمو، حول واقعنا اللغوي في الماضي والحاضر 72.

(72) البيان والتبيين 71/2

(73) العربية 111

(74) علم اللغة العربية 249

(75) المقدمة 617-618

(76) المصدر السابق 619

المراجع العربية

ـ القرآن الكريم

ـ ابن جني، أبو الفتح عثمان. الخصائص. تحقيق محمد علي النجار القاهرة: دار الكتب المصرية. 1952.

ـ ابن خلدون، عبد الرحمن. المقدمة. بيروت: دار الجيل. بدون تاريخ.

ـ ابن فارس، أبو الحسين أحمد. الصاحبي في فقه اللغة. تحقيق مصطفى الشويمي. بيروت: مؤسسة أ. بدران للطباعة والنشر 1963.

ـ ابن قتيبه، أدب الكاتب، ليدن: نشر ماكس جرونزت 1901.

ـ آل ياسين، محمد. الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة. 1980.

ـ أمين، أحمد. فجر الإسلام. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية 1961.

ـ أنيس، إبراهيم. مستقبل اللغة العربية المشتركة. القاهرة: معهد الدراسات العربية العالية 1960.

ـ اللغة بين القومية والعالمية. القاهرة: دار المعارف 1970.

ـ في اللهجات العربية. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية 1973.

ـ من أسرار اللغة. القاهرة: مطبعة الأنجلو المصرية 1985.

ـ أيوب، عبد الرحمن. العربية ولهجاتها. القاهرة: مطابع سجل العرب. 1968.

ـ ثعلب، كتاب الفصيح. ليبزج: نشر بارت، 1878.

ـ الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين. تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي 1968.

ـ الجندي، أحمد. اللهجات العربية في التراث. ليبيا: الدار العربية للكتاب 1978.

ـ حجازي، محمود. علم اللغة العربية. الكويت: وكالة المطبوعات 1973.

ـ حسان، تمام. الأصول. القاهرة: مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب 1982.

ـ حمد، عبد الله، أضواء على بعض الظواهر الصوتية في اللهجة الفلسطينية وعلاقتها باللهجات العربية القديمة (للنشر).

ـ الحمو، أحمد. حول واقعنا اللغوي في الماضي والحاضر. مجلة المستقبل العربي 16، 1987 ص.ص 67.85 بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

ـ خليل، حلمي. المولد. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. بدون تاريخ.

ـ رابين، حاييم. اللهجات العربية الغربية القديمة. ترجمة عبد الرحمن أيوب. الكويت: مطابع ذات السلاسل 1968.

ـ الراجحي، عبده. اللهجات العربية في القراءات القرآنية. الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية 1995.

ـ السامرائي، ابراهيم. التطور اللغوي التاريخي. دمشق: دار الأندلس 1981.

ـ دراسات في اللغتين السريانية والعربية بيروت: دار الجيل 1985.

ـ سلوم، خالد. دراسة اللهجات العربية القديمة. بيروت: عالم الكتب 1986.

ـ السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين. المزهر في علوم اللغة. تحقيق جاد المولى وزملاؤه. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1958.

ـ الشيبي، محمد. بين الفصحى ولهجاتها. مجلة مجمع اللغة العربية. الجزء التاسع 1957 ص.ص. 70-75.

ـ شير، إدّى. كتاب الألفاظ الفارسية المعربة. القاهرة: دار العرب 1988.

ـ الصالح، صبحي. دراسات في فقه اللغة. بيروت: دار العلم للملايين 1986.

ـ ضيف، شوقي. تاريخ الأدب العربي ـ العصر الجاهلي. القاهرة:

دار المعارف 1961 .

ـ عبد التواب، رمضان . فصول في فقه العربية . القاهرة : مكتبة الخانجي 1987 .

ـ عبد الرحمن، عائشة . لغتنا والحياة . القاهرة : دار المعارف 1971 .

ـ عبده، داود . أبحاث في اللغة . بيروت : مكتبة لبنان 1973 .

ـ العمجمي، فالح . أبعاد العربية : دراسة في فقه اللغة العربية وتاريخ تطورها وعلاقتها ببقية اللغات السامية . الرياض . مطابع الناشر العربي 1994 .

ـ عون، حسن . اللغة والنحو . الاسكندرية : مطبعة رويال، 1952 .

ـ فك، يوهان . العربية . ترجمة رمضان عبد التواب . القاهرة : مكتبة الخانجي 1980 .

ـ فيصل، شكري . المجتمعات الاسلامية في القرن الأول . بيروت : دار العلم للملايين 1966 .

ـ محمود، حسني . اللهجات العامية . . لماذا؟ وإلى أين؟ اللسان العربي 20، 1983 . ص.ص . 17-31 .

ـ الموسى، نهاد . قضية التحول إلى الفصحى في العالم العربي الحديث . عمان : دار الفكر والنشر والتوزيع 1987 .

ـ الهمداني، الألفاظ الكتابية . بيروت 1985 .

ـ وافي، علي . فقه اللغة . القاهرة : دار نهضة مصر 1972 .

ـ ولفنسون، أ . تاريخ اللغات السامية . بيروت : دار القلم 1980 .

المراجع الأجنبية

- Birkeland, H. (1952) Growth and Structure of the Egyptian Arabic Dialect. Oslo : I Kommisjon Hos Jacob Dybwad.

- Bishai, W. (1959) New York : The Coptic Influence On Egyptian Arabic. Unpublished Ph. D Dissertation. The John Hopkins University.

- Blau, J. (1963) "The Role of the Bedouins as Arbiter in Linguistic Questions and the Mas'ala As - Zunburiyyah". Journal of Semitic Studies 8, : 42-51.

— (1965) The Emergence and Linguistic Background of Judaeo - Arabic : A Study in the Origins of Middle Arabic. London : Oxford University Press.

— (1997) "The Beginnings of the Diglossiai A Study of the Origins of Neoarabic" Afroasiatic Linguistics 4 : 175-202.

- Block, A. (1967) "The Vowels Of the Imperfect Preformatives in the Old Dialects of Arabia". Zertschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft. 117 : 22-29.

- Cohen, D. (1970) "Koine, Langues Communes et Dialectes Arabe's". In David Cohen, (ed) Etudes de Linguistique Semitique et Arab. The Hague : Mouton Co., pp. 105-125.

- Corrient, F. (1976) "From Old Arabic to Classical Arabic Through the Pre - Islamic Koine : Some Notes on the Native Grammarians'Sources, Attitudes and Goals". Journal of Semitic Studies 21 : 62-98.

- Ferguson, C. (1959) "The Arabic Koine "Language, 35 : 616-630.

- Garbell, I. (1958) "Remarks on the Historical Phonology of an Eat Mediterranean Arabic Dialect" Word, 14 : 303-345.

- Hamad, Abdullah. (1994) "The Beginning of the Arabic Diglossia". Al-Lisan Al-Arabi 38 : 10-17.

- Noldeke, The. (1910) Das Klassische Arabisch und die Arabischen Dialekte, in Beitraged zur Semitischen Sprach wissenschaft.

- Al-Toma, S. (1969) The Problem of Digbssia in Arabic. Cambridge : Harvard University Press.

المؤثرات الفاعلة في التراكيب اللغوية

(دراسة موجزة عن طبيعة الذات اللغوية للسان العرب)

د. / لطيف الخياط(*)

ملخص البحث :

تعتبر اللغة المحور الرئيسي (من بين أمور أخرى) الذي ترتكز عليه ثقافة وتراث أي أمة حية . وهناك مؤشرات كثيرة تبين أن اللغة العربية في الوقت الحاضر تعاني الكثير من التغيرات السلبية المتشائمة لبعض اللغويين والأدباء كنتيجة حتمية للتبدلات السريعة التي يشهدها العالم في مجالات عديدة من أساليب الحياة اليومية وبالذات تأثير تلك التبدلات على اللغة التي تلازمنا أبديا كوجود حي تنعكس عليه كل المردودات اليومية وتقلباتها المستمرة .

نعتقد أن أكثر العوامل « الطبيعية » المؤثرة في اللغات تعطي نتائج سطحية نسبيا تتماشى مع التبدلات الطبيعية التي تمس كل جوانب الحياة ومنها اللغة المنطوقة . ومثل هذه النشاطات الفاعلة تعتبر أمرا مفرغا منه . وتشمل هذه التبدلات اللغوية ما يأتي :

1 ـ دخول مفردات قادمة من خارج اللغة الأم في أكثر الاستعمالات اللغوية اليومية دون تبدل جوهري في تراكيبها ومعانيها .

2 ـ النطق وعملية الكلام وما يصاحب ذلك من تراكيب نغمية ونبرات غريبة على مستوى المفردة والعبارة والجملة وحتى « النظم » النحوية والصوتية السطحية "Surface Structure" .

3 ـ المعالم الدلالية ومعاني المفردات المتغيرة بتغيير المفاهيم والمصطلحات المستعملة يوميا .

4 ـ الأساليب اللغوية العامة التي تشمل طريقة الكلام والخطابة والأساليب الأدبية مثل أساليب الشعر والنثر .. إلخ .

ونعتقد كذلك أن الواقع اللغوي الموضوعي الأكثر عمقا ونعني هنا النظم اللغوية الأساسية الخاصة "Deep Structures" المعروضة ضمن النظرية التوليدية التحويلية في علم اللغة الحديث تكون ثابتة نسبيا وما يدخل في النتائج اللغوية المنطوقة لتطبيق قوانين هذه النظم سليقيا يمكن أن يكون في دائرة المتغيرات

(*) جامعة بغداد / العراق ـ جامعة عمان / الاردن

الطبيعية. كذلك يحاول البحث مناقشة ما افترضناه علميا وحسب النتائج التي توصلنا إليها مع إيجاد الحلول العملية لبعض الأسئلة «المتواردة» وطرح المقترحات للحفاظ على لغتنا الأدبية - المكتوبة والمنطوقة من التحديات القاسية والتطور والتبدل السريع لنمط الحياة وبالتالي للكثير من مفاهيمنا اللغوية.

مقـــدمـــة:

هناك مؤشرات لغوية عديدة في الوقت الحاضر تعاني الكثير من التفسيرات السلبية المتشائمة نتيجة للتبدلات السريعة التي شملت مختلف مجالات الحياة اليومية، وأكثر هذه التفسيرات جاء كرد فعل طبيعي من الذين يحرصون على اللغة العربية والحفاظ عليها من عاديات الدهر وخوفا من كل ما يسيء إلى هذه الأمة ولغتها الخالدة.

في بحثنا الموجز هذا سنتناول الوحدات اللغوية على المستوى الصوتي ومستوى تشكيل المفردات وتراكيبها التي تتأثر بالعوامل الخارجية والداخلية وعمق هذه التأثيرات والتبدلات التي يمكن أن تحصل في اللغة ومدى جدية ما يحصل فعلا. كذلك سنحاول التطرق إلى العوامل غير الطبيعية التي تقف ضد الأسس والضوابط اللغوية الطبيعية بغية طمس معالمها أو استبدال نظمها بنظم مصنعة بتخطيط مسبق ومنسق للنيل من الثوابت الحضارية والتراثية عن طريق اللغة العربية وبالتالي أمة العرب.

المفهوم العام للغة الطبيعية:

إن المفهوم العام للغة يتلخص بأنها بنية معلوماتية طبيعية معقدة التراكيب مكونة من تشكيلات تجريدية متداخلة ومتشابكة تعمل ضمن نظم متطورة في أساليب تطبيقها السليقي لتوصلنا إلى المكونات والتراكيب التواصلية وتظهر لنا كلاميا تنعكس في أكثر اللغات صوريا بشكل كتابي تعرف وحداته التوصيلية بالكلمات والعبارات وبالتالي الجمل المكتوبة. وهي في الواقع حصيلة عملية التطبيق السليقي لمجموعة من القواعد المحددة على مستوى المكونات اللغوية والتي يمكن أن نسميها «أطر» أو «نماذج» "Patterns" صوتية وصرفية ونحوية. وكل إطار أو نموذج قواعدي يحمل مواصفات مميزة في الدقة المعلوماتية تعمل على إنتاج عدد غير محدد من الوحدات الكلامية التي تدخل في العبارة والجملة المقبولة منطقيا وهي في العادة مشتقة من النتاج الوظيفي للنظم اللغوية الثلاث المعروفة بالنظم الدلالية والصوتية والنحوية إلى حد ما، وتقع اللغة العربية ضمن هذه المفاهيم اللغوية.

بناء على ذلك تكون للغة العربية قابلية تعبيرية يمكن أن توصف بأنها فائقة في الدقة وبالإنتاجية اللامتناهية لأنها لغة طبيعية حية حسب مفهومنا الذي ورد أعلاه. حيث أن أية لغة حية لا تقاس فاعليتها بعدد كلماتها فحسب وإنما بحركتها التوليدية الطليقة ضمن ضوابط النظم الثلاث أعلاه والتي لا تقف عند حد سواء على مستوى المفردة أو العبارة أو الجملة. وهذه الفاعلية المنتجة والتي لا تتوقف عبر الأجيال هي في الواقع حصيلة للعدد المحدود من النماذج اللغوية الصرفية/الصوتية والنحوية والدلالية. فالاشتقاق في اللغة العربية مثلا صفة دائمة من العطاء في تركيبة المفردات. كذلك

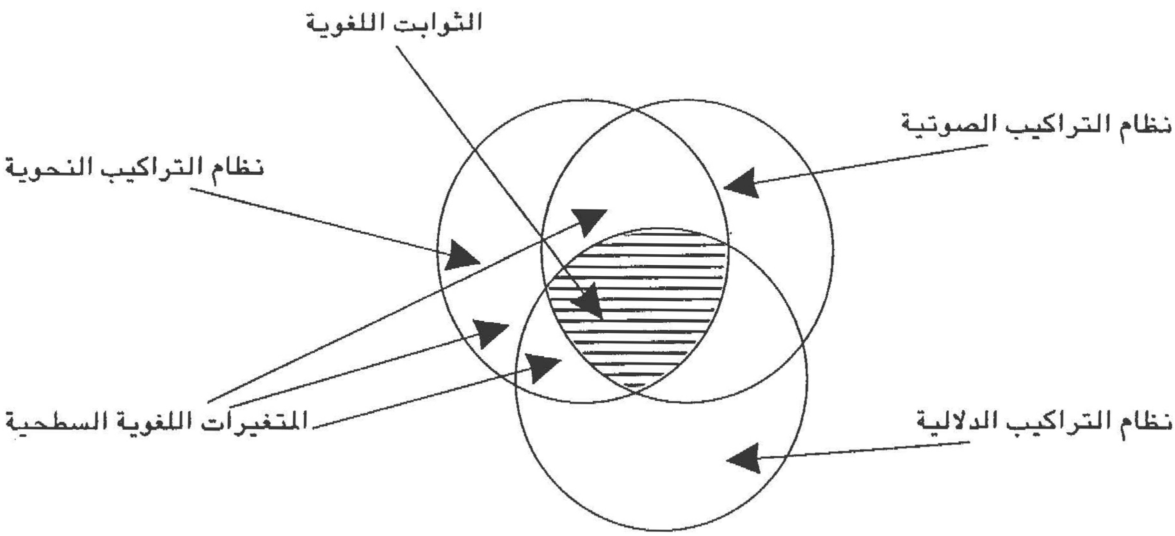
القواعد النحوية والدلالية التي تعمل على ديمومة العطاء للعبارات والجمل المستجدة اللامتناهية وهي صفة للغتنا مستمرة مع الحياة في الماضي والحاضر وستبقى كمصدر توليدي صفته العامة الاستمرارية في الانتاج والتجديد، لهذا فلقد ورثنا واحدة من أغنى اللغات الطبيعية المعروفة على المستوى الكلامي والكتابي والتي زودتنا بكل ما يسهل عملية التواصل اللغوي وجعلت نقل الفكرة والمعلومة إلى الآخرين عملية طبيعية سلسلة لا لبس فيها.

الثوابت والمتغيرات في اللغة الطبيعية:

إن البحوث اللغوية الحديثة تتركز على النظام الدلالي كونه النواة التي تتمحور حولها النظم والأطر النحوية والصرفية والصوتية والتي بدورها تلعب دور البنية الأساسية في تقرير شكل ومعنى المفردة وبالتالي عملها ومكانها اللغوي في العبارة أو الجملة (Cf. Jackendoff pp.4-10). وهكذا فإن الدراسات الدلالية الحديثة لأية لغة طبيعية هي في الواقع دراسة التراكيب والمكونات الفكرية لتلك اللغة وإن مهمة النظم اللغوية وأطرها هي تزويد الهيكل الأساسي المنظم لهذه الأفكار وإخراجها إلى واقع الحال كمجموعة من المعلومات المنطوقة إنسيابيا (Ibid; cf. Lackoff p.25) وبالتالي تكتب حسب نظم موضوعة لهذا الغرض بتميز تراثي عميق نطلق عليه لفظة «لغة». لذا نرى أن الواسطة المسؤولة عن كيفية سير عملية التواصل اللغوي بين أبناء المجتمع هي في الواقع تدور حول المحور الدلالي.

وفي هذا المجال يمكن أن نتطرق إلى الثوابت والمتغيرات في التراكيب اللغوية التي هي في الواقع حصيلة التطبيق غير الواعي للنظم الثلاث آنفة الذكر. وهكذا نرى أن الأطر أو النماذج القواعدية تعمل تكافليا على البنية القاعدية (البنية العميقة Deep Structure) والتي تقع ضمن الثوابت اللغوية. وأن ما ينتج عن عمل هذه الأطر يعرف بالكلام (وما يقابلها تمثيلا يعرف بالكتابة) وهو الناتج السطحي الأخير المعرض للتأثيرات الخارجية وهو ما نطلق عليه بالمكونات اللغوية القابلة للتغير نسبيا. إن عملية النطق هذه لا يمكن أن تتم دون أن يكون للدماغ ونظم الأعصاب دور فاعل مع العلاقة الوثيقة بالعضلات وتحركها في كل مرحلة من مراحل عملية النطق. ومن الطبيعي فإن كل تغيير ولو جزئي في أية مرحلة يكون ناتجا عن حصيلة ظواهر عاملة ومؤثرة تؤدي بدورها إلى التأثير في اللغة وتغير بعض معالمها النطقية.

ولتوضيح ما جاء أعلاه كحالة لغوية طبيعية نعيشها كجزء من الحياة اليومية، نرجع إلى نظم المكونات اللغوية الثلاث وهي الدلالية والصوتية والنحوية وهامشيا الصرفية المتداخلة مع المكونات الثلاث، لتكون تركيبة متشابكة عمليا يصعب فصلها عن بعضها البعض إلا نظريا لتسهيل عملية البحث العلمي ولإعطاء الدراسات اللغوية الحديثة بُعدا علميا كما هو الحال في دراسة مكونات أي مادة في الطبيعة لتشمل تفاصيل دقيقة متميزة من ناحية عملية التكوينات والتراكيب الفاعلة لغويا. علما أن توارد هذه النظم ليس بالضرورة ثابتة الترتيب وذلك لتداخل عملها كما جاء أعلاه وكما هو مبسط في الشكل التخطيطي التالي (الشكل 1):



الشكل 1: النظم اللغوية الثلاثة وتداخلها مع بعضها نسبيا لتكون الثوابت والمتغيرات في أية لغة طبيعية.

الشكل أعلاه يبين تداخل النظم اللغوية الثلاث وإلتقائها في المنطقة المشتركة الداكنة والتي تمثل منطقة الثوابت اللغوية أو ما يُعرف بالبنية التحتية أو القاعدية وما سواها في التداخلات وخوارجها تعرف بالمتغيرات اللغوية النسبية. نلاحظ هنا أنه كلما ابتعدت الحدود عن بعضها تقل نسبة التداخلات الفاعلة وبالتبعية تصبح احتمالية التعرض للظواهر المؤثرة أكثر حدوثا نسبيا. هذا يعني دخول أصوات ومفردات غريبة وعبارات بمعاني غير مألوفة إلى اللغة العربية (لاحظ الملحق 1-2) وتكون الإحتمالية أكثر منها عن المناطق المتشابكة تقاربيا حتى تصل باتجاه مركز التلاقي إلى منطقة «المحرمات» وهي منطقة الثوابت اللغوية المؤشر عليها في الشكل أعلاه والتي لا تسمح دخول أية صفة لغوية غريبة إلى منطقتها.

بالطبع مثل هذه التغيرات إن حدثت فتكون بسبب عوامل مختلفة تأخذ أبعادا في الزمان والمكان وحسب عمق التبدل الحاصل. فلو تعمقنا أكثر في الموضوع نجد أن الثوابت تمثل التراكيب الأساسية أو التحتية والتي تعتبر مصدر كل ما هو منطوق وبالتالي مكتوب ضمن الحدود القومية والتراثية للغة ما. في الواقع إنّ التغيرات الاجتماعية والفجوات الزمنية التي تفصل الأجيال تأتي في مقدمة العوامل المؤثرة في التغير اللغوي. وهذا بالتبعية يوثر على الثقافة وحركتها في البلد وبالتالي يتأثر التراث للعلاقة الوثيقة بين الاثنين.

المكونات اللغوية الأكثر تعرضا للعوامل المؤثرة:

لو نظرنا مرة أخرى إلى الشكل (1) لاتضح أن المتغيرات اللغوية في حالة حدوثها تكون على المستوى الصوتي في أكثر الحالات وبالتالي تشمل المفردة لتدخل المجال الصرفي وبما أن هذا الأخير مرتبط جذريا بالنحو والمعنى الدلالي فعليه تدخل التبدلات المجالات اللغوية الثلاث تحت مظلة

التأثيرات الواردة إليها حسب بعدها عن البنية القاعدية أو التحتية المشتركة بين النظم الثلاث .

جدول (1) * يوضح التبدل الحاصل على المستوى الصوتي لبعض الأصوات العربية . أي تبدل أصوات عربية إلى أخرى عربية ضمن مجموعة من الأصوات تشارك مكان وطريقة النطق لتلك الأصوات وحسب اللهجات المختلفة . فعليه نلاحظ أن التبدل الحاصل يكون على مستوى النطق وليس الكتابة . وبهذا يغطي المفردة والنغمة المصاحبة للعبارة والجملة لتصبح جزءا من طبيعة لهجة معينة أو لهجات متقاربة وحسب نوع المؤثرات المكانية والزمانية ولأساليب تداخل بعض الشعوب مع بعض الآتي عن طريق التجاور أو سيطرتها على بعضها البعض وانتقال الكثير من الأمور والصفات التراثية والثقافية من اللغة المؤثرة .

أما النوع الآخر من التبدل الحاصل ويشمل دخول أصوات أجنبية إلى اللغة العربية لتأخذ مكانها بدل بعض الأصوات العربية كما هو موضح في الجدول (2) من الملحق (1) . وفي هذه الحالة يكون هناك بُعدا في المسافة النطقية لمكان نطق الصوت وطريقة نطقه لعدم وجود صوت مماثل في النطق في اللغة العربية الحالية* . نلاحظ أيضا أن تبدلا من هذا النوع لم يحدث كتابيا . فالكلمة تنطق بالصوت الأجنبي وتكتب دون تبدل الحرف وذلك لعدم وجود حرف عربي يماثل الحرف / الصوت الأجنبي، كما هو الحال مع الأمثلة أدناه :

/Kan/---> [can], /jadwal/---> [gadwal]

/dajaja/---> [dayaya]; /jum a/--->[zum a]

نلاحظ أن الصوت /j/ يمكن أن يتبدل إلى [g], [y] أو [z] حسب اللهجة وجميع هذه التبدلات وغيرها من هذا الصنف تحدث وفق أسس وقواعد لها ضوابطها وقيودها .

وقد دخلت العربية الكثير من المفردات الأجنبية في حقول كثيرة دون تعريبها خاصة المفردات العلمية والتقنية واللغوية والسياسية . . إلخ . كما هو مبين في الجدول (3) / الملحق (2) . ولم يقتصر عند حدود المفردة والصوت بل تعدى ذلك إلى عبارات أجنبية كاملة ترجمت كما هي حرفيا ولا علاقة لها بالمجتمع العربي ولغته ولكنّ التقدم السريع في مجال العلم والحياة أدى إلى تبدل نمط الحياة اليومية وأصبح دخول هذه العبارات على حالها ضرورة حياتية كما هي عملية في نفس الوقت وكما هو مبين في الجدول (4) من الحلق (2) .

إن ما ذكر أعلاه من تغيرات وتبدلات على المستوى النطقي إنما هو صفة من صفات جميع اللغات الطبيعية ويحدث ذلك بتفاوت نسبي من لغة إلى أخرى . وبما أن اللغة العربية هي لغة طبيعية لها حجمها ووزنها الإجتماعي الذي يغطي مساحات جغرافية واسعة فمن الطبيعي أن تدخل تحت مظلة المؤثرات المختلفة من قطر عربي إلى آخر وبالتالي تحدث التبدلات المحتملة وباختلاف المناطق وكما هو موضح باللهجات المختلفة سواء من ناحية التبدلات الصوتية أو المفرداتية أو التعابير والجمل التي يصاحبها في العادة تبدل في النغمة والنبرة الصوتية . وموضوع اللهجات مثبت تاريخيا في اللغة العربية فلا جدال في ذلك . فاللهجات والتبدلات آنفة الذكر صفة طبيعية تصاحب اللغة الفصحى دون عمق في التأثير عليها ضمن نظم التراكيب اللغوية الثلاث .

ويظهر لنا ذلك فقط في النغمة وقوة النبرة أو ضعف النطق لبعض الأصوات وتبديل بعضها إلى أصوات قريبة منها نطقا سواء تكلما أو قراءة ما هو مكتوب بدون المساس بالحروف وأصول الكتابة قطعا. ومن الملاحظ هنا أيضا أن التبدل أو التغير هو نسبي وجزئي كما لاحظنا وليس بالعمق الذي نلاحظه في لغات كثيرة في العالم، بمعنى آخر أنه لا يمس المنطقة المشتركة الناتجة عن تداخل نظم المكونات اللغوية الثلاث الظاهرة في الشكل (1). وهكذا نرى أن اللغة العربية (الفصحى) في كل أنحاء العالم العربي لم تتأثر جذريا على المستويين النحوي أو الصرفي (أو الدلالي) وبالطبع سيعزو الكثير منا هذه القوة التي تقف حاجزا مانعا ضد أي تأثير على لغة القرآن الكريم وإلى القرآن نفسه الذي بقيت لغته ثابتة دون تبدل ولكن اللغة الفصحى تبدلت بعض مفرداتها حسب الزمن والمكان التي تمر خلاله والمؤثرات المحيطة الكثيرة. إذن بقيت التركيبات اللغوية التحتية ونظمها ثابتة مع ثبات مصدرها الأساسي والتي تطرقنا إليه بإيجاز أعلاه. وهكذا نرى أن الذي يتأثر طبيعيا في اللغة هو النطق لبعض الأصوات وحداثة بعض المفردات ودخول أخرى أجنبية إليها ويكون ذلك في الاستعمالات اليومية للغة المنطوقة ضمن اللهجات العديدة. ويبقى الأصل ثابت - أصول اللغة المكتوبة. وقد لاحظنا في أمور اللغة العربية الفصحى أنه يمكن أن تكون قد أخذت النغمة والنبرة المنطوقة من اللهجة المعنية المتأثرة باللغة الأجنبية وذلك عند قراءة ما هو مكتوب أو عند استعمالها في الحالات الرسمية والثقافية نطقا فقط، وعندها يمكن التعرف على قطر المتكلم أو القارىء حسب البُعد الجغرافي والاجتماعي. كذلك يمكن أن يتبنى الفرد أساليب مستحدثة في الكتابة متأثرة بالثقافات الأجنبية وحسب الحركات الفكرية والأدبية وتنوعها في تلك الأقطار وهذا أمر طبيعي أيضا.

نتائج البحث ومناقشتها:

نستنتج مما جاء في دراستنا أعلاه أن التبدلات اللغوية المحتملة الحدوث أمر طبيعي يتناول جميع اللغات الطبيعية وبنسب متفاوتة حسب قوانين لغوية معروفة في الأبحاث اللغوية الحديثة كما هو حاصل في تطبيق النظريات في علم اللغة الحديث وكما بينا سابقا تكون متعلقة بالبعد المكاني (الجغرافي) والزمني وتواجد شروط أخرى لها فاعليتها في كل ما يحدث من تبدل. ولإعطاء فكرة موجزة عن حصيلة النتائج التي توصلنا إليها نذكر أدناه التراكيب اللغوية التي تقع ضمن احتمالات التبدلات التي يمكن أن تحدث في اللغة العربية المنطوقة حسب عمل النظم اللغوية الثلاث ونتائجها السطحية المنوه بها في حصيلة عملية الكلام وتداخلاتها المعقدة، كما يأتي:

1 - أخذ أصوات عربية مكان أصوات عربية أخرى تشترك بخواص نطقية مميّزة نتيجة للهجات العربية المختلفة وحسب بُعد بعض الأقطار العربية أو قربها من بعضها البعض [جدول (1)].

2 - أخذ أصوات أجنبية مكان أصوات عربية إما لسهولة النطق أو التأثير اللغوي الخارجي [جدول (2)].

3 - تبدل معنى المفردة العربية في بعض الأحوال

المكانية والزمنية وحسب متطلبات الحياة اليومية المستجدة وذلك دون أن يتبدل شكلها الكتابي والنطقي مثل «تقني» و«شريحة» و«طبقة»... إلخ.

4 - استحداث بعض المفردات العربية التي لم تكن موجودة قبلا وتأخذ هذه المفردات نمط التصريف اللغوي العربي، مثل «خصخصة»، «مهننة»، «جدولة» و«مكننة».. إلخ.

5 - دخول مفردات أجنبية إلى اللغة العربية مشابهة في اللفظ لمفردات عربية قديمة مثل مفردة «أطلس» و«صك».. إلخ ولكن بمعنى آخر مختلف جدا.

6 - مفردات أجنبية كثيرة دخلت اللغة العربية دون تعريبها وهي كثيرة جدا. بالطبع تأخذ هذه المفردات النبرة العربية مع الأخذ بنظر الاعتبار تبديل الصوت الأجنبي بصوت عربي عند نطقها. [لاحظ الجدول (3)].

7 - المفردة الأجنبية التي دخلت العربية وعُربت بمعناها النسبي فقط مثل مفردة «حاسوب» و«حاكي» و«مكبرة صوت» و«مسجّل» و«مصعد».. إلخ.

8 - تبدّل النغمة والنبرة العربية المصاحبة للمفردة والعبارة والجملة حسب قرب وبعد الأقطار العربية عن بعضها وخلفية علاقة كل قطر بدولة أجنبية مؤثرة عن طريق أو آخر. كما نلاحظ ذلك وبوضوح تام في النغمة والنبرة المستعملة في أقطار المغرب العربي عند نطق العربية الفصحى والتي هي نفسها في اللهجات وقريبة من النغمة والنبرة الفرنسية.

9 - دخول أساليب أدبية أجنبية في الكتابة «الأدبية» "Style" حسب الأساليب الأجنبية المستحدثة والمتبناة في اللغة الأجنبية.

10 - العبارة الأجنبية دخلت اللغة العربية بعد تعريبها حرفيا وهي تحمل نفس المعنى الأجنبي لضرورة التواصل اللغوي بعد أن أصبحت دول العالم متصلة مع بعضها تقنيا وعلميا وإقتصاديا.

أما الثوابت التي تمت ملاحظتها والتي لم تتأثر بالظواهر الطبيعية التي ذكرناها أعلاه فهي:

1 - الحروف العربية التي بقيت محافظة على أنماطها التراثية في العدد والشكل كتابة مع تبدل بعضها نطقا كما ذكرنا أعلاه وحسب اللهجات العربية.

2 - عدم حصول أي تبدل أو تأثير على أصول النحو العربي والقواعد.

3 - عدم حصول أي تغيير في أصول علم الصرف وتطبيقات نظمه وقواعده.

4 - بقاء علم النظُم الصوتية وأصول النطق للأصوات العربية وعلم الصوتيات العربية كما هي دون تبدل.

5 - حافظ فقه اللغة العام للعربية على أصوله وجذوره العميقة وكذلك الحال مع علم المنطق في اللغة العربية.

وهكذا نرى أن مجموعة النظم اللغوية العربية وقواعدها لا تتأثر بقدر ما نراه في حصيلة تطبيق هذه النظم وقواعدها. فمثلا عند دخول أصوات أجنبية ضمن حدود النظام الصوتي للغة الأم عندها إما أن تتبع الأطر أو النماذج الصوتية العربية وقواعد

استعمالاتها أو أن تنفرد وتشذ عن دائرة تلك الأطر أو النماذج وبالتبعية تبقى خارج ذلك النظام. أي تبقى هذه الأصوات المنفردة خارج النظام الصوتي العربي. فمثلا الصوت /g/ يعرب الى [j] « جيم » أو [غ] « غين » أو [y] « ياء » وحتى في كثير من الأحيان يتحول إلى [k] « كاف ». فعليه نرى في العربية الفصحى مكتوبا بواحد من هذه الحروف التي تمثل الأصوات المذكورة في العربية مستعملة حسب اللهجة، لذا نلاحظ أن الصوت /v/ الأجنبي يبقى بعيدا عن دائرة الأصوات العربية وأحيانا كثيرة يختلط مع الصوت العربي /f/ « فاء » وهكذا الحال مع الصوت الاجنبي /c/ والصوت /p/ والصوت /z/ والتي يأخذ مكانها في الكثير من الحالات الأصوات العربية /j/ « جيم » و/b/ « باء » والصوت /j/ أو /S/ العربية على التوالي... إلخ.

وقد تمت ملاحظة أخرى في هذا المجال وذلك أن بعض الأصوات الأجنبية التي لها مقابل مشابه في العربية تأخذ مكانها دون لبس في النظام الصوتي العربي كما لاحظنا أعلاه.

ويصبح الأخير أكثر استعمالا من الأصل مثل الصوت /z/ أو « زاي » الذي له مقابل في العربية يأخذ مكان الصوت العربي / ð / « ذال » فعندها تلفظ بصورة غير طبيعية ولكنها تكتب بالحرف العربي الأصل مثل « ذلك » ---> « زلك » لفظا وتكتب « ذلك ». وكذلك الحال مفردة « ذكي » ----> « زكي » و.. إلخ، وهكذا الحال مع /Ø/ « ثاء » الذي يختفي ويأخذ مكانه الصوت /s/ « سين » كما هو في مفردة « ثائر » --> « سائر » و« ثامر » ---> « سامر » و« ثلاثة » -> -- « سلاسة ».

وتستمر التبدلات في أصوات أخرى مشابهة وتبعا للهجات المستعملة. لاحظ أن مثل هذه التبدلات الصوتية لا مكان لها في النظام الكتابي العربي الحالي. كذلك لا يؤثر هذا التبدل على نظام التراكيب الصوتية للعربية الفصحى المنطوقة والمكتوبة صحيحا. يمكن أن يكون هناك إضافات لقوانين هامشية لا تمس النظام القاعدي للأصوات العربية وبما أن عملية دخول هذه الأصوات كبدائل لأصوات هي في الواقع موجودة في العربية فيمكن عندها حدوث بعض التشوش في التركيبة المفردة من ناحية المعنى فمثلا مفردة « ثائر » لا تحمل معنى « سائر » عند النطق.

وبما أن هذه البدائل تأخذ مكانها في التكلم سليقيا منذ الطفولة ووجود الأصل في حالات كثيرة في نفس اللهجة فبإمكان المتكلم أن يفطن لذلك ويرجع أو يحاول الرجوع إلى الأصل بدل الدخيل عند النطق لتصبح الحالة الأولى (اللهجة) حالة خاصة وليس عامة في نطق هذه الأصوات في المفردات المعنية. وهذا معناه أن عملية التقييم (التقويم) الصوتي ممكنة وبسيطة لتلافي الإلتباس الممكن حصوله عند نطق مفردات خارج سياق الجملة أو العبارة أو ضمنها مثل الإلتباس الحاصل في نطق المفردة « قلم » والتي تصبح « ألم » في اللهجة المصرية وبعض اللهجات اللبنانية والفلسطينية. كذلك الحال مع الكثير من المفردات الأخرى التي ذكرناها أعلاه وغيرها مثل المفردة « حافظ » تصبح « حافز » ومفردة « قش » تصبح « غش » أو العكس هو الصحيح في بعض لهجات دول الخليج. لذا فإن ذلك وحسب اعتقادنا لا يؤثر على اللغة العربية الفصحى سواء كانت مكتوبة أو منطوقة.

مكمن الخطورة على لغتنا يوجد في الأصوات الأجنبية مثل /v/ و/p/ و/z/ و/g/ . . .إلخ وذلك عند النطق فقط. والخطورة الكبرى تكمن في الدعوات الهادفة التي تمس النظام الكتابي العربي ونظم التراكيب اللغوية الثلاث وهي مجرد دعوات تدخل ضمن المحاولات المصنعة الهادفة ولكنها خطيرة جدا في حالة الفوضى الإجتماعية والهدر الثقافي والتراثي والتي يجب إيقافها بكل الوسائل المتاحة خاصة بتبيان الخطورة على الناحية الثقافية والعلمية لكونها حجر عثرة مؤكدة وضياع تراث أمة بكامله وبالتالي تشويه لتاريخ تلك الأمة كما حدث في بداية القرن العشرين للكثير من الأمم التي فقدت لغتها وتراثها وابتعدت عن حضارتها كليا. وأبسط الدعوات لهذه الحركات تتبرقع بتحسين الأحوال الإجتماعية والخروج من «التخلف» (المزمع) في جميع المناطق التي تجد فيها آذاناً صاغية والتي تخضع لأطماع معروفة. أو إن الفصحى صعبة ولا تتماشى مع أحداث العالم المسرعة إلى الأمام. لذا يدعون أن العامية أسهل، وبهذا يطمحون إلى تفكيك اللغة العربية وبالتالي إبعادها عن الحياة اليومية كليا. والرد العلمي بسيط جدا وهو أن أية لغة طبيعية تكتسب سليقيا، وتصبح سهلة الاستعمال اليومي وهكذا بالنسبة للهجات. وبما أنه هناك مجال طبيعي أيضا بالابتعاد عن اللهجات التدريجي وتعويد النفس على اللفظ الصحيح خاصة في بدء مراحل اكتساب اللغة عند الطفل فعندها تصبح العربية الفصحى هي السائدة في السهولة وتصبح اللهجة المتأثرة أجنبيا هي الصعبة وبالتالي الابتعاد عن الاستعمال يؤدي إلى اندثارها كما حدث للكثير من اللهجات العربية القديمة. ونعتقد أن مثل هذه المحاولات تحاول الوقوف ضد تيار طبيعي ولكونها محاولات غير طبيعية فإنها لن تصل إلى أهدافها والتأريخ يشهد على الكثير من الأحداث التي صاحبتها محاولات من هذا النوع مثل سياسة التتريك في العهد العثماني والفرنسة في المغرب العربي أثناء سيطرة فرنسا على هذه المنطقة ليست ببعيدة عنا. إن هذه المحاولات مصنعة ومفروضة لذا تُحدد زمانيا ومكانيا وبصورة طبيعية، مستندة الى الوعي القومي والثقافي كعامل مساعد للتيارات الطبيعية الأخرى للوقوف بوجه مثل هذه المحاولات. ومثل هذا الاسناد مرتبط جذريا بالتراث واللغة وتأريخ الأمة فلدينا في الوقت الحاضر حركات أدبية وثقافية واسعة ومنتشرة في أرض العرب الواسعة ووسائل النشر الثقافية والعلمية أصبحت عاملا أساسياً في انتشار هذا الوعي المطلوب. والحفاظ على الذات اللغوية أصبح حاجة ماسة وواجباً قوميا ووطنياً مطلوب منا المشاركة لغويا في إسناده. لذا نلاحظ أن مقاومة محاولات التغير أصبحت عملية ذاتية متعلقة بالأجيال المتفتحة على المستقبل خاصة الأطفال في المراحل التعليمية الأساسية. والتفاؤل هنا أصبح واردا خاصة وأن أطفالنا أصبحوا يستعملون الكثير من العبارات والمفردات العربية الفصحى دون جهد وأصبحت هذه المفردات والعبارات تحتل الكثير من أصول التعامل التواصلي (الكلامي) اليومي بينهم سواء في الدراسة أو الحياة البيتية أو البيئية اليومية. وهكذا اختفى الكثير من المفردات والعبارات العامية التي كنا نستعملها ونعيشها في الماضي القريب وأصبحت في عداد النسيان.

مع كل ما جاء أعلاه والذي يوحي بالتفاؤل نقول أن الموضوع يحتاج إلى وقفة واعية دائمة للحد من المحاولات المصنّعة وعدم افساح المجال لها بأخذ أي حيز من حياة أطفالنا بالتأثير عليهم المباشر أو غير المباشر، وذلك باستغلال التقدم التكنولوجي للغة «المرئية» و«المحكية». ولنكون في موقف الحيطة والحذر في عصر التقنيات العلمية المتقدمة والقوى الاقتصادية المؤثرة للحفاظ على الذات اللغوية وديمومة نظمها للعمل والاستمرارية في التحرك دون أن يشوبها أي تعثر هادف.

وكنتيجة للحصيلة المستخلصة من بحثنا هذا نقترح ما يأتي:

1 - الاهتمام بالطفل واللغة ومناهجها: بما أن اللغة هي حاجة طبيعية للتواصل الاجتماعي نطقا وإيصال المعلومة إلى الآخرين سليقيا لسد الحاجات الأساسية للفرد وبالتالي بين أفراد المجتمع ككل نرى وجوب الاهتمام بتربية الطفل لغويا منذ بداية الوعي اللغوي لديه أي منذ المراحل التي تسبق الروضة والتعليم الأساسي وتستمر هذه الاهتمامات خلال مراحل التعليم المختلفة وخلق وتوفير كل المستلزمات والمتطلبات اللغوية خاصة المشوقة منها وبالتحديد في المراحل الأولى للتعليم والتعلم حسب النظريات التربوية واللغوية الأكثر حداثة والمضمونة النتائج. ومن هذه الاهتمامات بذل المجهود الكافي لتحسين وتطوير المناهج اللغوية والتركيز على تنمية القدرات اللغوية لدى الأطفال سواء أكان على مستوى انتقاء القصص المتدرجة في إنماء القدرات اللغوية لدى الأطفال أم على مستوى الأسلوب المبسط والإخراج المؤثر والمشجع على استمالة الطفل للاستحواذ على اللغة دون دراية منه. ثم يأتي بعد ذلك دور الإبداع اللغوي في الكتابة والخطابة والتكلم.

2 - يعتبر المعلم المثقف تربويا ولغويا العامل الأساسي في إنجاح المهام المخطط لها تربويا والمؤثرة في عملية التعليم اللغوي المطلوب. لذا نقترح الاهتمام بالمعلم لغويا بجانب المتطلبات التربوية والأخلاقية الأخرى.

3 - وإذا ما توفرت متطلبات الفقرة (2) أعلاه نرى أن يبتعد المعلم المتمرس لغويا عن كل ما يعرقل إمكانية الطفل من التعبير نطقا عن خواطره مستعملا قدر الإمكان اللغة العربية التي يستعملها أهل الإعلام المرئي والمنطوق ومن ثم يحاول التركيز فيما بعد على العربية الفصحى. كذلك يركز على عدم تشجيع استعمال العامية سواء داخل الصف أو خارجه ومساعدة الطفل على التمكن من القراءة المسموعة السليمة.

4 - تقييم علمي لغوي وتربوي للمعلم ومن ثمة الطفل ومتابعة ذلك من قبل متخصصين في الحقلين اللغوي والتربوي - التعليمي مع الاستمرار في عملية التشويق اللغوي النفسي للمعلم والطفل أثناء عملية التعليم والتعلم.

5 - إدخال الأساليب التربوية الحديثة المبنية على أساس إيصال المعلومة الصحيحة أو تلقيها وحسب وسائل الإيضاح المتقدمة تقنيا وعلميا ويكون ذلك على مراحل التعلم المختلفة، خاصة التركيز على مراحل تعليم وتعلم مهارات اللغة الأربعة وهي: الإصغاء - التكلم - القراءة - الكتابة.

6 - الإنتباه الجدي إلى نوعية ما يعرف الآن بـ« اللغة

المرئية والمسموعة (وإلى حد ما «المقروءة») » والمستوى العمري والذكائي للطفل بجانب الخلق والإبداع في برامج أغاني وأناشيد وموسيقى الأطفال وغيرها في التلفاز والحاكي ورصد ميزانية سخية للتلفزة التربوية وما يتناسب مع المستلزمات والمتطلبات التربوية لكل مرحلة من مراحل التعليم.

7 - إنشاء مسارح خاصة بالأطفال يكون للأطفال فيها دور مميز في التمثيل مع التأكيد على سلامة اللغة المنتقاة ويكون للأغنية العربية مكان مرموق في المسرحيات.

8 - إصدار المجلات التربوية الخاصة بالطفل يساهم فيها الأطفال المبدعون نسبيا مع نشر حلقات من القصص العربية التراثية وغيرها بجانب القصص العالمية التربوية في هذا المجال يؤكد في إصدارها بأن تكون مصورة وغير نمطية تباع بأسعار رمزية للأطفال على أن تسند ماديا وإداريا من الجهات التربوية والإعلامية المسؤولة في الدولة.

9 - توحيد المناهج والمفاهيم اللغوية في المدارس الرسمية والخاصة على المستوى القطري على الأقل ويكون ذلك تحت إشراف لجنة متخصصة لها خلفية علمية في النظريات اللغوية الحديثة وعلم اللغة العام وعلى اكتساب اللغة عند الطفل.

10 - تشجيع المنافسات اللغوية بكل أنواعها خاصة بين المدارس الإبتدائية والثانوية بتهيئة كل ما تحتاج إليه هذه المنافسات اللغوية من مختصين إلى جوائز تشجيعية وعلى مستويات مختلفة.

11 - أن تكون هناك مؤسسة مسؤولة في الدولة - ولتكن في وزارة التربية - فيها أعضاء من وزارة التعليم العالي ووزارة الإعلام لهم خلفية جيدة في مجال اللغة والأدب ولها صلة بأدب الأطفال ولغتهم، بجانب تخصصاتهم المطلوبة. وتكون بمستوى مديرية عامة تعنى بكل ما جاء في الفقرات العشر أعلاه ولا تتبع الأساليب التربوية النمطية المعروفة وتلتزم بمسايرة العصر ومتطلباته المتغيرة دوريا إن لم تكن يوميا وبسرعة مما يتطلب المتابعة والتغيير في الأساليب التربوية والتعليمية بين فترة وأخرى وحسب الحاجة الآنية للتقدم العلمي والتقني.

12 - إشراك اللغويين المتخصصين في اللغويات الحديثة والمعروفين على مستوى البحث العلمي في مجامع اللغة العربية في الوطن العربي.

أخيرا نقول إنه ليس هناك انحسار لغوي كما يدعي البعض، يمكن أن يكون هناك انحسار ثقافي لسبب من الأسباب ولكنه ليس بالضرورة نتيجة لغوية لأن الثقافة والأدب مع ارتباطهما الوثيق باللغة إلا أنهما يكونان حالة خاصة. واللغة ليست حالة وإنما واقع طبيعي يغطي كل المساحات الاجتماعية الواسعة وكل نواحي الحياة اليومية المشتركة في أقطارنا العربية.

نقول إن عصرنا هو عصر التكنولوجيا المتقدمة والبرمجة الإعلامية المعقدة في وسائلها وأقمارها الصناعية التي تغطي مساحات مفتوحة يصعب التحكم فيها أو السيطرة عليها ضمن حدود معينة. فعلينا بالطفل، بمتابعة وتقييم كل ما له علاقة بلغته وعدم السماح بإفساد ذوقه اللغوي لأن اللغة هي تراث الأمة الذي لا ينضب معينه والطفل هو العامل الفاعل في صياغة وبلورة تراث الأمة والحفاظ عليه

عبر الأجيال. وهنا نقول بوجوب الحذر والحيطة. والحذر سمة من سماة طبيعة الإنسان تأتي نتيجة الحرص الصادر عن الخوف من النتائج السلبية التي يمكن أن تصيبنا في حالة وجود خلل ما في تصرفاتنا (وما أكثرها في أيامنا هذه) ومنها تصرفاتنا اللغوية وردود أفعالنا تجاهها. لذا فخوفنا على لغتنا شيء طبيعي وما هو طبيعي في هذا المجال هو حالة مشروعة والحذر والخوف على لغتنا وبالتالي تراثنا هو أمر مفروغ منه ضمن هذه الشرعية.

ملحق (10)

ملاحظات	Phonetic Changes	البديل	الصوت
التبدلات الصوتية الحاصلة كنتيجة لكل قاعدة صوتية تكون مبنية على نوع اللهجة وتقارب مواقع نطق الصوت الأصلي والبديل الحاصل.	/ð/---> [z] / [d] /_	ز / د	<--- ذ
	/θ/---> [s] / [t] /_	س / ت	<--- ث
	/K/---> [?] / [g] /_	أ / غ	<--- ق
	/g/---> [k]/-	ق	<--- غ
	/s/---> [z]/-	ز	<--- س
(Emphatic)	/ð̣/---> [ẓ]/-	ز	<--- ظ
	/ǰ/---> [y]/-	ي	<--- ج

جـــدول (1)

تبدل بعض الأصوات العربية الى أخرى عربية حسب اللهجات المختلفة

Examples Transcribed Phonetically	Phonetic Changes	البديل	الصوت
/jadwal/ ---> [gadwal] / [žadwal] /_	/ǰ/---> [g] / [ž] /_	ك / ژ	<--- ج
/ḳa:l/ ---> [ga:l]/-	/ḳ/---> [g]	ك	<--- ق
/ka;n/ ---> [ča:n] /_	/K/---> [č]	چ	<--- ك

جـــدول (2)

تبدل بعض الأصوات العربية إلى أخرى أجنبية وحسب تأثير تلك اللغات

ملحق (2)

أدبية	لغوية	فلسفية	علمية	دبلوماسية	عامة	حقول أخرى
دراما رومانسية كلاسيكية ديناميكية فلكلور تراجيديا كوميديا . . . إلخ	مورفيمات فونيمات الومورفات فونولجي اكوستيك "liquid features in phonetics" . . . إلخ	إيديولوجية برجوازية براغماتية سريالية ديمقراتية فلسفية بيروقراطية . . . إلخ	الكترون جينات ساكات صونار كاميرا فيتامينات . . . إلخ	دبوماسية بروتوكول اتيكيت قنصل امبريالية ينسكو/ يونسيف . . . إلخ	اكسسوار مونتاج كاريكاتير فيلم سيناريو تلفزيون/ فيديو (أطعمة ومشروبات وملبوسات كثيرة جدا أخرى) . . . إلخ	تقنية وعسكرية مختلفة وحقول أخرى متعددة

جـــدول (3)

بعض المفردات الأجنبية التي دخلت العربية دون تعريب

تعابير معربة عن اللغة الإنجليزية	Expressions in English
مناطق ساخنة	Hot spots
الضوء الأخضر	The Green Light
الحزام الأخضر	The Green Belt
السلام الأخضر	The Green Peace
الخط الأحمر	The Red Line
برمجة	Programming
بناء الجسور	To Bridge the Caps
حقوق الأنسان	Human Rights
.	.
.	.
.	.
إلخ	etc

جـــدول (4)

بعض التعابير الأجنبية التي دخلت العربية مترجمة مع تعابير مشابهة كثيرة

المصـــادر :

Brown, R. (1973). A First Language: The Early Stages. Harvard University Press

Lackoff, George (1987). Phonology and Syntax. MIT Press, Cambridge, Mass.

Jackendoff, Ray (1985). Semantics and Cognition. MIT Press, Cambridge, Mass.

هامـــش:

* هناك بعض النظريات التي تؤمن بان بعض هذه الأصوات كانت مستعملة في لهجات العرب قبل الاسلام. (لاحظ الملحق).

جوانب الدرس التصريفي للفظ (آيــــة)

أ ـ أبو أوس إبراهيم الشمسان(*)

صاحَب هذه الكلمة من الغموض في المبنى ما يعانده ـ فيما يتهيأ للإنسان لأول وهلة ـ وضوح في المعنى، فالآية في أقرب بوادر معانيها (العلامة)، لكن (الآية) وهي ترد في السياقات المختلفة تظهر أن المعنى أيضا متعدد. إذ يذكر من معانيها: العلامة والإمارة، والرسالة، وآية الشيء: شخصه، والجماعة، والمعجزة، والآية من القرآن: جملة أو جمل أثر الوقف في نهايتها(1). ويقال في المجاز: هو آية(2).

وقد نالت من عناية الصرفيين واللغويين ما نجده مفرقا في بطون كتب مختلفة، وهي عناية تكشف عن تعدد في الأقوال والمذاهب التفسيرية بلغت حدا يكاد يستقصي الاحتمالات الرياضية في تقليب المسألة على جوانبها المختلفة، ويهمنا في هذا البحث أن نقف على تلك الجوانب التفسيرية التي تمثل حيوية في التفكير اللغوي العربي؛ فإنه ليروعك حين تستعرض أقوال الصرفيين واللغويين عن (آية) تعدد جوانب التفسير التصريفي لها.

اكتشف الصرفيون من استقرائهم الألفاظ وتعرف الأنظمة المتحكمة بتصرفاتها أن اللفظ حين تكون العين واللام منه علتين تعتل اللام وتصح العين، غير أن لهذه القاعدة شواذ ذكرها الصرفيون وحاولوا بحثها وتفسير تصرفها، قال ابن عصفور في ذكر هذه الشواذ: «وقد شذت ألفاظ في هذا الفصل فاعتلت فيها العين. منها: آية وراية وثاية وغاية وطاية. وكان حقها أن تعتل منها اللام ويصح العين. والذي سهل ذلك كون هذه الألفاظ أسماء فلا تتصرف فيلزم فيها من الإعلال والتغيير ما يلزم في الفعل»(3).

1 ـ البحث عن الجذور:

تثير كلمة (آية) إشكالا في تأصيل جذورها إذ هي كلمة تجتافها الألف، والألف في الأسماء على نوعين: ألف منقلبة عن جذر، وألف زائدة. وأما الألف المنقلبة عن جذر فقد تكون منقلبة عن واو أو

(*) أستاذ مشارك ـ جامعة الملك سعود

ياء أو همزة. وبناء على هذه الإمكانات تعددت الأقوال في جذر الكلمة:

1 / أ) الألف منقلبة:

1 ـ يفهم من القول الذي نسبه سيبويه إلى أستاذه الخليل أن جذر (آية) هو (ء/ي/ي)، لأنه يذهب إلى أنها منقلبة عن ياء(4).

2 ـ نسب الجوهري إلى سيبويه أن الألف واو، قال: «قال سيبويه: موضع العين من الآية واو؛ لأن ما كان موضع العين منه واو واللام ياء أكثر مما موضع العين واللام ياءان، مثل شويت أكثر من باب حييت»(5).

ومعنى ذلك أن جذرها (ء/و/ي).

ونقل ابن فارس عن الجوهري ذلك بنصه(6). ويبدو أن الصفدي قد نقل عن الجوهري ذلك دون تفصيل، ثم قال: «وأورده في أيا. باب الواو والياء»(7)، وهو بهذا يوهم أن عين (آية) واوية بلا خلاف.

3 ـ ونقل ابن فارس قولا لم يعين صاحبه، قال: «قالوا: وأصل (آية): أأية بوزن أعْية. مهموز همزتين، فخففت الأخيرة فامتدت»(8). وذهب إلى هذا عبد العليم إبراهيم أي أن الألف من (آية) منقلبة عن همزة لاجتماع همزتين أولاهما مفتوحة والثانية ساكنة(9). وعلى ذلك فالجذر (ء/ء/ي). على أن اجتماع همزتين جذرين متجاوري في كلمة واحدة أمر يدفعه ابن جني الذي يقول: «وإنما لم تجتمع الفاء والعين ولا العين واللام همزتين لثقل الهمزة الواحدة؛ لأنها حرف سفل في الحلق، وبعد عن الحروف، وحصل طرفا فكان النطق به تكلفا، فإذا كرهت الهمزة الواحدة فهم باستكراه الثنتين ورفضهما ـ لاسيما إذا كانتا مصطحبتين غير مفترقتين، فاء وعينا، أو عينا ولاما ـ أحرى، فلهذا لم تأت في الكلام لفظة توالت فيها همزتان أصلان البتة»(10).

1 / ب) الألف زائدة:

1 ـ ممن يذهبون إلى زيادة الألف الكسائي، وقد بين المعري أن هذا القول يوجب القول بالحذف وأن للحذف احتمالين(11):

الأول أن المحذوف همزه، ومعنى ذلك أن جذر الكلمة هو (ء/ء/ي).

الثاني أن المحذوف ياء، ومعنى ذلك أن جذر الكلمة هو (ء/ي/ي).

والغريب أن الجوهري ينسب هذا القول إلى الفراء، قال: «قال الفراء: هي من الفعل فاعلة، وإنما ذهبت منه اللام، ولو جاءت تامة لجاءت آيية ولكنها خففت»(12). وسنبين ضعف هذه النسبة لاحقا في المدخل (2/هـ).

وننتهي من ذلك كله إلى أن الجذور المحتملة هي: (ء/ي/ي)، (ء/و/ي)، (ء/ء/ي).

والجذر الراجح هو (ء/ي/ي)، ويعتمد ترجح ذلك على أمور:

1) أن جمهور اللغويين والصرفيين على اختلافهم في بنية الكلمة يتفقون على هذا الجذر.

2) رد نسبة الجوهري (ء/و/ي) إلى سيويه:

لا نجد في كتاب سيبويه ما يثبت صحة ما نسبه الجوهري إليه، بل إن ما يستأنس به أنه افترض أن

فعل (آية) - وإن لم يستعمل - هو في إعلال عينه مثل الفعل (باع)، قال: « فمما جاء في الكلام على أن فعله مثل (بعت) : آي، وغاية، وآية »(13).

بل يصرح صاحب الكتاب بأن العين ياء في معرض ذكره لقول آخر غير قول الخليل، قال: « وقال غيره هي أيّة وأيّ فَعْلٌ، ولكنهم قلبوا الياء وأبدلوا مكانها الألف لاجتماعهما، لأنهما تكرهان »(14).

وتعقب ابن بري الجوهري ورد ما نسبه إلى سيبويه، جاء في اللسان: « قال ابن بري: لم يذكر سيبويه أن عين آية واو كما ذكر الجوهري، وإنما قال أصلها أيّة، فأبدلت الياء الساكنة ألفا »(15).

3) الاحتجاج ليائية العين:

صرح بيائية عين (آية) ابن جني، قال: « وأما (اية) فعينها ياء وهي من مضاعف الياء نحو (حييت، وعييت)، ويدل على ذلك أن الآية هي العلامة، وقد قال الشاعر:

قف بالديار وقوف زائر

وتأيَّ إنك غير صاغر

فمعنى (تأيّ) : تثبت وتنظر وتأمل آياتها وعلاماتها. ولو كانت من الوار لقال (تأوّ) كما تقول في (تلوى وتسوى) : تلوّ وتسوّ »(16).

وأيد ابن جني قوله بيائية عين (آية) بقول الشاعر:

لم يبق هذا الدهر من آيائه

غير أثافيه وأرمدائه

فالآياء وزنها: أفعال وهي جمع آي، وآي جمع آية، وظهور العين باء في الآياء يدل على أن (الآية) من الياء(17). وقال العكبري إن الجمع (آياء) يدل على أن العين ياء إذ لو كانت عينها واوا لقالوا(18) : آواء. وجاء في اللسان نحو من ذلك، قال: « وعين الآية ياء كقول الشاعر:

لم يبق هذا الدهر من آيائه

فظهور العين في آيائه يدل على كون العين ياء، وذلك أن وزن آياء أفعال، ولو كانت العين واوا لقال آوائه، إذ لا مانع من ظهور الواو في هذا الموضع »(19).

وجزم ابن فارس بيائيتها فصنف الكلمة في المدخل (أيي)، قال: « الهمزة والياء والياء أصل واحد، وهو النظر. يقال تأيّا تأيّيا، أي تمكّث. قال:

قف بالديار وقوف زائر

وتأيَّ إنك غير صاغر

قال لبيد:

وتأييتُ عليه قافلا

وعلى الأرض غيابات الطَّفل

أي انصرفت على تؤدة. ابن الأعرابي: تأييت الأمر انتظرت إمكانه.

قال عدي:

تأييت منهن المصير فلم أزل

أكفكف عني واتنا ومنازعا

ويقال: ليست هذ بدار تئية، أي مقام.

وأصل آخر وهو التعمد، يقال تآييت على

تفاعلت، وأصله تعمدت آيته وشخصه. قال:

به أتآيا كلَّ شأن ومفرق

وقالوا: الآية العلامة، وهذه آية مأياة، كقولك علامة معلمة. وقد أيّيت.

قال:

ألا أبلغ لديك بني تميم

بآية من تحبّون الطعاما(20)

أما إدراج ابن فارس (آية) في باب (أيه) من معجمه (مجمل اللغة) فهو تساهل منه علته الاختصار(21).

2 ـ مشكلة البنية:

نود قبل أن نذكر أقوال الصرفيين في بنية (آية) ووزنها أن نذكّر بالفرق بين (البنية) و(الوزن الصرفي)، فالبنية هي الشكل التجريدي لأصوات اللفظ الصحيح السالم من العلة والهمز والتضعيف. أي هو الوزن الصرفي للنظير الصحيح للفظ. أما الوزن الصرفي فهو الشكل التجريدي للفظ نفسه الذي يراعى فيه بيان ما فيه من حذف أو زيادة، ومن أجل ذلك سنجد أننا نتحدث عن بنية للكلمة (آية) ونتحدث عن وزن صرفي قد يخالف البنية بعض المخالفة. وقد يوافق الوزن البنية وقد يخالفها. وللبنية صفة الثبات وأما الوزن فمرهون بحال اللفظ. وتكون البنية مجردة من اللواصق اما الوزن فيذكر معه لواصق اللفظ مما يكتب معه إملائيا.

وتظهر فائدة التمييز بين البنية التي لها صفة الثبات والوزن الذي له صفة التغير في بيان التصرفات التي تعرض لها الكلمة مثل الحذف في مثل الفعل الأجوف نحو: (قل) فهو على بناء: فَعَل/يَفعُل، أما وزنه فهو (فُل)، واسم المفعول من: (مقول)، فهو على البناء: مفْعول، ولكن وزنه الصرفي: مَفُعل أو مَفُول. ومثل القلب المكاني فالفعل (أيس) على البناء: فَعِلَ، ولكن وزنه الصرفي: عَفِلَ(22).

وتعتمد الأقوال المختلفة في بنية (آية) على الاختلافات التفسيرية لهذه الألف، فهي كما ذكرنا سابقا قد تكون زائدة أو منقلبة، والانقلاب قد يكون عن ياء أو واو أو همزة. وتعتمد على علة القلب، وعلى الحركة المفترضة للحرف المقلوب.

وجاءت الأبنية المحتملة في أقوال النحويين على الآتية:

2/أ ـ البناء (فَعْل):

ونسب سيبويه القول بهذا إلى غير الخليل، قال: «وقال غيره: إنما هي أيّةٌ وأيٌّ فَعْلٌ»(23).

ولسنا نعلم أهو مذهبه الذي يذهب إليه أم مذهب أحد آخر لم يصرح به، أما ابن بري فربما يفهم من قوله الذي نقلناه سابقا أن هذا رأي سيبويه. أما الرضي(24)، وابن عقيل(25)، فنجد أنهما صرحا بنسبته إليه.

وينقل صاحب اللسان عن الفراء في كتاب المصادر في معرض تعليله ترك همز الياء من (آية)، فقال: «لأنها كانت فيما يرى في الأصل أيّة»(26).

أما أبو العلاء المعري فقال: «وهذا القول في آية قول الفراء وقد حكاه سبويه عن قوم من النحويين لم يسمهم ولا شك أن الفراء تبعهم في ذلك»(27)، ونجد نسبة هذا إلى الفراء عند ابن عصفور(28)

وعند الرضي(29)، والسمين الحلبي(30)، وابن عقيل(31) أيضا، والبغدادي(32).

واختار هذاالمذهب العكبري(33)، وابن مالك(34).

أما ابن عصفور فرد هذا البناء(35). وسنورد احتجاجه عند درس التغير الصوتي الصرفي.

والميزان الصرفي موافق للبنية حسب هذا القول، فهو (فَعْلَة).

2 / ب ـ البناء (فَعَل):

وينسب سيبويه هذا الباء إلى الخليل وهو ما يفهم من بيانه أن (آية) مما جاء في الأصل(36). وقال المعري في معرض ذكره لأقوال النحويين: «للنحويين في آية ثلاثة أقوال: الأول قول الخليل وهو أن آية وزنها فَعَلة بتحريك العين وأصلها (أَيَيَه) »(37).

وجاء في اللسان نقلا عن ابن بري «وحكي عن الخليل أن وزنها فَعَلَة(37) »، وهناك من ينسب هذا إلى الخليل وسيبويه كليهما، منهم ابن خالويه(39)و والسمين الحلبي(40).

والميزان الصرفي موافق للبنية حسب هذا القول، فهو (فَعَلَة).

2 / ج ـ البناء (فَعِل):

قال السمين الحلبي: «وذهب بعض الكوفيين إلى أن وزنها أَيِيَة، بكسر العين مثل نبِقة(41) ». وذكر هذا البناء دون أن ينسبه إلى أحد بعينه ابن عقيل(42).

ولعل هذا البناء ليس من قول أحد بعينه بل هو افتراض جدلي للدفاع عن البناء الأول (فَعَل)، وهذا ما نفهمه من كلام أبي العلاء، قال: «فإن قيل فما يمنع أن تكون آية فعِلة لأنا إذا بنينا شيئا على هذا الوزن لزمنا فيه القلب إذ كان الذي يوجبه حركة المنقلب، وانفتاح ما قبله، ولو بنينا مثل معدة من باع وقال لقلنا: باعة وقالة، وكذلك لو بنينا مثل لبؤة، فالألفاظ الثلاثة تستوي في الانقلاب على حال الضم والفتح والكسر؛ قيل لا يمتنع مثل ذلك ولكن الحمل على الأكثر هو القياس لأنا نجد فعَلا في ذوات الياء والواو كثيرا، ومع هذا فإن باب خشبة أشيع في الكلام من باب سبُعة ومعدة »(43).

ومفاد هذا الجدل الذي فصله المعري أن هذه الياء المنقلبة زلفا إنما انقلبت لأنها تحركت بعد فتحة، وأما حركتها فقد تكون فتحة أو كسرة أو ضمة، ولكن الراجح كونها فتحة لشيوع ذلك.

وذكر البغدادي رد هذا البناء، قال «ورد بأن ما كان كذلك يجوز فيه الفك والإدغام كحيِي وحي »(44)، ومعنى هذا أنه لا يكون مكسور العين لتخلف ظاهرة الفك والإدغام، وهذه حجة واهية إذ القياس غير صحيح فالفك والإدغام جائز في الأفعال لكنه ممتنع في الأسماء منعا للبس إذ الأسماء منها ما يكون على (فَعْل) مثل: طلّ، ومنها ما يكون على (فَعَل) مثل: طَلَل.

والميزان الصرفي موافق للبنية حسب هذا القول، فهو (فَعِلَة).

2 / د ـ البناء (فَعُل):

قال السمين الحلبي: «وقيل وزنها فَعُلة بضم العين »(45)، وقال ابن عقيل: «وقيل وزنها فَعُلة كسمُرة »(46).

وينطبق على هذا البناء ما قلناه عن البناء السابق وما نقلناه عن المعري متناولٌ البنائين.

قال البغدادي: «ورد بأنه كان يجب قلب الضمة كسرة»(47).

ولم يبين علة ذلك وهو ثقل الضمة بعد ياء وقبل ياء أخرى، وليست هذه بحجة قوية لأن هذا الثقل قد فر منه بالإعلال.

والميزان الصرفي موافق للبنية حسب هذا القول، فهو (فَعُلَة).

2 / هـ ـ فَاعِلَة:

نقل صاحب اللسان عن كتاب المصادر للفراء نسبته إلى الكسائي: «قال: وكان الكسائي يقول إنه فاعلة منقوصة»(48)، وقال المعري: «والقول الثالث في آية قول ينسب إلى الكسائي وهو آية أصلها فاعلة»(49).

ومن الغريب نسبة الجوهري هذا القول إلى الفراء، قال: «قال الفراء هي من الفعل فاعلة، وإنما ذهبت منه اللام، ولو جاءت تامة لجاءة آيية، ولكنها خففت»(50). وعلة الغرابة أن الفراء نفسه يرد قول الكسائي ويدفعه بقوله: «ولو كان كذلك ما صغرها إيية، بكسر الألف»(51).

وذكر البغدادي أن أصلها آيية كضاربة، حذفت العين استثقالا لتوالي ياءين أولاهما مكسورة، وقال في رد هذا البناء: «ورد بأنه يلزم قلب الياء همزة لوقوعها بعد ألف زائدة في قولهم: آي»(52).

والميزان الصرفي مخالف للبنية حسب الروايتين: فعلى المشهور عن الكسائي هو (فَالَة)، وعلى الرواية التي انفرد بها الجوهري هو: (فاعَة).

3 ـ التغيرات الصوتية الصرفية:

تثير الألف من (آية) خلافا تفسيريا على نحو ما أثارت من خلاف في مسألتي الجذور والبنية وكل هذه القضايا متداخلة آخذ بعضها بأعناق بعض والصرفيون يذكرونها مجملة دون أن يعمدوا إلى تفصيل ذلك على النحو الذي توخيناه. وقد رأينا أن هناك اتجاهين في تفسير هذه الألف أحدهما أنها مبدلة والآخر أنها زائدة، وحاول الذاهبون إلى إبدالها بيان الأصل الذي أبدلت منه، وحاول الذاهبون إلى زيادتها تعليل نقصان جذور اللفظ.

3 / أ ـ تفسير الإبدال:

1) الألف مبدلة من الياء في قول الخليل الذي رأيناه يذهب إلى أن بنية اللفظ (آية) هي (فَعَلَة)، فالياء التي هي عين اللفظ حركت بالفتحة وسبقت بفتحة فقلبت إلى ألف وهذا هو شأن الياء والواو فهما تقلبان إلى ألف متى تحركتا وسبقتا بألف.

ويثير هذا التفسير بعض الإشكال وهو أن في اللفظ ياءين فلم أبدلت الياء الأولى وهي عين اللفظ ولم تبدل اللام؟ ومن المعلوم أن الطرف هو محل التغير وموطن الإعلال. وقد فسر سيبويه هذا فيما ينسبه إلى الخليل بأنه من الشذوذ وأنه غير مطرد، ولهذا الشذوذ نظائر في ألفاظ أخرى، فإن أعلت الياء الأولى من (آية) وليس حقها الإعلال فقد ترك الإعلال شذوذا في الكلمات: (قَوَد، ورَوِع، وحَول)، فهذه ألفاظ تحركت فيها الواو وسبقت بفتحة ولم تبدل الواو فيها ألفا.(53)

ولما كانت علة الإبدال تحرك الياء وانفتاح ما قبلها بدا للوهلة الأولى القول بفتح الياء منطويا على شيء

من التحكم تنبه إليه المعري وأجاب عنه بما سقناه سابقا في درس البنية، فحركة الياء يمكن جدلا أن تكون ضمة أو كسرة ولا يدفع ذلك سوى الاعتماد على شيوع البنية ذات الياء المفتوحة، فباب خشبة أشيع من باب سبُعة، ومعِدة.

ويثير قول الخليل مشكلة أخرى وهي أن اسم الجنس الجمعي (آي) قد تطرفت فيه الياء بعد ألف والياء والواو متى تطرفتا بعد ألف قلبتا همزة وقد أجاب عن هذا المعري بقوله: «ولم تنقلب الياء التي بعد الألف في آية همزة كما انقلبت في شقاء ووشاء ـ لأنه من سقيت ووشيت ـ إذ كانت العرب لا تجمع على الحرف الواحد علة العين واللام ولكن يقتصرون على علة أحد الحرفين» (54)، ولترك هذا الهمز علة مختلفة سيأتي ذكرها.

2) أما القول الذي نسبه الجوهري إلى سيبويه وهو أن أصل آية (أوية) فلا يختلف من حيث تفسير الألف عن قول الخليل فالقانون واحد.

3) يبدو أن الشذوذ الذي يترتب على تفسير الخليل أوحى إلى غيره بتفسير يخرج به عن ذلك الشذوذ، ولذلك نجد من يذهب إلى أن الياء المبدلة هي لام الكلمة ولكنها قلبت قلبا مكانيا بعد ذلك إذ نقلت في موضع العين. قال السمين الحلبي: «وقيل أصلها: أياة بإعلال الثاني، فقلبت بأن قدمت اللام وأخرت العين وهو ضعيف» (55)، وذكر مثل ذلك ابن عقيل (56)، وذكر البغدادي أن أصلها أَيَيَة كقصبة، إلا أنه أعلت الثانية على القياس، فصارت أياة كحياة ونواة، ثم قدمت اللام إلى موضع العين، فوزنها فَلَعَة (57).

وهذا الوزن الصرفي مخالف لبنيتها: (فَعَلَة).

4) يعتمد القول الذي نسبه سيبويه إلى غير الخليل وذهب إليه الفراء على مبدأ آخر وقانون مختلف فهو يفترض بنية مختلفة عن البنية التي افترضها الخليل فالبنية هي: (فَعْلة)، أما علة التغير فهي التخلص من المتماثلات (58) قال سيبويه: «إنما هي أيّة وأيّ فعْل؛ ولكنهم قبلوا الياء وأبدلوا مكانها الألف لاجتماعهما، لأنهما تكرهان كما تكره الواوان، فأبدلو الألف كما قالوا الحيوان، وكما قالوا ذوائب (59)، فأبدلوا الواو كراهة الهمزة» (60).

ويجعل الفراء اجتماع الياءين في الأصل علة لترك همزة الياء بعد الألف، قال: «وإنما تركت العرب همزتها كما يهمزون كل ما جاءت بعد ألف ساكنة لأنها كانت فيما يرى في الأصل أيّة، فثقل عليهم التشديد فأبدلوه ألفا لانفتاح ما قبل التشديد، كما قالوا أيما لمعنى أمّا» (61).

فليس الأمر من قبيل تتابع ألف وياء بل هما بمنزلة حرف واحد. وسوغ هذا القلب وجود ياء مشددة مسبوقة بفتحة، وهذا يقربه من تفسير الخليل بعض التقريب؛ ولذلك نجد العكبري يرد القولين معا، قال: «وكلا الوجهين فيه نظر؛ لأن حكم الياءين إذا اجتمعتا في مثل هذا أن تقلب الثانية لقربها من الطرف» (62).

ويحمل القاسم بن محمد المؤدب هذا التغير على ظاهرة أخرى هي قلب الواو الساكنة المسبوقة بفتح ألفا في مثل (يوجل ---> ياجل)، وفي (دوّية) للمفازة، قالوا: داوية (63). قال الجوهري: «قبلوا الواو الأولى الساكنة ألفا لانفتاح ما قبلها» (64).

ويمكن فهم مذهب التخفيف الذي يذهب إليه الفراء في ضوء الاستخدام اللهجي القديم الذي يجعل الياء الساكنة بعد فتح ألفا، فحجة الفراء أنهم: «إذا كانوا يفعلون ذلك بالياء الساكنة وحدها في نحو (عيب وعاب) و(ذيم وذام) فالأحرى أن يفعلوا ذلك إذا انضاف إليها ياء أخرى»(65).

وأما هذه اللهجة فأشار إليها أبو زيد الأنصاري في نوادره، قال:

«وأنشدني أبو الغول لبعض أهل اليمن:

أي قلوص راكب تراها طاروا

عليهن فشل علاها

واشدد بمتني حقب حقواها

ناجية وناجيا أباها

القلوص مؤنثة وعلاها أراد عليها ولغة بني الحارث بن كعب قلب الياء الساكنة إذا انفتح ما قبلها ألفا يقولون أخذت الدرهمان واشتريت ثوبان والسلام علاكم وهذه الأبيات على لغتهم»(66)، وجاء في مجاز القرآن: «وزعم أبو الخطاب أنه سمع قوما من بني كنانة وغيرهم يرفعون الاثنين في موضع الجر والنصب»(67).

وذكر الفراء في تعليل رفع المثنى في قوله تعالى [إن هذان لساحران] (63 ـ طه) وجهين أحدهما أنها جاءت على لغة الحارث بن كعب، قال: «يجعلون الإثنين في رفعهما ونصبهما وخفضهما بالألف. وأنشدني رجل من الأسد. يريد بني الحارث:

فأطرق إطراق الشجاع ولو رأى

مساغا لناباه الشجاع لصمما

قال: وما رأيت أفصح من هذا الأسدي وحكى هذا الرجل عنهم: هذا خط يدا أخي بعينه»(68).

وقال الزجاج: «وهؤلاء أيضا [بنو كنانة] يقولون: ضربته بين أذناه، ومن يشتري مني الخفان وكذلك روى أهل الكوفة أنها لغة لبني الحارث بن كعب»(69).

وجاء في شرح المفصل أنها لغة لبني الحارث وبطون من ربيعة(70)، وقد عزاها الرواة لخثعم، وهمدان وزبيد، وكنانة، وبني العنبر، وبني الهجيم، وبطون من ربيعة وبكر بن وائل، وبني عذرة(71).

وهذه اللهجة مستمرة في جنوب الجزيرة في حضرموت إذ يقولون: (آضا) في: أيضا، و(عان) في: عين، و(ان) في: أين و(عان) في: حرف العين(72). وهذا التغيير كثير مسموع إلى اليوم في لهجات البادية في وسط الجزيرة العربية(73)، إذ نسمعهم يقولون (خار) في: خير، و(مار) في: مير. و(عار) في: عير، و(طار) في: طير، و(شاخ) في: شيخ، و(علاهم) في: عليهم، و(غار) في: غير، و(باض) في: بيض، و(باضا) في: بيضاء، و(القانة) في: القينة، و(يسنى) في: يسني، ومن إنشادهم:

يا نرحبا (بشعالة)

كم درهمت من (لالة)

يريد: شُعَيلة، وليلة. ويلاحظ حدوثه على مستوى الياء القصيرة (الكسرة) وذلك في قولهم (فَ البيت) أي: فالبيت <--- في البيت.

على أن بن عصفور لا يرى في القول بإعلال العين

على النحو الذي وصفه الفراء مزية على قول الخليل لأن قول الخليل معتمد على إعلال العين أيضا، واحتج بأن «إبدال الياء الساكنة ألفا ليس بمستمر. وأما (العاب والعيب) و(الذام والذيم) فهما مما جاء على (فَعْل) تارة وعلى (فَعَل) أخرى» .(74) ولعل ما سقناه من شواهد هذه الظاهرة قديما وحديثا يقوي مذهب الفراء.

وقد وصف ابن مالك مذهب الفراء بأنه أسهل الوجوه، قال ابن عقيل: «ووجه أنه أسهل، أنه ليس فيه إلا إبدال الألف من حرف علة ساكن؛ ولكن القياس التصحيح والإدغام، فأبدلوا تخفيفا، وإذا إبدلوا في توبة ونحوها، حيث قالوا: تابة، فقال: قبلت توبتك وتابتك، وقالوا أيضا: رحم الله حوبتك وحابتك، ونمت نومة ونامة، فلأن يبدلوا عند اجتماع الياءين أحرى»(55).

3/ب: تفسير الحذف

يؤدي القول بزيادة الألف ـ وهذا مذهب الكسائي ـ إلى افتراض حذف من جذور اللفظ؛ لأن عدة حروف اللفظ أقل من البنية المفترضة (فاعلة)، وحاول المعري بيان ذلك فقال: «فإذا صح ذلك فلابد من حذف ولا يكون المحذوف إلا أحد حرفين الهمزة أو الياء»(76).

وهناك من يفترض أن الياء الأولى قلبت ألفا فاجتمعت الفان(77).

3/ب: 1 ـ المحذوف همزة:

ويتابع المعري تفصيل أمر الحذف، فعلى الفرض الأول قال: «فإذا قيل إن المحذوف همزة فأصلها (آئية) فحذفوا الهمزة، وكان حذفها ها هنا أقيس منه في قولهم هو شاكُ السلاح ومكانٌ هارٌ. وقد حكى الخليل أن العرب قالت سؤته سواية، والأصل سوائية فحذفوا الهمزة لما فيها من الكلفة»(78).

ولئن حذفت الهمزة هنا فإنها حذفت في ألفاظ أخرى لا يظهر الثقل فيها كما يظهر في هذه، قال المعري: «وقد قالوا ناس وأصلها أناس فحذفوا الهمزة؛ وحذفها في آية كانت فاعلة أقيس»(79).

وبين المعري لم كان حذفها من (آية) أقيس وعلل لهذا الحذف قال: «لأنها وقعت بعد الألف والألف مجانسة للهمزة وقبل تلك الألف همزة وبعد الهمزة المحذوفة ياء فكان الطرح كالواجب في هذا الموضع»(80).

ويقتضي القولان ـ قول الخليل بقلب العين ألفا لفتحها بعد فتح وقول الكسائي بقلب العين لأنها ياء بعد ألف ـ أن تكون (آية) مأخوذة من فعل يائي العين مثل (باع) وهذا ما يفهم من قول سيبويه». فمما جاء في الكلام على أن فعله مثل: بعت: آي، وغاية، وآية»(81). وأما على قول الكسائي فبنيتها صيغت صياغة إسم الفاعل من الفعل الثلاثي المجرد، وفصل المعري ذلك بقوله: «وإذا قيل بهذا القول وجب أن تكون جارية على فعل أميت كأنه في وزن (باع) من آية فقيل: آيتْ تئيّ [مثل: باعت تبيع] فهي آئية، مثل آمت تئيم فهي آئمة فاعتلت الألف في الماضي كما اعتلت في آم وباع فهمزت في إسم الفاعل لما التقى ساكنان وهما ألف فاعل والألف التي كانت معتلة بالقلب في الماضي ولم يكونوا ليردوها إلى أصلها وقد أعلوها في الفعل؛ لأنهم يرغبون أن تكون الأفعال وأسماء الفاعلين مستوية في العلة أو

في الصحة فإذا صح أنهم حذفوا في شاك وبابه كان الحذف ها هنا ألزم وأحسن»(82) .

3/ ب : 2 ـ المحذوف ياء :

هذا هو الفرض الثاني الذي يقتضيه القول بحذف العين من (آية)، ولكن علة الحذف في هذا الفرض تختلف عن علة الحذف في الفرض السابق فهي في السابق تخلص من التقاء مثلين هما الفاء والعين؛ أما هنا فهي تخلص من اجتماع مثلين هما العين واللام. قال المعرّي مفصلا هذا: «وإذا قيل إن المحذوف ياء فالعلة في ذلك أنهم كرهوا اجتماع الحرفين المثلين اللذين يكره اجتماع مثلهما إذ كانا ليسا كالدالين في رادّ وبابه؛ لأن الياء والواو لهما مزية في الإلقاء إذا كانتا مستثقلتين ولم يجيء في كلامهم مثل حايية بالإظهار ولا مثل حايّ بالإدغام وقد كثر ذلك في غير الياء. واستعملوا تضعيفها في الماضي دون المستقبل فقالوا حيّ وعى ولم يستعملوا مثل ذلك في الوار ولم يأت عنهم قوّ وإن كان من القوة ولا حوّ إذا نطقوا بالفعل من الحوّة وكل ذلك لثقل الواو عليهم»(83) .

أورد ابن عصفور مذهب الكسائي وبين أنه على حذف الياء تخلصا من اجتماع الياءين إذ قد حذفت الياء وهي وحدها في (بالة)(84) التي أصلها : بالية ولكن ابن عصفور رد هذا منتصرا لقول الخليل محتجا بأن هذا القول ليس فيه مزية على قول الخليل فهو معتمد على الإعلال بالحذف وقول الخليل معتمد على الإعلال بالقلب، واحتج بأن حذف الياء التي هي عين للفظ ليس بمطرد، وأن في قول الكسائي إدعاء أصل لم يلفظ به(85) .

وخلص ابن عصور إلى ترجيح قول الخليل (86) .

وليست كل هذه الحجج مسلمة لابن عصفور إذ قوله إن في مذهب الكسائي ادعاء أصل لم يلفظ به فيه تحكم . وذلك أن مذهب الكسائي لا يختلف عن مذهب الخليل من هذه الجهة فالأصل الذي قدره الخليل لم يلفظ به أيضا .

3/ ب : 3 ـ المحذوف ألف :

ونقل القول بذلك ابن منظور عن الفراء الذي أورد القول ورده، جاء في اللسان : «قال [الفراء] : وقال بعضهم آية فاعلة صيرت ياؤها الأولى ألفا كما فعل بحاجة وقامة، والأصل حائجة وقائمة . قال الفراء : وذلك خطأ لأن هذا يكون في أولاد الثلاثة ولو كان كما قالوا لقيل في نواة وحياة ناية وحاية، قال : وهذا فاسد »(87) .

وعلى كل هذه الأقوال يكون وزن (آية) : فالَة .

4 ـ القضايا التصريفية

لم يكتف الصرفيون بمحاولاتهم التفسيرية لكلمة (آية) بل ذهبوا شوطا بعيدا في بيان ما يستتبعه التفسير من أشكال تصريفية، وأما التصريفات التي يخضع لها الإسم وينال بنيته، بها، شيء من التغير الداخلي فهي التصغير وجمع التكسير والنسب .

4/ أ ـ التصغير :

ينال الإسم المصغر بالتصغير من التغير في بنيته ما يغير الشروط التي تغيرت بها أصوات المكبر، ولذلك يقال إن التصغير يرد الأشياء إلى أصولها(88) .

وقبل أن نمضي في عرض مسالة تصغير (آية) نود أن نذكر بالفرق بين (الصيغ التصغيرية) و(الميزان الصرفي)، فالصيغ التصغيرية أبنية تجريدية ثابتة

تقاس عليها الأسماء المصغرة بناء على عدد حروفها بغض الطرف عن المجرد منها والمزيد؛ إذ تقابل المجردات والزوائد بحروف الميزان دون تفريق، فما يتألف من ثلاثة حروف فصيغته التي يصغر عليها هي: (فُعَيل)، أما ما زاد على ثلاثة فعلى صيغة: (فُعَيعِل)، وثم صيغة ثالثة تستوعب تصغير ما عوض عن حذف أحد حروفه لزيادته على أربعة، أو إن كان قبل آخره حرف علة وهو على خمسة أحرف، وهي الصيغة: (فُعَيعيل). وأما (الميزان الصرفي) فهو يزن الكلمات المصغرة كما يزن المكبرة مراعيا في ذلك الزيادة والحذف. ونرجح استخدام (صيغة التصغير) إشارة إلى هذا الثبات الذي تعامل به الأسماء فكأن الأسماء عند تصغيرها إنما تفرغ في قالب محدد هو الصيغة(89). ولذلك قد يختلف الميزان الصرفي عن صيغة التصغير.

الذين يذهبون إلى أن الألف من (آية) منقلبة عن ياء يعالجون أمر تصغيرها في ضوء ما ذكره سيبويه من حكم تصغير الإسم الذي يكون ثانيه ياء، قال سيبويه: «وذلك نحو: بيت وشيخ وسيّد. فأحسنه أن تقول: شُييخ وسُييد فتضم؛ لأن التحقير يضم أوائل الأسماء، وهو لازم له، كما أن الياء لازمة له. ومن العرب من يقول: شِييخ وبِييت وسِييد، كراهية الياء بعد الضمة»(90). وعلل الرضي هذا الكسر فقال: «وبعض العرب يكسر أول المصغر في ذوات الياء نحو: نِييب وشِييخ، خوفا على الياء من انقلابها(91) واوا لضمة ما قبلها، وتقصيا من استثقال ياء بعد ضمة لو بقيتا كذلك، وهذا كما قيل في الجمع بِيوت وشِيوخ -بكسر الفاء- وقرىء به(92) في الكتاب العزيز»(93).

قال المعري معالجا أمر تصغيرها: «ولو صغرت على رأي الخليل لجاز لك أن تقول: أُيَيَّة وإِيَيَّة، كما تقول: ثُدِيّ وثِدِيّ»(94).

والمعري يقيس التصغير في (آية) على جمع التكسير لثدي الذي يجوز فيه ما قاله الجوهري: «وثُدِيّ على فُعُول، وثِدِيّ أيضا بكسر الثاء إتباعا لما بعدها من الكسر»(95).

ولا يختلف أمر تصغيرها عند من يذهب مذهب الفراء، قال المعري: «ولو صغرت على القول الآخر وهو مذهب من يرى أن أصلها: أية بالتشديد لقلت كما قلت في القول الأول لأنه يرجع إلى مثل حاله»(96).

ويختلف تصغيرها على رأي أورده ابن فارس؛ وذلك بجعل الألف همزة مخففة وأنها على زنة (أعْية)؛ والسبب في ذلك أن هذه الألف مستثناة، مما يرده التصغير إلى أصله، قال سيبويه في معرض حديثه عن الهمزتين في الكلمة الواحدة وما يجري من أمر تخفيف الثانية وإعلالها: «وإذا جمعت آدم قلت: أوادم، كما أنك إذا حقرت قلت: أويدم، لأن هذه الألف لما كانت ثانية ساكنة وكانت زائدة؛ لأن البدل لا يكون من أنفس الحروف، فأرادوا أن يكسروا هذا الاسم الذي قد ثبتت فيه هذه الألف: صيروا ألفه بمنزلة ألف خالد»(97)، وقال السيرافي في شرح هذه القضية: «وذلك أن آدم وإن كان الأصل فيه همزة فقد قلبتها ألفا على سبيل التخفيف، فصار بمنزلة ما كان ثانيه ألفاً، نحو: ضارب وبازل وخابط»(98).

وقال ابن جنّي: «وإذا أبدلت الهمزة على هذا

جرت الألف التي هي بدل منها مجرى ما لا أصل له في همز البتة »(99) .

ويكون تصغيرها بناء على ما سبق : (أويّة) .

وعلى أي حال كان تصغيرها في الأقوال السابقة فإن صيغة التصغير (فُعَيل) والميزان الصرفي هو (فُعَيلة) .

وأما الذين يذهبون إلى زيادة الألف فإن عليهم مراعاة أحكام الألف الزائدة في التصغير، وما يجلبه ثلاث ياءات من الثقل آخر الاسم فتحذف إحداها، قال سيبويه « واعلم أنه كان بعد ياء التصغير ياءان حذفت التي هي آخر الحروف، ويصير الحرف على مثال فعيل، ويجري على وجوه العربية . وذلك في عطاء : عطي، وقضاء : قضي، وسقاية سقية، وإداوة أدية، وفي شاوية شوية، وفي غاو : غويّ »(100) . وعلل سيبويه ذلك بقوله : « وذلك لأن هذه اللام إذا كانت بعد كسرة اعتلت، واستثقلت إذا كانت بعد كسرة في غير المعتل، فلما كانت بعد كسرة في ياء قبل تلك الياء ياء التحقير ازدادوا لها استثقالا فحذفوها »(101) .

قال المعري شارحا هذا التصغير : « فأما من زعم فاعلة في الأصل فيلزمه أن يقول في تصغيرها (أوَيّة) ؛ لأن الألف عنده ألف فاعلة وليست منقلبة عن ياء وإنما هي كألف ضارب وطالب وهذه الألف تصير واوا في التصغير والجمع فتقول طويلب وغويلب وإذا سميت رجلا طالبا قلت في جمعه طوالب »(102) .

ويلاحظ أن اللفظ بعد تصغيره ليس فيه ثلاث ياءات لأنه في الأصل قد حذفت منه ياء، ولو لم تحذف الياء لوجب حذفها للتصغير . وبهذا تختلف صيغة التصغير عن الميزان، فالصيغة (فُعَيل) أما الميزان فهو (فُوَيلَة) .

وحاول الفراء أن يستفيد من ظاهرة التصغير في تفسير بناء (آية) إذ رد قول الكسائي، بأنها على فاعلة، محتجا بأن ذلك لا يستقيم مع تصغيرها تصغير الأسماء الثلاثية التي اجتافتها علة ومثاله ما مر معنا من تصغير (آية) على قول الخليل، والظاهر أن الكسائي يصغر آية ذلك التصغير المذكور، ولذلك قال الفراء : « وكان الكسائي يقول إنه فاعلة منقوصة؛ قال الفراء : ولو كان كذلك ما صغرها إِيَيَّة، بكسر الألف »(103) . ولما راجع الفراء الكسائي في ذلك زعم أنها صغرت تصغير ترخيم، قال الفراء : « وسألته عن ذلك فقال صغروا عاتكة وفاطمة عتيكة وفطيمة، فالآية مثلها، وقال الفراء : ليس كذلك لأن العرب لا تصغر فاعلة على فعيلة إلا أن يكون إسماً في مذهب فلانة فيقولون هذه فطيمة قد جاءت إذا كان إسما، فإذا قلت هذه فطيمة ابنها يعني فاطمته من الرضاع لم يجز، وكذلك صليح تصغيرا لرجل إسمه صالح، ولو قال رجل لرجل كيف بنتك قال صويلح ولم يجز صليح لأنه ليس بإسم »(104) .

أما الجوهري الذي نسب إلى سيبويه أن أية في الأصل : (أوَية) فلعله يصغرها على (أُوَيّة) . وهذا التصغير يلتقي مع تصغير (آية) التي على بناء (فاعلة) لما ذكرته من أمر حذف الياء قبل التصغير أو للتصغير؛ ولكن هذا من حيث الشكل الظاهر أما صيغة التصغير والميزان فهما على نحو ما ذكر في تصغير (آية) على رأي الخليل ومن لم يذهب إلى زيادة الألف، فالصيغة (فُعَيل)، والميزان (فُعَيلَة) .

4/ ب: الجمع:

وضع سيبويه بابا ترجمه بقوله « هذا باب ما كان واحدا يقع للجميع ويكون واحده على بنائه ولفظه، إلا أنه مؤنث تلحقه هاء التأنيث ليتبين الواحد من الجمع »(105). وهذا ما عرف عند النحويين بعد بمصطلح إسم الجنس الجمعي، وهو من حيث اللفظ مفرد يأتي على أبنية المفرد ومن حيث المعنى يدل على جمع متجانس الأفراد، ولأنه جاء على بناء المفرد أكتفي في اللفظ الدال على الواحد منه بتاء التأنيث التي أشار سيبويه إلى أنها ليست للفرق بين مذكر ومؤنث بل هي للفرق بين ما يدل على الواحد وما يدل على الجميع. ومعنى ذلك أن اسم الجنس الجمعي سابق في وضعه لواحده وأنه لفظ وضع ابتداء للدلالة على جمع، وليس جمعا لواحد بتغيير لبنية الواحد على نحو ما يحدث في جمع التكسير التالي لمفرده وضعا، وقد مثل سيبويه لإسم الجنس الجمعي مستقصيا الأبنية التي جاء عليها مشيرا إلى شيوع ما شاع منها ومبينا كيف يجمع المفرد منها(106).

ولكي نتصور ترتيب الألفاظ حسب وضعها نمثل بما يأتي:

طلح (اسم جنس جمعي) ----> طلحة (مفرد) -> --- طلحات (جمع المفرد).

والفرق بين إسم الجنس الجمعي والجمع الصحيح هو في الدلالة على الكمية، إذ يدل الأول على الكثرة ويدل الثاني على القلة.

ويعبر سيبويه عن ذلك الترتيب تعبيرا دقيقا في قوله: « فإذا أردت أدنى العدد جمعت الواحد بالتاء. وإذا أردت الكثير صرت إلى الإسم الذي يقع على الجمع، ولم تكسر الواحد على بناء آخر »(107).

على أن هذا لم يمنعهم عند جمع مفرد إسم الجنس الجمعي من تجاوز إسم الجنس الجمعي إلى جمع تكسير قياسا على ما يكون له جمع تكسير من المفردات، قال سيبويه: « وربما جاءت (الفعلة) من هذا الباب على فعال، وذلك قولك: سخلة وسخال، وبهمة وبهام، وطلحة وطلاح وطلح، شبهوه بالقصاع »(108).

ولعلنا بعد هذا التقديم ندرك أن الحديث عن جمع (اية) حين يعرض له اللغويون يسوقونه أحيانا دون تفرقة بين ما هو جمع وما هو إسم للجنس الجمعي، فهذا ابن دريد يقول: « وجمع آية آي وآيات »(109). وقال ابن جني: « وآياء جمع آية وآي »(110). أما الجوهري فقال: « وجمع الأية آي وآياي وآيات »(111).

وقد تعقب ابن بري الجوهري فوجده أخطأ في (آياي)، إذ حكم الياء المتطرفة بعد ألف زائدة أن تقلب همزة؛ فالصواب (آياء)، وأخطأ في عده هذا جمعا لآية، إذ هو جمع لإسم الجنس الجمعي (آي)(112).

ويمكن تصوير العلاقة بين هذه التصرفات على هذا النحو:

آياء <--- اي ---> آية --------> آيات

وأشار أبو العلاء إلى التغير الصوتي في جمع (آي) فقال: « وإذا جمعت (آيا) على مثل أزمان وأجمال قلت آياء فقلبت الياء الآخرة همزة كما فعلت في سقاء وقضاء »(113).

ولم يسمع سوى هذا، غير أن أبا العلاء المعري مولع بالافتراض وبحث إمكانات التغير، فهو يذهب إلى أنه لو جمعت (اية) ـ على مذهب الخليل أي: (أَيَيَة) ـ كما تجمع (أكمة) على (آكُم)(114) لكانت في حالة الرفع والجر: (آيٍ)(115)؛ إذ أصلها: (أأيي)، فجعلت الهمزة الثانية الساكنة ألفا لسبقها بهمزة مفتوحة، وحذفت الياء الثانية لالتقاء الساكنين حرف العلة (الياء) والتنوين الساكن. قال أبو العلاء: «قلت في الرفع والخفض هذه آيٍ يا فتى وعجبت من آيٍ قرأهن فلان ولو نصبت لقلت سمعت آييا فاتعظت، غير أن هذا شيء لم ينطق بمثله إلا أنه على باب: أظبٍ، وأنت قائل في النصب رأيت أظبيا ولا يمكنك أن تدغم إذا نصبت في قولك رأيت آييا؛ لأنك تصير بالإسم إلى ما يستثقلون ولكنك تخفي إن شئت»(116).

4/ ج: النسب:

تعددت صور النسب إلى (آية)؛ إذ نجد عند سيبويه ثلاث صور: آئيّ، وآييّ، وآويّ. وثم صورة رابعة ذكرها الجوهري وهي (أَوَوِيّ).

4/ ج: 1 ـ الصورة الأولى: (آئي)

ينطلق تفسير التغير في هذه الصورة من مبدأ كراهية اجتماع المتماثلات الذي يتخلص منه بوسائل مختلفة منها الإبدال، فالأصل هنا هو (آييّ)، أما الإبدال إلى همزة فلوقوع الياء بعد الألف، وشرح سيبويه هذا بقوله: «وسألته عن الإضافة إلى راية وطاية وثاية وآية ونحو ذلك، فقال: أقول: رائي وطائي، وثائي، وآئي. وإنما همزوا لاجتماع الياءات مع الألف، والألف تشبه بالياء، فصارت قريبا مما تجتمع فيه أربع ياءات، فهمزوها استثقالا، وأبدلوا مكانها همزة، لأنهم جعلوها بمنزلة الياء التي تبدل بعد الألف الزائدة؛ لأنهم كرهوها ها هنا كما كرهت ثم، وهي هنا بعد ألف كما كانت ثم، وذلك نحو ياء رداء»(117).

أصل الهمزة:

يثير أبو العلاء في الحديث عن هذه الصورة سؤالا وهو: أنقلاب الهمزة عن ياء مباشرة أم عن واو قلبت عن الياء قال: «ولقائل أن يقول الأصل آيي بلا امتراء فالهمزة هل حدثت عن الياء أم عن الواو، فيقال له كل ذلك يجوز»(118).

علة قلب الواو همزة:

فصل المعري القول في جواز القول بانقلاب الهمزة عن الواو: آوي > آئي، ثم راح يحشد الشواهد اللغوية على هذه الظاهرة، قال:

«فإن شئت قلت قلبوا الياء واوا ثم همزوا الواو لأنها مكسورة كما قالوا في وشاح إشاح وكان هذا ألزم لأن بعد الواو ياءين ألا ترى أن همزة بعدها ياء مشددة قد جاءت في كلامهم صدرا للكلمة فقالوا إياك وإيل للذي في الجبل وليس في كلامهم واو مكسورة بعدها ياء مشددة في صدر كلمة البتة وقد جاءوا بالهمزة المفتوحة وبعدها الياء المشددة في مواضع كثيرة ولم يفعلوا ذلك في الواو ألا تراهم قالوا للرجل أيّم وللمرأة أيّم، وقالوا أيّ القوم معك ورجل ايّد وأيّده الله، وليس في كلامهم مثل ويّل ولا ويّر»(119).

علة قلب الياء همزة:

وعلى نحو ما احتج المعري لقلب الواو همزة وأن هذا ألزم لما استدل به من الشواهد نجده أيضا يستشهد على هذه الظاهرة بالشوهد اللغوية، قال: وأما قلبهم الياء إلى الهمزة فكما قلبوها في قولهم يديّ وأديّ وهو العيش الواسع ويلنجوج وألنجوج. والياء إذا كانت متحركة بالكسر وقبلها ما سكت عليه فهي جارية مجرى ما يبتدأ به في بعض الجهات ولا ريب في أنهم آثروا الابتداء بالهمزة على الابتداء بالياء ألا ترى أن أفعل في الاسماء أكثر من يفعل فباب أحمر وأصفر لا يقاس به في الكثرة باب يرمع ويلمع واليرمع حجارة رقاق تنفت باليد واليلمع البرق والسراب وقالوا إصبع أبلم ولم يقولوا يرمع وقد حُكي يعفر على الإتباع وقال بعض أهل اللغة ليس في كلامهم اسم أوله ياء مكسورة إلا قولهم اليسار لليد هكذا قال ابن دريد وغيره يقول يسار بالفتح فإذا كان ذلك على ما تعرفه العامة فقد فقدت ياء مكسورة في أول الأسماء إلا أن يجيء في مصدر فاعلت فإنهم يضطرون إلى ذلك إذا قالوا ياسرت الرجل يسارا وقد استغنوا بالمياسرة وكذلك قالوا يامَنْت أي أتيت اليمن ولعلهم يجتنبون اليمان في المصدر ويفرون منه إلى الميامنة ويدلك على أن الكسرة عندهم مع الهمزة أيسر منها مع الياء أنهم يقولون إعلم وإستعين وإخال فيكسرون مع الهمزة كما يكسرون مع التاء والنون. وقد قرأت بذلك القراء يحيى بن وثاب وغيره ويروى أنه قرأ [فأمتعه قليلا ثم أضطره] بكسر الهمزة من اضطره وكذلك يفعل في غيرها من حروف المضارعة فقرأ [يوم تبيض وجوه وتسود وجوه] و[لا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار]، وهذه لغة للعرب فيما كان على فَعَل يفعَل وما جاوز الأربعة نحو: اسودّ واقشعرّ.

وإذا صاروا إلى الياء فروا إلى الفتح فلم يقولوا يعلم كذلك يقول سيبويه وقد حكاها الفراء عن قوم من العرب وإن صحت فهي شاذة وليس هذا من باب ينحل وقرأ أصحاب القراءة التي مر ذكرها [إن كنتم تيلمون فإنهم يألمون كما تيلمون] فكسروا مع التاء ولم يكسروا مع الياء فهذا يبين حال (آية) في النسب»(120).

4 / ج: 2 ـ الصورة الثانية: (آيي)

وينطلق تفسير الصورة الثانية وهي ما ورد ذكرها سابقا من صفة الياء إذ الياء قد تكون في نهاية الإسم فيعد الإسم بها صحيحا لأنها مسبوقة بساكن مثل ظبي، ولا تتغير فتتغير منه عند النسب فيقال: ظبييّ. وقد يكون الاسم بالياء اسما منقوصا فتتغير منه الياء مثل: شجي بعد حذف التاء لأنها ياء مسبوقة بساكن، ولذلك تعامل عند النسب معاملة (ظبي) فينسب إليها: أميّيّ، مثل: ظبييّ. قال سيبويه: «ومن قال: أميّيّ قال: آيي ورايي بغير همزة؛ لأن هذه لام غير معتلة، وهي أولى بذلك لأنه ليس فيها أربع ياءات، ولأنها أقوى»(121).

قال السيرافي: وأما من قال: رايي فاثبت الياء فلأن هذه الياء صحيحة تجري بوجوه الإعراب قبل النسبة، كياء ظبي، فلما كانت النسبة إلى ظبي من غير تغيير، كان رايي كذلك.(122)

وأوضح أبو علي الفارسي أنه لا يصح أن يقاس على آية غيرها مما يكون حرف العلة بعد ألف لأن ألفها منقلبة عن أصل وليست زائدة قال: «فأما إبدالهم الياء التي هي لام واوا في (أتاوي) فعلى ما جاء في أحد الأقوال في راية وآية.

فإن قلت: أيجوز التصحيح في (أتاوي) في القياس عندك كما جاء (أيي) بتصحيح الياء؟ فإن ذلك لا يجوز كما جاز في باب آية وذلك لأن الحرف بوقوعه بعد الألف الزائدة أدخل في الاعتلال. ألا تراهم قالوا: آئي فصححوا مع حذف التاء، وأقروها، وليست واحدا مثل ذلك في باب سقاية وعباية فكذلك لا ينبغي تصحيح هذا وإن صحح آيي »(123).

ومما يؤيد هذه الصورة أنه على الرغم من أن الإسم المنتهي بياء مشددة بعد حرفين حقه أن تحذف إحدهما وتقلب الأخرى واوا؛ روى ما أبقى على هذه الياء؛ قال سيبويه: « ومثل ذلك قصيّ، منهم من يقول: قصيّيّ »(124).

وقال أبو العلاء: « لأنهم قد كثر في كلامهم مثل هذا إذ كانوا يقولون رجل عييّ وهذا مكان محييّ فيه وأمر معييّ به »(125).

4/ ج: 3 ـ الصورة الثالثة (آوي):

ويعتمد تفسير هذه الصورة على ما اعتمد عليه تفسير الصورة الأولى وهو التخلص من المتماثلات، وإبدال الياء واوا في النسب هو الإجراء العام الذي يتخلص به من اجتماع الياءات، قال سيبويه: « ولو أبدلت مكان الياء الواو فقلت: ثاويّ وآويّ وطاويّ وراويّ جاز ذلك »(126).

وفسر أبو العلاء هذه الصورة بقوله: « وأما قلبهم إلى الواو فلأجل الياآت والهمز فروا إليه لاجتماع الحروف التي جرت عادتها بأن تعتل »(127).

فالتغير على هذا النحو: آييّ ---> آويّ

على أنا نجد عندِ السيرافي قولا يفهم منه أن هذه الواو منقلبة عن الهمزة كراهة وقوعها بين ألف وياء، فالتغير هو: آييّ ---> آئي ---> آويّ، قال: السيرافي: « وأما من قال: راوي فإنه استثقل الهمزة بين الياء والألف، فجعل مكانها حرفا يقاربها في المد واللين، ويفارقها في الموضع، وهي الواو »(128).

الصورة الرابعة: (أووي)

هذه الصورة هي امتداد لما نسبه الجوهري إلى سيبويه من أن عين (آية) هي الواو. قال الجوهري: وتكون النسبة إليه أوويّ »(129)، ونقل هذا عنه الصفدي(130).

ورد هذه الصورة تابع لرد الجذر نفسه الذي بين عند تعداد مرجحات الجذر(131). و« قال [ابن بري]: فأما أووي فلم يقله أحد علمته غير الجوهري »(132).

خـــاتمـــة:

نود قبل أن نختم هذا البحث أن نضع جدولا يزوي ما عرضناه من أقوال في جذور الكلمة وبنائها ووزنها وما فيها من إعلال واختلافات في تفسير هذا الإعلال مع نسبة كل قول إلى صاحبه.

الجذر	البناء	الوزان	الإعلال	تفسير الإعلال	صاحب القول
ء/و/ي	فَعَل	فَعَلَة	قلب الواو (العين) ألفا	لتحركها وانفتاح ما قبلها	نسبه الجوهري إلى سيبويه
ء/ي/ي	فَعَل	فَعَلَة	قلب الياء (العين) ألفا	لتحركها وانفتاح ما قبلها	الخليل
ء/ي/ي	فَعُل	فَعُلَة	قلب الياء (العين) ألفا	لتحركها وانفتاح ما قبلها	غير منسوب
ء/ي/ي	فَعِل	فَعِلَة	قلب الياء (العين) ألفا	لتحركها وانفتاح ما قبلها	غير منسوب
ء/و/ي	فَعَل	فَعَلَة	قلب الياء (اللام) ألفا	لتحركها وانفتاح ما قبلها	ذكره السمين وابن عقيل
ء/ي/ي	فَعْل	فَعْلَة	قلب الياء (العين) ألفا	تخلصا من متماثلات تخفيفا	رواه سيبويه، واتخذه الفراء
ء/ي/ي	فَاعِل	فَالَة	حذف الياء	تخلصا من متماثلات	الكسائي
ء/ي/ي	فَاعِل	فَالَة	قلب الياء ألفا ثم حذفت	تخلصا من لقاء ألفين ساكنتين	ورد في اللسان
ء/ء/ي	فَاعِل	فَالَة	حذفت الهمزة	تخلصا من متماثلات	افترضه المعري
ء/ء/ي	فَعْل	فَعْلَة	قلب الهمزة (العين)	تخلصا من متماثلات	رواه ابن فارس

ونستطيع بعد هذا الاستعراض لأقوال العلماء على اختلافها أن نتبين أن الجمهور يذهب إلى أن (اية) ترجع إلى جذور ثلاثية هي (أ/ي/ي)، أما من حيث البنية وما حدث في اللفظ من تغير فلدينا رأيان أساسيان أحدهما الرأي المنسوب إلى الخليل وهو أن (آية) في الأصل (أَيَيَة). والثاني الرأي الذي أخذ به الفراء وهو أنها في الأصل (أيّة). وانقسم المتأخرون بين مؤيد لقول الخليل ومؤيد لقول الفراء، فرأينا ابن عصفور يدافع عن قول الخليل ويذهب مذهبه، ورأينا العكبري وابن مالك يأخذان برأي الفراء.

ورأينا أن لكل رأي عيبه فعيب رأي الخليل أن حق التغير أن يكون في الياء الثانية من (آية)، وعيب رأي الفراء أن الإدغام من أهم وسائل التخلص من المتماثلات(133) وليس توالي همزة وياء مشددة بالأمر الموجب للتخلص من الياء إذ نجده في ما هو أكثر استخداما من اللفظ (آية)؛ إذ نجده في (أيّ)، و(إيّاك)، ونجده في ألفاظ أخر مثل: (أيّم، وأيّم). ولا يصار إلى التخلص من المتماثلات بالقلب إلا إن كان الإدغام متعذرا أو يورث ثقلا لا يتحقق معه الغرض.

وأما الاحتجاج بسهولة القول فغير مقبول إذ لا يكفي أن تكون العلة سهلة بل يجب أن تكون أقرب إلى الاطراد وإلى كونها قانونا.

وإن ما روي من أمثلة جاءت على لغة الحارث بن كعب فبعضها ترجع إلى تغليب صورة المثنى بالألف وليست قلبا للياء إلى ألف. أما الكلمات المنتهية بألف منقلبة عن ياء أصلا فقد أبقى على الألف فلم ترد إلى أصلها (علي ---> على ---> علاهم)، وأما الأمثلة الأخرى التي هي ياءات قلبت إلى ألف فهي جارية على التفسير الذي قدمه إبراهيم أنيس(134) ومفاده أنها قد مرت بمراحل فهي قد حول المصوت المركب (ـــي) منها إلى ألف ممالة كما في الكلمة date ثم حولت إلى ألف خالصة بعد ذلك. مثال كلمة (بيض: baid---> bade--->bad).

من أجل ذلك أجدني مائلا إلى قول الخليل مغمضا عن القدح الذي وسم به، وذلك أن ظاهرة تغير العلة بسبب تحركها وانفتاح ما قبلها أشيع من قلبها تخلصا من التماثل. وأمر آخر يعزز ذلك هو أن تحرك الياء وانفتاح ما قبلها قانون صوتي لا يحتمل فيه التغير سوى ذلك أي أن الياء لا يمكن وفاقا لهذا القانون إلا أن تكون ألفا، وأما في القلب الذي يهدف إلى التخلص من المتماثلات فقد يقود إلى القلب إلى واو أو ألف أو همزة، إذ نجد في مثل (حيوان) أن الياء قلبت إلى واو عند من يذهب إلى قلبها، وفي النسب: (حيّيّ) قلبت إلى واو (حيويّ)، وفي النسب قلبت إلى همزة في (آييّ--->-- آئي).

ويمكن انطلاقا من اشتقاق الكلمة القول إن (آية) مأخوذة من (آي) بإلصاق التاء وهو شأن المفرد المأخوذ من إسم الجنس الجمعي، والتغير الذي هو قلب للياء وقع على الياء الأولى لا الثانية من (آي) لأنها هي الملازمة للحركة مع سبقها بالفتح بخلاف الثانية التي تفقد حركتها في الوقف، فلعل هذا رجح إعلال الياء الأولى على الثانية على ما فيه من شذوذ.

* * *

الهوامش :

(1) المعجم الكبير، الآية : 699/1 .

(2) ابن عاصم، الفاخر، 242 .

(3) ابن عصفور، الممتع 582/2 .

(4) سيبويه، الكتاب، 398/4 .

(5) الجوهري، الصحاح 2275/6 .

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، 168/1 .

(7) صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، غوامض الصحاح، 105 .

(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، 168/1 .

(9) عبد العليم إبراهيم، تيسير الإعلال والإبدال 167 .

(10) ابن جني، سر صناعة الإعراب، 71/1 .

(11) أبو العلاء المعري، رسالة الملائكة 107 .

(12) الجوهري، الصحاح 2275/6 .

(13) سيبويه، الكتاب 398/4 .

(14) السابق، نفسه .

(15) اللسان، أيا .

(16) ابن جني، المنصف، 574/2 .

(17) السابق، 143/2 .

(18) العكبري، التبيان، 56/1 .

(19) ابن منظور، اللسان، « أيا » .

(20) ابن فارس، مقاييس اللغة، 1/167-168 .

(21) ابن فارس، مجمل اللغة، 220/1

(22) يجتمع في إسم المفعول : (مقول <----- مقوول) واوان ساكنتان فتحذف إحداهما تخلصا من الساكنين، واختلف في المحذوف فذهب الخليل وسيبويه إلى المزيد وذهب الأخفش إلى حذف الحرف الأصلي . قال سيبويه : « وحذفت واو مفعول لانه لا يلتقي ساكنان »، الكتاب، 348/4، وذكر المازني مذهب الأخفش ورجحه على قول الشيخين، واحتج ابن جني لهذا المذهب، انظر : المنصف، 1/288-290 .

(23) سيبويه، الكتاب 398/4 .

(24) الرضي، شرح الشافية، 118/3 .

(25) ابن عقيل، المساعد، 168/4 .

(26) ابن منظور، اللسان، أيا .

(27) المعري، رسالة الملائكة 107 .

(28) ابن عصفور، الممتع، 583/2 .

(29) الرضي، شرح الشافية، 118/3 .

(30) السمين، الدر المصون، 308/1 .

(31) ابن عقيل، المساعد، 168/4 .

(32) البغدادي، الخزانة، 517/6 .

(33) العكبري، التبيان، 56/1 .

(34) ابن مالك، التسهيل، 310 .

(35) ابن عصفور، الممتع، 583/2 .

(36) سيبويه، الكتاب 398/4 .

(37) المعري، رسالة الملائكة 103 .

(38) ابن منظور، اللسان أيا .

(39) الفارسي، الحجة في القراءات السبع، ص193 .

(40) السمين، الدر المصون، 308/1 .

(41) السابق 309/1 .

(42) ابن عقيل، المساعد 169/4 .

(43) المعري، رسالة الملائكة، 103 .

(44) البغدادي، خزانة الأدب، 518/6 .

(45) السمين، الدر المصون، 309/1 .

(46) ابن عقيل، المساعد، 169/4 .

(47) البغدادي، خزانة الأدب، 518/6 .

(48) ابن منظور، اللسان، أيا .

(49) المعري، رسالة الملائكة 107 .

(50) الجوهري، الصحاح 2275/6 .

(51) اللسان، أيا . والرواية في كتاب : دقائق التصريف، للمؤدب : (أُيَيَّة) ص229 .

(52) البغدادي، خزانة الأدب، 518/6 .

(53) سيبويه، الكتاب 398/4 .

(54) المعري، رسالة الملائكة 103-104 .

(55) السمين، الدر المصون، 309/1 .

(56) ابن عقيل، المساعد، 169/4 .

(57) البغدادي، خزانة الأدب، 518/6 .

(58) انظر أمثلة أخرى للتخلص من الياء : الشمسان، التخلص من المتماثلات لفظا، الصفحات : 91، 101-105، 111 .

(59) قال ابن عصفور « نحو ذوائب في جمع ذؤابة أصله ذآئب فأبدلت الهمزة واوا هروبا من ثقل البناء مع ثقل اجتماع الهمزتين والألف، لأن الألف قريبة من الهمزة لأنها من الحلق كما أن الهمزة كذلك . فكأنه قد اجتمع في الكلمة ثلاث همزات . فالتزموا لذلك إبدال الهمزة واوا . الممتع في التصريف، 363/1 .

(60) سيبويه، الكتاب، 398/4 .

(61) ابن منظور، اللسان، أيا .

(62) العكبري، التبيان 56/1 .

(63) المؤدب، دقائق التصريف، 228 .

(64) الجوهري، الصحاح، 2344/6 .

(65) ابن عصفور، الممتع، 583/2 .

(66) أبوزيد الانصاري، النوادر في اللغة، 58. والنحويون مختلفون في النظر إلى هذه الظاهرة بين معمم ومخصص فالانصاري يعمم قلب الياء المسبوقة بفتح فيورد أمثلة من المثنى وغيره، ومنهم من يخصص هذا بغير المثنى واما المثنى وما انتهى بألف فيذهب إلى أن الألف التزمت وعومل كالاسم المقصور؛ إذ جعل المثنى بالألف في جميع حالاته الإعرابية. انظر: السيوطي، شرح شواهد المغني: 128/1 .

(67) أبو عبيدة معمر بن المثنى، مجاز القرآن 21/2 .

(68) الفراء، معاني القرآن، 184/2 .

(69) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه 362/3 .

(70) ابن يعيش، شرح المفصل، 128/3 .

(71) الدلائي، نتائج التحصيل، 370/1 .

(72) ربين، اللهجات العربية الغربية القديمة، 123-125 .

(73) قال محمد المفدى: «وهذه اللغة بالنسبة لعلي ولدى شائعة اليوم في بادية نجد»، انظر: الدماميني، تعليق الفرائد، 203/1، حاشية3 .

(74) ابن عصور، الممتع، 583/2 .

(75) ابن عقيل، المساعد، 168/4 .

(76) المعري، رسالة الملائكة، 107 .

(77) ابن منظور، اللسان، أيا. وانظر نص هذا القول في المدخل: 3/ب: 3 .

(78) المعري، رسالة الملائكة، 107 .

(79) المعري، رسالة الملائكة 107 .

(80) السابق، نفسه.

(81) سيبويه، الكتاب، 398/4 .

(82) المعري، رسالة الملائكة 107 .

(83) رسالة الملائكة، 107 .

(84) يفهم مما ورد في (المنصف، 236/2) أن (بالة) هي مصدر الفعل (بالى) إذ تقول: باليتُ. وكان مصدر الفعل قبل الحذف (بَالِية) مثل (عافية)، ولو لم يقل بحذف الياء التي هي لام الفعل لظهرت (بالة) كأنها على وزن (فَعَلة) وهذا يعني أن العين معتلة وهو خلاف الصحيح إذ المعتل هو اللام، أما العين معتلة من بالة فهي اللام ووزنها على هذا (فَاعَة). ويفهم من هذا أن الياء قد حذفت وهي وحدها في هذا اللفظ؛ فمن الأولى القول بحذف الياء في آية التي اصلها: آيية؛ لاجتماع ياءين لا واحدة.

(85) ابن عصفور، الممتع 583/2-584

(86) السابق 584/2 .

(87) ابن منظور، اللسان، أيا.

(88) ليس هذا أمرا مطلقا؛ إذ لا يعود المقلوب قلبا مكانيا إلى أصله، ولا تعود الألف المنقلبة عن همزة في مثل (آدم) إلى أصلها.

(89) هناك صيغة رابعة للتصغير خاصة بجمع من جموع القلة وهو ما جاء على بناء (أفعال) مثل أفراس فتصغيره على صيغة (فُعَيعال): أُفَيراس. ويختلف ميزانه عن الصيغة فالميزان الصرفي (أُفَيعال).

(90) سيبويه، الكتاب، 481/3 .

(91) ذهب ابن مالك إلى جواز أن تقلب إلى واو الياء أو ما انقلب عنها (التسهيل، 284) ومثل لذلك ابن عقيل بقوله: «نحو بيت وشيخ، أجاز الكوفيون إقرار الياء نحو: بييت وشييخ، وقلبها واوا نحو: بويت وشويخ؛ وحكوا عن العرب: بويضة؛ والتزم البصريون الأول، وجعلوا بويضة شاذا» (ابن عقيل، المساعد 498/3).

(92) قال في النشر: «واختلفوا في الضم والكسر من (بيوت، والغيوب، وعيون، وشيوخا، وجيوب) فقرأ بضم الباء من (البيوت وبيوت) حيث وقع أبوجعفر والبصريان وورش وحفص وقرأ بكسر الغين من (الغيوب) وذلك حيث وقع حمزة وأبوبكر وقرأ بكسر العين من (العيون وعيون) والشين من (شيوخا) وهو في غافر الجيم من (جيوبهن) وهو في سورة النور ابن كثير وحمزة والكسائي وابن ذكوان وأبو بكر إلا أنه اختلف عنه في الجيم من (جيوبهن) فروى شعيب عن يحيى عنه ضمها وكذلك روى عنه العليمي من طريقه وروى أبو حمدون عن يحيى عنه كسرها» (إبن الجزري، النشر في القراءات العشر 226/2 .

(93) الرضي، شرح الشافية، 209/1 .

(94) المعري، رسالة الملائكة، 108 .

(95) السابق، 108-109 .

(96) السابق، نفسه.

(97) سيبويه، الكتاب، 522/3 .

(98) السابق 552/3 ح3 .

(99) ابن جني، سر صناعة الإعراب، 665/2 .

(100) سيبويه، الكتاب 471/3 .

(101) السابق، الصفحة نفسها.

(102) رسالة الملائكة 110-111، ولم يكتف أبو العلاء بما عرضه من أمر تصغير آية بل أطلق لخياله أن يعرض لنا احتمالا كان يمكن أن يقال في ذلك وهو أن اللفظة لو لم تكن يائية لجاز أن يدعى أنها من الجذر «أ/و/ي» كأنها علامة يأوي إليها الضال فتكون ألفها منقلبة من الواو وتصح الياء لأجل علة العين ولو

صغرت على هذا الرأي لقيل أوية لأنها ترد إلى الأصل كما ترد الساحة إليه.

(103) ابن منظور، اللسان، أيا.

(104) ابن منظور، اللسان، أيا.

(105) سيبويه، الكتاب 582/3.

(106) السابق 582/3-586.

(107) سيبويه، الكتاب 582/3.

(108) السابق، نفسه.

(109) ابن دريد، الجمهرة 192/1

(110) ابن جني، سر صناعة الإعراب 665/2.

(111) الجوهري، الصحاح، 2275/6.

(112) ابن منظور، اللسان، أيا.

(113) المعري، رسالة الملائكة 110.

(114) قال ابن سيدة: «والجمع: أكَم، وأكْم، وإكام، وآكام، وآكُم كأفْلُس، الأخيرة عن ابن جني» (المحكم، 75/7).

(115) المعري، رسالة الملائكة 109.

(116) رسالة الملائكة 109 وأظبٍ، جمع ظبي وهي على وزن (أفعٍ)، وأصلها: أظبي، قبل حذف الياء لالتقاء ساكنين، على وزن (أفعُل).

(117) سيبويه، الكتاب 350/3.

(118) المعري، رسالة الملائكة 123.

(119) السابق 123-124.

(120) المعري، رسالة الملائكة 123-127.

(121) سيبويه، الكتاب 350/3-351.

(122) السابق، 350/3، ح3.

(123) الفارسي، البصريات 256/1-257.

(124) سبويه، الكتاب 351/3.

(125) المعري، رسالة الملائكة 123.

(126) سيبويه، الكتاب 351/3.

(127) المعري، رسالة الملائكة 123.

(128) سيبويه، الكتاب، 350/3، ج.3.

(129) الجوهري، الصحاح، 2275/6.

(130) صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، غوامض الصحاح، 105.

(131) انظر هذا بعد المدخل: 1/ب

(132) ابن منظور، اللسان. أيا.

(133) الشمسان، التخلص من المتماثلات لفظا، 80، 119.

(134) إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، 143.

المصادر والمراجع:

* ابراهيم؛ عبد العليم:

تيسير الإعلال والإبدال (مكتبة غريب/القاهرة 1969م).

* الأنصاري؛ أبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت (215هـ)

النوادر في اللغة (ط2، دار الكتاب العربي/بيروت ـ 1967م).

* أنيس؛ إبراهيم:

في اللهجات العربية (ط4، مكتبة الانجلو المصرية/القاهرة 1973م).

* البغدادي؛ عبد القادر بن عمر (1093م):

ـ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون (ط1، دار الكاتب العربي/القاهرة ـ 1968م).

* ابن الجزري؛ أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي (833هـ):

ـ النشر في القراءات العشر، بعناية: علي محمّد الضباع (المكتبة التجارية الكبرى، د.ت).

* ابن جني؛ أبو الفتح عثمان (392هـ):

ـ المنصف، تحق. إبراهيم مصطفى (ط1، وزارة المعارف العمومية / القاهرة 1954م).

ـ سر صناعة الإعراب تحق. حسن هنداوي (ط1، دار القلم / دمشق، 1985م).

* الجوهري؛ إسماعيل بن حماد (398هـ):

ـ الصحاح، تحق. أحمد عبد الغفور عطار (ط2، دار العلم للملايين / بيروت، 1979م).

* ابن خالويه؛ أبو عبد الله الحسن بن أحمد (370 هـ):

ـ الحجة في القراءات السبع، تحق. عبد العال سالم مكرم (ط2، دار الشروق / القاهرة 1977م).

* ابن دريد؛ أبو بكر محمد بن الحسن (321هـ):

ـ جمهرة اللغة (ط1، دائرة المعارف / حيدر آباد، 1925م) مصورة المثنى.

* الدلائي محمد أبي بكر المرابط (1089هـ):

ـ نتائج التحصيل في شرح كتاب التسهيل، تحق. مصطفى الصادق العربي (الكتاب والتوزيع والإعلان والنشر، بنغازي، د.ت).

* الدماميني؛ محمد بدر الدين بن أبي بكر بن عمر (827هـ):

ـ تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد، تحق. محمد عبد الرحمن المفدى (ط1، 1983م).

* ربين؛ شايم:

ـ اللهجات العربية الغربية القديمة، تر. عبد الرحمن أيوب (جامعة الكويت/الكويت، 1986م).

* الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السري (311هـ):

ـ معاني القرآن وإعرابه، تحق. عبد الجليل عبده شلبي (ط1، عالم

الكتب / بيروت، 1988م).

* السمين، أحمد بن يوسف (756هـ):

- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحق. أحمد محمد الخراط (ط1، دار القلم / دمشق، 1986م).

* سيبويه؛ أبو بشر عمرو بن قنبر (180 هـ):

- الكتاب، تحق. عبد السلام محمد هارون (الهيئة المصرية العامة للكتاب / القاهرة، 1966م).

* ابن سيده؛ علي بن إسماعيل (458هـ):

- المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، تحق. مصطفى السقا، وحسين نصار.

* السيوطي؛ جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر (911 هـ):

- شرح شواهد المغني (لجنة التراث العربي / دمشق، د.ت).

* الشمسان؛ أبو أوس إبراهيم:

- «التخلص من المتماثلات لفظا»، المجلة العربية للعلوم الإنسانية (جامعة الكويت / الكويت، 1994م) ع47، ص.ص: 77-137.

* الصفدي؛ صلاح الدين خليل بن أيبك (764 هـ):

- غوامض الصحاح، تحق، عبد الإله نبهان (ط1، معهد المخطوطات / الكويت، 1985م).

* أبو عبيدة؛ معمر بن المثنى التيمي (210 هـ):

- مجاز القرآن، تحق. محمد فؤاد سزكين (ط2، مكتبة الخانجي / القاهرة، 1970م).

* ابن عصفور؛ أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد بن علي (669 هـ):

- الممتع في التصريف، تحق. فخر الدين قباوه (ط1، المكتبة العربية / حلب، 1970م).

* ابن عقيل؛ بهاء الدين عبد الله (769 هـ):

- المساعد على تسهيل الفوائد، تحق. محمد كامل بركات (جامعة أم القرى / مكة المكرمة، 1980م).

* العكبري؛ أبو البقاء (616 هـ):

- التبيان في إعراب القرآن، تحق. علي محمد البجاوي (عيسى البابي الحلبي / القاهرة، 1976م).

* ابن عاصم؛ أبوطالب المفضل بن سلمة (290 هـ):

- الفاخر، تحق. عبد العليم الطحاوي (ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب / القاهرة 1974م).

* الفراء؛ أبو زكريا يحيى بن زياد (207 هـ):

- معاني القرآن، تحق. احمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار (دار الكتب المصرية / القاهرة، 1955م).

* ابن فارس؛ أبو الحسين أحمد بن زكريا (395هـ)،

- مقاييس اللغة، تحقيق. عبد السلام محمد هارون (ط2، مصطفى البابي الحلبي / القاهرة، 1970م).

- مجمل اللغة، تحق. هادي حسن حمودي (ط1، معهد المخطوطات العربية / الكويت، 1985م).

* الفارسي؛ أبو علي الحسن بن أحمد (377 هـ):

- المسائل البصريات، تحق. محمد الشاطر أحمد محمد أحمد (ط1، مطبعة المدني / القاهرة، 1985م).

* المؤدب، القاسم بن محمد بن سعيد (343 هـ):

- دقائق التصريف، تحق. أحمد ناجي القيسي، وحاتم الضامن، وحسين تورال (المجمع العلمي العراقي / بغداد، 1987م).

- دقائق التصريف، تحقيق ودراسة: محمد سالم الهزاع (رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود / الرياض، 1981م).

* مجمع اللغة العربية:

- المعجم الكبير (مطبعة دار الكتب / القاهرة، 1970م).

* المعري؛ أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان (449 هـ).

- رسالة الملائكة، تحق. لجنة من العلماء (ط3، دار الآفاق الجديدة / بيروت، 1979م).

* ابن منظور؛ جمال الدين محمد بن مكرم (711 هـ):

- لسان العرب (طبعة بولاق / القاهرة 1308 هـ [1891م]).

* ابن مالك؛ أبو عبد الله جمال الدين محمد بن عبد الله (672هـ):

- تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، تحق. محمد كامل بركات (دار الكاتب العربي / القاهرة، 1967م).

* ابن يعيش؛ أبو البقاء موفق الدين يعيش بن علي (243 هـ):

- شرح المفصل (دار الطباعة المنيرية / القاهرة، د.ت).

دلالات أصوات اللين في القرآن الكريم

الدكتور / نوزاد حسن أحمد(*)

المقدمة :

إن لعلم الأصوات نصيبا وافرا في اهتمام علم اللغة، باعتبار أن الصوت هو الركيزة الاساسية لبنية اللغة لأنه يمثل أصغر وحدة فيها، إذ تتألف الكلمة من ترابط الأصوات وتآلفها ومن ترابط الكلمات تتكون الجمل. ولا تقف أهمية الأصوات في حدود البنية الأساسية، والتي هي الثوابت الأخيرة فحسب، وإنما تتجلى أهميتها في بيان دلالة التراكيب النحوية اعتمادا على أصوات اللين التي تدخل في تركيب الهيكل البنيوي الداخلي للكلمة الواحدة، أو المظهر الخارجي لها عندما تظهر أهميتها في التفريق بين معنى نحوي وآخر، في نحو (صُدق) بضم الصاد للجميع والواحد (صَدق).

قال سيبويه (ت180هـ) : « وسمعت من العرب من يقول (قوم صُدق اللقاء) والواحد (صَدق اللقاء) . »[1] فالفرق بين دلالة التركيبين يكمن في التباين بين (الضم) و(الفتح) وليس للعلاقات القائمة بين أجزاء التركيب النحوي أثر في ذلك .

وكذلك في (مررت برجلٍ رجلٍ أبوه) و(مررت برجلٍ رجلٌ أبوه) فالتركيب الاول بمعنى أنه كامل، والثاني يأتي بمعنى رجل واحد لا أكثر من ذلك[2].

ولأصوات اللين وظيفة أخرى، وهي التفريق بين زمن وآخر فصوت (النصب) في جملة (حسبته شتمني فأثبَ عليه) اشعار بأن الوثوب لم يقع بعد، وإذا كان الوثوب قد وقع فليمر إلا الرفع[3].

ولأصوات اللين أثر واضح في بيان الدلالة المعنوية والدلالة الموسيقية، والأخيرة ترتبط بالعلاقة الشكلية التي تدخل في ربط المكونات اللغوية، وهذه العلاقة تعرف بالتنغيم (*Intonation*) وتتجلى أهميتها في القرآن الكريم وفي القراءات القرآنية وكيفية تأثير تغيير أصوات اللين من قبل القراء وفي دلالة الالفاظ . ثم إن التحول في صوت لين إلى آخر له مغزاه الدلالي في أسلوب القرآن الكريم، وإن زيادة أصوات اللين وحذفها لها أثر في التباين الدلالي .

تكمن أهمية البحث في أنه يتناول موضوعا يكاد يكون بكرا وعلى الرغم من حضوره في الكتب

(*) أستاذ علم اللغة المساعد في قسم اللغة العربية ـ كلية التربية ـ جامعة قاريونس

القديمة غير أنه لم يجمع في كتاب أو بحث مستقل فبذلت مسعاي في جمع موضوعات البحث من المصادر القديمة والحديثة واستقر الموضوع على مباحث منها:

أصوات اللين في العربية، وتناولت فيه أصوات اللين القصيرة والطويلة، وأهميتها في الجانبين الإعرابي والدلالي.

ثم ذكرت مفهوم الدلالة عند القدماء والمحدثين في المبحث الثاني، فذكرت الجانب النظري والجانب التطبيقي لهذا المفهوم ثم ذكرت المستوى الصرفي والمستوى السياقي للحقل الدلالي. والمبحث الثالث وهو موضوع البحث وعنوانه (دلالة أصوات اللين في القرآن الكريم) وتفرعت عن المبحث موضوعات أهمها القراءات القرآنية، والأساليب القرآنية،وأثر زيادة أصوات اللين وحذفها في الدلالة المعنوية للآيات، ثم عرضت الدلالة الموسيقية لأصوات اللين في القرآن الكريم.

ومما لا شك فيه أن الرغبة في فهم القرآن الكريم وسر إعجازه هو الذي قادني إلى اختيار هذا البحث، وسعيت إلى حصر الفهم في جانب مهم لم يشبع درسا وتحليلا وهو الجانب الدلالي الذي يتجلى من خلال أصوات اللين.

فإن وفقت فهو من بركات الله.

أصـــوات الليـــن

أصوات اللين في العربية تنقسم إلى قسمين، أصوات اللين الطويلة وأطلق عليها سيبويه (ت 180هـ) الحروف اللينة وقال: «وهي الواو والياء والألف، لأن مخرجها يتسع لهواء الصوت أشد من اتساع غيرها كقولك، أي والواو إن شئت أجريت الصوت ومدّدته»[4]. ومن أمثلتها في القرآن[5] قوله: ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ والصَّيْفِ﴾[6].

والقسم الثاني أصوات اللين القصيرة (الحركات)، وهي الفتحة، والكسرة والضمة وقال الخليل (ت175هـ) في تعريفها: «إنها زوائد تلحق الحرف»[7]، ومعنى الزوائد إشارة إلى كونها رموزا، ولكنها إضافية تلحق أواخر المفردات، وإن هذه الفكرة هي التي دعتهم إلى عدم اعتمادها، الأصل في الجذر، والاعتماد على الصوامت فقط، لأن الصوائت أمر ثانوي يلجأ إليه الكاتب عند الضرورة[8] ويرى ابن جني (ت392هـ) أن الحركات هي أبعاض الحروف، «فالفتحة بعض الألف والكسرة بعض الياء والضمة بعض الواو، فالحركات هذه إذا مدّت نشأ من الحركة حرف من جنسها، فتنشأ بعد الفتحة الألف وبعد الكسرة الياء وبعد الضمة الواو»[9]، وقد استغل الشعراء هذه الظاهرة لإقامة الوزن فمن اشباع الفتحة قول ابن هرمة يرثي ابنه:

فَأنْتَ مِنَ الغَوائِلِ حِينَ تُرمى

ومِن ذمِ الرِّجالِ بِمُنْتَزاحِ

أراد الشاعر مُنتَزَح فأشبع الفتحة فتحولت ألفا.

ومن أمثلة إشباع الكسرة ومطلها قول الفرزدق يصف ناقته:

تَنْفِي يَداهَا الحَصَى في كُلِّ هاجِرَةٍ

نَفْيَ الدَّراهِيمِ تَنْقَادُ الصَّيَارِيفِ

أراد الدراهم والصيارف، فأشبع الكسرة ونشأ عنها الياء.[10]

فأصوات اللين تدخل ضمن النوع الاول من المورفيمات لأنها تتكون من صوت واحد فقط[11]، ويرى الخليل أن أصوات اللين القصيرة، لا تختلف عن الطويلة إلا في كون الثانية أطول من الأولى من حيث المدة الزمنية لنطقها فهي ضعف الاولى، وأصوات اللين القصيرة هي الاصل ومنها، تكونت الطويلة نتيجة إشباعها أو مطلها[12]

فأصوات اللين القصيرة في العربية هي (الفتحة، الكسر، الضمة). وهذه الحركات الثلاث قد تعتريها صفات مختلفة لأنها تخضع لظواهر صوتية مختلفة في أثناء النطق والكتابة، بحسب السياق الذي تقع فيه، فتتكون عندها حركات فرعية إلى جانب الحركات الاساسية كما في الامثلة الآتية:

1) الفتحة المفخّمة في نحو (صَبر) لأنها جاءت مع حرف الصاد، وهو من الحروف المطبقة المفخمة فأصبحت الفتحة مفخمة أي أنها ماثلت صفة الحرف.

2) الفتحة المرقّقة في نحو (سَبر) والعلة في ترقيقها لأنها جاءت مع حرف السين الذي يعد من الحروف الهادئة. فشاكلت صفة الحرف في أثناء نطقها.

3) فتحة بين بين نحو (قَبر) فهي فتحة غير واضحة للسمع.

الكسرة/ (1) الكسرة المفخمة في نحو: (صِيام)، (2) الكسرة المرققة في نحو: (نِيام)، (3) كسرة بين بين في نحو: (قِيام).

الضمة/ (1) الضمة المفخمة نحو: (صُمّ)، (2) الضمة المرققة نحو (دُم)، (3) ضمة بين بين نحو: (قُم).

إذن إن «عدد الحركات من حيث اللفظ تسع ومن حيث الكتابة والوظيفة ثلاث فقط»[13].

ويرى ابن جني (ت392هـ) في أصوات اللين القصيرة أنها أصوات ناقصة وأنها سميت بالحركات لأنها تحرك الحرف وتقلقله عن موضعه، وعلل ذلك بأنها تجذب الحرف إلى الحرف، الذي هي بعض منها أو من جنسها، فإذا كان الحرف ساكنا وحرّكته بالفتحة أجذبت الفتحة نحو الألف، وإذا حركته بالكسرة أجذبت الحرف نحو الياء وإذا حركت الحرف بالضمة أجذبت الحرف نحو الواو[14] التي هي جزء منه. ويقول المستشرق (فليش)، مؤكدا صحة هذا الرأي، بقوله، عن الحركة: أنها ليست سوى تكييف في مخرج الصامت مع المصوّت التالي له، الذي سوف ينطلق معه.

إذن الحرف يتكيف مع الحركة بتأثير الحركة فيه، وقد عبر عنه ابن جني بقلقلة الحرف وجذبه، وقال: إن الحركات أبعاض حروف المد، والدليل على قوله أنه عند إشباع الحركة تنشأ حروف اللين الطويلة وهي: (الواو والياء والالف) فكل منها مجانس لما هو بعض منها.

فلو «أشبعنا فتحة العين في عِنب، لوجدنا أنها تصبح ياء، وكذلك لو أشبعنا حركة العين في عَبر، وجدنا أنها تصبح ألفا، عابر، ولو أشبعنا حركة العين في عُمر أصبحت عومر وهكذا»[15].

فلو لم تكن الفتحة بعض الألف لما أصبحت ألفا عند إشباعها، ولما تحولت الكسرة عند إشباعها ياء والضمة واوا. نستنتج مما تقدم صحة قول ابن جني «اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين وهي الالف والياء والواو فكما أن هذه الحروف ثلاثة، فكذلك الحركات ثلاث، وهي الفتحة والكسرة والضمة، فالفتحة بعض الالف والكسرة بعض الياء والضمة بعض الواو»[16].

ولذا كان علماء النحو القدماء يطلقون على الفتحة تسمية الالف الصغيرة، وعلى الضمة الواو الصغيرة وعلى الكسرة الياء الصغيرة، وإنّ تبلور هذه الفكرة عند أبي الأسود الدؤلي (ت69هـ)، واضع هذه الحركات، هو الذي جعله يرسمها بشكل حروف اللين الطويلة، فالفتحة ألف مضطجعة، والضمة واو صغيرة، والكسرة ياء راجعة[17]، ولهذا السبب تنوب أصوات اللين الطويلة (ا،و،ي) مناب القصيرة في إعراب الاسماء الستة (أبوك، أخوك، حموك، فوك، ذوك، هنوك) فهي ترفع بالواو، بدلا من الضمة، وتنصب بالالف بدلا من الفتحة، وتجر بالياء بدلا من الكسرة، وكذلك في حالة إعراب جمع المذكر السالم، إذ يعرب بالواو في حالة الرفع بدلا من الضمة، وبالياء في حالتي النصب والجر، وكذا في المثنى إذ يعرب بالالف في حالة الرفع وبالياء في حالتي النصب والجر[18].

وأصوات اللين القصيرة لم تكن لها رموز قبل الدؤلي فالعرب كانوا يلفظون أواخر الكلمات بطريقة صائبة اعتمادا على سليقتهم اللغوية الفطرية، ولكن شيوع اللحن في المجتمع العربي، نتيجة اختلاطهم بالاقوام الاعجمية هي التي حركت الغيارى من علماء العربية والمحافظين عليها لاكتشاف ما يصون اللسان العربي من الزلل والخطأ[19].

وقد عد الخليل (ت175هـ) الهمزة فيما سماه بالاصوات الهاوية، التي تقابل أصوات اللين، والسبب يرجع إلى أنها حرف مهتوت مضغوط، وليس له مخرج محدد، فيقول الخليل (ت175هـ): إن الهمزة لا تقع في مدرجة من مدارج اللسان، وإنما هي هاوية في الهواء، أما رأي سيبويه (ت180هـ): «هي من حروف الحلق أي لها مخرج محدد، وهو أقصى الحلق، أما عند المحدثين فهي صوت حنجري»[20].

إن لأصوات اللين وظيفة كبيرة وأهمية خاصة في علم النحو وذلك في مجال العلامات الاعرابية وهي أساس لمعرفة محل اللفظة من الجملة وإعرابها ولها دور كبير، ولاسيما في علم الصرف فمعظم المسائل الصرفية تعتمد على أصوات اللين كالاشتقاقات المتنوعة والظواهر الصرفية والصوتية، والتي تعد العمود الفقري لعلم الصرف، ومنها الإعلال والإبدال والإظهار، والإدغام، والقَلْب، وغيرها من الظواهر الصرفية.

ولها أهمية مماثلة في علم التجويد ويعوّل عليها في الكثير من موضوعات علم التجويد كالإمالة، والروم والإشمام والاختلاس وغيرها[21].

ومما تقدم يظهر لنا أهمية أصوات اللين وأثرها، في العربية وفي معظم علومها وباطراد، ولذا وجب العناية بها ودراستها دراسة دقيقة وفق الامكانات الحديثة المتوفرة والتي تتمثل بالمختبرات الصوتية وآلات التسجيل الحديثة، للتوصل إلى حقائق جديدة في مضمار هذه الأصوات.

مفهوم الدلالة عند القدماء والمحدثين

إذا تتبعنا الدراسات الدلالية في الدرس اللغوي، عند قدماء العرب، نرى أنها قد تشعبت إلى شعبتين:

أولاها: نظرية، وتتجسد في الدراسات النظرية للعلاقات بين المفردات كالتضاد، والترادف، والاشتراك والحقيقة والمجاز، ومن العلماء الذين ساروا في هذا الاتجاه ابن جني (ت392هـ)، وابن فارس (ت538هـ) والثعالبي (ت382هـ)، والسيوطي (ت911هـ)[22]، ونلاحظ هذا الاتجاه عند القدماء ولاسيما سيبويه (ت180هـ) «في معرض حديثه عن الترادف في باب اللفظ للمعاني»[23] حيث حاول ربط تقلبات المادة الممكنة بمعنى واحد، فكلامه فيه إشارة إلى مسألة الترادف في اللغة[24].

ونجد الاتجاه نفسه عند النقاد والبلاغيين أيضا، فالمعنى يشكل موضع المدلول في تقابله مع الألفاظ الدالة سلبا أو إيجابا، وقد بنى البلاغيون والنقاد العرب هذا الاتجاه منذ وقت مبكر، فكانت نظرتهم إلى اللفظة والعبارة نظرة تجريدية، صورت العبارة الادبية بناء ثنائيا يتثمل باللفظ والمعنى.

فوضعوا مقولة، تكاد تكون نظرية فعالة في مجال

الدراسات النقدية والبلاغية، وهي: (اللفظ جسم روحه المعاني).

وعلل أبو هلال العسكري (ت395هـ)، هذه الرؤية بقوله: «لأن المعاني تحلّ من الكلام محل الأبدان والالفاظ تجري معها مجرى الكسوة وقال القيرواني: لأنا لا نجد روحا في غير جسم»[25].

فالمعنى عند الجاحظ (ت255هـ) يمثل الجوهر أو الماهية الروحية للتعبير اللغوي، وعلى هذا فإن استكشاف فن المعاني وتعلّق الالفاظ بها، هو تخصيص لوظيفة اللغة، فالمعنى في نظر النقاد والبلاغيين أساس اللغة وموضوعاتها.

وللدلالة أهمية كبيرة عند الفلاسفة أيضا ومنهم ابن سينا (ت428هـ) وتتركز الدلالة عنده في المستويات اللغوية على مفهومي الحقيقة والمجاز، فنراه يطلق على الوضع الأول للشيء بالدلالة الأصل، أو الدلالة الحقيقية، بينما يطلق على الدلالة في مستواها الثاني الدلالة المخترعة، وهي تشمل الدلالة المستعارة والمجازية[26]، إذن فالدلالة عنده في مستوى الألفاظ، المجازية والمستعارة، ونظرته هذه إلى مفهوم الدلالة، دليل على وعيه المعجمي واطلاعه الواسع على المعاني والمفردات المعجمية.

وللزمخشري (ت538هـ)، محاولة ناجحة في هذا الصدد، في كتابه (أساس البلاغة)، إذ حاول فيها التفريق بين المعاني الحقيقية والمجازية فضلا عن اهتمامات الفلاسفة والأصوليين وعلماء الكلام أمثال الفارابي (ت339هـ)، ابن رشد (ت595هـ)، الغزالي(ت505هـ)، إذ تناولت مؤلفاتهم اللفظ من حيث دلالة المنطوق، ودلالة المفهوم، والاشتراك والترادف. وقال الجرجاني (ت392هـ) في التعريفات: «الدلالة هي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به. العلم بشيء آخر، والشيء الأدل هو الدال، والثاني هو المدلول»[27].

وكيفية دلالة اللفظ على المعنى، باصطلاح علماء الأصول، محصورة في عبارة النص وإشارة النص ودلالة النص، واقتضاء النص.

فالدال يعني: «اللفظ المستخدم للتعبير عن شيء محدد، أما المدلول فهو المعبَّر عنه بلفظة مناسبة»[28]. فعلم الدلالة فرع من فروع علم اللغة وهو دراسة معنى الألفاظ، والمعنى اللغوي هو العلاقة التي تتحقق باتحاد عنصري العلاقة اللغوية، أي الدال والمدلول، إذ يوجد بينهما تلاحم وثيق.

أما الاتجاه الثاني: فهو اتجاه تطبيقي، ويتمثل في الأعمال المعجمية للقدماء والتي تمثل تيارا لغويا مهما في الدراسات اللغوية، وتتمثل هذه الدراسات في بدايتها في غريب القرآن والحديث، وكتب الحيوان والنبات، وبعد هذه الفترة تطورت فكرة هذه الرسائل والكتب، فألفت المعجمات ومنها معجم العين للفراهيدي (ت175هـ)، والتهذيب للأزهري (ت371هـ)، والمقاييس لابن فارس (ت538هـ)، ولسان العرب لابن منظور (ت711هـ)[29]. ويمكننا تلخيص القول في دراسة القدماء للدلالة، ومؤلفاتهم فيها، بأنها كانت في بداية الأمر بسيطة تتمثل في رسائل غريب القرآن والحديث، ثم تطورت إلى معجمات لغوية ضخمة، وبعدها كتب المثلثات، وهي نمط فريد من التأليف في الدلالة، وأشهرها كتاب المثلث لابن السيد البطليوسي (ت521هـ)، ثم

ظهرت كتب الألفاظ المشتركة أو المترادفة، والألفاظ المتضادة[30].

فعلم الدلالة قد حظي باهتمام العلماء العرب، من لغويين وبلاغيين، وعلماء الكلام، والفلاسفة والمناطقة وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على مدى اتساع آفاق مدارك العرب ورغبتهم، في امتلاك ناصية العلوم، والالمام بها.

مما تقدم يتضح لنا أن الحقول الدلالية تقسّم إلى مستويين أساسيين هما:

1) المستوى الصرفي، ويشمل الترادف والتضاد، والمشترك اللفظي.

2) المستوى السياقي، ويتناول علاقة الألفاظ بعضها ببعض، وبيان المعنى المحدد للألفاظ والذي يظهر ضمن السياق، ويقابل هذا الطريق التدريجي البطيء إلى تعدد المعنى طريق آخر قصير يتحقق في الاستعمال المجازي. إذن الدلالة تعني المجاز، والمجازات وظيفتها إلحاق مدلول جديد بمدلول قديم عن طريق العلاقة المباشرة بين المدلولين[31].

ويعد اللغويون المحدثون دراسة علم المعنى (الدلالة) فرعا من الدراسات اللغوية الحديثة، فلا يمكن فصل علم الدلالة عن غيره من فروع اللغة، وهذه الفروع تتمثل في:

1) علم الصوت: الذي يؤثر في المعنى عند وضع صوت مكان آخر، وكذلك يشمل النبر والتنغيم ولها دور في تقريب معنى العبارات إلى الأذهان، والكشف عن مضامينها.

2) علم الصرف: ويُعنى ببيان المعنى الذي تؤديه الصيغ الصرفية المتنوعة، فلا يمكن الاقتصار على المعنى المعجمي لبيان المعنى، بل لابد من إدراك معنى الصيغة من خلال وزنها، وحروف الزيادة المضافة إليها ويدرس في باب (معاني صيغ الزوائد).

3) علم تركيب الجمل: ويبحث في الوظيفة النحوية لكل كلمة داخل الجملة، وأثر التقديم والتأخير في تغيير المعنى.

4)علم المعجم: ويشمل: «المعنى المعجمي، دون المعنى النحوي، كما في الكلمات المفردة، وقد يكون العكس أيضا، أي المعنى النحوي دون المعنى المعجمي، كما في الجمل التي تتركب من كلمات عديمة المعنى»[32].

5) علم الدلالة وهو فرع من فروع علم اللغة، الذي يتناول نظرية المعنى أو ذلك الفرع الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في الرمز حتى يكون قادرا على حمل المعنى.[33]

فعلم الدلالة لا ينفصل عن العلوم السابقة، بل هو متوج لها ومكمل لجوانبها ولا يمكن الاستغناء عنه، حتى يحصل التفاهم بين المتكلم والسامع «لأن الغاية من اللغة أيا كانت، والتعامل بها بأصواتها، وحروفها وتراكيبها، الفهم والإفهام»[34].

ولم يقتصر الاهتمام بالدلالة على القدماء العرب والغربيين المحدثين، بل حظيت الدلالة بنصيب وافر من اهتمام المحدثين العرب الذين برزوا في هذا الميدان ومنهم، (الدكتور إبراهيم أنيس) إذ ألف كتابا أطلق عليه (دلالة الألفاظ) بحث فيها عن الدلالة وماهيتها، ثم ذكر أنواع الدلالات، وهي الدلالة الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية، ثم ناقش القدماء في العلاقة بين اللفظ والمعنى[35].

ومن المحدثين المهتمين أيضا، الدكتور تمام حسان، إذ اهتم بدراسة الدلالة، ويرى أن كل دراسة لغوية، لابد أن يكون موضوعها الأول والاخير هو المعنى وكيفية ارتباطه بأشكال التعبير المختلفة. فالارتباط بين الشكل والوظيفة هو اللغة، وهو العرف، وهو صلة المبنى بالمعنى.

دلالة أصوات اللين في القرآن الكريم

1 ـ الدلالة المعنوية :

من خلال الدراسة المستفيضة لأسلوب القرآن، وتتبع كتب التفاسير والقراءات، واكتناه معاني الآيات القرآنية في ضوئها، وتحليل آراء المفسرين وعلماء التجويد والقراءات، استنتجت أن الدلالة المعنوية لأصوات اللين في القرآن الكريم تتوزع في ثلاثة مباحث، وتتشعب في الاتجاهات الثلاثة معطية دلالات متعددة ومتباينة. والمباحث هي كالآتي:

القراءات القرآنية: نزل القرآن على سبعة أحرف، ومنه الحديث الشريف «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف»[36] ولكل قراءة اتجاه محدد، وهذا الاتجاه أساسه اتجاه لهجي، أي اعتمادا على لهجات القبائل العربية. والاتجاه الثاني هو الاتجاه المعنوي، فكان لكل من القراءات توجيه في معاني الآيات التي قرئت بها، فأي تغيير في أسلوب وطريقة قراءة ألفاظ القرآن يؤدي إلى تغيير في معناها. وجوهر هذا التغير الحاصل، ولبه، هو أصوات اللين القصيرة والطويلة، والأمثلة عليها كثيرة. وقد حاولت قدر الامكان أن أجمع، جملة من القراءات القرآنية، لآيات الذكر البينات، والتي ينتج عنها تغيير في الدلالة اعتمادا على أصوات اللين ومنها:

1) «الحَمْدُ لِلّهِ»[37]، في فاتحة الكتاب قُرِىء الدال بالضم، وكذلك قرئ بالكسر والسبب هو «الإتباع فالدال تبعت اللام المضمومة في الحالة الأولى، وتبعت اللام المكسورة في الحالة الثانية، وطابقتها في الحركة»[38].

ويرى الزمخشري (ت538هـ) في تفسير الحمد لله أن الأصل فيه النصب ولكن عدل بها عن النصب إلى الرفع على الابتداء للدلالة على ثبات المعنى واستقراره لأن الضمة علامة الإسناد، وتدل على الثبوت ومنها قوله تعالى: ﴿ قالوا سلاماً، قال سلامٌ ﴾[39]، فرفع السلام الثاني للدلالة على أن إبراهيم (ع) حياهم بتحية أحسن من تحيتهم، لأن الرفع «دال على ثبات السلام لهم، دون تجدده وحدوثه، والمعنى نحمد الله حمدا»[40]، فيكون الحمد بالنصب مصدراً لفعل محذوف والرفع أجود لأن فيه عموما في المعنى ويقرأ بكسر الدال اتباعا لكسرة اللام، وهو ضعيف في الآية، لأن فيه اتباع الإعراب البناء «وفي ذلك إبطال للمعنى»[41]، لأن الإعراب أرفع منزلة وأعلى شأنا من البناء، فلا يجوز جعله تابعا للبناء، ويجوز العكس. ويرى ابن جني (ت392هـ) «أن ضمة الدال في الحمد إعراب وكسر اللام في الله بناء وحركة الإعراب أقوى من حركة البناء، فإذا قلت الحمد لله فقريب أن يغلب الأقوى الأضعف وإن قلت الحمد لله، بالكسر، جنى البناء الأضعف على الإعراب الأقوى»[42].

ورأي الفراء (ت207هـ) في هذا الصدد: إن السبب هو الإتباع «لأن العرب يثقل عليهم، أن يجتمع في الاسم الواحد من كلامهم ضمة بعدها

كسرة أو كسرة بعدها ضمة »(43)، والسبب يعود إلى صعوبة نطقهما معا لقرب مخرجيهما.

2) قوله تعالى: ﴿ تَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾(44)، قرىء بوجهين أحدها نصب آدم على المفعولية ورفع الكلمات على الفاعلية وهي قراءة ابن كثير وابن عباس ومجاهد وثانيهما رفع آدم على الفاعلية ونصب الكلمات على المفعولية وهي قراءة غير ابن كثير من القراء السبعة، وفي هذه الحالة جعل الفعل للكلمات والمعنى واحد، لأن ما لقيك، فقد لقيته، وما نالك فقد نلته، إذن « يُقرأ برفع آدم ونصب الكلمات وبالعكس، لأن المعنى واحد بالرفع والنصب »(44).

وثمة أقوال في تفسير التلقي هنا، ولعل الأصوب « أن يكون معناها الاستقبال، فقد استقبل آدم من ربه كلمات علّمه إياهن للحصول على التوبة »(46)، إذن فإن اختلاف القراءات في هذه الحالة لم يغير المعنى. ويرى بعض المفسرين أن المعنى مختلف، ففي الحالة الأولى، حالة رفع الكلمات، فإن الكلمات هي التي أدركت آدم ونجته من معصيته وما لها، وقد وفقه الله تعالى، ويسر له التوبة بها، أما في القراءة الثانية أي نصب الكلمات فالمعنى « أن آدم تلقى الكلمات وقبلها ودعا بها فتاب الله تعالى عليه »(47).

وهذا الرأي هو الأصوب، لأنه لابد من اختلاف المعنى باختلاف القراءة، وإلا لما وجد الاختلاف والمعنى واحد، ومثاله أيضا قوله تعالى: ﴿ ولاَ يُضار كاتبٌ ولاَ شَهِيدٌ »(48)، « فقرئ يضار بالنصب وبالضم دون أن يتبعه تغيير في المعنى »(49).

3) قوله تعالى: ﴿ ماَ فَعَلُوه إلا قَلِيلٌ مِنْهُمْ »(50)، فقرئ قليل بالرفع وبالنصب، فعند الرفع يكون قليل بدلا من الواو في فعلوه، والمعنى ما فعله إلا قليل منهم.

ويرى الزجاج (ت311هـ) « أن النصب جائز في غير القرآن على معنى ما فعلوه، أي استثنى قليلا منهم »(51) والنصب جائز عند القراء، فيكون قليلٌ معربا على أنه مستثنى.

4) قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ، وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُم، وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ ﴾(52)، فقرئ برفع (يعلمُ) على معنى، كما تجاهدوا وأنتم صابرون، وقرئ بالنصب على معنى ولما تجاهدوا مع الصبر وقرئ بالجزم على معنى لما تجاهدوا، ولما تصابروا، على الجهاد، ففي حالة الرفع يظهر لنا حالة المسلمين أثناء جهادهم، فهم صابرون، وفي حالة النصب تدل على المعيّة أي جاهدوا مع الصبر، وفي حالة الجزم تدل على الجمع بين الجهاد والصبر.

5) قوله تعالي: ﴿ إِنَّ اللّهَ بَالِغٌ أَمْرَهُ قَدْ جَعَلَ اللّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدَراً »(53)، فقرئ بالغ بالإضافة على معنى أن الله سبحانه لا يفوته مطلوب، ولا يعجزه مراد، وقرئ بالرفع والتنوين على معنى أمر الله سبحانه نافذ غايته لا يرده رادّ، ولا يعوقه معوّق، وقرئ بالغ بالنصب على معنى أن الله، قد جعل لكل شيء تقديرا، يجيء عليه، وتوقيتا يقع عليه، والمعاني الثلاثة تبين قدرة الله سبحانه وتعالى وأمره إذا أراد شيئا إنما يقول له كن فيكون.

6) قوله تعالى: ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنْ فَيُدْهِنُونَ »(54)، فقرئ يدهنون بثبوت النون، بمعنى أنهم يدهنون

رجاء أن تدهن مثلهم، وقرئ فيدهنوا بحذف النون، على معنى ودّوا لو تدهن ليدهنوا مثلك. ففي حالة ثبوت النون، إن الإدهان قد حصل، ويرجون أن يفعل هو مثلهم، أما في حالة حذف النون فعملية الإدهان لم تحصل بعد، حتى يدهن هو قبلهم[55].

7) قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ﴾[56]، فقرئ تستكثر بالجزم فيكون النهي عن المن والاستكثار جميعا، باعتبار الاستكثار نوع من المن، فإن من شأن المنّان بما يعطي أن يعده كثيرا، وإن كان غير كثير وقرئ تستكثر بالرفع على معنى، ولا تمّن بما تعطي مستكثرا له، أو طالبا عليه، الكثير من العوض، وقرئ تستكثر بالنصب على معنى، ولا تمّنن بما تعطي، لأنك تستكثره، فمعاني الآيات تختلف باختلاف أصوات اللين القصيرة في نهاية المفردات القرآنية[57].

8) قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ، وَنِصْفِهِ وَثُلُثِهِ﴾[58]، فقرئ نصفه وثلثه بالنصب على معنى أنك تقوم أقل من ثلثي الليل، وتقوم نصفه وثلثه، وقرئ نصفه وثلثه بالجر على معنى أنك تقوم أقل من ثلثي الليل، وأقل من نصفه وثلثه، ففي حالة النصب عطف نصفه وثلثه على المنصوب، ولم يتغير المعنى، «أما في حالة الجر فقد عطف نصفه وثلثه على ثلثي الليل، ولما كان قريبا منه فتأثيره أقوى، فالمعنى إنك تقوم أدنى من ثلثي الليل، وأدنى من نصفه وثلثه، ففيه توكيد وتقوية للمعنى»[59].

9) قوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾[60] فقرئ، ولا نكذب بالرفع على معنى، ياليتنا نرد ويا ليتنا لا نكذب، وقرئ ولا نكذب بالنصب على معنى ليتنا يكون لنا عودا إلى الحياة يصاحبه التصديق والإيمان، ففي حالة النصب، نلاحظ التفصيل والشرح في المعنى، والتوكيد أكثر من حالة الرفع.

10) قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ، وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ، وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾[61]، فقرئ لتزول بكسر اللام الأولى ونصب الأخرى على معنى، وما كان مكرهم لتزول منه الجبال مهما عظم، وتبالغ في الشدة، وقرئ بفتح اللام الأولى ورفع الأخرى على معنى، وإن مكرَهم لشديد غالب حتى لتزول منه الجبال الراسيات، ففي الحالة الاولى يكون الفعل المضارع (تزول) منصوب بأنْ مضمرة، لأنه مسبوق بلام التعليل، والتقدير لإزالة الجبال منه نَفَى قدرة مكرهم، وفي الحالة الثانية، أي حالة رفع (تزول) يعرب فعلا مضارعا، يدل على الحال والاستقبال وفيه بيان لقدرة مكرهم، فالمعنيان متناقضان في كلتا الحالتين[62].

الأساليب القرآنية: الأسلوب هو «الأخذ بالتفنّن والتشعب في الحديث، وترك الطريق المعتاد»[63]، ويقول ابن قتيبة (ت176هـ) عن الأسلوب: «فالخطيب مثلا إذا ارتجل في مناسبة، لا يأتي بالكلام من وادٍ واحد، بل يتفنن في قوله فيختصر تارة إرادة التخفيف، ويطيل تارة إرادة الإفهام، ويكرر تارة إرادة التوكيد وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال وقدر الحفل، وكثرة الحشد، وجلالة المقام»[64].

ويقول الزمخشري (ت538هـ): «إن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظا للإصغاء إليه، من إجرائه على أسلوب واحد»[65].

إذن فالأسلوب ينصبّ على الطريقة الخاصة في ترتيب المعاني، وما تحويه هذه الطريقة، من إمكانات نحوية، تميز ضربا من ضرب، وأسلوبا من أسلوب آخر. وقد وجدت كلمة الأسلوب مجالا طيبا في دراسات الإعجاز البلاغي، إذ تناولها العلماء المهتمون بإثبات إعجاز القرآن في سبيل المقارنة بين أسلوب القرآن وغيره من كلام العرب. والإعجاز البلاغي للقرآن هو من جهة الأسلوب مخالف لأساليب العرب من شعر ورسائل وخطب، فنمط القرآن وأسلوبه يخرج عن الكلام المتعارف عليه بين الناس وقضايا الأسلوب القرآني كثيرة، ومنها طريقة اختيار الألفاظ، والدقة وملاحظة السياق، وفصاحة الألفاظ، وطول الكلمة ومخالفة القياس النحوي، فإن نظم القرآن على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه، خارج عن المعهود من نظام جميع كلام العرب، فأسلوب القرآن خارج عن العادة وأنه معجز، فالقرآن بديع النظم عجيب التأليف[66].

فأسلوب القرآن معجز، كآياته ومعانيه، وتراكيبه وألفاظه، فهو قد يحيد من أسلوب إلى آخر للدلالة على معنى جديد، لا يحققه الأسلوب الأول، ومن هذه الأساليب، أسلوب التقديم والتأخير وهو وثيق الصلة بأصوات اللين، وبه تحقق الدلالات المتعددة. ومن أمثلة التقديم والتأخير في القرآن، تقديم المفعول به على الفاعل لأداء معان خاصة. ومنه قوله تعالى: ﴿ وإذا ابْتَلَى إبْراهيمَ رَبُّهُ ﴾[67]، أي اختبره بأوامره ونواهيه، وإبراهيم هنا مفعول به، مقدّم في المعنى على ربّه، الفاعل، وفي الفاعل ضمير يعود على إبراهيم، وسبب تقديم المفعول به في هذه الحالة، خوفا من عود الضمير، على متأخر لفظا ورتبة، وهي قاعدة نحوية مطبقة في كلام العرب، ومنه قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللّه تَأْمُرُونِي أَعبُد ﴾[68] وقوله: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا ﴾[69]، «والمعنى نخصّك بالعبادة وطلب المعونة»[70] فالقصد من التقديم هنا هو الاختصاص، وهو سبب بلاغي، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾[71]، إذ تقدم الضمير، ومحله النصب على الفعل والفاعل المستتر، فلو أخر الضمير لجاز اتصاله بالفعل، فيصبح (نَعْبُدكَ) فينتفي الغرض البلاغي في هذه الحالة.

وفي قوله تعالى: ﴿ إنّما يَخْشَى اللّهَ من عباده العُلَمَاءُ ﴾[72]، تقدّم المفعول به (اللّهَ على الفاعل (العلماءُ) ويقرأ، برفع اسم الله ونصب العلماء، على معنى: ﴿ إنّما يُعظّمُ اللّهَ من عباده العُلَمَاءُ ﴾[73]، ويرى ابن الجزري (ت833هـ) أنها من القراءات الشاذة، لأن المعنى ينقلب تماما، بحيث يكون الله سبحانه وتعالى هو الذي يخاف العلماء، وفي هذا كُفر وفسوق.

وقال أبو حنيفة (ت150هـ): «لا يصدر مثل هذا على وجه السهو والغلط، وعدم الضبط، ويعرفه الأئمة المحققون، والحفّاظ الضابطون»[74]. ويرى الزمخشري (ت538هـ) أن الغرض من التقديم في هذه الآية هو التخصيص والمعنى، إن الذين يخشون اللهَ من بين عباده العلماءُ، دون غيرهم وإذا عملت العكس، يقصد جعلت الفاعل مقدما على المفعول، انقلب المعنى، أي أنهم لا يخشون إلا اللهَ، كقوله: ﴿ ولاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إلاّ اللّهَ ﴾[75]. «فالعلماء هم الذين يخشون اللهَ، ولكن الجاهل المشرك يفوته ذلك لأن مفاهيمه عن الإله، ليست بتلك الدرجة من النقاء والصفاء والسلامة»[76]. فرأي الزمخشري

(ت538هـ) واضح تمام الوضوح، بأن العلماء هو الفاعل، والله هو المفعول به.

وفي هذه الآية دلالة واضحة على أهمية، أصوات اللين القصيرة لتبيان المعنى، ومنع الالتباس فلولاها، لما عرف الفاعل من المفعول.

ويرى بعض المحدثين، أن العلّة في تقديم المفعول به في الآية السابقة الذكر: «أن العرف اللغوي يفضل نقل المفعول به أمام الفاعل اذا كان حجم المفعول به أكبر بكثير من حجم الفاعل»[77]، لأن الله أكبر وأعظم من مخلوقاته.

فالأصل في وضع المفعول به، هو أنه فضلة ويذكر بعد الفاعل، فإذا عناهم ذكر المفعول، قدموه على الفاعل فإن ازدادت عنايتهم به قدموه على الفعل الناصب له أيضا، وهذا كله يدل على شدة عنايتهم بالفضلة، وإنما كانت كذلك لأنها تجلو الجملة، وتجعلها تابعة المعنى لها، وهذا الذي دعاهم إلى تقديم الفضلات نحو قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾[78]، وإنما موضع اللام التأخير، ولذلك قال سيبويه (ت180هـ): «إن الجفاة ممن لا يعلم كيف هي في المصحف، يقرؤها ولم يكن كفوا أحد له»[79].

والأسلوب الثاني من أساليب القرآن، والذي به تحقق الدلالات المتباينة هو أسلوب العطف، وتعرض في أساليب العطف مشكلات توقع في الحيرة والشك، ولا يمكن حلها، وفهم المراد بها على وجهه، إلا بالإعراب ومنه قوله تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبراهيم بَنِيهِ ويَعْقُوبُ﴾[80]، فلا يدري القارئ، دون الإعراب، أيعقوب معطوف على إبراهيم، فيكون المعنى، ووصى بها يعقوب بنيه أسوة بإبراهيم، أم معطوف على بنيه، فيكون المعنى ووصى بها إبراهيم بنيه ووصى بها يعقوب في جملة بنيه أيضا.

ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبراهِيمَ وَإِسْحَقَ، إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[81] فلا يعلم فيه ولا في مثله بغير الإعراب، هل (قَبْلُ) مبنية، فيكون إبراهيم وإسحاق، بدلين من أبويك، أو يكون المعنى، أتمَّ نِعْمَتَه عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك ابراهيم واسحاق، من قبلُ، أم هل (قبل) معربة ومضافة إلى ما بعدها «فيكون المعنى، كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق، أي من قبل هذين الجدين من الجدود العلا»[82].

فأسلوب العطف يعد من الأساليب الدقيقة في العربية، وبتغيير مواضع العطف، اعتمادا على أركانها يتغير المعنى رأسا على عقب، لذا لابد من تحديد المعطوف، والمعطوف عليه، والمعوّل عليه بهذا الخصوص أصوات اللين القصيرة، فبها تتضح أركان العطف، وبالتالي معاني العبارات والنصوص ودلالاتها.

فللقرآن أساليب تتضح بها المعاني، فلو عدل عنها إلى أسلوب آخر لما حقق الغرض المعنوي المراد، ومنه قوله تعالى: ﴿واشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾[83] ولو قال: اشْتَعَلَ شيبُ الرأسِ، فلا نجد الروعة التي كنا نراها، والسبب يعود إلى أن الأسلوب في الحالة الأولى «يفيد مع لمعان الشيب في الرأس معنى الشمول، أي أن الشيب قد شاع فيه وأخذه من نواحيه، فالشيب قد استقر به وعم جملته، فلم يبق من السواد شيء،

أو لم يبق منه إلا ما لا يعتد به»[84]، نظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً﴾[85]، فقد حصل بذلك معنى الشمول ههنا مثل ما حصل هناك في الآية السابقة، ولو قال: وفجرنا عيون الأرض، أو العيون في الأرض «لم يُفِدْ ذلك، ولم يدل عليه»[86]، فنصب (عيون والشيب) على التمييز هو الذي، أدى إلى تحقيق معنى الشمول، ولم يكن يحققه، في حالة إضافة الشيب والعيون إلى ما بعدها.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[87]. رفع (إنّا) بالابتداء، لتحقيق معنى أن الله عليم بما يدور في أذهانهم وصدورهم، ولو أن قارئا ترك طريق الابتداء ب(أنّا) وأعمل القول فيها بالنصب لقُلب المعنى من جهته، وأزاله عن طريقه الصائب وجعل النبيّ محزونا لقولهم، (إن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون)، وهذا كفر ممن تعمده، وضرب من اللحن، ولا تجوز الصلاة به ولا يجوز للمأمورين أن يتجوّزوا به.

وقول الرسول (ص): (لا يُقْتَلُ قُرَشِيٌّ صَبْراً بَعْدَ اليومِ). ففيه معنى نفي القتل، فمن رواه جزما أوجب ظاهر الكلام للقرشيّ، أن لا يُقْتل إذا ارتدّ «ومن رواه رفعا، انصرف التأويل إلى الخبر من قريش أنه لا يرتد فيها أحد عن الإسلام، فيستحق القتل»[88]، فلأصوات اللين القصيرة في هذه الحالة أثر واضح في توجيه المعنى، وقيادته نحو الاتجاه الصحيح.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[89]، بنصب (كلّ) إذ لو تغيرت علامة إعرابها لتغير المعنى، وفي مجال تفسير هذه الآية يقول السيرافي (ت368هـ) أن في النصب ههنا دلالة على معنى، ليس في الرفع، فإن التقدير على النصب يوجب العموم، وأما الرفع فليس فيه عموم إذ لا يجوز أن يكون (خلقناه) نعتا ل(شيء)، وبقدر خبراً ل(كل) فلا يكون فيه دلالة على خلق الأشياء، كلها، إنما يدل على أن ما خلقه فيها خلقه بقدر «وتوضيح ذلك في حالة الرفع يكون المعنى أن الشيء الذي خلقناه كان بقدر، أي أن في الكون أشياء، لم يخلقها الله، وإنما خلقها غيره سبحانه»[90]، وفي هذا كفر وإشراك بالله الخالق الأوحد، من هذه الأساليب نستدل على أن القرآن معجز، والذي لا نظير له، ولا ريب فيه، لأنه أسلوب خالق الكون والوجود.

أثر زيادة أصوات اللين وحذفها في الدلالة المعنوية للآيات

في بعض المواضع في القرآن الكريم، نلاحظ زيادة حروف لين على اللفظة أو نقصانها، وفي أحايين أخرى استبدالها بنظائرها، وفي كل حالة تؤدي غرضا محددا، وتحقق معنى معينا، والمصادر التي تبحث في هذا الموضوع قليلة، وفصّل القول فيها الزركشي (ت 794 هـ) في برهانه في باب اختلاف رسم الكلمات في المصحف والحكمة فيه.

وقال: واعلم أن الخطّ جرى على وجوه منها ما زيد عليه، على اللفظ ومنها ما نقص، ومنها ما كتب على لفظه وذلك بحكم خفية، وأسرار بهية، وإن هذه الحروف اختلف حالها في الخط، بحسب

اختلاف أحوال معاني كلماتها ومنها للتنبيه على العوالم، الغائب والشاهد، ومراتب الوجود والمقامات، والخط، إنما يرتسم على الأمر الحقيقي لا الوهمي[91].

وقسّم الزوائد في ألفاظ القرآن، على أساس أصوات اللين، أي زيادة الألف والواو والياء، وكل قسم قسمه على حسب موقع الزيادة، في أول اللفظة، وفي وسطها، وفي آخرها، مع بيان العلّة في ذلك، أي العلة المعنوية التي تنتج عن هذه الزيادة، فقال في مجال **زيادة الألف**، وهي إما تزاد في أول الكلمة أو في آخرها، أو في وسطها. وزيادتها في بداية اللفظة، نحو قوله تعالى : ﴿ لأذبحنه ﴾[92] وقوله: ﴿ لأوضَعُوا خِلاَلَكُم ﴾[93]، وزيد الألف في الحالتين، تنبيها على أنَّ المؤخَّر أشد في الوجود من المقدم عليه لفظا، فالذّبح أشد من العذاب، إشارة الى أوّل آية النمل في قوله تعالى: ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً ﴾[94].

وقد يزاد الألف في وسط اللّفظة نحو قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَايءٍ إِنِّي فَاعِلُ ذَلِكَ غَداً ﴾[95]، فالشيء هنا معدوم، وعلمه من تصور مثله الذي وقع في الوجود، فزيدت الألف تنبيها على اعتبار المعدوم من جهة تقدير الوجود، إذ هو موجود في الأذهان، معدوم في الأعيان، وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِلى فِرْعَونَ ومَلاَئِهِ ﴾[96]، فزيد الألف بين اللام والهمزة تنبيها على تفصيل ظاهر الوجود وقد يزاد الألف في الأفعال، ويكثر زيادتها بعد الواو في الأفعال نحو: يرجوا، يدعوا، وذلك لأن الفعل أثقل من الاسم فهو يستلزم فاعلا، والاسم لا يستلزمه، والفعل يدل على الحدث والزمن، أما الاسم فلا يدل على الزمن، فالفعل أزيد من الاسم في الوجود والمعنى فزيدت الألف تنبيها على ثقل الجملة، وقد تسقط هذه الألف المزادة في مواضع للتنبيه على اضمحلال الفعل نحو قوله تعالى: ﴿ سَعو في آياتِنا مُعَاجزِين ﴾[97]، لأنه سعي في الباطل لا يصح ثبوته في الوجود، ونحوه قوله تعالى: ﴿ جَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾[98]، وقوله: « جَاءُو ظُلْماً وَزُوراً »[99]، وقوله: ﴿ جَاءُو أَبَاهُم ﴾[100]، فإن هذا المجيء ليس على وجهه الصحيح.

زيادة الواو : وتزاد الواو للدلالة على ظهور معنى الكلمة في الوجود في أعظم رتبة في العيان مثل قوله تعالى: ﴿ سَأُورِيكُمْ دَارَ الفَاسِقِينَ ﴾[101]وقوله: ﴿ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي ﴾[102]، ويدل على ذلك أن الآيتين، جاءتا للتهديد والوعيد، وكذلك زيدت الواو في (أولى، أولوا، أولات)[103] وجاءت للدلالة على قوة المعنى للأصحاب، فإن أُولى بمعنى الصحبة، وزيادة التمليك والولاية عليه، وكذلك زيدت في (أولئك، أولائكم) إذ وقعا بالواو لأنه جمع مبهم، ويظهر فيه الكثرة الحاضرة في الوجود.

زيادة الياء : وعلّة زيادته، هي لاختصاص ملكوتيّ باطن، وذلك حاصل في تسعة مواضع في القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَفَإِيْن مَاتَ أو قُتِلَ ﴾[104]، وقوله: ﴿ مِنْ نَبَإِي المُرْسَلِينَ ﴾[105]، وقوله: ﴿ مِنْ تِلْقَاءِي نَفْسِي ﴾[106].

فزيدت الياء، في الآية الأولى، لأن الموت مقطوع به، والشرط لا يكون مقطوعا به ولا ما رتّب على الشرط فموته لا يلزم منه خلود غيره، ولا رجوعه عن الحق، وفي الآية الثانية: نبإي المُرْسَلِينَ، زيدت الياء

تنبيها على أنها أنباء، أي أخبار وهي ملكوتية ظاهرة، إذن فزيادة الياء تعتمد على الأخبار الملكوتية الإلهية، والغيبية، التي ليس للإنسان فيها حول ولا قوة.

حذف أصوات اللّين : وقد تحذف أصوات اللين من الألفاظ القرآنية، وفي حذفها أيضا علة معنوية، ومنه حذف الألف في قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللهِ ﴾[107]، تنبيها على علوه في أول رتبة الأسماء، وانفراده، فالله هو جامع الأسماء كلها، ولهذا لم يتسمّ به غير الله، وكذلك حذف الألف قبل النون في الرّحمن « لأنّا نعلم حقائق تفصيل رحمته في الوجود، وعلماء الظاهر يعلّلونه بأنه للاختصار وكثرة الاستعمال »[108] كما في الأعلام الأعجمية نحو (إبراهيم إسحق، هرون)، وكذلك حذف الألف في كثير من أسماء الفاعلين نحو: (قدر، علم)، وفي جمع المذكر السالم نحو: (القنتين، الأبرر، الجلل الإكرم)، وفي المصادر، نحو: (اختلف، إستكبر)، فكلها وردت لمعنى مفصّل، فتحذف حين يبطل التفصيل، وتثبت حين يظهر، وقد تحذف في الفعل نحو: يسرعون[109] كما في إحدى القراءات.

فلفظة يسارعون في قراءة العامّة، معناها: « يسابقون غيرهم، فهو أسرع لهم وأظهر خفوفا بهم، أما يسرعون بحذف الألف، فاضعف معنى في السرعة من يسارعون، لأن من سابق غيره أحرص على التقدم، ممّن آثر الخفوف وحده »[110].

وقد تحذف الواو، اكتفاء بالضمة، قصدا للتخفيف، فإذا اجتمع واوان والضم، تحذف الواو التي ليست عمدة، وتبقى العمدة، سواء كانت الكلمة فعلا نحو قوله: ﴿ سَنَدْعُ ﴾[111]، أو صفة نحو: المؤُدَة، الغَاوُن، أو اسما نحو: داود، وعلة حذفها في الفعل، (سَنَدْعُ) هو سرعة الفعل وإجابة الزبانية وقوة البطش، ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿ يَمْحُ اللّهُ البَاطِلَ ﴾[112]، فحذفت منه الواو علامةً على سرعة الحق وقبول الباطل له بسرعة، وقوله تعالى: ﴿ وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ ﴾[113]، فحذفت الواو لتدل على أنه سهل عليه، ويسارع فيه، كما يعمل في الخير، والشر أقرب إليه من الخير، وهناك حالات تحذف فيها الياء اكتفاء بالكسرة، نحو: (إرْهَبونِ، إعْبدونِ) والياء المحذوفة في الخط ضربان، ضرب محذوف في الخط، ثابت في التلاوة، وضرب محذوف فيهما معا.

فالأول هو باعتبار ملكوتي باطن نحو قوله تعالى: ﴿ فَمَا آتَانِ اللّهُ خَيْرٌ مِمّا آتَاكُمْ ﴾[114] فحذفت الياء لاعتبار ما آتَاهُ اللّهُ، من العلم والنبوة فهو الموتى الملكوتي من قبل الآخرة، فهو الثابت وما في الدنيا فهو الفاني والزائل، أما الضرب الثاني من حذف الياء، أي الذي تسقط منه الياء في الخط والتلاوة نحو قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ ﴾[115]، وقوله: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾[116]، فحذفت الياء لأن الخطاب موجه الى الرسول ﷺ وغاب العباد فلا يعلمون هذا الخطاب، إلا بواسطة الرسول ﷺ، أما إثباته في قوله تعالى: ﴿ يَا عِبَادِي لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ ﴾[117]، فإنها تثبت، لأنه خطاب لهم في الآخرة، غير محجوبين عنه وكذلك قوله تعالى: ﴿ يَا عِبَادِي الّذِينَ أَسْرَفُوا ﴾[118]، فالخطاب موجه إلى العباد من مقام إسلامهم، وتسقط الياء في مواطن الدعاء نحو قوله تعالى: ﴿ رَبِّ اغْفِرْلِي ﴾[119]، حذفت الياء لعدم

الاحاطة به عند التوجه إلى الله، لغيبتنا عن الإدراك، وحذف حرف النداء لأنه أقرب إلينا من أنفسنا، وثبت في قوله تعالى: ﴿ يَارَبِّ ﴾[120] لأنه دعا ربه من مرتبة حضوره معهم في مقام الملك وحذفت الياء في قوله: ﴿ يَاقَوْمِ ﴾ للدلالة على أنه خارج عنهم في خطابه، كما هو ظاهر في الإدراك[121].

2 ـ الدّلالة الموسيقيّة :

تمتاز أصوات اللّين بعنصر موسيقيّ، ولمّا كانت سهلة النطق، وكثيرة الدوران في الكلام، كثر استخدامها في الشعر مما أضفى على الشعر العربي سمة الموسيقية «واعتمدت لتحقيق هذا العنصر، على التفعيلات المتساوية بين شطري البيت، فوفرت الموسيقى الداخلية للشعر، واعتمدت أيضا على القافية، لتوفير الموسيقى الخارجية»[122].

ولأصوات اللين دور في تحقيق التساوي بين تفعيلات الشطرين، التي في كثير من الأحيان تشبع وتحوّل القصيرة منها إلى طويلة، وكذلك في القافية تحول الفتحة إلى ألف إطلاق، في أغلب الأحيان لتحقيق التساوي بين تفعيلات الشطرين، وليس هناك تحكم في التزام موسيقى معينة، تفرض على الشاعر بل هو حر في صياغة شعره، وتقديم أفكاره على النحو الموسيقي المعين لها، والموسيقى هي مظهر من مظاهر الجمال في الشعر والنثر.

إذن فإن أصوات اللين تمتاز بما فيها من عنصر موسيقي، وإن هذا العنصر «تفتقده غالبية الحروف الصحيحة، فبإمكاننا أن نردد لحنا موسيقيا كاملا بإطالة النطق بالألف والياء والواو، ولكننا لا نستطيع أن نفعل ذلك مع نطق الأصوات الصحيحة المشكلة بالسكون»[123]، ومن هنا كان اهتمام العروضين بأصوات اللين، لأن هم العروضين متصل بموسيقى الشعر وإيقاعه.

فأصوات اللين فضلا عن ما تؤديه من معان، يقصدها قائلها، فهي تضفي نغما موسيقيا على اللفظة «إذ أنها أصوات فيها حياة ونغم وموسيقى»[124].

فأصوات اللين تعطي جمالا للجمل، وللتراكيب، وأمثلة تأثير أصوات اللين على جمال العبارات والتراكيب منها تيسير حذفها، وتيسير وصلها، اعتمادا على أصوات اللين فهي واسطة، كالجسر بين كلمة وأخرى ومنه قوله تعالى: ﴿ أَتَى أَمْرُ اللّه ﴾[125]، فالضمة في الراء ربطت الكلمة الأولى بالثانية وكذلك قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ ﴾[126]، «فالكسرة في النون ربطت بين اللفظتين، وجعلتهما كالكلمة الواحدة»[127] مما ينتج عنها سهولة التلفظ، بالإضافة إلى الجمال والفن.

وقد وظّف الأسلوب القرآني أصوات اللين خير توظيف، فدلت أصوات اللين على الجانب الموسيقي في مواقعها المناسبة في القرآن الكريم، وأمثلتها كثيرة فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَا أَيَّتُها النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾[128].

فتحكي أصوات اللين التي تملأ مثل هذا السياق حالة من الرضا والسكينة النفسية والرحمة. ينقل هذا الشعور الإيقاع البطيء في قوله (يا أيتها،

راضية مرضية، ادخلي) فالايقاع الموسيقي لصوتي اللين الألف والياء في هذا النص هو إيقاع بطيء، «والبطء يتناسب مع الهدوء والسكينة والرضا»[129].

وقد تحكي الواو الامتداد إلى الأمام، نحو قوله تعالى: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾[130]، وكأن هذه الضمات الطويلة، أي الواو تحكي حركة المدإلى الأمام، والسوق إلى نار جهنم، «ويتطابق ذلك مع حركة الشفتين، عند نطق الواو، حيث تستدير الشفتان، وتمتد إلى الأمام»[131]، أي أن الإيقاع الموسيقي، لصوت اللين الواو، في هذه الحالة، هو إيقاع طويل، وهذا الطول يتناسب مع هيأة الكافرين، المنساقين بأغلالهم، إلى أمام لدخول جهنم، ومن جانب آخر فإن أصوات اللين تدخل في مسألة في غاية الأهمية، وهي مسألة الفواصل القرآنية التي وفرت للقرآن، نظما موسيقيا فريدا وامتد تأثيرها إلى بناء الجملة القرآنية بناء نحويا خالصا، وأساس الفواصل وجوهرها، هي أصوات اللين، فبفضلها حققت الفواصل القرآنية الانسجام الموسيقي للآيات القرآنية، ومثال ذلك حذف الياء في قوله تعالى: ﴿ واللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾[132]، لتماثلها مع فواصل الآيات التي سبقتها، وقد قال بهذا الحذف الكثير من القدماء، ومنهم الزركشي (= 794) في برهانه، فلحذف أصوات اللين أثر إيقاعي واضح، لمحافظته على موسيقى الفواصل، وكذلك الحذف الداخلي لأصوات اللين ينتج عنه تحقيق نوع من التوازن الموسيقي الداخلي للكلام، قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ ﴾[133] وقوله تعالى: «وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ ﴾[134]، فنلاحظ أن حذف الياء والواو، في هذه المواضع حقق للكلام نوعا من التوازن الإيقاعي، فإذا لم تحذف الياء في (يأت) أو من (الداع) و(المُنَادِ) لأحسسنا بشيء من الكسر والاختلال في الموسيقى الداخلية لتلك الآيات، ونلاحظ أن ظاهرة الحذف هذه كثيرة في اللهجات العربية. وقال الخليل (ت 175 هـ) : إن الأجود في النحو هو إثباتها، ولكن العرب تقول: لا أدر، بحذف الياء لكثرة الاستعمال، وذكر الزمخشري (ت 538 هـ) : إن الاجتزاء بالكسرة عن الياء كثير في لغة هذيل، وروى الجوهري (ت 393 هـ) أن هذيلا تقول: (أَدْرِ، يَأْتِ) في حالة الرفع، وأمثلة هذه كثيرة في المعجمات العربية القديمة، والذي يشجع على الحذف، هو دلالة السياق على هذا الحذف[135]. ومثاله قوله تعالى: ﴿ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾[136]، فيبدو استغناء الفاصلة عن ياء المتكلم وذلك لدلالة اللفظة الاولى (مقامي) على اللفظة الثانية (وعيد)، ومنه أيضا قوله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾[137]، والتقدير وما قَلاكَ «لكنه حذف ليطابق ما قبله من الفاصلة، مع الحفاظ على الانسجام الموسيقي للفاصلة»[138].

ولقد كان الرسول ﷺ يعنى بالأصوات، وخاصة أصوات اللين، في قراءة القرآن وتجويده، وكذلك الصحابة، وروى عن ابن مسعود أنه قال: (زيّنوا القرآن بأصواتكم) وروي عنه: (زيّنوا أصواتكم بالقرآن).

ومد أصوات اللين في حقيقته نوع من الإشباع الموسيقي، والذي تطرب له الأذن، وينشط به العقل ويتفوق الألف على أصوات اللين الأخرى، تفوقا واضحا جدا، ويرجع إلى كون الألف أو الفتحة أسهل أصوات اللين نطقا ولذا فهي أكثر أصوات اللين

شيوعا، ويؤكد الزركشي (ت 794 هـ) موسيقية هذه الأصوات فيقول: إن الحكمة في كثرة إلحاق المد واللين، والنون هو وجود التمكن من التطريب بذلك، كما قال سيبويه (ت 180 هـ): «إنهم إذا ترنّموا يلحقون الألف والياء والنون، ويتركون ذلك إذا لم يترنّموا»[139].

إذن فإن أصوات اللين وفرت للقرآن نظما موسيقيا فريدا، فبها يتحقق العنصر الموسيقي للألفاظ والمفردات القرآنية، وكذلك الانسجام الموسيقي للفواصل القرآنية.

نتائج البحث

ـ لقد تصدى هذا البحث لظاهرة مهمة من ظواهر اللغة وهي دلالات أصوات اللين في القرآن الكريم وقد نقل البحث خطى الآفات المستحدثة في الدراسات الصوتية إلى التراث.

ـ وجد البحث منهجه الصافي في القرآن الكريم الذي باين في نظمه سائر الكلام إذ جمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه وجعله الله متلوا لا يمل من طول التلاوة ومسموعا لا تمجه الآذان.

ـ تبين للبحث أن الدقة المتناهية في الأداء القرآني تكمن في الأسلوب، وفهم أسلوب القرآن يحتاج إلى التضلع في الدلالات المؤدية إلى المكونات الأساسية التي تؤلف الأسلوب البليغ وهي الأصوات، والأبنية الصرفية، والتراكيب النحوية المرتبطة بشبكة من العلاقات اللفظية والمعنوية.

ـ تشكل الأصوات اللغوية، الثوابت الأخيرة التي تنطلق منها المكونات اللغوية الأخرى وعليه فإن الأصوات تشكل الطاقة التعبيرية التي تعمق أبعاد الرؤية الجمالية وتثير الإحساس الانفعالي وتفتح آفاقا مدهشة لبناء علاقات أوسع في التشكيل اللغوي واستشفاف أبعاده الدلالية.

ـ إن لأصوات اللين في اللغة العربية أثرا جليا في تأطير الفهم الدلالي، وتتجلى أهميتها في القرآن الكريم المتسم بجودة سبكه لقدرة هذه الأصوات على التحول من صوت لين إلى آخر وتتباين هذه الأصوات من حيث الليونة وقدرتها على الأداء الموسيقي في ضوء السياق العام.

ـ إن البحث اللغوي الأصيل لابد أن يستسقي من هذا الكتاب العزيز مادته لترسيخ منهجه فهو غني بما يثير فينا الرغبة في التأمل ويدفعنا إلى التدبر لنقرر مطمئنين أن لغة القرآن تمثل صلة خصبة لابد من أن نتواصل معها في مجال توكيد أصالة الفكر وخصوصيته التي تتجلى أساسا في مصدر إعجازها وهو اللغة ومن ضمنها الأصوات والتي هي بحاجة إلى دراسات أعمق لبيان أصالة التراث العربي الإسلامي الذي يعبر عن فكر أمة أصيلة في تراثها التليد وفي تطلعها الطريف.

الهوامش

(1) الكتاب: 628/3.
(2) الكتاب: 29/2.
(3) ينظر الكتاب: 36/3.
(4) الكتاب (ط. هارون): 435/4.
(5) ينظر: قواعد التجويد: 92.
(6) قريش/الآية: 2.
(7) الكتاب (ط/بولاق): 315/2، وينظر: الوجيز في فقه اللغة: 314 كتاب الكتّاب: 53.

(8) ينظر: في البحث الصوتي عند العرب :50.

(9) الخصائص: 329/2.

(10) ديوان الفرزدق: 57، ينظر: الخصائص: 123/3، سر صناعة الإعراب: 19/1.

(11) ينظر: علم اللغة (حاتم الضامن) 58.

(12) ينظر: الدراسات الصوتية في كتاب العين: 124، التطور النحوي: 53.

(13) لغويات: 185.

(14) ينظر: سر صناعة الاعراب: 30/1.

(15) الدراسات اللهجية والصوتية: 225، 226، وينظر: ابن الجزري ودراساته الصوتية: 111.

(16) سر صناعة الاعراب: 19/1.

(17) ينظر: المدارس النحوية (الحديثي) : 56.

(18) ينظر: النحو العربي نقد وبناء: 11، شرح عيون كتاب سيبويه: 12.

(19) ينظر: ظاهرة الرفع في العربية: 149.

(20) ابن الجزري ودراساته الصوتية: 108 وينظر في البحث الصوتي: 48 وما بعدها.

(21) ينظر: في البحث الصوتي: 49.

(22) ينظر: علم الدلالة بين العرب والغرب: 60، علم الدلالة (احمد مختار عمر) 20.

(23) منهج كتاب سيبويه: 287.

(24) ينظر: علم اللغة (حاتم الضامن) : 72.

(25) مفهوم المعنى عند الجاحظ: 228، وينظر: الصاحبي: 210، البيان والتبيين: 75/1، الأصول: 317.

(26) ينظر: البحث الدلالي عند ابن سينا: 161، تاريخ العربية: 135.

(27) التعريفات: 61.

(28) علم اللغة (حاتم الضامن) : 37،74.

(29) ينظر: علم الدلالة بين العرب والغرب: 60.

(30) ينظر: ابن جني وعلم الدلالة: 37، 38، تطور البحث الدلالي: 32.

(31) ينظر: دور الكلمة في اللغة: 130.

(32) علم الدلالة (بالمر) : 13،14.

(33) ينظر: علم الدلالة (بالمر) : 11.

(34) نظرة في أثر اللغويين العرب في علم الدلالة: 17، وينظر: علاقة الهمس والجهر بالمعاني المتضادة: 14، قانون سلامة اللغة: 45، المعني والكلمات: 29.

(35) ينظر: من قضاا اللغة والنحو: 10.

(36) الجامع المفهرس لألفاظ صحيح مسلم: 201/4.

(37) الفاتحة / الآية: 1.

(38) الخصائص: 147/2.

(39) هود / الآية: 69.

(40) الكشاف: 9/1 وينظر الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري: 236.

(41) التبيان: 5/1.

(42) المحتسب: 38/1.

(43) معاني القرآن (الفراء) : 3/1.

(44) البقرة / الآية: 37.

(45) معاني القرآن (الفراء) : 28/1، وينظر التبيان: 54/1.

(46) تفسير سورة البقرة: 76.

(47) مباحث في علوم القرآن: 109.

(48) البقرة / الآية: 282.

(49) وجوه من الاعجاز الموسيقي للقرآن: 71.

(50) النساء / الآية: 66.

(51) القرآن واثره في الدراسات النحوية: 149.

(52) آل عمران / الآية: 142.

(53) الطلاق / الآية: 65.

(54) القلم / الآية: 9.

(55) ينظر: من قضايا اللغة والنحو: 11، وما بعدها.

(56) المدثر / الآية: 6.

(57) ينظر: من قضايا اللغة والنحو: 11 وما بعدها.

(58) المزمل / الآية: 20.

(59) من قضايا اللغة والنحو: 13،14.

(60) الانعام / الآية: 27.

(61) ابراهيم / الآية: 46.

(62) ينظر: فقه اللغة (عبد الحسين المبارك) : 171.

(63) جمهرة اللغة: 289/1.

(64) تاويل شكل القرآن: 13.

(65) الكشاف: 64/1.

(66) ينظر: الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم: 32،224.

(67) البقرة /الآية: 124.

(68) الزمر /الآية: 64.

(69) الانعام /الآية: 164

(70) الكشاف: 183/1، 13 وينظر: تفسير القرآن الكريم (ابن كثير) : 164/1.

(71) الفاتحة / الآية: 5.

(72) فاطر /الآية: 28.

(73) التبيان : 1075/2 .

(74) النشر في القراءات العشر : 16/1 وينظر : الصيغ الافرادية : 32 .

(75) الأحزاب / الآية : 39 .

(76) فقه اللغة (الزيدي) : 132، 133 .

(77) التراكيب النحوية : 74 .

(78) الإخلاص / الآية : 4 .

(79) المحتسب : 65/1 .

(80) البقرة / الآية :132 .

(81) يوسف / الآية :6 .

(82) ظاهرة الاعراب في النحو العربي : 43، 44 .

(83) مريم / الآية :4 .

(84) دلائل الاعجاز : 79 .

(85) القمر / الآية : 12 .

(86) العلامة الاعرابية : 281 .

(87) يس / الآية : 76 .

(88) تأويل مشكل القرآن : 12 .

(89) القمر : الآية : 49 .

(90) معاني النحو : 34/1، وينظر أثر المعنى في الدراسات النحوية : 206 .

(91) ينظر البرهان : 380/1، 381، وجوه من الاعجاز الموسيقي في القرآن : 72 وما بعدها .

(92) النمل : الآية : 21 .

(93) التوبة / الآية : 47 .

(94) النمل / الآية : 21 .

(95) الكهف / الآية : 23 .

(96) هود / الآية : 97 .

(97) سبأ / الآية : 5 .

(98) الاعراف / الآية : 116 .

(99) الفرقان / الآية :4 .

(100) يوسف / الآية : 16 .

(101) الاعراف / الآية : 145 .

(102) الانبياء / الآية : 37 .

(103) ينظر : البرهان : 386/1 .

(104) آل عمران / الآية : 144 .

(105) الانعام / الآية : 34 .

(106) يونس / الآية : 15 .

(107) هود / الآية : 41 .

(108) البرهان : 382/1 وما بعدها .

(109) ينظر : البرهان : 382/1 وما بعدها .

(110) المحتسب : 177/1 وينظر :ابن جني وعلم الدلالة/252 .

(111) العلق / الآية :8 .

(112) الشورى / الآية : 24 .

(113) الإسراء / الآية : 11 .

(114) النمل / الآية : 36 .

(115) الزمر / الآية : 10 .

(116) الزمر / الآية : 17 .

(117) الزخرف / الآية : 68 .

(118) الزمر / الآية : 53 .

(119) نوح / الآية : 28 .

(120) الزخرف / الآية : 88 .

(121) ينظر : البرهان : 397/1 وما بعدها، إعراب القرآن (الزجاج) : 838/3 .

(122) دراسات نقدية ونماذج حول قضايا الشعر المعاصر : 18 .

(123) اللغة بين المعيارية والوصفية : 145 .

(124) الحركات الإعرابية ودلالتها : 241 .

(125) النحل / الآية :1 .

(126) البينة / الآية :1 .

(127) تيسير العربية : 31 .

(128) الفجر / الآية : 17 ، 30 .

(129) من صور الاعجاز الصوتي في القرآن الكريم : 80 .

(130) الحاقة / الآية : 30، 31 .

(131) من صور الاعجاز الصوتي في القرآن الكريم : 81 .

(132) الفجر / الآية :4 .

(133) الفجر / الآية :6 .

(134) القاف / الآية :41 .

(135) من صور الاعجاز الصوتي في القرآن الكريم : 92 وما بعدها .

(136) ابراهيم / الآية :14 .

(137) الضحى / الآية :3 .

(138) من صور الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم : 94 وما بعدها .

(139) الكتاب (ط . هارون) : 204/4، وينظر : البرهان : 68/1 .

مصادر البحث ومراجعه

- القرآن الكريم
- الاصول (دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب) د. تمام حسان، مطابع دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1988م.
- إعراب القرآن، الزجاج (ت 310 هـ) تحقيق، إبراهيم الابياري، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة 1965م.
- البرهان في علوم القرآن، الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت 749 هـ) تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط 2، القاهرة1972 م.
- البيان والتبيين، الحافظ (ت 255 هـ) دار الفكر للجميع، بيروت، لبنان 1968م.
- تاريخ العربية، د. إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الكتب للطباعة، بغداد، 1977م.
- تاويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت 276 هـ) تحقيق احمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة (د. ت).
- التبيان في البيان، شرف الدين الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي (ت 743 هـ) تحقيق د. توفيق الفيل، عبد اللطيف لطف الله، ط1، مطبوعات الجامعة، الكويت 1986م.
- التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القادر الجرجاني، د. عبد الفتاح لاشين دار الجيل للطباعة، مصر، (د. ت).
- تطور البحث الدلالي (دراسة في النقد البلاغي واللغوي: د. محمد حسين علي الصغير، مطبعة العاني، ط1، بغداد 1988م.
- التطور النحوي للغة العربية، برجستر اسر، ترجمة د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1982م.
- التعريفات، أبو الحسن علي بن علي الجرجاني (ت 392 هـ) مطابع دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد (د. ت).
- تفسير سورة البقرة، د. أمير عبد العزيز، مؤسسة الرسالة، دار الفرقان ط1، 1985م.
- الصيغ الإفرادية في العربية نشاتها وتطورها. د. محمد سعود، مطبعة جامعة البصرة 1982م.
- ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقاتها في القرآن الكريم، احمد سليمان، جامعة الرياض، السعودية، 1981م.
- علم الدلالة، د. احمد مختار عمر، مكتبة دار المعرفة للنشر والتوزيع ط1، الكويت 1982م.
- علم الدلالة، (إف، بالمر) ترجمة مجيد الماشطة، مطبعة العمال المركزية، بغداد، 1985م.
- علم اللغة، د. حاتم الضافي، جامعة بغداد، 1989م.
- فقه اللغة، د. عبد الحسين المبارك، جامعة البصرة، 1986م.
- فقه اللغة العربية. د. كاصد الزبدي، جامعة الموصل، 1987م.
- في البحث الصوتي عند العرب، د. خليل إبراهيم العطية، دار الجاحظ للنشر 1982م.
- القرآن وأثره في الدراسات النحوية، د. عبد العال سالم مكرم، المطبعة العصرية الكويت، 1978م.
- قواعد التجويد والإلقاء الصوتي، جلال حنفي البغدادي، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1987م.
- كتاب سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (180 هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون ط3، بيروت، 1983م.
- كتاب الكتاب، ابن درستويه (ت 347 هـ)، المطبعة الكاثوليكية ط2، بيروت 1927م.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري (ت 538 هـ) نشر (ادب الجوزة) (د. ت) (د. ط).
- اللغة بين المعيارية والوصفية، د. تمام حسان، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973م.
- لغويات، عبده عبد العزيز قلقيلة، مكتبة الانجلو المصرية، المطبعة الفنية الحديثة القاهرة، 1977م.
- مباحث في علوم القرآن، الدكتور صبحي الصالح، دار العلم للملايين ط10، بيروت 1977م.
- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، أبو الفتح عثمان بن جني (ت 392 هـ) تحقيق، علي النجدي ناصيف ود. عبد الحليم النجار، ود. عبد الفتاح شلبي، مؤسسة دار التحرير للطبع، مصر، 1386 هـ.
- المدارس النحوية، د. خديجة الحديثي، مطبعة جامعة بغداد، ط2 بغداد 1990م.
- معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت 215 هـ) عالم الكتب ط2 بيروت 1980م.
- معاني النحو، د. فاضل السامرائي، مطبعة التعليم العالي، الموصل (د. ت).
- من قضايا اللغة والنحو، د. احمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، 1974م.
- منهج كتاب سيبويه في التقويم النحوي، د. محمد كاظم البكاء، دار الشؤون الثقافية العامة، ط2 بغداد، 1989م.
- النحو العربي (نقد وبناء) د. إبراهيم السامرائي، دار الصادق، بيروت (د. ت).
- النشر في القراءات العشر، ابن الجزري (ت 833 هـ) مطبعة التوفيق، دمشق، 1345 هـ.
- الوجيز في فقه اللغة، محمد الانطاكي، مكتبة دار الشرق، ط2

بيروت (د.ت)،

-وجوه من الإعجاز الموسيقي في القرآن، د. محيي الدين رمضان، دار الفرقان للنشر، ط1، عمان، الاردن، 1982م.

الابحاث المنشورة في الدوريات

-الحركات الإعرابية ودلالاتها، كامل جميل، المجلة العربية للعلوم الإنسانية العدد 31 المجلد 8 جامعة الكويت 1988م.

-علم الدلالة بين العرب والغرب، عبد الكريم مجاهد، مجلة الاقلام العدد 5 السنة 16، بغداد، 1981م.

-مفهوم المعنى عند الجاحظ، ماهر مهدي هلال، مجلة آداب المستنصرية العدد 15 بغداد، 1987م.

-نظرة في أثر اللغويين العرب في علم الدلالة، علي الحمد، مجلة ابحاث اليرموك المجلد الثاني، العدد الأول، عمان، الأردن 1984م.

الرسائل الجامعية

-ابن الجزري ودراساته الصوتية في ضوء علم اللغة الحديث، حسين حامد الصالح رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية الآداب، 1990م.

-الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، محمد كريم الكواز، رسالة دكتوراه، جامعة بغداد، كلية الآداب، 1990م.

-البحث الدلالي عند ابن سينا في ضوء علم اللغة الحديث، مشكور العوادي، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية الآداب، 1990م.

-الدراسات الصوتية في كتاب العين في ضوء علم اللغة الحديث، موفق عليوي خضير، رسالة ماجستير، جامعة المستنصرية، كلية الآداب 1985م.

-ظاهرة الرفع في العربية، ولاء صادق محسن، رسالة ماجستير، جامعة المستنصرية، كلية الآداب، 1985م.

ظاهرة الاتصال اللغوي الشفوية(1)

«دراسة في البنى التحتية والوظائف الاساسية للمنظومة الكلامية»

د. / عامر جبار صالح(*)

استرعت لدى الباحث ظاهرة الكلام باهتمام خاص منذ دراسته الجامعية الأولى، باعتبارها أداة الإنسان الأساسية في الاتصال، ومن ثم المتعة العقلية للخوض في ماهية الترابط الجدلي بين ركني هذه الظاهرة: الركن الفسلجي والركن الاجتماعي.

وعندما سنحت الفرصة للباحث بإكمال دراسته العليا خارج الوطن - في بولنده اتسع له مزيدٌ من الوقت للتفرغ الكامل لدراسة هذه الظاهرة، في المعهد العالي للسانيات المرضية - جامعة مدام كوري، فعكف على دراستها ببعديها السوي والمرضي، وبذلك تشعبت المداخل لدراسة موضوع الكلام.

ولعل هذا البحث يقدم خدمة متواضعة للقارىء وللمكتبة العربية التي مازالت تحتاج إلى مزيد من العناية بهذا الميدان من المعرفة. وفي هذا الجهد المعاصر الأمل أن يشكل إضافة لتراث اللغويين العرب الأفاضل.

وقد ارتأى الباحث أن تسير موضوعات البحث في محاور بحثية متصلة تفضي إلى تصور لفهم ظاهرة الاتصال اللغوي، من حيث نشوؤها وارتقاؤها ومن ثم آلياتها الدماغية، وتفسيرها في ضوء علم التحكم الذاتي Cybernetics، وأخيرا معوقات عملية الاتصال. ولذا فإن محاور البحث تشمل بالضرورة الموضوعات التالية:

ماهية اللغة في ضوء علم النفس الفسلجي المعاصر؛ أوليات وشروط عملية الاتصال اللغوي؛ خصائص عملية الاتصال اللغوي؛ الجذور النمائية

(*) اخصائي اللسانيات المرضية بجامعة التحدي - ليبيا

للاتصال اللغوي؛ الآليات الدماغية للاتصال اللغوي؛ أسس عملية الاتصال اللغوي في ضوء علم التحكم الذاتي؛ وظيفة النشاط الاتصالي اللغوي؛ بعض المظاهر الاضطرابية في منظومة الاتصال اللغوي.

أولا ـ ماهية اللغة في ضوء علم النفس الفسلجي المعاصر:

يحدثنا علم النفس الفسلجي المعاصر عن منظومتين أساسيتين في العضوية الإنسانية هي: المنظومة الإشارية الأولى The first signalling System، والمنظومة الإشارية الثانية The second signalling System. وقد نشأت الثانية على أساس الأولى، وقد أثرت كل منهما في الأخرى من الناحية الارتقائية، واتسمتا بتعقيد وظيفي لا نظير له في سلم الكائنات الحية.

إن المنظومة الأولى أو التأشير بمعناه الحسي المشترك بين الانسان والحيوانات الراقية، الذي يستقبله الجهاز العصبي المركزي (2) Central Nervous System على هيئة روائح واصوات وألوان، يشير إلى الأشياء المادية التي انبعثت منها تلك الروائح والأصوات والألوان، هو سمة نشاط المخ المميزة أو وظيفته الأساسية ويدعى فسلجيا النشاط الحسي، أو المنظومة الإشارية الحسية الأولى باعتبارها تشير بشكل مباشر، أو تدل، على الأشياء المادية الطبيعية والاجتماعية، الموجودة في العالم الخارجي.

ويدخل ضمن هذه المنظومة الحسية عند الانسان وحده جميع الإشارات والعلامات Signs الاصطناعية الأخرى ذات الدلالة أو الأهمية أو المغزى Significance التي صنعها الانسان لتشير إلى وجوه النشاط الاجتماعي المختلفة وتنظمه مثل إشارات المرور الضوئية والإشارات باليد وأصوات المنبهات التي تطلقها وسائل النقل المختلفة والأجراس وعلامات الاستدلال التي يتعذر حصرها [31: p. 232].

كل ذلك يتصل بالمنظومة الإشارية الأولى، أي أنه يجري عن طريق حاسة البصر أو السمع إلى المركز المخي الحسي البصري أو السمعي. أما الرموز اللغوية Symbols المنطوق بها أو المكتوبة (يعني المسموعة والمرئية)، والأفكار التي تنطوي عليها والتي تنتقل إلى الانسان وحده عن طريق البصر والسمع، فتؤلف المنظومة الإشارية الثانية (اللغة) حيث تنقل إشارات تلك الرموز عن طريق السمع والبصر، إلى مراكز مخية خاصة ينفرد بها الانسان وحده هي المراكز المخية اللغوية. معنى هذا أن الكلمات المتحدث بها والمكتوبة هي «إشارات الإشارات» أي تعبر عن الإشارات الحسية التي تنقلها المنظومة الإشارية الأولى والتي تدل أو تعبر أو تشير إلى أشياء مادية محسوسة. فالإنسان ينفرد دون سائر الحيوانات الراقية، بالاضافة إلى التأشير الحسي وعلى أساسه (أي بالاضافة إلى تسلم الإشارات الحسية على شكل روائح وأصوات وألوان وما يجري مجراها والتي تأتي من البيئة) بأن لديه منظومة التأشير اللغوي والتي احتلت منذ نشوئها وتطورها المكان الأول والأهم في علاقاته بالبيئة المحيطة.

وأخذت الكلمات مع الزمن تعبر عن الإشارات الحسية وتحل محلها. فكلمة «سمك» مثلا المتحدث بها أو المكتوبة أو كلمة «ليمون حامض» أو «أب» أو «مدرس» أو «شمس» تحل أثناء الحديث والقراءة محل الشيء المادي الذي تعبر عنه وتستثير أيضا

الاستجابة الفسلجية التي تستثيرها خواصه الحسية. ومن هذه الناحية تسمى اللغة «إشارات الإشارات»: أي أن الكلمات المنطوق بها والمكتوبة (الأصوات والإشارات البصرية) تشير إلى الإشارات الحسية (خواص السمك مثلا أو الليمون) التي تشير بدورها إلى الأشياء المادية التي انطلقت منها. والألفاظ اللغوية التي تعبر عن نفسها على هيئة رموز صوتية أو مكتوبة أوجدها الإنسان لتنظيم حياته الاجتماعية. معنى هذا أن قيمة الرموز اللغوية (الصوتية والبصرية) تكمن في معناها أو دلالاتها أو مغزاها أو فحواها أو أهميتها أو في الشيء الذي تشير إليه أو تعبر عنه أو ترمز إليه وليست في كيانها المادي المنطوق به أو المكتوب [31: p. 234].

لقد نشأت المراكز المخية اللغوية التي ينفرد بها الانسان من الناحية التاريخية التطورية على أساس المراكز المخية الحسية وبعدها من الناحية الزمانية. وهي ترتبط أيضا بالبصر والسمع. أي أن المنظومة الاشارية الثانية لا تستطيع مطلقا أن تمارس عملها اليومي المعتاد دون الاستناد إلى التعاون مع المنظومة الإشارية الحسية وبخاصة حاستي السمع والبصر. ومع أن نشاط المنظومة الاشارية اللغوية يرتبط بقدرة الانسان على الاتصال بغيره من أفراد المجتمع عن طريق الكلمات المنطوقة والمكتوبة وبقدرته على التفكير، وهو نشاط ذو طبيعة تجريدية وتعميمية، إلا أنه من غير الممكن مع هذا أن نعزل الإدراك الحسي عن الفكر المجرد.

وقد ثبت في ضوء الدراسات العلمية الحديثة أن النشاط العصبي الأعلى (أو الحياة العقلية) يتركز عند الإنسان في مناطق أو مراكز الكلام المخية الموجودة في أكثر من منطقة في القشرة المخية (كما سنلاحظ ذلك في ثنايا البحث). كما ثبت أيضا أن هذا النشاط يؤثر في النشاط العصبي الأدنى (أو الحياة الانفعالية) عند الانسان الذي يتركز في الأقسام الدنيا من الدماغ (الأقسام الواقعة تحت المخ Subcortex) ويتأثر به وأن هناك تأثيرا متبادلا بين النشاط المخي اللغوي المشار إليه (الذي ينفرد به الإنسان) وبين النشاط المخي الحسي الذي تشترك فيه مع الانسان الحيوانات الراقية الأخرى من جهة وبين النشاط العصبي الأدنى من جهة أخرى. ولكنها عند الإنسان خاضعة بشكل أو بآخر للقشرة المخية Cortex. ولابد من الإشارة هنا إلى أن نشاط المنظومة الاشارية الأولى وإن كان مرتبطا ارتباطا وثيقا مباشرا بالإدراك الحسي وأن نشاط المنظومة الاشارية الثانية مرتبط بقدرة الانسان على الاتصال الفكري بالآخرين عن طريق الكلمات المتحدث بها والمكتوبة وبقدرته أيضا على التفكير المجرد عبر الكلمات، غير أنه لا يمكن عزل هذا الأخير عزلا تاما ومطلقا عن الإدراك الحسي، والعكس صحيح أيضا، لأن الإدراك الحسي لا يحدث دون استيعاب ذكي لما هو مدرك حسيا أي أن التفكير غير ممكن الحدوث دون سند من الإدراك الحسي الذي هو مصدره الذي يمده بمحتواه. معنى هذا أنه من غير المستطاع أن نعزل عزلا تاما (إلا لأغراض الدراسة النظرية) عملية التفكير المجرد عن عملية الادراك الحسي. والادراك الحسي عند الانسان ليس حسيا صرفا أي أنه بشكل أو بآخر مرتبط بالجانب الاجتماعي. فالتفكير الحسي إذن هو منطلق التفكير المجرد وهو الذي يمده بمحتواه [30: pp.39-40].

ثانيا ـ أوليات وشروط عملية الاتصال اللغوي:

إن قدرة الاتصال اللغوي تنتمي إلى الصفات المكتسبة، وهي مقتصرة على النوع الإنساني Homo بشكل خاص. إن التكلم والاستماع إلى ما يتحدث به الآخرون، والقراءة والكتابة، تشكل جميعها إحدى النشاطات الرئيسية اليومية لكل فرد في حالة اعتيادية [12: p.7-8].

إن جوهر عملية الكلام هي إرسال واستقبال المعلومات، وكلاهما يتصل بالجانب الفسيولوجي، ولكنهما عملية واحدة من منظور اجتماعي (عملية تخاطب أو اتصال). إنها عملية ممكنة عندما يجيد كل من المرسل والمستقبل نفس اللغة.

إن اللغة هي حصيلة الرموز أو الشفرات Code التي يستخدمها مجتمع معين، والتي يجب على كل فرد أن يستوعبها كي يفهم الآخرين، ويكون هو الآخر مفهوما أيضا. واللغة هي نظام ذو درجتين Two Class. وتشمل الدرجة الاولى: الرموز Symbol المستقلة ـ المفتوحة (الكلمات Words وعلاقاتها التركيبية Phraseological)، وغير المستقلة ـ المغلقة والتي نعني بها الصفات التطريزية Prosodic Features والتي تنفذ في الموضوع الشفوي بشكل إيقاع Rhythm ونبر Accent ونغم Melody، وفي الموضوع المكتوب أو الموحى به Signalized من خلال علامات الترقيم Punctuation Marks، وكذلك أصغر الوحدات اللغوية Phoneme والتي تنفذ في الموضوع الشفوي من خلال الأصوات Sounds، وفي الموضوع المكتوب من خلال الأحرف، وفي الموضوع الموحى به، على سبيل المثال نظام المورس Morse Code من خلال توليف Combination لنقاط وقوامع؛ وأخيرا أصغر وحدة صرفية Morpheme ـ المغلقة نسبيا. أما الدرجة الثانية من النظام اللغوي فتشتمل على منظومة الأسس القواعدية والتي على أساسها يبنى من الرموز المستقلة ويفهم الموضوع Text الذي يعتبر الحلقة الرئيسية في عملية الاتصال اللغوي [5: p.4;7: 276].

لقد تطورت اللغة تاريخيا وهي ظاهرة اجتماعية، في الوقت الذي يكون فيه نشاط الكلام بحد ذاته ذا مستوى فسيولوجي. إنها ذات صفة تجريدية، لأن الكلمات والأسس القواعدية لا تشير إلى الظواهر والأشياء بالذات ولكن إلى تصنيفاتها التجريدية أو إلى مجمل العلاقات التي تربط بينها (على سبيل المثال علاقة الفاعل بالفعل) [14:p.6-8].

إن عملية إرسال المعلومات ممكنة من خلال الكلام، الكتابة أو أشكال أخرى. ولكل نشاط من هذه النشاطات قناة ملائمة ومحددة لنقل المعلومات تنسجم مع هيئة الموضوع المحددة. ففي عملية التكلم مثلا فإن المعلومات تنتقل عبر القناة النطقية ـ السمعية حيث ينفذ فكر المرسل Sender من خلال أجهزة الكلام في هيئة موضوع شفوي يتم استلامه بواسطة أذني المستقبل Receiver وتباعا إلى قشرته الدماغية حيث يفهم بهذا القدر أو ذاك من الدقة. أما نتاج عملية الكتابة فهو الموضوع المكتوب (رسالة، جريدة، كتاب). حيث يجري نقل المعلومات في هذه الحالة عبر القناة الكتابية ـ البصرية. وفي الأشكال الأخرى ذات الصفة التأشيرية أو الإيمائية Signalling (لغة الإشارة، لغة المكفوفين (طريقة برايل) وألف باء المورس وأشكال أخرى) فإن المعلومات تنتقل عبر القناة الموحى بها ـ السمعية، البصرية واللمسية [5:p:4].

وبناء على ذلك يمكن تلخيص عناصر عملية الاتصال اللغوي بالعناصر الأربعة الأساسية الآتية:

1 ـ اللغة، وقد ذكرنا ذلك في الشرط الأساسي لحدوث عملية الاتصال.

2 ـ المعلومات، وهي ما نرغب في نقله عبر عملية الاتصال. وهنا لدينا خيارات لأشكال متعددة من الموضوعات: المكتوبة، الشفوية، الإشارية.

3 ـ نقل المعلومات من خلال قنوات تتفق مع صيغة الموضوع، إذن من خلال قنوات: التكلم، الكتابة أو أشكال موحى بها، إلى آخره.

4 ـ استقبال المعلومات والذي ينسجم مع شكل الإرسال، أي الاستقبال: السمعي، البصري واللمسي، إلى آخره [14:p.6-8].

كما يجب التأكيد هنا، أنه لغرض توصيل المعلومات Information لا يكفي فقط إنتاجها Produce. كما أن عملية الترميز أو التشفير To Code لا يمكن النظر إليها بصورة منعزلة. إن عملية إرسال المعلومات تعتمد على العوامل الآتية:

1 ـ إن عملية الإرسال ممكن ظهورها عندما تكون الرموز Symbols معروفة لدى المستقبل Receiver. إن التشفير أو الترميز To Code وفك الرموز Decode يتطلب نظاما رمزيا واحدا. إن الجزء الأكبر من خزين رموز المستقبل والمرسل يجب أن يكون مشتركاً. هذا الشرط يبدو محققا في لغة الأم، باستثناء عملية التعليم. أما في عملية الاتصال بلغة أجنبية فإن هذا الشرط يرتقي إلى مستوى المشكلة.

كما أن نفس عملية الترميز To Code لا تبلغ ماذا يجب أن تكون، لأن أي عملية لغوية ـ صوتية يجب أن يتوفر فيها عنصر استمرارية الفكر. وكذلك فإن نفس الفكرة يمكن التعبير عنها بمختلف اللغات بواسطة خزين مختلف من الرموز، وخلافا لذلك فإن عملية الترجمة لن تكون جيدة.

2 ـ إن المرسل يجب أن يمتلك الإمكانية لتشفير أفكاره ومشاعره بطريقة تمكنه من توصيلها للمستقبل بمساعدة خزين محدد من الرموز والتي يمتلكها المستقبل أيضا.

3 ـ إن المستقبل يجب أن يمتلك القدرة على فك رموز Decode المعلومات المشفرة، أي إعادة بناء أفكار ومشاعر المرسل. إن عملية إعادة التشفير ليست عملية استسلامية Passive، وإنما على العكس تتطلب نشاطا. إن الاستماع عملية متعبة، ولذا فإن ضبط نشاط المتابعة Control عند المستقبل ممكن في حالات نادرة.

4 ـ إن الرموز المنتجة من قبل المرسل يجب أن تكون صالحة للارسال. كما يجب استخدام قناة مناسبة للتوصيل أو النقل Transmission، لكي نستطيع التقليل من التشويش Disturbance إلى أقل ما يمكن. وكما هو معروف التأثير غير المناسب للكلمة في أوضاع غير مواتية.

5 ـ إن الاتصال في الحياة اليومية لا يشمل الظواهر المجردة Abstract، وإنما يشمل في أغلب الأحيان الظواهر الملموسة Concrete. إن أغلب الأفكار تنشأ عن حالات واقعية، والمرسل يجب أن ينقلها إلى حالة واقعية أيضا، ومن هنا ينشأ الافتراض التالي: إن المرسل والمستقبل يمتلكان خزينا مشتركا من المعاناة والإدراك Awareness. وخلافا لذلك فإن عملية إيصال

المعلومات تصبح عملية شكلية فارغة Emptiness، وهذا ما يحصل أيضا [10:p.7] .

ثالثا ـ خصائص عملية الاتصال اللغوي :

عندما نقارن اللغة الإنسانية مع الأنواع الأخرى من لغات الحيوان، نلاحظ أن الميزة المشتركة هي كونها أنظمة طبيعية Natural System، أي أنها سجية Attribute طبع بها النوع المعني بيولوجيا . وعلى الرغم من الاختلاف في اللغات الإنسانية الناتج من تنوع الثقافات، إلا أن الفرد مجهز بها من حيث تكوينه البيولوجي، أي أن كل السلالة الانسانية Human Race تمتلكها، وكذلك أيضا كل نوع حيواني يمتلك بأي شكل من الأشكال نظاما اتصاليا يعمل وفقا لأسس مختلفة . يمكن هنا أن نشير إلى أكثر الأمثلة المعروفة من الأنظمة الصوتية ـ غناء الطيور، وكذلك المعتمدة على إشارات أخرى مختلفة ـ بصرية ـ حركية Kinesthtic-Optical (رقص النحل) أو على الشم أو الرائحة Smell (الكلاب ومختلف الحشرات) .

إن الفرق الرئيسي بين لغات الحيوانات واللغة الإنسانية هي أن الأخيرة تستند إلى عملية النقل الثقافي Transmission (أي أن الإنسان يكتسب اللغة في عملية التطبيع الاجتماعي Process Socialization)، وهذا الجانب تفتقده لغات الحيوانات . إن الحيوان لن يتوجب عليه تعلم معنى إشارات لغته على الرغم من خضوع بعض غناء الطيور لعملية التغير في طبقة الصوت Modulation الناتجة من الاتصالات مع طيور أخرى من نفس النوع .

إن اللغة الإنسانية هي اللغة الوحيدة التي تتكون من نظام ذي طبقتين Two Class System والتي تشكل مصدرا لإبداعيتها Creativity وإن هذه اللغة تستند إلى المجموع الجاهز للإشارات فقط، كما هو الحال عند الحيوان، ولكن إلى قواعد التوليف Combination لهذه الإشارات . ولم يوجد، لحد الآن، نظام اتصالي من طبقتين عند الحيوانات . وقد جرت محاولات لتعليم الحيوان لغة الإنسان، وقد وجهت هذه المحاولات إلى أقرب الحيوانات من الإنسان في سلم التطور البيولوجي ـ الشمبانزي والغوريلا . ولكن لا الشمبانزي ولا أي قرد قريب الشبه إلى الإنسان تمكن من الحديث بأصوات كلامية، نظرا للتركيبة التشريحية Anatomical Structure المحدودة لجهازه الصوتي . ولذلك فإن محاولات تعليم الحيوانات المذكورة انتهت بالفشل [9:p.40-41] .

إن هناك فروقات جوهرية بين عملية التخاطب الإنساني وبين أشكال التخاطب في عالم الحيوان، وهذه الفروقات ليست كمية بل نوعية . لقد أشار إلى ذلك عالم اللغة الامريكي Charles F. Hockett حيث أكد أن عملية التخاطب الإنساني تتصف بسبعة خصائص هامة، البعض منها يظهر في عملية الاتصال غير الإنسانية، ولكن هذه الصفات لا تظهر مجتمعة في أي نظام من أنظمة الاتصال الحيوانية . وهذه الصفات هي :

1 ـ الثنائية Dualism

وهي أن كل لغة إنسانية تتشكل من مجموعتين من العناصر المكونة : الأولى هي مجموعة أصغر الوحدات اللغوية Phoneme (الأصوات) الخاصة بلغة معينة، والتي يتشكل منها الحديث اللغوي . هذه العناصر على سبيل المثال هي : س، ص، ت، ط وما شابه ذلك . إن هذه العناصر بنفسها لا تمتلك معنى،

ولكنها تمتلك معنى حاسما عند إبدالها في الكلمة أو في الحديث كله. فمثلا عندما نبدل الصوت (س) إلى (ص) في الكلمة (سارَ) فإن ذلك يؤدي إلى تغير معنى الكلمة وكذلك كل الحديث الذي تظهر فيه عملية الإبدال هذه. والمجموعة الثانية هي مجموعة أصغر الوحدات ذات المعنى Morpheme في لغة محددة، والتي تتشكل بدورها من أصغر الوحدات اللغوية عديمة المعنى Phoneme (الاصوات)، وبفضل هذه الثنائية فإن نظام الاتصال يتمتع بقدرة هائلة حيث يسمح بإرسال كم هائل من المعلومات بواسطة عدد غير كثير من العناصر الأساسية. إن هذه الصفة لا تظهر في أي نظام اتصالي في عالم الحيوان.

2 ـ الانتاجية Productivity

إن هذه الخاصية تسمح لكل متحدث بلغة معينة أن يتحدث بأشياء لم يتحدث بها سابقا ولم يسمعها، وتكون أيضا مفهومة من قبل المحيط. إن هذه الصفة تظهر في بعض أنظمة الاتصال في عالم الحيوان ـ على سبيل المثال، تستطيع النحلة أن تخبر عن مصدر جديد للرحيق Nectary.

3 ـ الاعتباطية Arbitrariness

وتعني هذه الميزة أنه لا يوجد بين الرمز الكلامي والموضوع المحدد (مع بعض الاستثناءات) أي تشابه. على سبيل المثال كلمة «قطة» أو «كلب» لا تشبه بأي شكل من الأشكال الكلب أو القطة الحقيقيين. كما أن الاختلاف بين كلمة قطة وكلب لا تحمل في طياتهما أي اختلاف مقابل القطة أو الكلب الحقيقيين.

4 ـ القدرة على التفاعل المتبادل Inter-action Exchange Ability

وتعني أن كل متحدث بلغة معينة هو في الأساس مستمع ويتمكن من الحديث بكل شيء يمكن فهمه عندما يتحدث إلى شخص آخر، إن هذه الصفة يمكن أن تكون خاصية لبعض أنظمة الاتصال في عالم الحيوان.

5 ـ التخصص Specialization

وتعني أن كل نشاط اتصالي يهدف إلى إثارة سلوك محدد عند الشخص الآخر. هذه النتيجة يمكن أن تمتلكها في درجة معينة كل أنواع السلوك ـ على سبيل المثال، إن جلوس شخص على مقربة من طاولة الطعام في وقت معين يشير إلى أن الغذاء سيأتي حالا. إن هذا المظهر الاتصالي لنشاط الجلوس بقرب الطاولة هو مظهر جانبي، هدفه الأساسي هو تغير مادي Physical في المحيط. ولكن الأنشطة المناطة باللغة لا تمتلك نتائج كبيرة مباشرة على هيئة تغيرات مادية في المحيط، إنها متخصصة في وظيفة توصيلية Communication. إن عملية التخصص في النشاط الاتصالي هذه تظهر أيضا عند الحيوانات، ولكن تخصص النظام الاتصالي عند الإنسان بلغ درجة عالية من التعقيد غير قابل للمقارنة.

6 ـ العزل Dislocation

صفة خاصة بأنظمة الاتصال الانسانية، ولها إمكانية الاتصال والحديث عن أشياء وظواهر ليست فقط المدركة حاضرا، ولكن أيضا الغائبة والبعيدة عنا في الزمان والمكان. إن هذه الصفة تظهر في بعض أنظمة الاتصال الحيوانية ولكنها بأشكال بدائية جدا.

7 ـ النقل الثقافي Cultural Transmission

وهو أن الانسان لا يرث نشاط الاتصال اللغوي، وإنما شرط اكتسابه هو الاحتكاك بالأشخاص المتحدثين الذين تعلموا اللغة. إن هذه الصفة تظهر في بعض أنظمة الاتصال في عالم الحيوان من خلال بعض التعديلات على الطبقة الصوتية Modulation الناتجة من الاحتكاك مع حيوانات أخرى من نفس النوع. ولكن درجة الاعتماد عند الإنسان في الاتصال بالآخرين الذين اكتسبوا اللغة بلغت درجة راقية ومعقدة غير قابلة للمقارنة قطعا [pp 8.10 : 12].

إن ظهور هذه الصفات السبعة ـ في رأي Hockett تشكل خصوصية تميز أنظمة الاتصال اللغوي الإنسانية عن بقية أنظمة الاتصال خارج العضوية الإنسانية.

إن الإشارة إلى هذه الصفات السبعة لا يعني عدم وجود صفات أخرى إضافية، بل إن نفس الكاتب المذكور أعلاه يشير في دراسة أخرى إلى أن هناك ثلاثة عشر صفة، ولكن على ما يبدو أن السبعة المذكورة هي قطعية الظهور في عملية الاتصال اللغوي في عالم العضوية الإنسانية [10 p : 12].

رابعا ـ الجذور النمائية للاتصال اللغوي الشفوي:

إن الحديث عن هذه الظاهرة من الناحية النمائية يعني الحديث عن الكلام باعتباره نشاطا في عملية التخاطب اللغوي الشفوي، والذي يلعب دورا أساسيا في الحياة الاجتماعية للفرد. إن الاتصال بالأشخاص الآخرين ممكن بفضل مهارتي التكلم والفهم (الإرسال والاستقبال) للموضوعات الشفوية Oral Text. ولكن الكلام ليس مهارة يولد مع الفرد بل يكتسبه من خلال حياته الشخصية بالاتصال مع الناس المتكلمين.

إن تتبع المظاهر النمائية لبعض جوانب هذه الظاهرة سوف يبين لنا كيف أن جذورها تمتد إلى حياة الإنسان الأولى، بما فيها قبل الولادة. إن هذه الظاهرة تقع تحت تأثير ثلاث مجموعات من العوامل غير قابلة للفصل، هي: العوامل البيولوجية، النفسية والاجتماعية.

إن نمو هذه الظاهرة يمر بمراحل محددة من الناحية الزمنية بشكل تقريبي، تتكامل من خلالها الأبعاد اللغوية لعملية الاتصال. إن الأساس في تميز هذه المراحل هي الصيغ أو الأشكال اللغوية Language Forms للموضوع الشفوي، التي تنقل المعلومات إلى المحيط ـ المستقبل. ولذا فإن هذا التقسيم يقف وراءه عاملان رئيسيان هما: النظام اللغوي، وعمليات تحقيقه في الاتصال الشفوي.

تفيد الأبحاث الميدانية المعاصرة، التي قام بها العالم L. Kaczmarek أن هناك أربع مراحل نمائية يمر بها كلام الطفل هي:

1 ـ مرحلة النغم Melody Stage

2 ـ مرحلة الكلمة Word Stage

3 ـ مرحلة الجملة Sentence Stage

4 ـ مرحلة الكلام الطفولي الخاص Childhood Specific Speech Stage

ويشير نفس العالم أيضا إلى أن هناك مرحلة سابقة للمراحل المذكورة أعلاه، وهي المرحلة التحضيرية أو الصفرية وهي فترة الحمل، وهي ذات دلالة هامة في نشأة الكلام لاحقا عند الفرد، ولابد من الإلمام بالمراحل المذكورة أعلاه، بما يخدم موضوع البحث فقط.

ـ المرحلة التحضيرية أو الصفرية Preparatory or Zero Stage.

وهي مرحلة فترة الحمل وتمتد من (3 ـ 9) أشهر، وفي هذه الفترة يتوفر للكلام شرطيان أساسيان، ونعني بذلك تشكيل أجهزة الكلام، وبداية عملها. والمقصود هنا بأجهزة الكلام ـ الأعضاء المرسلة وهي: المناطق التفكيرية (المنظمة للمعلومات)، والمنتجة للمادة الناقلة Substance Producer (المراكز والطرق العصبية، الحنجرة، الرئتان، التجويف البلعومي والأنفي)، والضابطة Controller (السمع، البصر، الطرق والمراكز العصبية السمعية والحسية)، والأعضاء المستقبلية (السمع، البصر، الطرق والمراكز العصبية السمعية والبصرية والمناطق التفكيرية)، وهذه بعض الأمثلة لعمل هذه الأجهزة:

أ ـ في استقبال وتخزين المعلومات.

1 ـ إن أول الظواهر التي يستقبلها ويسجلها الجنين Embryo في ذاكرته، كما أكد ذلك العالم G. Clauser، في الشهر الرابع هي الظاهرة الإيقاعية Rhythmic: الإحساس بإيقاع التوازن Balance Rhythm أثناء مشي الأم، أما في الشهر السابع فإن ضربات قلب الام تكون مسموعة لدى الجنين.

2 ـ لقد توصل بعض أخصائيي السمع السويديين، على سبيل المثال C.G. Manacin، إلى أن الجنين في الشهر الرابع أو الخامس، أو بكل تأكيد في الأشهر الأخيرة قبل الولادة. كما أكد ذلك العالمان G.Clauser, A. Mitrinowicz - Modrzejewska، يستجيب للمثير الفيزيائي (الأكوستيكي). ويشهد على ذلك سرعة ضربات القلب وعدم الاستقرار الحركي العام.

3 ـ إن الجنين يسجل في ذاكرته صوت أمه، وليس من الغريب أن يكون صوتها هو الأقرب إليه سمعا بعد الولادة من صوت أبيه الذي يسمعه مؤخرا. إن هذه الملاحظة أكدها Senior أحد كبار أخصائي الأذن والأنف والحنجرة Laryngology في بخارست عام 1950، كما أكد العالم C.G. Manacin عام 1973 أن الاطفال الرضع الذين أقاموا في المستشفيات بدون أمهاتهم، سُجّل لهم صوت أمهاتهم كي يسمعوه عند حالات البكاء، فاستجابوا له بهدوء، محركين أرجلهم وأيديهم باحثين عن مصدر الصوت بسرور.

ب ـ في إرسال المعلومات.

لقد أكدت دراسة G.L. Flanagan عام 1973، أن الجنين في الشهر السادس أو السابع على الأكثر يمص أصبعه «ويبكي» عندما يفقده. إن الصراخ بعد الولادة وبغض النظر عن الدور الذي يؤديه وكذلك المص هما استمرار لمهارات اكتسبت مبكرا [15: P. 63 - 64; 7: P. 90 - 92].

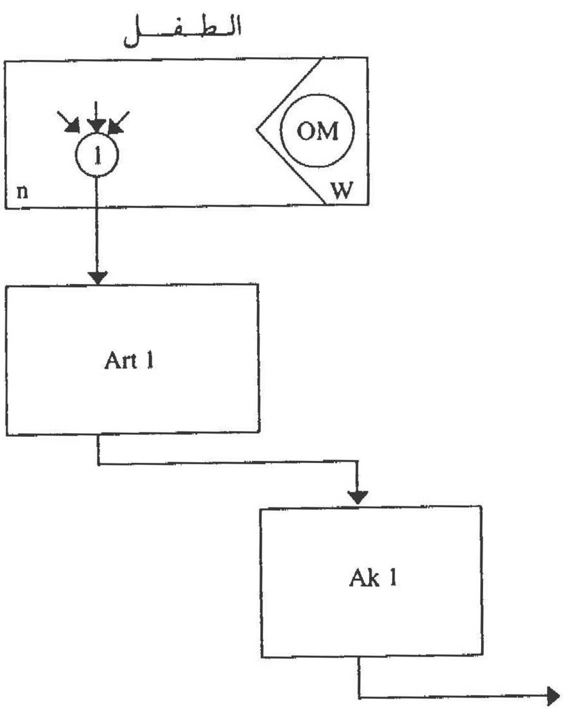
هذا بالنسبة للمرحلة التحضيرية أو الصفرية التي يتواجد فيها الجنين في رحم أمه. أما بخصوص المراحل التي تلي مرحلة الولادة مباشرة فهي ما يلي:

1 ـ مرحلة النغم (الميلوديا) Melody Stage، أو ما يسمى مرحلة إشارات الاستدعاء Appeal Signals:

وهي الفترة التي تمتد من لحظة الميلاد إلى عمر السنة (صفر - 1). إن الطفل في هذه المرحلة وبحكم ارتباط الأم الوثيق والنشيط به، يرتبط هو الآخر اجتماعيا ونفسيا بالمحيط ويستخدم في عملية الاتصال الأشكال التالية: (أ) الصراخ والبكاء والتي تبدو كأعراض لعملية الاستدعاء التي يقوم بها الطفل عندما يعي أنه بواسطة هذه الأشكال يستطيع الحصول على مساعدة المحيط؛ (ب) الصياح الطبيعي Natural Shout (استدعاء أعلى درجة من البكاء)؛ (ج) الاصوات النطقية Articulation Sounds والذي ترافقه إيماءات دلالية ذات سياقات: متغيرة وثابته Situational Semantic Signal: variable and stable; (د) التكوينات المحاكية Onomatopoeic Origination والتي تقلد في مظهرها الصوتي الظاهرة المحددة (أو ما يسمى بالإشارات وحيدة الدرجة One Clads Signals).

إن أكثر الوسائل الاتصالية استخداما في هذه الفترة هي الأشكال ب، ج والتي يشكل الميلوديا فيها ركنا أساسيا (أي عملية تعديل الأصوات Modulation بأنغام مختلفة الارتفاع). إن الميلوديا ثرية في هذه الفترة لما يصاحبها من إيماءات الوجه Memesis والحركات Gestures الحية المعبرة. وبسبب هذا التنوع الكبير فإن الكبار يعيرون اهتماما إلى الطفل وإلى الحالات الحاصلة عنده، وإلى الطلبات المختلفة والأسئلة المطروحة (أي الفهم - الاستقبال). وفي هذه المرحلة يبدو الفهم (الاستقبال) مناسبا لمثيرات النشاط Stimulus. أما بالنسبة للأصوات في هذه المرحلة فإن الطفل قادر على النطق بعدد من الأصوات الصامتة Consonant والصائته Vowel. إن الظاهرة المميزة لهذه الفترة هي: المناغاة العشوائية Unintentional Babblement والمناغاة المقصودة Intentional Babblement. إن المناغاة العشوائية هي عملية غير مقصودة يطلق فيها الطفل أصواتا ذاتية بدون تأثير المحيط، وهي تظهر عند الطفل الذي يتمتع بصحة لابأس بها، في الشهر الثاني، الثالث أو الرابع، كما تظهر عند الأطفال الصم والأسوياء. وهي عملية تدريب ذاتي لأجهزة الكلام لتهيئة نشاط التكلم.

أما المناغاة المقصودة فهي عملية واعية لترديد وإطلاق الأصوات الخاصة والمسموعة من المحيط، في عمر (6 - 7) شهور. وهي تدريب غير مقصود للسمع، وبشكل خاص للأذن الكلامية أو بشكل أدق للأذن الصوتية - الكلامية Phonematic and Phonetic Ear. وتظهر المناغاة المقصودة عند الأطفال الأصحاء سمعيا، ولذا فهي ذات دلالة في التطبيق العملي للوقوف على حالات الصمم المبكر [7: 92 - 93, 275; 15: P. 64 - 65].



المخطط رقم (1) يوضح المناغاة العشوائية

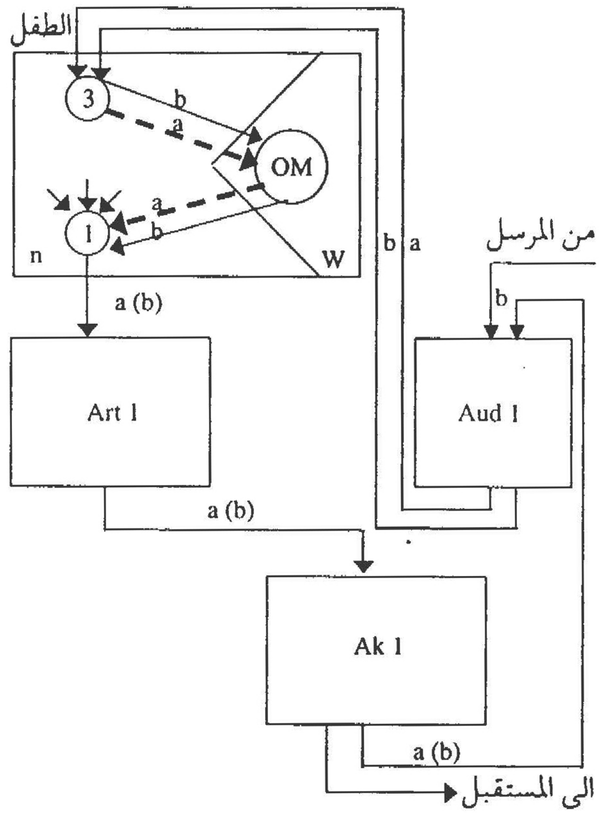
المصدر: Kaczmarek L. : Nasze dziecko uczy sie

Lublin 1977: Wyd - Lub., P. 20.

شرح الرموز : OM = المناطق التفكيرية في المستوى الاعلى (= W)؛

1 = المركز الحركي في المستوى الادنى (= n)؛ Art 1 = أعضاء الكلام؛

Ak 1 = الظاهرة الفيزيائية (الأكوستيكية) أي إطلاق الاصوات .



المخطط رقم (2) يوضح المناغاة المقصودة

المصدر: Kaczmarek L. : Nasze dziecko uczy sie,

Lublin 1977: Wyd - Lub., P. 22.

شرح الرموز Aud 1 = اذن الطفل، 3 = المركز السمعي، a = الاصوات الخاصة التي يطلقها الطفل ويسمعها، b = الاصوات المسموعة من المحيط والتي يرددها الطفل ويسمعها . الرموز الاخرى تم توضيحها في المخطط الاول .

2 ـ مرحلة الكلمة Word Stage أو ما يسمى بمرحلة الإشارات ذات الدرجة الواحدة One class Signals :

وتمتد هذه المرحلة من السنة الأولى إلى السنة الثانية من حياة الطفل . وتمثل الإشارات الدلالية Se-mantic Signals جزءا واسعا من حديث الطفل، وتتكون إما من أجزاء الكلمة (الإشارة الجزئية Fractional Signal)؛ أو من مفردة كاملة (رمز Symbol) حثية Motive (محاكيه Onomatopoeia)، أو قبل كل شيء من غير (الحثية) unmotive اي (اتفاقية) Conventional (إشارة ذات الرمز الأحادي One Symbol Signal)؛ أو من عدة مفردات بدون استخدام الضوابط القواعدية (أي إشارة ذات الرمز المتعدد Multi Symbolic Signal) . وهذه تستخدم عادة في اللحظات القصوى للحالة المعنية، وكأنها محاولة بنائية لها . إن العامل المميز لمعنى حديث الطفل هي العناصر الموسيقية أو الفوقطعية Prosodic، أولها النغم والنبر وأخيرا الإيقاع . في البداية تكون هذه العناصر واحدة غير مميزة في هيأتها الصوتية، وبحدود نمو مهارتي الفاعلية النطقية واستخدام أجهزة الكلام تنمو حصيلة الأصوات ويتم نطقها مع كل مرة أفضل وأدق . أما بالنسبة للظاهرة الصوتية المحاكية Onomatopoeia (المظهر الأكوستيكي)، والتي تعني تقليد الأصوات المسموعة غير المعقدة فهي تقريبا ذات هيأة صوتية كاملة من حيث عناصرها الموسيقية والصوتية . أما بالنسبة لعملية الفهم (الاستقبال) لحديث المحيط فإن الطفل يحقق تقدما كبيرا، حيث يستجيب للحالات المحددة وللطلبات والأسئلة بحديث أكثر نضجا من حيث صيغته اللغوية مقترنا أغلب الأحيان بنشاط .

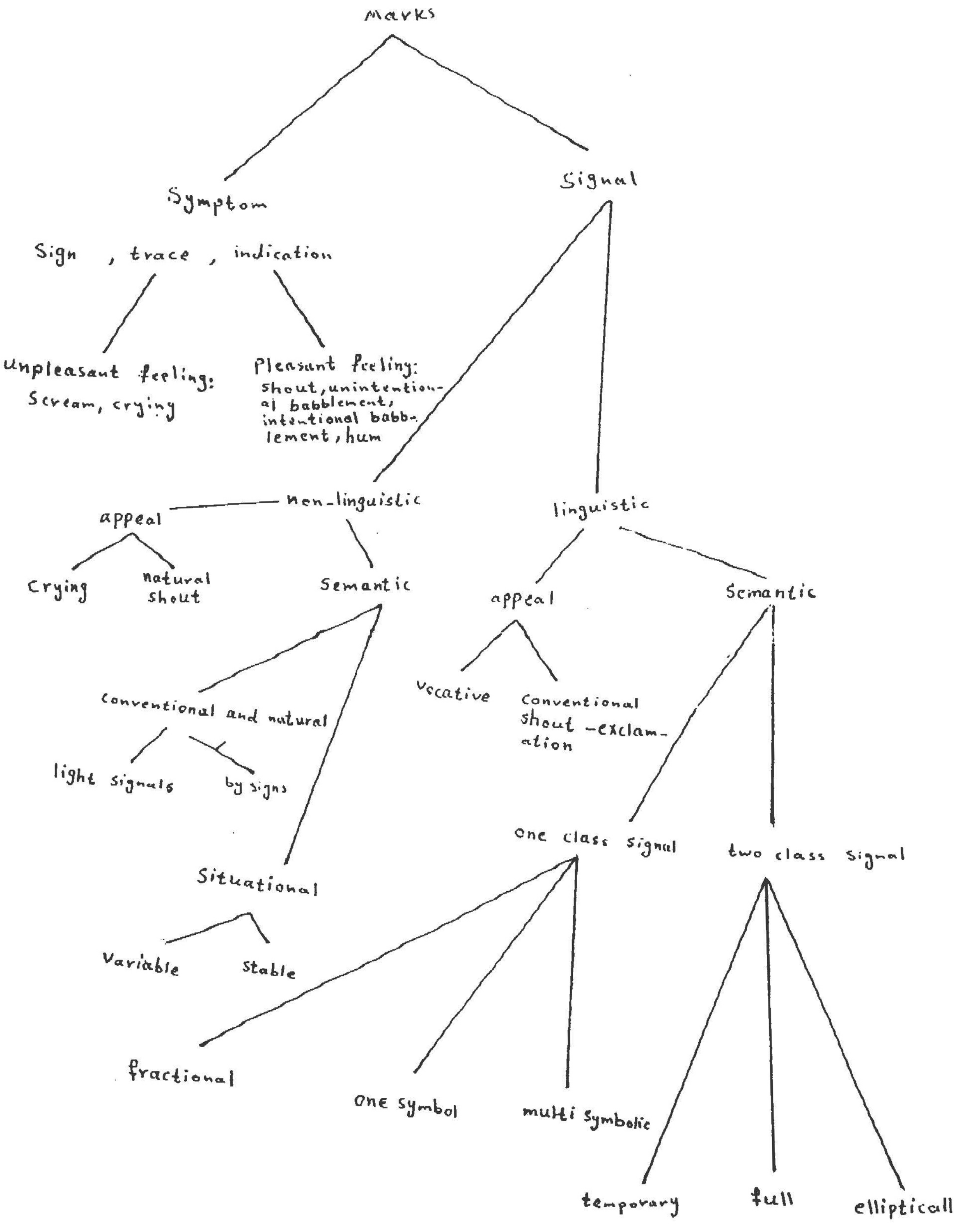
3 ـ مرحلة الجملة Stentence Stage أو ما يسمى بمرحلة الإشارة ذات الدرجتين Two Class Signal وتمتد هذه المرحلة من 2 إلى 3 سنوات من حياة الطفل. في هذه الفترة تظهر الأشكال القواعدية ويغتنى قاموس الطفل بشكل كبير، ويتحدد النظام الصوتي ولكنه يبدو غير مستقر. إنها عملية لا تجري بسهولة . إن الطفل يكتسب اللغة بطريقة شاقة. إن حديث الطفل (إذا كان بمبادرة ذاتية أم استجابة لطلبات وأسئلة المحيط) غالبا ما تبدو غير متفقة مع التقاليد اللغوية، ومحتواه الصوتي (تنفيذ الأصوات Phoneme Realization) لا يبتعد فقط عن النماذج السوية Normal ولكنه يختفي لأنها ممثلة من خلال أصوات غير مناسبة Inadequate Sounds . إن الطفل في هذه المرحلة ينطق جميع الأصوات الصائتة Vowel باستثناء الصوائت الغناء Nasalized Vowel) وكذلك الأصوات الصامتة .Consonant التي تكون حركاتها النطقية مرئية.

4 ـ مرحلة الكلام الطفولي الخاص Childhood Specific Stage أو ما يسمى بمرحلة الأشكال اللغوية الخاصة : Special Language Forms .

وتمتد هذه المرحلة من 3 إلى 7 سنوات من حياة الطفل. يستطيع الطفل في هذه المرحلة أن يدير محادثة بسهولة، ويستخدم إشارات ذات الدرجتين، ولكن أسس بنائها لا يزال غير مستقر. ويلجأ الطفل هنا إلى أسلوب التناظرات أو المشابهات Analogy (4)، والتّلويث (5) Contamination والتبادل الخاطىء Metathesis (6) (أي وضع صوت محل آخر تبادليا في نفس الكلمة خطأ) .

وبسبب حداثة Recency الطفل وفرديته Separately وسحريته غير العادية نلتمس عنده ما نسميه بالابداعات اللغوية Creature Language ، ونجد حدة هذه الظاهرة في بداية هذه المرحلة ثم تضعف لاحقا بالتدريج. إن هذا النشاط ذو أهمية بالغة بالنسبة للغة حيث ينقل الطفل من مرحلة المتعة والتنقيب إلى مرحلة الوعي بالأشكال اللغوية وصعودا إلى اللغة الاصطلاحية أو اللغة الواصفة Metalanguage . وارتباطا بنمو القدرة اللغوية فإن أسئلة الطفل التي كانت قليلة نسبيا في المرحلة السابقة تنمو في هذه المرحلة حتى تصل إلى أربعين سؤالا يوميا تقريبا، أما بالنسبة للجانب النطقي فإنه يتشكل بصيغته النهائية في نهاية هذه المرحلة [7: P. 94 - 96] .

إن تصنيف الإشارات الذي يوضحه المخطط رقم (3) والذي ورد في مختلف مراحل النمو اللغوي لن يختفي في مراحل النمو اللاحقة، بل يظهر في حديث الطفل والتلميذ من الإشارات غير اللغوية أي الاستدعاء (الصراخ، الصراخ الطبيعي) والإشارات الدلالية الظرفية إلى الإشارات الدلالية اللغوية من الدرجة الواحدة والدرجة الثانية والاستدعاء (الصياح، النداء)، وترافق ذلك أيضا الإيماءات وحركات الوجه. وتعمل جميع هذه الأشكال بجانب بعضها البعض بانسجام Harmonic وتوافق.



المخطط رقم (3) يوضح التصنيف الاشاري ومكانته في نظام العلامات المستخدم في علم اللسانيات المرضية.

المصدر: Kaczmarek 1 : Nasze dziecko uczy sie mowy, Lublin 1977 Wyd. Lub, p;283

خامسا - الآليات الدماغية لعملية الاتصال اللغوي:

يلعب الدماغ كما هو معروف دورا أساسيا في تنظيم نشاط الانسان، بما في ذلك نشاط إنتاج واستقبال الكلام. إن جدية البحث العلمي في العلاقة بين نشاط الانسان وتركيب الدماغ بدأت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ويستخدم للبحث في الدماغ أسلوبان أساسيان مكملان لبعضهما: الأسلوب التجريبي والأسلوب الاكلينكي (العيادي). ويستخدم الاول في الأبحاث على الحيوانات، ولاعتبارات أخلاقية لا يمكن استخدامه مع الانسان. ويقوم الباحث في هذا الاسلوب بتلف بعض أجزاء مختارة من دماغ الحيوان ثم يربط ذلك بالتغيرات الحاصلة بعد إنجاز العملية الجراحية، حيث إن التفاصيل الملاحظة لاحقا في التغيرات السلوكية للحيوان تسمح بالاعتقاد أن هناك ارتباطات بين تركيبات دماغية محددة والسلوك الصادر. إن أجزاء التجارب الدقيقة من هذا النوع واستخدام عينات كبيرة لهذا الغرض سمحت للعلماء بالوصول إلى نتائج هامة. إن العديد من النتائج التي تم استخلاصها من التجارب على الحيوانات كان لها تطبيقاتها أيضا في السلوك الانساني، ولكن هناك أنواع من السلوك خاصة بالإنسان وحده. نوعز هذا السلوك الانساني (على سبيل المثال لا الحصر) الى النشاط الكلامي. إن الدراسات التشريحية المقارنة لدماغ الانسان والحيوان تدعونا للتساؤل:

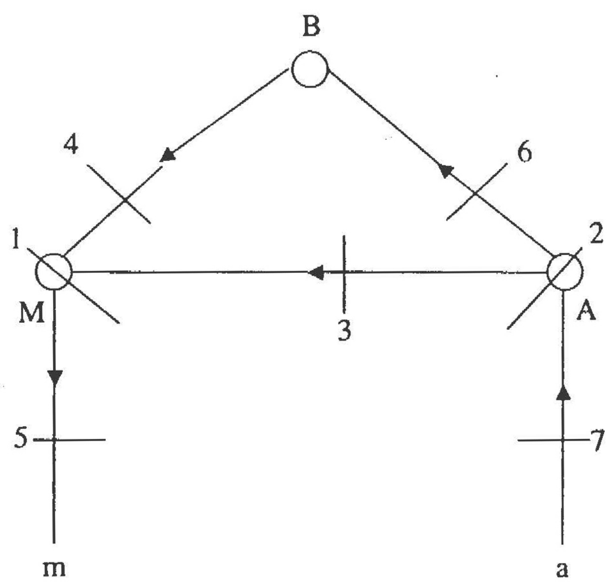
أي التركيبات الدماغية Brain Structure موجودة لدى الانسان ولا يوجد نظيرا لها عند الحيوان؟ إن هذا التساؤل يقودنا إلى استنتاج مفاده أن التركيبات الدفاعية الإضافية التي تظهر في دماغ الإنسان هي المسؤولة عن النشاط الراقي - السلوك الإنساني الخالص. إن أسلوب التشريح المقارن (والذي يمكن اعتباره الأسلوب الثالث بعد الأسلوبين المذكورين) يجب أن يكمله الاسلوب الاكلينكي (العيادي). إن الطريقة الاكلينكية تستند إلى ملاحظة ووصف الأضرار الطبيعية Natural Impairment (العمليات المرضية، الصدمات الميكانيكية، الإجراءات الجراحية) وكذلك وصف وتصنيف مختلف أشكال اضطرابات الأفازيا (الحبسة الكلامية) Aphasis (7).

إن البحث في الدماغ بواسطة الأسلوبين المذكورين أدى إلى تكوين مفاهيم مختلفة في موضوع أسس نشاطه.

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ظهر ما يسمى (مفهوم التموضع الضيق للوظائف الدماغية (Narrow Localisation Concept of Brain Functions) وكان الدافع الرئيسي لظهور هذا المفهوم هو اكتشاف العالم الفرنسي الجراح Broccoعام 1861م لما يسمى بالمركز الحركي للكلام Motoric Center of Speech. وقد أكد العالم المذكور أن تلف هذا المركز (يقع هذا المركز في نصف المخ الأيسر Left Cerebral Hemisphere في الفص الجبهي Frontal Lobe في الأجزاء الخلفية الثانية والثالثة من التلافيف Turbans الجبهية - [11: P. 82]) يؤدي إلى اضطرابات في الكلام مع الاحتفاظ بالقدرة على فهم الكلام. هذا المركز يطلق عليه الآن مركز بروكا نسبة إلى العالم المذكور. وفي أبحاث لاحقة تم تحديد وجود مركز لفهم الكلام سمي بمركز فيرنيكا (يقع هذا المركز في التلافيف

العلوية الخلفية للفص الصدغي Temporal Lobe في نصف المخ الايسر) نسبة إلى مكتشفه العالم Carl Wernicke، وكذلك تم اكتشاف مركزا للكتابة وآخر للقراءة وما شابه ذلك.

وفي ضوء نتائج هذه الابحاث فإن أنصار مفهوم التموضع الضيق أكدوا وجود مراكز محدودة في الدماغ مسؤولة عن أشكال معينة من سلوك الإنسان؟ وأن أي أذى أو تلف لهذه المراكز يؤدي إلى اضطراب أو اختفاء السلوك المرتبط بها. وهذه المراكز متصلة مع بعضها بواسطة ارتباطات عصبية خاصة تسمى الطرق الموصلة Connector Pathways والتي تؤمن تبادل المعلومات وتحويلها Transformation. كما أن الأذى الذي يلحق بهذه الطرق الموصولة هي الاخرى تؤدي إلى اضطرابات في عملية إرسال واستقبال الكلام. في عام 1874 اقترح العالم Wernicke مخططا خاصا لتصنيف اضطرابات الكلام من نوع الأفازيا (الحبسة الكلامية) يستند إلى مفهوم التموضع الدقيق. وقد عدل هذا المخطط من قبل العالم Lichtheimعام 1885 [12: P. 41]. المخطط الآتي يوضح المفهوم أعلاه



المخطط رقم (4) يوضح مفهوم التموضع الدقيق للوظائف الدماغية
المصدر: Maruszewski M.: Mowa a mozg "Zagadnienia: neuropsychologiczne", warszawa 1970: PWN, P. 41.
في المخطط أعلاه A تعني مركز فيرنيكا لاستقبال الكلام، M ـ المركز الحركي للكلام (مركز بروكا)، B ـ مراكز دماغية أخرى تحفز وتنسق مراكز الكلام. الاتصالات بين هذه المراكز الثلاثة تسمى الطرق الموصلة. إن الاذى الذي يلحق بنفس المراكز وكذلك بالطرق الموصلة تؤدي إلى أنواع مختلفة من الأفازيا (س الكلامية) تمتد من (7 ـ 1) كما سيوضحها المخطط اعلاه.

لقد اكتسب مفهوم التموضع الضيق شعبية واسعة، ولكنه فقد أهميته بوقت قصير، حيث اتضح أن نتائج أبحاث مؤكدة على الدماغ لا يمكن تفسيرها في ضوء هذا المفهوم. ويمكن تناول هذه المشكلة في ثلاث نقط رئيسية:

1 ـ إن نشاطا واحدا ومحددا يمكن أن يخضع للاضطراب في حالة تعرض عدة تركيبات دماغية للأذى. إن هذه الحقيقة تبقى بتناقض منطقي مع المفهوم الذي يؤكد وجود مركز واحد محدد لوظيفة واحدة ومحددة.

2 ـ إن الأذى الذي يلحق بمنطقة غير كبيرة في الدماغ يؤدي إلى اضطراب وظائف مختلفة. ووفقا لمفهوم التموضع الضيق يجب أن نقبل الافتراض التالي: إن في هذه المنطقة الغير كبيرة تتموضع كل مراكز الوظائف المضطربة، وهذا مالا يتفق مع طابع المعرفة الحالية.

3 ـ إن التلف الكامل لمنطقة محددة في الدماغ لا يعقبه دائما توقف للوظائف المرتبطة بتلك المنطقة، مع العلم أن الأنسجة الدماغية التالفة لا تخضع لعملية تجديد Regeneration مرة ثانية، وغالبا ما

يلاحظ عملية استعاضة Compensation للاضطرابات المتسببة من الأضرار. وينتج من هذا، أنه في حالة عدم وجود مركز دماغي معين، فإن الوظيفة المرتبطة بهذا المركز يمكن أن تعاد حيث يمكن الحصول على نتيجة بفضل تركيبات دماغية أخرى [11: P. 84].

لقد أدت هذه الصعوبات ببعض الباحثين إلى رفض مفهوم «التموضع الضيق»، وعرض وجهة نظر أخرى ترى أن الدماغ يعمل ككل Entirety وأن أجزاءه ذات قيمة متساوية في تحديد Determinate سلوك الفرد. إن باحثين أمثال Flourens, Goltz, Jack-son, Lashley, Goldstein أكدوا أن الأنسجة الدماغية Brain Tissues ذات قيمة واحدة من الناحية الفسيولوجية. إن الاضطراب في سلوك الشخص لا يعتمد على المكان الذي ألحق به الأذى ولكن يعتمد على درجة اتساع Extension هذا الأذى. واستنادا إلى وجهات النظر هذه، «فإن الدماغ هو أساس الحياة العقلية Mental Life، وأن الدماغ في تنظيمه للأشكال المعقدة من السلوك يعمل ككتلة وظيفية غير متخصصة "Unspecialized Functional Mass" [11: P. 86]. إن هذا المفهوم هو استجابة ضد مفهوم التموضع الضيق، ويطلق عليه المفهوم ضد التموضعي Antilocalisation Concept أو مفهوم العامل الواحد One Factors Concept.

إن النظرية المعاصرة للآليات الدماغية للكلام تنظر إلى الدماغ كمجموعة عناصر متنوعة Distinctive Elements Group تدخل في منظومات تفاعلية ديناميكية مختلفة بهدف تحقيق وظائف محددة. ومن هنا أيضا أن النظرة الحديثة تؤكد على التموضع الديناميكي للوظائف Dynamic Localistion of Functions أو مفهوم المنظومة الوظيفية Functional System. وقد أكد الكاتب Maruszewski [11: P. 87] أن العالم الروسي بافلوف (1916) هو الذي نسبه إلى هذه الإمكانية الوظيفية للدماغ، ومن ثم بعده العلماء السوفييت أمثال لوريا، فيجوتسكي وآخرين. ويلخص لنا الكاتب Whitaker وجهة النظر الحديثة هذه بالشكل التالي: «إن أكثر من قرن ونصف من الأبحاث المكرسة حول الجهاز العصبي للإنسان وارتباط السلوك به أعطت نتيجة لا تقبل الشك، فالدماغ ليس كتلة نسيجية غير متنوعة وموحدة وكفؤة في كل مساحتها للسيطرة على كل سلوك العضوية. إن مختلف مناطق الدماغ تمتلك تركيبات متميزة، وكل جزء منها له مساهمة (أو ليست له مساهمة أبدا) في مختلف أنواع السلوك» [18: P.22].

إن تحليل نشاط الدماغ يدفعنا إلى التذكير بظاهرة الهيمنة الجانبية Lateralisation، أي تخصص نصفي الكرة المخيين Cerebral Hamispheres في توجيه نشاطات محددة في الجسم. أما بالنسبة لنشاط الكلام فعند أغلب الناس يكون الجزء المنظم لهذا النشاط هو النصف الأيسر من المخ (النصف المهيمن)، وعند قلة قليلة من الناس يكون الجزء المهيمن هو الجزء الأيمن، وعند مجموعة محددة من الناس تنعدم لديهم عملية الهيمنة الجانبية لأي جزء من أجزاء نصف الكرة المخيين. وعندما نتحدث عن الأذى الذي يلحق بالدماغ والاضطرابات الكلامية الناتجة عن ذلك فنحن نتحدث ضمنا عن الجزء المهيمن (الأيسر) من المخ عند الغالبية العظمى من الناس.

لقد كان تحديد اللحظات التي تظهر فيها الهيمنة

الجانبية لأحد نصفي الكرة المخيين بالنسبة للكلام موضوعا منتهياً، حيث تم التأكيد أن كلا من نصفي الكرة المخيين يكونان متساويين وظيفيا إلى ما قبل السنة الخامسة من عمر الطفل؛ وتبدأ الهيمنة الجانبية تتشكل من السنة الخامسة وتنتهي بحدود السنة العاشرة [11: P. 93-94]. ولكن آخر نظرة لهذا الموضوع هو ما أكده Krashen [8: P. 73-77] والذي لاحظ أن عملية الهيمنة الجانبية تبدأ بشكل مبكر جدا ويمكن أن تكون من لحظة الولادة وتنتهي عند السن الخامسة. إن الوصول إلى هذه النتيجة ارتبط بفرضية Lenneberg (1967) التي أكدت وجود ما يسمى «بالفترة الحرجة Critical Stage» وهي ذات أهمية كبيرة لتعليم علم اللغات Glottodidactics.

من الضروري الإشارة هنا إلى أن بعض طرائق تعليم اللغات الأجنبية تحاول إيقاف النشاط السلبي لنتائج الهيمنة لأحد نصفي الكرة المخيين، والتي تحاول استخدام طرائق فنية خاصة يمكن بواسطتها إشراك نصف الكرة المخي التابع Submissive Hemisphere في عملية تعليم اللغات.

إن تتبع مسألة الآليات الدماغية لنشاط الكلام تؤكد أن نشاط إرسال واستقبال الكلام هو عملية معقدة لأن عملية التعقيد هذه ناتجة من أن تميز نشاط الإرسال والاستقبال كعمليات منفصلة كما يقول Maruszewski وهي «عملية تجريدية بعينها»، ويحدث ذلك لأن النشاط الحركي (بما فيه إنتاج الكلام) هو مدعم أيضا من الناحية الحسية، وكذلك النشاط الحسي (بما فيه استقبال الكلام) هو الآخر يمتلك مظهرا حركيا [11: P. 103].

لقد ذكرنا سابقا أن المنطقة الدماغية ذات الأهمية الأساسية لإرسال الكلام هي منطقة بروكا وتشكل هذه المنطقة منظومة دينامية مع المناطق الأخرى للكلام في نصف الكرة المخي الأيسر، وأن كل عنصر في هذه المنظومة مسؤول عن مرحلة من النشاط المعقد الذي ينسجم مع الطبيعة المعقدة لإنتاج الكلام.

أما نشاط استقبال الكلام فهو مرتبط بشكل رئيسي بالأجزاء الخلفية لمنطقة الكلام، أي منطقة فيرنيكا (الجزء الخلفي العلوي للتلافيف الصدغية) وكذلك مناطق القشرة الدماغية القريبة من هذه المنطقة (الجزء الخلفي الثاني من التلافيف الصدغية) [11: P. 107-108]. إن دور منطقة الكلام هذه يستند إلى تحليل وتميز الأصوات الكلامية المستقبلة على هيئة إشارات مبعوثة من المرسل. هذه الإشارات هي الموجة الأكوستيكية والمستقبلة كمجرى Stream من الأصوات والبعض منها أصوات كلامية Sounds Speech، والوحدة الأساسية التميزية للأصوات الكلامية هي الفونيم Phoneme، ولكي تحصل عملية التميز لأي واحد من هذه الأصوات التي تَرد إلى الأذن لابد من فرزه من حيث كونه يمتلك خصائص أكوستيكية تميز هذا الفونيم عن غيره. هذه الخصائص تحمل اسم السمات المميزة Distinctive Fea- ture. وعلى أساس هذه السمات التميزية فإن المستقبل يميز المفردات المختلفة المعنى حتى وإن اختلفت بسمة واحدة، وقد يكون الاختلاف هنا في صفتي الجهر والهمس - على سبيل المثال: الاختلاف بين الصوتين: خ،ع. إن الاختلافات الأكوستيكية بين الأصوات والتي تعود إلى فونيم واحد هي كثيرة،

حتى في نطق الكلمات من خلال نفس الشخص وفي مناسبات مختلفة [3: P. 176]، ولكن العيش مع مجموعة من الناس لهم لغة مشتركة يؤدي إلى تشكيل قدرات سمعية تكيفية خاصة عند الإنسان لالتقاط هذه الاختلافات والتي تكون جوهرية في لغة ما. إن تكيف السمع لفرز السمات التميزية للأصوات يسمى بالأذن الكلامية Phonematic Ear (8).

ولغرض الاستقبال السليم للكلام من الضروري أن تكون منطقة فيرنيكا فاعلة بشكل اعتيادي وكذلك المناطق القشرية المجاورة. إن الأذى الذي يلحق بهذه المناطق يؤدي إلى اضطراب في فهم الكلام وبشكل خاص صعوبة تميز الأصوات على الرغم من أن سمع المستقبل نشط، وهذا يعني أن المستمع يسمع الأصوات ولكن لا يميزها، أي لا يفهم ماذا يسمع.

إن عملية تميز الأصوات في وسط مجراها الهائل المنطلق إلى أذني المستقبل هو جزء من مهمة تنتظره. أما الجزء الآخر فيستند إلى القدرة على الاحتفاظ في الذاكرة بالعناصر المرتبة في الزمان والظاهرة في ترتيب محدد حتى لحظات تشفير أو تسفير Decipher مقاطع طويلة من الإرسال Communication. إن عملية الاحتفاظ بهذه العناصر في الذاكرة ضروري لتحديد العلاقات بينها أثناء تشفير المعنى. إن الأجزاء المتبقية من الفص الصدغي (باستثناء التي ذكرت) هي المناطق الدماغيّة التي تقوم بوظيفة تأمين الآثار الذاكروية في عملية استقبال الكلام [11: P. 109].

إن سماع وتميز وتذكر عناصر الإشارة Signal المستَقبلَة من خلال المستقبل يجب أن تخضع لعمليات عقلية بهدف تشفير معنى الإرسال. إن المنطقة الدماغية التي تنجز هذه العملية هي المنطقة الجدارية - القذالية (Parietal - Occipital area). هذه المنطقة مسؤولة بشكل خاص عن العمليات المنطقية النحوية Logical - Syntactical Operations المرتبطة بفهم الموضوعات ذات التركيبات المعقدة من حيث المعنى [12: P. 225].

أما خارج المناطق الثلاثة المذكورة، هناك أيضا مناطق أخرى دماغية لها دور في استقبال الكلام، ونقصد بذلك الجزء الأمامي من منطقة الكلام وكذلك منطقة الفصّ الجبهي، هذه الأخيرة لا تدخل عادة في تركيب ما قصدنا به - مناطق الكلام. الجزء الأمامي من منطقةالكلام يساهم في عملية التنظيم الدماغي للاستقبال وينجز وظيفة (كما اتضح ذلك في العديد من الأبحاث) دائرة مراقبة Supervision Circuit [12: P. 192-195].

أما بالنسبة لمنطقة الفص الجبهي خارج منطقة الكلام الأمامية فهي تقوم «بتأمين إمكانية الاتصال السريع إذا قصدنا بذلك استقبال الموضوعات، ودون الاعتماد على التركيبات الظاهرية للحديث، وعدم الاعتماد هذا يعتبر شرطا للانتقال إلى التركيبات العميقة وبدوره إلى معنى الموضوع Text المستقبل [12: P.226].

إذن هناك في الدماغ تعمل منظومتان ديناميتان: إحداهما لإرسال الكلام مرتبطة بالمركز الحركي للكلام - مركز بروكا، وأخرى لاستقبال الكلام مرتبطة بالمركز السمعي للكلام - مركز فيرنيكا. وهذه

المناطق مع مناطق أخرى تشكل منظومات دينامية والتي حددها Bielajew [2: P. 215-221] من وجهة نظر علم النفس اللغوي بأنها ديناميات نمطية Stereotype Dynamics. واتفاقا مع وجهة نظر Bielajew والتي أكدتها نتائج أبحاث علم اللغة العصبي Neurolinguistics. إن تعلم لغة أجنبية هو مساوي لعملية تكوين ديناميات نمطية جديدة New Stereo-type Dynamics عند المتعلم، أي منظومات جديدة لإرسال واستقبال الكلام.

إن عملية إرسال واستقبال الكلام تعتمد على النشاط التالي:

1 - نشاط الدماغ حيث يشكل الأساس المخي للظواهر التي تنشأ في التركيبات القشرية، وكذلك مهمة أيضا الظواهر التي تتشكل في المنظومة خارج الهرمية Extrapyramidal والطرق العصبية Nerve path-way؛

2 - أجهزة الكلام (التنفسية، الصوتية، النطقية)، والموجهة من قبل التركيبات القشرية وكذلك المعتمدة على نشاط الأعصاب المحيطية Nerve pe-ripheral وأيضا على البناء التشريحي للأجهزة المذكورة؛

3 - نشاط عضو السمع وخصوصيته والذي يؤطر عملية سمع وفهم كلام الأشخاص الآخرين، وكذلك يقوم بعملية الضبط الذاتي لكلام المرسل. كما يساهم عضو الإبصار في استقبال الكلام من خلال قراءة حركات شفاه المتكلم [17: P. 25].

إن نشاط الإرسال كما تحدده الكاتبة Styczek هو مجموعة النشاط الذي يستند إلى إعادة تشكيل المدركات والتصورات والعمليات الفكرية في رموز صوتية. إن الحركات النطقية المنفذة تقع تحت عمليات ضبط سمعية - حسية. ويساهم في نشاط الإرسال المنطقة المخية الأمامية الحركية (منطقة بروكا) وكذلك الجزء الخلفي من مناطق الكلام. والافتراض السائد هو أن كل وظيفة ذات صلة بعملية الكلام تلائم جزءا معينا من مناطق الكلام المذكورة. وتؤكد نفس الكاتبة المذكورة أن برمجة الموضوعات Texts programming ومحتواها واختيار المفردات يعتمد على التركيبات المخية للفص الجبهي (المتموضعة إلى الأمام من منطقة بروكا). ويمكن أن نوضح آليات الإرسال في ضوء التنوع الوظيفي للمناطق المخية المذكورة أعلاه بالشكل التالي:

1 - اختيار المفردات من حيث معانيها، وربطها وفقا للأسس القواعدية المعمول بها في لغة ما، وهذا يرتبط بالحدود التي تقترب منها المناطق الجدارية - الصدغية - القذالية Parietal, Temporal and Occipital Areas أو ما يسمى بالمنطقة الرابطة Association Area.

2 - استحضار الآثار السمعية للمفردات الضرورية لبناء الموضوع (التحليل والتركيب السمعي)، يرتبط بالمنطقة الصدغية Temporal Area.

3 - تنظيم الموضوع والذي يستند إلى الترتيب الخطي: صوت - مفردة - جملة، مع الحفاظ على الأسس القواعدية يعود إلى وظيفة منطقة بروكا (المنطقة الحركية الامامية).

4 - الإحساس بنماذج للأصوات والمرتبط بوضع أجهزة الكلام. والوعي بوضعها يعتمد على وظيفة الفص الجداري، وفي جزئه الأسفل الواقع مباشرة بعد الأخدود المركزي (أخدود رولاندو).

5 ـ أما وظيفة منطقة الكلام الإضافية (الحركية) والواقعة في المنطقة العليا قبل الشق المركزي للنصف المخي المهيمن Dominant Hemisphere، فإن أدبيات الدراسة تحدثنا بأن وظيفتها غير معروفة، ولكن الكاتبة Minczakiewicz تؤكد لنا من خلال خبرات الميدان بأنه من المحتمل أن تقوم هذه المنطقة بوظيفة مساعدة مرتبطة بعملية استحضار الأصوات الضرورية لبناء المقاطع، المفردات والكلام [17: P. 68-69; 15: P. 26].

أما عملية الاستقبال (الفهم) فهي مرتبطة بسماع أصوات الكلام (التحليل والتركيب) وربطهما بمحتوى محدد . وتعتمد هذه على منظومة وظيفية معقدة، والتي تساهم فيها بشكل جوهري الأجزاء التالية :

1 ـ سماع أصوات الكلام وهذا يتطلب عضو سمع فاعل .

2 ـ القدرة على تميز الأصوات (تحليل وتركيب) ويعتمد ذلك على مركز فيرنيكا الواقع في المنطقة الصدغية في التلفيف العلوي .

3 ـ الذاكرة السمعية الشفوية (أي إمكانية الاحتفاظ في الذاكرة باستمرارية المفردات المرتبطة بعلاقات منطقية ـ قواعدية) والقدرة على تميز المفردات، ويعتمد ذلك على الجزء الأوسط للمنطقة الصدغية .

4 ـ القدرة على التميز الدلالي (المعنى) للمفردات والجمل في ضوء سياقها Contextوارتباطاتها المنطقية ـ القواعدية، ويرتبط ذلك بوظيفة المنطقة الجدارية ـ القذالية Parietal - Occipital Areas .

5 ـ الجزء الأمامي من منطقة الكلام من المحتمل أن يساهم في النشاط المرتبط بالكلام الداخلي Internal Speechوالذي يساعد على تشفير معنى الموضوعات عند استقبال الكلام .

6 ـ منطقة الفصوص الجبهية (خارج منطقة الكلام) وهي تؤمن إمكانية الاتصال السريع أثناء استقبال الموضوعات .

وباستثناء المناطق المخية المذكورة والتي تقوم بوظائف محددة (كاستقبال الإيعازات Impulse الخارجية والداخلية، ومن ثم إنجاز عمليات التحليل والتركيب)، وكذلك باستثناء المنطقة الرابطة As-sociation Area، والتي تمكن من التعاون المشترك للمناطق المخية المختلفة، أي تشكيل النشاط النفسي المعقد ـ فهناك أيضا تساهم المنظومة التي تؤمن طاقة عضلية مناسبة Tonus وهي المنظومة خارج الهرمية Extrapyramidal . وهذا الجهد العضلي ضروري حتى لأكثر العضلات استرخاء لانجاز الحركة المطلوبة [17: P. 69-70].

ومن الحقائق المذكورة في هذا الجزء من البحث المرفق نستطيع أن نؤكد أن للكلام مناطق مخية (مناطق الكلام)، وهي موجودة عند أغلب الناس في الجزء الأيسر من المخ . وأن الأذى الذي يلحق هذه المناطق يسبب أعراضا مختلفة من اضطرابات الكلام . كما أن مناطق الكلام هذه تشغل الجزء الأوسط من نصف المخ المهيمن (الأيسر عند الغالبية)، وتمتد مساحتها جزئيا في الفص الجبهي ـ الجداري ـ الصدغي (الرسومات رقم 4، 5) .

ومن المفيد جدا أن نشير هنا إلى نموذج آليات اضطرابات الكلام والذي قدمه لنا الكاتب J. Konor-

ski . وقد استند في ذلك إلى نظرية الوحدات المعرفية Gnostic Units Theory وقد قبلت هذه النظرية واستخدمت لأنها تضع لنا مخططا عمليا في تحليل اضطرابات الكلام وتوجيه عملية التقدم العلاجي. فوفقا للكاتب المذكور أن كل المناطق المعرفية (الإدراكية) تمتلك تنظيما تصنيفيا Categorical Organization أي أنها تشكل مجموعة وحدات إدراكية تعود إلى محلل Analyst محدد: بصري، سمعي، حركي، وحسي.

وكل منطقة إدراكية تلائم الوظيفة التي انيطت بها:

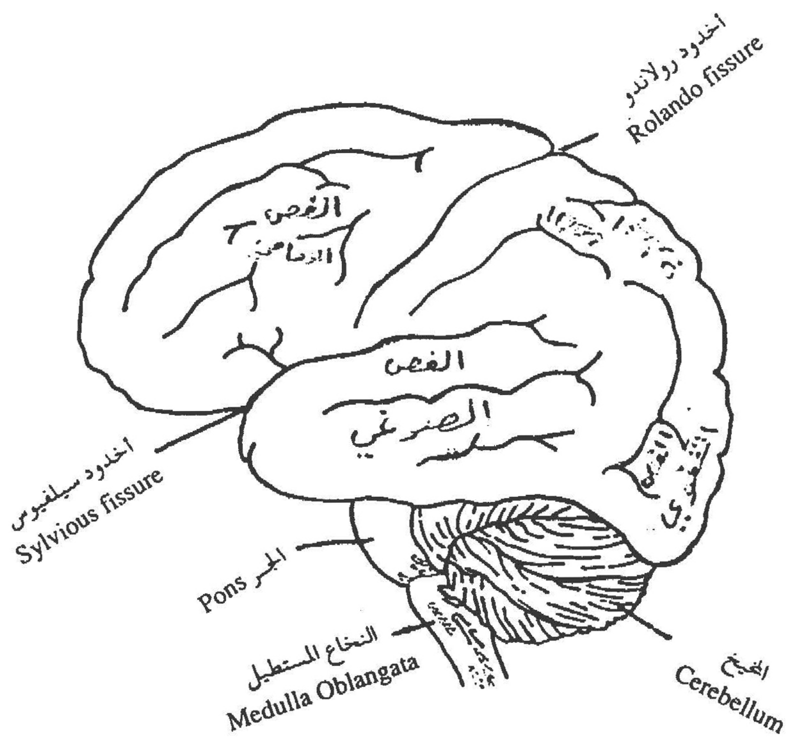
- في المناطق السمعية يوجد مجموع الوحدات التي تمثل: الأصوات، الكلمات، أصوات الكلام، والظواهر الأخرى الأكوستيكية،

- في المناطق البصرية توجد الوحدات الممثلة للرموز الكتابية، أشكال الموضوعات، الألوان والعلاقات المكانية،

- المنطقة الحركية للكلام Motoric Area Speech والتي تمثل النشاط الحركي للكلام فإن مهمتها تأمين النماذج الحركية والتي لا غنى عنها في عملية الكلام.

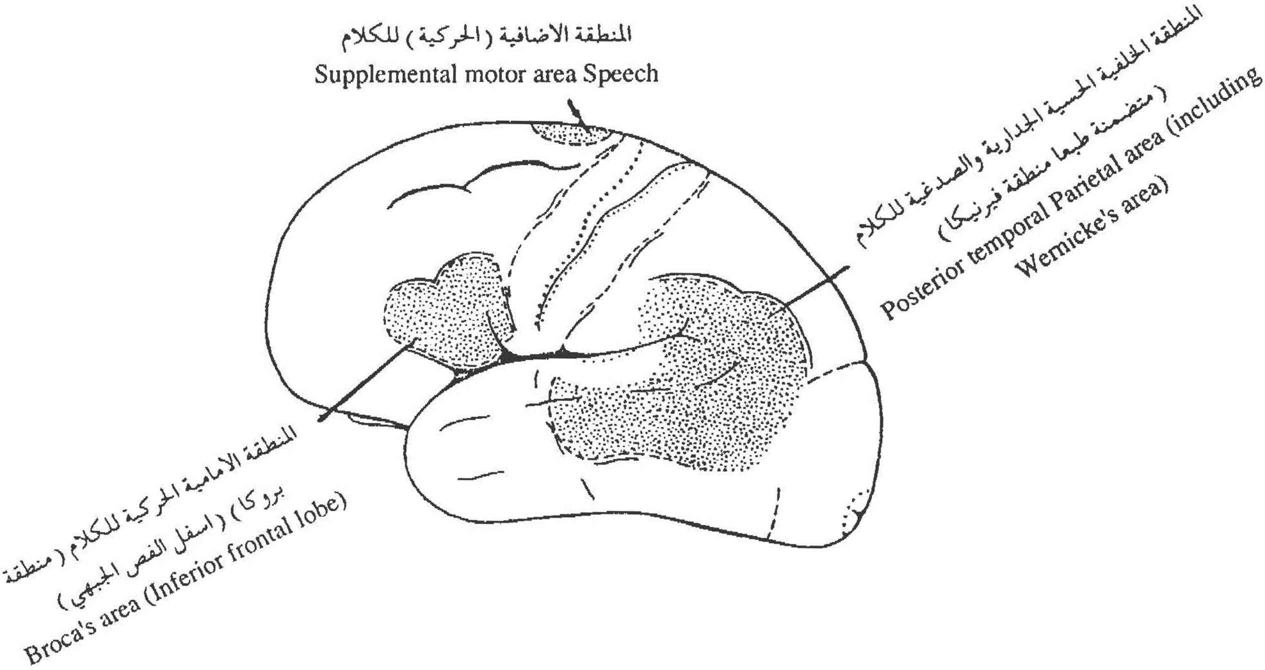
وكل المناطق المذكورة أعلاه متصلة مع بعضها، الأمر الذي يمتلك أهمية استثنائية لتعلم واكتساب مهارات التكلم والفهم (انظر الرسم رقم 6 وشرح الرموز الواردة فيه) [15: P. 24-25].

الرسم رقم 4 يوضح الدماغ من الجهة اليسرى نقلا عن:
(S. Rozycki, Anatomia mozgowia i rdzenia kregowego, 1975, s. 23)



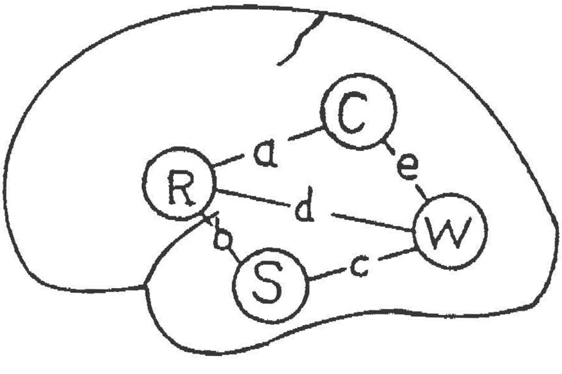
الرسم رقم 5 يوضح مناطق الكلام في القشرة المخية. نقلا عن:

(W. Penfield and L. Roberts, Speech and Brain Mechanisms, 1959 s. 201)



الرسم رقم6 يوضح المناطق المعرفية (الادراكية) والاتصالات بينها نقلا عن:

(J. Szumska (red), Zaburzenia mowy u dzieci, 1982,s. 15, E. Minczakiewicz, Logopedia, 1990, s. 25).



<u>شرح للرموز الواردة في الرسم 6:</u>

R ـ المنطقة الإدراكية الحركية للكلام.

C ـ المنطقة الإدراكية الحسية.

S ـ المنطقة الإدراكية السمعية.

W ـ المنطقة الإدراكية البصرية.

a ـ الاتصال المسؤول عن حركة وحس أجهزة النطق.

b ـ الاتصال المسؤول عن تسمية الموضوعات تلبية لطلب شفوي.

c ـ الاتصال المسؤول عن الاشارة إلى الموضوعات تلبية لطلب شفوي.

d ـ الاتصال المسؤول عن قراءة شفاه المتكلم.

e ـ الاتصال المسؤول عن الادراك الحسي ـ البصري للموضوعات.

وفي اطار هذا المفهوم فإننا نتحدث عن الاضطرابات الكلامية ليس فقط عندما تخضع هذه المناطق للأذى ولكن أيضا عندما تتعرض الاتصالات بين هذه المناطق إلى خلل ما.

سادسا - أسس عملية الاتصال اللغوي في ضوء مبادىء علم التحكم الذاتي:

لقد نشأ علم التحكم الذاتي Cybernetics (9) متأثرا بمعطيات علوم كثيرة، لعل أهمها علوم الفسيولوجيا Physiology (علم وظائف الأعضاء) وبشكل خاص فسيولوجيا الدماغ، حيث تم نقل مبادىء وقوانين عمل العضوية الحية إلى نطاق العضوية الجامدة، وكانت إحدى ثمرات ذلك العقول الإلكترونية، كما ساهم علم التحكم الذاتي بدعم الكثير من الافتراضات التي قدمتها علوم الطب والفسيولوجيا. وقد اكتسب الاتصال اللغوي (باعتباره عملية راقية) أهمية خاصة كجزء من عملية التأثر بمعطيات آليات الدماغ (كما شرحنا ذلك). وساهمت مفاهيم التحكم الذاتي بدورها بوضع الكثير من الافتراضات التي ساهمت بفك رموز الآليات الدماغية للاتصال اللغوي، وقد اتضح هذا التداخل الأخير بإسهامات العالم L. Zabrocki التي تركت صدى واسعا في المنابر العلمية.

لقد أسس العالم المذكور ميدانا جديدا من المعرفة أطلق عليه علم الترميز Codematics، وقد عرفه بأنه علم يدور حول مبادىء التحويل Transformation principles أثناء فعل الكلام [21: P. 138].

لقد شكل العالم وجهات نظره الخاصة بالنماذج الآلية لنشاط الكلام بالعودة إلى مفاهيم التغذية الراجعة Feedback (10).

لقد أكد L. Zabrocki أن كل نماذج التحكم الذاتي Cybernetics Models تتكون من منظومة معلوماتية يميز في تركيبتها قناة (مسلك، مرور) وعلى الأقل حزمتان من الحزم التحويلية Transformation Bands. كما يجب أن تتكون القناة من ثلاث دوائر معلوماتية Information Circuits :

1 - دائرة المعلومات الأساسية(11) Basic Information Circuit.

2 - دائرة مراقبة المعلومات Supervision Information Circuit.

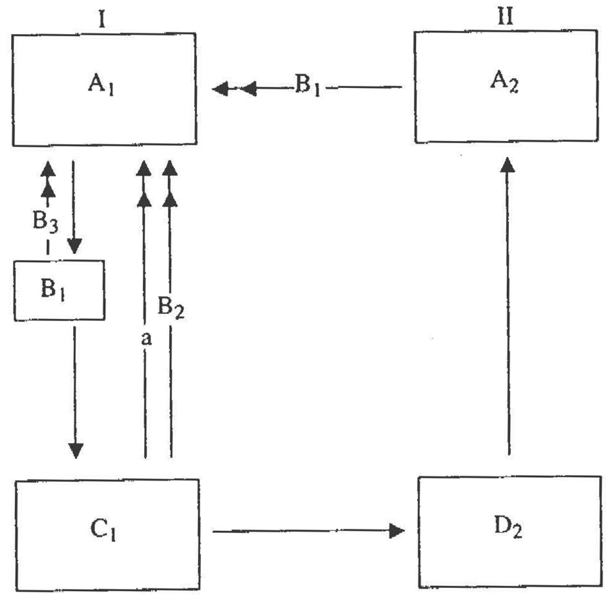
3 - دائرة توجيه المعلومات Steering Information Circuit [21: P. 137].

إن عمل منظومة الاتصال اللغوي يمكن توضيحها بالشكل التالي: يستند النموذج العام لعملية الاتصال اللغوي على قاعدة قوامها: المرسل - المستقبل، فعندما يرغب المرسل في إيصال معلومات إلى المستقبل، يحدث في الدماغ خيارات معقدة وعملية تحويل Transformation. ونتيجة لذلك تتكون إيعازات عصبية مناسبة تتجه إلى القناة النطقية، عند ذلك تتحول الإيعازات إلى حالات نطقية محددة. وهنا تظهر عملية التحول الثانية التي تحمل الرمز اللغوي، ثم يقوم بعد ذلك مستقبل المعلومة بعملية إعادة تشكيل العناصر الأكوستيكية (الفيزيائية) إلى عناصر سمعية ويحدث هذا في الأذنين، وهي عملية التحول الثالثة.

كما أن القيمة السمعية تخضع بدورها إلى إعادة تحويل إلى إيعازات عصبية. وهذه الإيعازات العصبية تذهب بدورها إلى الدماغ حيث تخضع إلى عملية تحويل لاحقة [21: P. 5].

إن الأمكنة التي تظهر فيها عملية تحول للإشارة Signal يطلق عليها L. Zabrocki الحزم التحويلية: الدماغية A، النطقية B، الأكوستيكية C، والسمعية D.

إن منظومة الاتصال اللغوي تعتبر كاملة عندما تسمح قنواتها بتبادل الأدوار، أي عندما يمكن أن يصبح المرسل مستقبلا، والمستقبل مرسلا للمعلومات. هذه المنظومة يوضحها الرسم التالي:



الرسم رقم 7: نموذج عملية التخاطب اللغوي الشفوية. نقلا عن:
(L. Zabrocki, Cybernetyczny Uktad Komunikacji Jezykowej. "Logopedia" 1967 nr.7 Lublin, s. 12)

شرح الرموز الواردة في المخطط: I = مرسل. II= مستقبل.
A1 = الحزمة الدماغية التحويلية للمرسل. B1 = الحزمة النطقية التحويلية للمرسل. C1 = الحزمة الاكوستيكية التحويلية للمرسل.
D2 = الحزمة السمعية التحويلية للمستقبل. A2 = الحزمة الدماغية التحويلية للمستقبل. الرمز ---->->مسالك الدوائر = دوائر مراقبة المعلومات. B1= دائرة مراقبة المعلومات (التغذية الراجعة) للمنظومة التحتية الأولى. B2 = دائرة مراقبة المعلومات للمنظومة التحتية الثانية. B3 = دائرة مراقبة المعلومات للمنظومة التحتية الثالثة.
a= دائرة المعلومات الاساسية.

ملاحظة: الدوائر B2, a تشكل مسلكا واحدا، لم تتضح هنا دائرة توجيه المعلومات. هذه المنظومة هي منظومة تحكم ذاتي لانها تتكون من ثلاثة دوائر.

يوضح L. Zabrocki عمل المنظومة بالشكل التالي: في أساس كل نشاط اتصالي تكمن ثلاثة عناصر: المعلومات، مراقبة استقبال المعلومات من قبل المرسل، والتوجيه المناسب لكل عملية إيصال المعلومات. ويمكن ملاحظة ذلك جيدا في النشاط الحواري. حيث يستجيب المستقبل مباشرة للايعازات المعلوماتية للمرسل وبالعكس. ومن خلال الحوار المتبادل لأطراف عملية الاتصال يتم التأكد إذا كانوا قد بلغوا الهدف المناسب، أي إيصال متبادل ومناسب للمعلومات، أم أن عملية الاتصال لم تؤد النتيجة المرجوة وتوجه كل عمليات الاتصال الكلامي على غرار هذه العملية. فإذا اتضح على سبيل المثال أن أحد أطراف عملية الاتصال لم يفهم الآخر، فإن نقطة التوجيه المركزي والتي علمت حول هذه الحقيقة معتمدة على مراقبة المعلومات، سوف تسعى لتوجيه مسار المعلومات كي يفهم الطرف الآخر الهدف المناسب. ويمكن لعملية المراقبة أن تستند إلى تحليل جوهر إجابات المستقبل، أو الاستناد إلى انعدام الإجابة، أو إيماءة تشير إلى أن الطرف الثاني لم يفهم المعلومة. كما يمكن في النهاية الاستناد إلى استجابة بصرية من المستقبل، وفي الحالة الأخيرة فإن مراقبة المعلومة تسلك طريق المنظومة البصرية.

ويتحدث العالم المذكور عن اكتساب اللغة، حيث يحدث ذلك في قناة دائرة أخرى - دائرة بناء القوالب Matrix الذي يولد Generate الإشارات Signals. إن عملية تعلم اللغة هي عملية معقدة، وتختلف جذريا عن عملية تعلم أي موضوع آخر مثل: التاريخ، علم الأحياء، الجغرافية والتي تستخدم

فيها اللغة كوسيلة للاتصال والتعبير عن المحتوى. ففي الحالات الأخيرة نلاحظ أن كل عناصر منظومة النماذج اللغوية Paradigmatic Systems (منظومات أصغر وحدة صوتية Phoneme، أصغر وحدة لغوية ذات المعنى Morpheme، المفردات، التركيبات النحوية Syntactic construction) هي عناصر مشتركة بين المرسل والمستقبل. ومن بقايا المنظومة الخطية(12) Linear Systems أنها تكون مشتركة أيضا مع بعض العبارات الثابتة والتعبيرات الاصطلاحية Idiomatic Expression لكن المستقبل لا يعرف اختيار العناصر المذكورة والتي تعمل من مخزن المرسل ومن قبل المرسل نفسه. وكذلك فاستقبال محتوى الجمل والموضوعات فإنها غير معروفة للمستقبل. والمرسل الذي يمتلك المحتوى مخزنا يقوم بتحويله Transform إلى جمل ملموسة، حيث يختار من المخزن الداخلي Internal Store التركيبات النحوية، المفردات، أصغر الوحدات اللغوية ذات المعنى، أصغر الوحدات الصوتية. كل ذلك ينفذ بواسطة استدعاء إشارات وعائية ناقلة (الأصوات) Phonic Substantiation Sig-nals من المخزن الداخلي.

ومن الواضح أن التركيبات وتنفيذها وعائيا تبقى أخيرا مشفرة في الحزمة الدماغية الناقلة على هيئة إيعازات عصبية Impulse Nervous. ويجب على المستقبل إعادة تشفير النشاط التركيبي الخطي Lin-earity Construction من خلال عملية التحليل، والذي يستند الى اختيارات المرسل للعناصر اللغوية من مخزن نماذجه Paradignatic Store بهدف إرسال المعلومات. وينجز ذلك بالشكل التالي: يُخضِع العناصر المناسبة الحاملة للمعلومة والتي تتصف باستمرارية خطية إلى منظومة نماذجه الخاصة. وعملية الإخضاع هذه تستند على النشاط الانتقائي للعناصر اللغوية المناسبة من المخزن الخاص. كما أن العناصر المنتقاة يجب أن تكون متفقة مع العناصر المنتقاة من قبل المرسل. ويمكن الحصول على محتوى الجملة، ويقصد بها الجملة الدالة Semantic Sentence، من خلال التوليف الخاص للمفردات Lexical Syn-thesis وأيضا القواعد Grammar. وهذا الأخير (دلالة الجمل والموضوعات) هو الذي نخزنه. فنحن لا نحزن الكيان المادي الملموس Concrete للجمل أو الموضوعات، وإذا استدعيت الحاجة إلى كلمات جديدة كحاملة لمحتوى المفردات Lexical Content فإن ذلك ينفذ من خلال ما يسمى بالشفرة اللغوية الداخلية Internal Language Code حيث يتم توضيح العناصر غير المعروفة بواسطة العناصر المعروفة وبمساعدة الجمل بشكل خاص. ونستطيع أن نكتسب كلمات جديدة من خلال ربطها بموضوعات ملموسة. إن هذا السياق يكون صعبا بالنسبة لضبط محتوى مجرد Abstract Content وهنا نكون مجبرين بإحداث عمليات تحويلية Trans-formation تعتمد على الشفرة اللغوية الداخلية.

إن المظهر المذكور أعلاه يتغير تماما في حالة ضبط اللغة نفسها، أي ضبط نفس وسيلة اتصالنا الكلامي ففي هذه الحالة نلاحظ أن محتويات مخزن النماذج اللغوية Paradigmatic Store للمرسل لا يتطابق مع محتويات مخزن نماذج المستقبل. فإما أن يكون مخزن المستقبل فارغا (في حالة تعلم الطفل للغة الأم)، أو يكون مملوءاً بعناصر أخرى مقارنة بمخزن المرسل (كما في حالة تعلم لغة أجنبية). وفي هذه

الحالة يجب بناء مخزن للنماذج اللغوية بالاستناد إلى المعلومات الأساسية (أو كما يسميها Zabrocki المعلومات النووية Nuclear Information) مطابقا لمخزن المستقبل، أي يجب بناء أداة جديدة لإنتاج Production وإعادة إنتاج Reproduction إشارات اللغة التي اخترنا تعلمها هدفا لنا، أي بصورة عامة نبني قوالب لغوية Language Matrix مناسبة. إن دائرة المعلومات الأساسية تصبح في هذه الحالة دائرة بناء Building Circuit، وهذه هي وظيفتها الثانية، وهذه الوظيفة التي تستمر طويلا حتى نضبط بشكل كامل تركيبات اللغة المعنية. ويحدث ذلك بالشكل التالي: إن الطفل يضبط التركيبات المغلقة في نهاية السنة الرابعة عشر (في أغلب الأمر). ولكن عملية اكتساب قاموس جديد (مفردات) وكذلك محتوى الموضوعات فهي عملية تستمر مدى الحياة. وبذلك فإن دائرة البناء في مجال التركيبات المغلقة (13) Closed Construction ينتهي نشاطها في فترة شباب الإنسان، وتتعرض بعد ذلك للتآكل Dacay مع مرور الزمن. أما في مجال القاموسية والمحتوى فإن دائرة البناء تستمر بمقاييس متباينة إلى نهاية الحياة [20: P. 9-10].

إن حقيقة تآكل دائرة البناء في مجال بناء التركيبات المغلقة في عمر معين من حياة الإنسان تمتلك أهمية خاصة بالنسبة لتعليم اللغات الأجنبية، أي أن مؤشر Parameter العمر يجب أن يحسب له الحساب في تعلم اللغة الأجنبية. وهذه الملاحظة الأخيرة تؤخذ بالكامل بالنسبة لتعلم لغة الأم.

ويتحدث L. Zabrocki عن دائرة المراقبة الداخلية فيؤكد أنها نشاط يستند إلى سماع نفس المرسل لحديثه، إن المرسل الذي يمتلك سمعا طبيعيا عادة ما يسمع ويراقب حديثه. وبهذا فإن منظومة الاتصال اللغوي يكملها مسلك Tract يجري من فم المرسل الى أذنيه. وهذا المسلك يمتلك ثلاث دوائر (دائرة المعلومات الأساسية، دائرة المراقبة، التوجيه) تعمل بشكل اعتيادي، ولكن لا تعمل هنا دائرة بناء القوالب Matrix اللغوية. وإن هذه الدائرة لا تعمل عند الصغار ولا عند كبار السن وكذلك في مجال التركيبات المفتوحة (14) Opened Construction. إن هذه الدائرة محايدة Neutral. إننا لا نستطيع اكتساب اللغة، بصورة عامة، واللغة الأجنبية بالاستناد إلى نطقنا الخاص. وعندما يحصل ذلك فإنه من الصعب بناء القوالب اللغوية والصوتية بأسلوب مناسب. صحيح أننا ننطق اللغة في البداية بشكل غير مناسب وكذلك نخطأ في استخدام التركيبات الأخرى، ولكن هذه الأخطاء وسوء الاستعمالات لا توجد لها تأثيرات في بناء قوالب صحيحة. إننا نبني القوالب الصحيحة بالاستناد إلى دائرة البناء في القناة التي تصل المستقبل بالمرسل. وهنا نتذكر أن نطقنا ليس دائما منفذا جيدا لنظامنا الصوتي الخاص.

إن هذه المعلومات القيمة التي أكدها لنا L. Zabrocki لا يمكن قبولها بدون تحفظ. صحيح أن بناء القوالب لا يتم بدون مساهمة القناة التي تصل المرسل بالمستقبل، وأن الأطفال المحرومين من الاتصال بالأشخاص الذين ضبطوا اللغة لا يستطيعون تسلم اللغة بأنفسهم، أي أننا نتعلم اللغة في عملية الاتصال الاجتماعي، لكن قوالب النطق هي نتاج مشاركة المتعلم. فبناء قوالب الأصوات تتشكل من

خلال مساهمة دائرة بناء القوالب والتي تعمل في القناة الجارية من الفم إلى أذني المرسل، وكذلك بمشاركة القناة التي تصل الحزمة النطقية بالمركز اللغوي في الدماغ، الذي سوف نتحدث عنه.

الدائرة الثالثة للمراقبة تقوم بعملية التدقيق في تحويل Transformation الإيعازات العصبية النطقية، وهذه الدائرة تعمل في القناة التي تصل الحزمة النطقية بالمركز اللغوي في الدماغ. ويؤكد L. Zabrocki أن في هذه القناة تعمل فقط دائرة المراقبة، أما دائرة المعلومات النووية ودائرة توجيه المعلومات فهما معطلتان Blocked[20: P.11-13].

أما الحزمة الدماغية (المركزية) التحويلية فيصفها L. Zabrocki على النحو التالي: في هذه الحزمة تنجز مختلف أشكال التحويلات، وتخضع لعملية التحويل هذه ليس فقط الإشارات Signals وإنما أيضا الرموز اللغوية Language Symbols، كما يخضع هنا لعملية التحويل كل السلسلة الخطية للرموز اللغوية. إن هذا المركز يمتلك قوالب تحويلية خاصة، توظف في خدمة تحويل الإشارات وكل الرموز اللغوية. إلى جانب هذه القوالب التحويلية فإن هذا المركز يمتلك قوالب تخزين، حيث تخزن هنا كل التركيبات اللغوية، بما فيها المورفيمات والمفردات وجزء من العبارات المكررة، ولكن هذا المركز لا يخزن الموضوعات، وكذلك لا يخزن الجمل الثابتة، لكنها تخزن بشكل أو بآخر مضمون الجمل والموضوعات. كما أن التخزين هنا يكون صفة عامة حيث تمحى التفاصيل مع مرور الوقت وحتى جوهر مضمون الموضوعات، أي أن الإنسان ينسى ببساطة محتوى الموضوعات. ولتسهيل تذكر محتوى الجمل تستخدم طريقة السجع الشعري Poetic Rhyme لحفظ الموضوعات لفترة أطول وبشكل أدق. ولكن هذا لا ينطبق على النثر Prose.

يتكون هذا المركز للغوي من نقط تنظيم Disposition مراقبة وتوجيه للمعلومات، وتوجد هنا اللوغاريتمات الكلامية Algorithm Speech في ميدان محتوى الرموز اللغوية والإشارات. وأخيرا تنجز هنا مختلف أشكال التحويلات بمساعدة قوالب تحويلية مناسبة. إن مهمة المركز اللغوي ربما تكون هي بناء اللوغاريتم الكلامي والذي تظهر وفقا له مختلف التحويلات، بهدف بناء موضوعات ملموسة [20: P. 15].

ويحدثنا L. Zabrocki في دراسته عن المخزن الخارجي External Store، إذ يرى أن الكتابة تشكل أحد مظاهره التعبيرية الهامة دائما، وهو يعتقد أن الكتابة ينافسها اليوم أشرطة التسجيل والأفلام وذاكرة الحاسوب الآلي وما شابه ذلك، ويرى أن المخزن الخارجي تخزن فيه بشكل مباشر الاستمرارية الخطية للرموز اللغوية، ولا تخزن فيه بشكل مباشر منظومة النماذج اللغوية. إن هذه الوظيفة يقوم بها المخزن الداخلي.

وينهي L. Zabrocki ملاحظاته الخاصة بتحليل عمل منظومة الاتصال اللغوي الكلامية بالإشارة إلى موضوع الشفرة Code، وهو يميل إلى الاتفاق مع وجهات نظر علماء التحكم الذاتي الذين يتعاملون مع الشفرة بأنها قواعد تحويل الوعاء (المادة) Substantiation الناقلة للإشارة. ويؤكد العالم المذكور أن هناك ثلاثة شفرات تعمل في منظومة الاتصال اللغوي: الشفرة التحليلية Analytic Code، الشفرة

التركيبية Synthetic Code وشفرة المراقبة Supervision Code. إن الشفرة تستخدم في حديث المرسل، والشفرة التحليلة من قبل المستقبل، كما أن الشفرة التحليلة تستخدم من قبل المرسل كشفرة ضبط. أما بالنسبة للمستقبل فإن شفرة الضبط هي الشفرة التركيبية. إن الشفرة التحليلية هي شفرة أساسية Primary Code بالنسبة للشفرة التركيبية. ومن استطاع ضبط الشفرة التركيبية بالتأكيد يكون قادرا على ضبط الشفرة التحليلية.

ويتحدث L. Zabrocki عن منظومة الوعاء (الوسط) الكتابي الناقل Graphic Substantiation، حيث يقول بأن هذه المنظومة مرتبطة بشكل وثيق مع منظومة الاتصال اللغوي الكلامية. ويعرض عملية القراءة والكتابة بالشكل التالي:

نحن عندما نقرأ نستخدم الشفرة التحليلية كشفرة أساسية، وكالعادة نستخدم الشفرة التركيبية كشفرة مراقبة. فنقوم بتحويل الإشارات الكتابية إلى رموز كتابية، ومن ثم إلى أصغر الوحدات المجردة Phoneme وبالتتابع إلى أصوات Sounds.

وفي حالة القراءة الصامتة لا تحصل عملية تحويل الفونيمات إلى أصوات، لأن الإيعازات المنطقية تجري إلى القناة النطقية ولكنها لا تنفذ بصيغة حركات مناسبة للأعضاء الكلامية.

وعندما نكتب فإننا نقوم بعملية تحويل للمظهر الكلامي للغة إلى مظهر كتابي لها، ونقوم هنا باستدعاء المادة اللغوية والإشارية من المخزن الداخلي. أما في القراءة فإن المادة اللغوية تستدعى من المخزن الخارجي وهو اختلاف جوهري بين القراءة والكتابة.

وهذه المنظومات تختلف فيما بينها بطريقة أساسية، حيث تتعطل أو تغلق Blocked، أثناء الكتابة، عملية استدعاء المادة اللغوية من المخزن الداخلي لاغراض التنفيذ الصوتي.

وعندما نكتب نستخدم الشفرة التركيبية لمنظومة الاتصال اللغوي الصوتية وكذلك الشفرة التركيبية لمنظومة الاتصال اللغوي الكتابية. وبنفس الوقت نستخدم الشفرة التحليلية كشفرة مراقبة.

وفي عملية القراءة يستدعى المخزن الخارجي (الموضوعات المكتوبة)، حيث تحول الإشارات الكتابية إلى إشارات صوتية Graphic Signals. إن الرموز هنا لا تخضع للتغير، ولكن في بعض الأحيان تحصل بعض التغيرات الناتجة من انعدام التطابق بين القطع الكتابية Graphic Segments وما يناسبها صوتيا في المخزن الداخلي. وغالبا ما تختلف منظومة التشفير الداخلية قياسا إلى منظومة التشفير الخارجية في مجال المفردة.

ويؤكد L. Zabrocki أنه لا يوجد اتصال مباشر بين المخزن الداخلي الكتابي Internal Graphic Store والتنفيذ الكتابي في هيئة كتابة. فعندما يشرع المرسل بكتابة الموضوع فإنه يقوم بتحويل الإشارات الصوتية إلى إشارات كتابية، وهذه الأخيرة هي التي تنفذ الموضوع ماديا. إذن لا توجد منظومة منفصلة للاتصال اللغوي - الكتابي يمكن أن تتعارض مع منظومة الاتصال اللغوي الصوتية، أي أن الإنسان لا يستدعي من المخزن الداخلي نفس الرموز الكتابية لكي يحولها إلى إشارات كتابية. ولكن المخزن الصوتي يشترك هنا كمخزن أساسي. حيث يقوم

بوظيفة المخزن الداخلي الأساسي. ويعتبر هذا المخزن مخزنا أصليا Primary بالنسبة للمخزن الداخلي الكتابي.

ويمكن عرض هذا الموضوع بشكل آخر: فعند الأفراد ذوي الصمم الولادي مثلا، يقوم عندهم المخزن الداخلي الكتابي بوظيفة المخزن الأساسي، أي أنه يكون بمثابة مخزن أصلي.

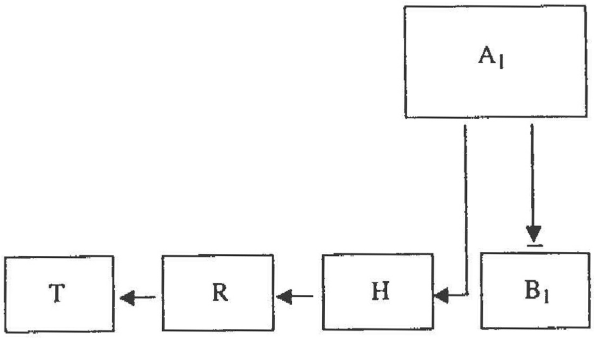
إن المخزن الكتابي الخارجي يقابله مخزن كتابي داخلي ملائم له يقوم بعمليات تخزين لأصغر الوحدات الكتابية Grapheme المجردة، والتي تعبر بدورها عن أصغر الوحدات الصوتية Phoneme، المورفيمات والمفردات وغالبا العبارات المكررة، أي كل العناصر التي يمتلكها المخزن الصوتي الداخلي. إن المخزن الكتابي الداخلي هو كالمخزن الداخلي الصوتي لا يخزن العناصر الكتابية مرتبة بصيغة جمل أو موضوعات، وقد يحصل ذلك عند الناس الذين يمتلكون ذاكرة بصرية Optical Memory خارقة، ولكن ما عدا هذه الحالات يبقى نطاق حفظ الاستمرارية الخطية للموضوعات محدودا.

وينشأ هنا أيضا تساؤل: هل الناس الذين يقرأون كثيرا ولديهم ذاكرة بصرية متطورة لا يستطيعون استخدام المخزن الكتابي كمخزن أساسي (أي أصلي). الإجابة هي أن هذه الحالة يمكن ان تحدث بحيث يبتعد المخزن الكتابي من دائرة تأثير الموقع الأساسي للمخزن الصوتي. وهنا أيضا نتسائل: هل نتجاوز في الكتابة التحويل الصوتي Phonic Trans-formation للوحدات اللغوية المختارة من المخزن الكتابي؟ [20: P. 17-19].

ويتحدث L. Zabrocki عن وظيفة الدوائر Circuits في عملية القراءة والكتابة، ففي اثناء القراءة الجهرية تكون دائرة المعلومات المراقبة والموجهة فاعلة في المسلك الذي يجري من الفم إلى الأذن. وعندما تكون القراءة الجهرية غير موجهة إلى المستقبل أو في حالة عدم الاهتمام بضبط استجابة المستقبل، فإن وظيفة مسلك المرسل - المستقبل غير فاعلة.

وفي عملية الكتابة، حيث المسلك Tract يجري من الدماغ إلى أصابع اليد، تنشط هنا ثلاثة دوائر، أي دائرة بناء القوالب وهي الدائرة الإضافية. وإلى جانب المسلك المذكور فهناك المسلك البصري Optical Tract، حيث تنشط فيه دائرة المراقبة والتوجيه. اذن نستخدم في عملية الكتابة دائرتي مراقبة، أولاهما تعمل في قناة الدماغ - الأصابع، والثانية في القناة البصرية. ويرى L. Zabrocki أن دائرة المراقبة البصرية هي دائرة مراقبة أساسية [20: P. 20-22].

الرسوم التالية توضح نماذج الكتابة، القراءة، والقراءة والكتابة معا.

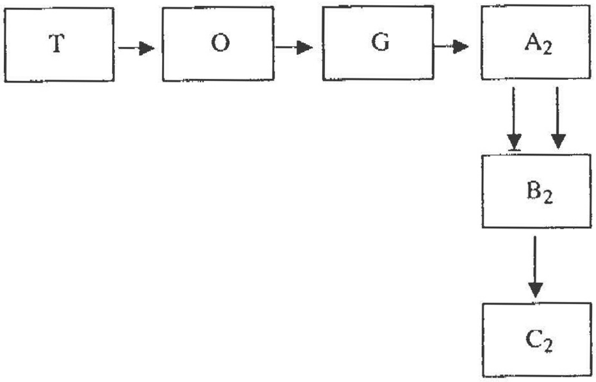


المخطط رقم 8 نموذج الكتابة

المصدر:

(L. Zabrocki, Cybernetyczny Uktad Komunikacji Jezykowej. "Logopedia" 1967 nr.7, Lublin, s. 18)

شرح الرموز: A1 = المخزن الداخلي. B1 = الحزمة النطقية المعلوماتية. H = حزمة تحويل الإشارة الصوتية إلى إشارة كتابية. --->| --- = قناة مغلقة (تكون هذه القناة فاعلة (غير مغلقة) عند القراءة الجهرية لموضوع مكتوب). R = تحويل الاشارة الكتابية إلى ايعازات حركية (حركات الاصابع). T = تحويل الاشارة الكتابية إلى موضوع Text.

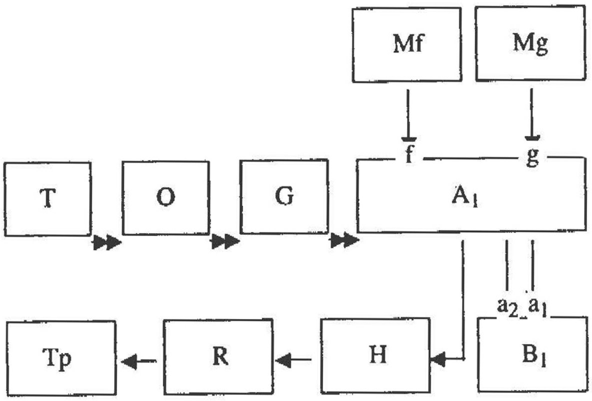


المخطط رقم 9 نموذج القراءة

المصدر:

(L. Zabrocki, Cybernetyczny Uktad Komunikacji Jezykowej. "Logopedia" 1967 nr.7, Lublin, s. 17)

شرح الرموز: T = موضوع مكتوب. O = حزمة تحويل الموجة الضوئية إلى قيمة مرئية visual value (بواسطة العين). G = حزمة تحويل الاشارات البصرية (المدركة بواسطة العين) والى رموز لغوية كتابية (الدماغ). A_2= حزمة تحويل القيمة الكتابية الى قيمة صوتية (الدماغ). B_2 = حزمة تحويل الرموز الصوتية (المشفرة بصيغة ايعازات عصبية) إلى قيمة نطقية، C_2 = حزمة تحويل القيمة النطقية الى قيمة اكوستيكية (مدركة سمعيا). ------>■ = تعطيل تنفيذ القيم النطقية (= القراءة الصامتة).



المخطط رقم 10 نموذج القراءة والكتابة

المصدر:

(L. Zabrocki, Cybernetyczny Uktad Komunikacji Jezykowej. "Logopedia" 1967 nr.7, Lublin, s. 18)

شرح الرموز: T = الموضوع. Mf = المخزن الصوتي. Mg = المخزن الكتابي. A1 = مجموعة الحزم التحويلية (في الدماغ) = الحزم المركزية. B1 = الحزمة النطقية التحويلية. H = تحويل الاشارة الصوتية إلى إشارة كتابية (تعود إلى الحزم التحويلية المركزية في الدماغ). R = تحويل الاشارة الكتابية إلى حركات كتابية (اليد). Tp = موضوع مكتوب. O = حزمة تحويل الموجة الضوئية إلى قيمة مرئية (العين). G = حزمة تحويل الاشارات المرئية الى رموز لغوية كتابية (الدماغ) -->-> -- المسلك البصري (موضوع ---> عين ---> الحزم المركزية التحويلية). f = القناة التي تنتقل العناصر من المخزن الصوتي. g = القناة التي تنقل العناصر من المخزن الكتابي، a1 = دائرة المعلومات الأساسية (النووية) الصوتية.

a2 = دائرة معلومات أساسية (نووية) مغلقة (معطلة). ---> = قنوات أخرى (مسالك).

لقد تركت أبحاث L. Zabrocki صدى واسعا في المنابر العلمية، كما خلقت دافعا قويا لذوي الاختصاص لتطوير محاولات العالم المذكور واكسابها مزيدا من الدقة والشمول (15).

سابعا ـ وظائف عملية الاتصال اللغوي:

من الطبيعي جدا التأكيد على أن أطراف عملية الاتصال (المرسل والمستقبل) وبشكل خاص المرسل يتصرفون بأسلوب مقصود، أي أنهم يرتبطون بعملية الاتصال اللغوي لبلوغ أهداف محددة. صحيح ان المرسل يمكن أن يقول كلمة أو يصرخ غير مكترث أن أحداً يسمعه أو لا يسمعه. ولكن حتى هذا السلوك يكون له هدف، كما هو الحال في عمليات التفريغ الانفعالي.

ويمكن القول ان الاستخدام الهادف للنشاط

الاتصالي يترتب عليه وجود وظائف محددة تقوم بها عملية الاتصال. إن الوظيفة التي تقترن للجميع باستخدام اللغة، هي الوظيفة المعلوماتية Information Function: أي إبلاغ الطرف الآخر حول الأشياء، الأشخاص، توصيل أخبار محددة أو أفكار معينة. إن نظرة دقيقة إلى هذه المسألة يتضح أنها ليست الوظيفة الوحيدة للنشاط الاتصالي على الرغم من أهميتها الاستثنائية، بل تكاد تكون في بعض الحالات هي الأهم. إن هذه الوظيفة التي أطلقنا عليها الوظيفة المعلوماتية تسمى الوظيفة الدالة أو المرجعية Referential Function.

نستطيع هنا أن نستخدم تصنيف Roman Jakob-sonلتحليل مختلف وظائف النشاط الاتصالي، ففي هذا التصنيف يستخدم العالم المذكور نموذجا يميز فيه المرسل والمستقبل. حيث يقوم الأول بنقل أخبار إلى الثاني، وهذه الأخبار مرتبطة بحالة أو بمضمون محدد Context. ولكي يكون النقل ممكنا فإن المرسل يجب أن يرتبط مع المستقبل بصلة ما. ولكي تتم هذه الصلة ويظهر النشاط الاتصالي إلى الوجود، لابد على المرسل والمستقبل ان يستخدما نفس الشفرة Code [4: P. 53-57]. المخطط التالي يوضح عناصر النشاط الاتصالي.

مضمون Context
أخبار News
مرسل ———— مستقبل
Sender — صلة Contact — Receiver
شفرة Code

المخطط رقم 11 يوضح عناصر النشاط الاتصالي

المصدر: (Jakobson R.: "Functions of language" In J.B.P.Allen; S. Pit Corder (red) : Readings for Applied Linguistics - London, Oxford 1975: University Press. vol. I. P. 53

وقد أكد جاكبسون بأنه لا توجد حالات يقوم فيها النشاط الاتصالي بتحقيق وظيفته اللغوية يقتصر فقط على عنصر واحد فقط من العناصر الستة المذكورة في المخطط، ولكن يمكن القول بأن النشاط الاتصالي يحقق عدة وظائف، من بينها الوظيفة السائدة.

وعلى ما يبدو للعديد من الناس أن الوظيفة السائدة لأي نشاط تخاطبي هي الوظيفة المرجعية، لكن هذه الوظيفة ممكنة التحقيق (اتفاقا مع المخطط) عندما يكون اهتمام أطراف عملية الاتصال منصبا حول المضمون Context، وحتى في هذه الحالة فبالإمكان أن تحقق وظائف أخرى.

أما إذا كانت النقطة المركزية في النشاط الاتصالي هي المرسل، أي وجهة نظره في المحتوى الذي يريد التعبير به، أو في قضايا أو انفعالات يرغب في استظهارها، ففي هذه الحالة نحقق وظيفة أخرى للغة هي الوظيفة التعبيرية Expressive Function. على سبيل المثال عندما يقول شخص لآخر: «إنها لفتاة رائعة»!

وإذا كان مركز الثقل في النشاط الاتصالي يندفع نحو المستقبل فتكون لدينا هنا الوظيفة الغائية Di-rective Function. وتحقيق هذه الوظيفة يأتي من خلال رغبة المرسل للتأثير في سلوك المستقبل، وخاصة في استخدامات صيغ الأمر، على سبيل المثال: اغسل وجهك يا علي وتستخدم هذه الوظيفة غالبا لتنظيم سلوك الأطفال. وهناك جانب آخر ممتع لهذه الوظيفة هو استخدام الطفل نفسه اللغة للسيطرة على سلوكه وهو التكلم بصوت مرتفع مع

نفسه أو ما يسمى بالمناجاة التعبيرية Expressive Monologue، على سبيل المثال: عندما يسير الطفل في طريق مظلم يتحدث مع نفسه ـ لا تخف يا محمد. ومع نمو الطفل ونضجه تتحول هذه المناجاة التعبيرية الى مناجاة داخلية Internal Monologue.

ولكي يفضي النشاط الاتصالي بصورة عامة إلى نتيجة فإن المرسل يجب أن يعقد الصلة مع المستقبل ويحافظ عليها في زمن الإرسال. فاستخدام عبارات ـ «تفضل»، «أسمعك» تعبر عن الرغبة في عقد الصلة، أو أن الصلة عقدت، وبمعنى آخر فإن عقد الصلة هو جذب المستقبل قبل بدء الإرسال.. ويوجد في الكثير من ثقافات الشعوب، وفي ثقافتنا العربية أدب عام لعقد الصلة، على سبيل المثال: استخدام كلمات: عفوا، من فضلك، لو سمحت، وهكذا. وحتى في بعض الأحيان حينما تصادف شخصا غريبا يسير معك في السلم، وحتى تبدي اهتماما به فإنك تقوم معه ببعض الدردشة والتي لا تعبر عن أي شيء جوهري تقوم بإيصاله اليه. ويكون الهدف الوحيد هو عقد الصلة. ففي الحالات المذكورة أعلاه يقوم النشاط الاتصالي بتحقيق وظيفة أخرى هي تبادل المشاعر Phatic Communion Function.

وإذا كان النشاط الاتصالي يتركز على الإرسال نفسه (المعلومات نفسها)، فعند ذلك نتحدث عن الوظيفة الشعرية للغة Poetic Function. وتستعمل اللغة في هذه الوظيفة لأغراض المتعة الخالصة التي تزودنا بها. وتنفذ هذه الوظيفة من خلال مختلف الاشعار عديمة المعنى Nonsensical وكذلك اللعب بالمفردات، إلى آخره.

أما الوظيفة الأخرى للنشاط الاتصالي في وظيفة اللغة الواصفة Metalinguistics. هي أن نتحدث عن هذه الوظيفة عندما يكون النشاط الاتصالي متمركزا حول الشفرة اللغوية، أي عندما نتسخدم اللغة للتحدث عن لغة ما، فعلى سبيل المثال، في تلقين اللغة الأجنبية، عندما نقوم بشرح معاني الكلمات، وتوضيح الأسس القواعدية، وكذلك تنفيذ هذه الوظيفة في شرح لغة الأم، عندما نسأل الطالب مثلا: ماذا تعرف عن مفهوم «أفعال الكلام». ويمكن توضيح وظائف النشاط الاتصالي بالمخطط الآتي.

المرجعية Referential

Expressive　　الشعرية　　Poetic　　Directive

التعبيرية ________________ الغائية

Phatic Communion

تبادل المشاعر

اللغة الواصفة Metalinguistics

مخطط رقم 12 يوضح وظائف النشاط الاتصالي.

المصدر:

(Jakobson R. : "Functions of language" In: J.B.P. Allen, i S.Pit Corder (red): Readings for Applied Linguistics. London; Oxford 1975: University Press, vol. I.P.57).

إن وظائف النشاط الاتصالي التي تم ذكرها في مخطط جاكبسون لا تعني نهاية الحديث عن وظائف اللغة، بل هناك وظائف أخرى لاتزال مركز اهتمام علم اللغة الاجتماعي، كالوظيفة التميزية (التعريفية) Identification. وتعني هذه الوظيفة، أننا نستطيع من خلال أسلوب المرسل في التحدث أن نقف على حالته الصحية والنفسية والمزاجية، ولا يمكن وضع هذه الوظيفة في إطار الوظيفة التعبيرية [13:P.80-85].

وعندما يكون السلوك اللغوي نشاطا لذاته، وخاصة في الديانة المسيحية الكاثوليكية، كأن نقول: «يا مارك أعمدك باسم الأب والإبن والروح الطاهرة. أمين». حيث المرسل هنا لا يخبر عن ماذا سيحدث ولكنه ينجز نشاطا محددا. وقد أطلق J.L. Austin على هذا النوع من النشاط اللغوي الفعل الكلامي Speech act [1: P.37-52].

ثامنا ـ مظاهر الاضطراب في منظومة الاتصال اللغوي:

إن مظاهر الاضطراب في النشاط الاتصالي تتلخص في جانبين أساسيين: الأول هو النقص في مهارة بناء الموضوع Text، والثاني عدم الاستقبال الصحيح له. أي بمعنى آخر هي اضطرابات خاصة بالمرسل وأخرى بالمستقبل، وكلا الاضطرابين يؤديان إلى عدم تشكيل الموضوع بصورة سليمة، سواء من حيث البناء أو من حيث الفهم.

ونستند هنا في تشخيص المظاهر الاضطرابية، في بعدي الإرسال والاستقبال، إلى النتاج الرئيسي لعملية الاتصال ألا وهو الموضوع Text (16). ويتكون الموضوع من ثلاثة عناصر هي: المحتوى Con-tent والصيغة اللغوية Language Form والوعاء الناقل (المادة المجسدة) Substantiation. وعليه يجب التمييز بين ثلاثة مجموعات من اضطرابات الاتصال اللغوي: اضطرابات المحتوى، اضطرابات اللغة، واضطرابات الوعاء الناقل في مستوييه العلوي التطويحي (الفوقطعي) Suprasegmental والمقطعي (الأصوات) Segmental.. أما المجموعة الرابعة من الاضطرابات فهي اضطرابات عملية الفهم (الاستقبال) أي الخلل في استقبال الموضوع الشفوي أو المكتوب (أي اضطرابات السمع والبصر).

أما طبيعة الاضطرابات في المجموعات الأربع المذكورة أعلاه فيمكن إيجازها على النحو التالي (17) [6: P.5-13].

1 ـ اضطرابات المحتوى Contens Disorders: وتشتمل على:

أ ـ اضطراب عملية التعميم والتجريد، ب ـ انعدام المنطق في بناء الموضوعات (تطاير الفكر، لزوجة التفكير، مؤقتية التفكير، فرط رد الفعل والانزلاق)، جـ ـ اضطراب التوجيه في التفكير (اضطراب الوظيفة المنظمة للتفكير، اضطراب الوظيفة النقدية، تعدد الخطط والطرق، الفصل والتفكيك).

2 ـ اضطراب اللغة Language Disorders

وتشتمل على: البكم Dumbness، الحبسة (الأفازيا) Aphasia، عدم اكتمال نمو كلام الأطفال Child Speech Incompletness التي تسمى أيضا الحبسة الطفولية Alalia، اختلال الأصول القواعدية Grammat-ical System Disorders، والهفوات Lapses.

3 ـ اضطرابات الوعاء الناقل Substantiation Dis-orders

أ ـ في المستوى العلوي التطويحي (الفوقطعي) ويشمل: التهتهة Stuttering، الخنخنة Rhinolalia، نطق وصوت فاقدي الحنجرة Articulation and voice of Laryngektomierter، فقدان أو اضطراب القدرة على إدراك وإعادة تكوين البناء الإيقاعي Rhythmic Struc-ture، اضطرابات الصوت Voice Disorders، السرعة الزائدة في الكلام Cluttering والبطء الزائد في الكلام Bradylalia.

ب - اضطرابات على المستوى المقطعي، وتشمل:

عسر النطق Dyslalia، عسر النطق السمعي Audio-genic Dyslalia، عسر النطق الحركي Motric Dyslalia، عسر النطق الوظيفي Functional Dyslalia، عسر النطق بسبب عطل في المراكز والمسالك العصبية Anarthria (عسر كلي) أو عسر جزئي Dysarthria، وكذلك عسر النطق المتشابك أو المتصل Connected Dyslalia أما ما يقابل عسر النطق في القراءة والكتابة فهي: صعوبات الكتابة Cacography وصعوبات القراءة Cac-olexia.

ج - اضطرابات في المستويين التطويحي والمقطعي معا، وتشتمل على عسر النطق المتزامن مع خنخنة أنفية Rhinophony والصمت Mutism أو الانغلاق، نتيجة وضع نفسي شاذ.

4 - مظاهر الاضطراب في عملية الاستقبال:

يوجد أكثر من تصنيف لمظاهر الاضطراب، في مستوى الاستقبال، ترتبط أساسا بالهدف والأساس الذي يعتمد عليه ذلك التصنيف، فتصنف إما وفقا لمكان الأذى الذي يلحق بالمحلل السمعي: فقد يكون في الأذن الوسطى أو الداخلية، في العصب السمعي أو في القشرة المخية. ولأغراض وقائية Prophylactic يمكن تصنيف الاضطرابات بالاستناد إلى مسبباته حيث نميز بين الصم الوراثي والولادي والمكتسب أثناء الولادة وبعد الولادة وكذلك في فترات نمو الفرد المختلفة. ولكن التصنيف الشائع للاضطرابات السمعية هو التصنيف الذي يستند إلى درجة السمع مقاسا بوحدة قياس السمع - الديسبيل Decibel (18). ويستخدم هذا المقياس لاعتبارات العلاج الطبي والعلاج الطبيعي لأغراض الاستفادة القصوى لما بقى من السمع والحد من تأثير الإعاقة السمعية.

والتصنيف الآتي يستند الي تحديد مستوى الإعاقة مقاسا بالديسبيل (dB) وفي ضوء ارتباطها بمستوى الإرسال عند الشخص نفسه (أي تأثير السمع على الكلام، وهو تصنيف معدل عن تصنيف K. Kirejczyk. ويمكن إيجازه فيما يلي [16:P.100-101].

1 - الأشخاص الذين تتضح لديهم درجة فقدان السمع بعد الفحص بمقدار 20dB. فإن كلامهم ينمو بشكل طبيعي، وغالبا ما يختلف عن كلام الأشخاص العاديين؛

2 - الأشخاص الذين تكون لديهم درجة فقدان السمع بمقدار 40dB هؤلاء ينعدم عندهم السمع من مسافة بعيدة، وكلامهم غير مكتمل الوضوح كما يتميز في أغلب الأحيان بعيوب نطقية لبعض الأصوات الصامتة.

3 - الأشخاص الذين يكون لديهم فقدان السمع بدرجة 60dB يسمعون ويفهمون الجملة المعبر عنها بصوت مرتفع، كما أن كلامهم غير نام. وعدد كلماتهم محدودة ويتميزون كذلك بعدم وضوح وتشكيل النطق.

4 - الأشخاص الذين تكون لديهم درجة فقدان السمع من 70-90 dB. فإن الاتصال الشفوي معهم يكاد يكون غير ممكن تقريبا حتى في حالة استخدام أجهزة سمعية معززة (مقوية).

5 - الأشخاص ذوو الصمم الكامل وتتجاوز عندهم درجة فقدان السمع 90 dB. فلن يسمعوا أكثر الأصوات ارتفاعا ولا أية كلمة، ويكون

التخاطب معهم ممكنا بطريقة «قراءة الشفاه» وأبجدية الأصابع (لغة الإشارة).

إذا كانت النتائج المباشرة للدراسة تكمن في فهم عملية التخاطب اللغوي - الشفوية من حيث: جذورها الفسلجية والنمائية والشروط الواجبة لحدوثها ومن ثم الوظائف التي تؤديها هذه العملية والمظاهر الاضطرابية التي قد تعيقها في تأدية مهماتها، فإن ذلك يذكرنا من جانب آخر بالتأثير العظيم للكلام على تطور الأنشطة والفعاليات الاعتيادية للمجتمعات البشرية. فحيثما يلتقي الناس فإنهم يطورون نظاما للتخطاب، مستندين في ذلك إلى مقومين أساسيين لهذه العملية: أولهما المقوم الفسلجي ومرونته الهائلة والذي يشترك فيه جميع أفراد الجنس البشري، وثانيا الجانب الاجتماعي (البيئي والثقافي) الذي يحدد محتوى الأول ويزج به في دائرة النشاط. ويتنوع الثاني تنوعا هائلا ومعقدا يعكس درجة تعقد المجتمعات وثقافتها المختلفة. وكلا الجانبين (الفسلجي والاجتماعي) يشكلان مقدرة إنسانية خالصة، منحت الإنسان أهليته لتصدر سلم التطور البيولوجي والوقوف على قمته. ونستطيع أن نقول بكل ثقة إن تطور الحضارات الإنسانية وتمازجها كان ثمرة لمقدرة الإنسان على المشاركة في التجارب الانسانية، وفي تبادل الأفكار ونقل العلوم والتكنولوجيا - أي من خلال مقدرة الإنسان على مخاطبة الآخرين. وتلك هي مهمة المنظومة الكلامية.

وإذ ينهي الباحث دراسته هذه فإنه يشعر بالحرج لعدم ايفائه الكامل لموضوع ملتهب في ساحة اللسانيات المعاصرة، وذلك ليس فقط لأن الخبرة الفردية مهما تكن غنية ومتمرسة فهي ليست إلا شذرات في بحر التجربة والمعرفة الشاملة - ولكن ذلك ارتبط بظروف خارجة عن إرادة الباحث، هي في حد ذاتها تعكس الحالة المرة التي يعيشها الباحث العربي.

فعلى الرغم من حسن الحظ من تواجد الباحث على مقربة من مصادر المعرفة وخبرة الميدان أثناء الإقامة في بولنده، فإن ورشة الباحث العملية (المكتبة والأرشيف الخاص) فقيرة بسبب انعدام الاستقرار العلمي والمعيشي والأسري، فقد توزعت ورشته بين ليبيا وبولنده، وما أن أخذ يلتمس خيوط الاستقرار العلمي في البلد الاول، حتى بدأ واقع جديد ودورة ترحال جديدة، بدأ معها يستعد لحزم أمتعته والمغادرة، وهو يدون آخر سطور الدراسة المرفقة. أما الجانب الآخر فهو الشحة الشديدة للمراجع في مكتباتنا الجامعية، التي تناولت موضوع الاتصال اللغوي. ولذا يرى الباحث ان إسهامات الآخرين وملاحظاتهم من بلاد عربية مختلفة سوف تزيد الباحث استبصارا للدراسة والبحث في محاولات قادمة.

الهوامش:

(1) على الرغم من ان البحث مخصص فقط لظاهرة التخاطب اللغوي الشفوية إلا ان الباحث تناول بعض الشيء منظومة الاتصال اللغوي الكتابية، بقدر ما يتعلق الأمر بالترابط الوثيق بين كليهما.

(2) تالف الجهاز العصبي بصورة عامة من قسمين مستقلين نسبيا ولكنهما متكاملان من حيث الوظيفة، هما الجهاز العصبي المركزي والجهاز العصبي المحيطي. ويتكون الاول من الدماغ Brain والحبل الشوكي Spinal Cord ويتكون الدماغ بدوره

من عنق الدماغ Brain Stem (الذي يشتمل على: الدماغ المتوسط Midbrain، الجسر Pons، النخاع المستطيل Medulla Oblangata والمخ البيني Diencephalon)، المخيخ Cerebellum والمخ CerebralHemispheres.

وينقسم المخ إلى نصفين كرويين يفصل بينهما شق طولي عميق هما النصف الأيمن والنصف الايسر، ويقابل كل منهما الآخر. وكل نصف كروي مخي ينظم جانب الجسم المعاكس له. ويوجد نسيجان في المخ هما: القشرة المخية Cerebral Cortex وهي المادة الرمادية التي يظهر على سطحها أخاديد وتلافيف تعمل على زيادة سطح المخ وهي تحوي الخلايا العصبية، ويعزى إلى نموها العظيم في الإنسان تميزه على ما دونه من أنواع الفقريات من ناحية الذكاء والملكات العقلية. أما النسيج الثاني، وهو المادة البيضاء المكونة من المسارات الذاهبة إلى القشرة أو الخارجة منها. ويتكون المخ من أربعة ازواج من الفصوص Lobes (أي لكل نصف من المخ أربعة فصوص) هي:

1 ـ الفص الامامي Frontal Lobe

ويقع في الجزء الامامي من المخ يفصله عن الجزء الخلفي أخدود رولاندو ويفصله عن الجزء الأسفل أخدود سيلفيوس، وهو مركز الوظائف العقلية كالحكم والتقدير والدليل المنطقي والتدبير ورسم الخطط، والجزء الخلفي منه يختص بالحركة الإرادية. وفي نصفه الايسر (عند الغالبية العظمى من الناس) تتموضع المنطقة الحركية للكلام (منطقة بروكا).

2 ـ الفص الجداري Parietal lobe

ويقع في الجزء الخلفي من المخ في الجهة العليا من أخدود سيلفيوس، وهو متخصص ونطلق عليه الإحساس غير المتخصص (الإحساس بواسطة اللمس، الإحساس بالوضع، بعض عناصر الإحساس بالالم والإحساس بالتغيرات في درجة الحرارة).

3 ـ الفص الصدغي Temporal Lobe

ويفصله عن الفصين الآنفي الذكر أخدود رولاندو وسيلفيوس وهو متخصص في السمع، وبشكل خاص في المناطق التي تم ذكرها في ثنايا البحث.

4 ـ الفص القفوي Occipital Lobe

وهو أصغرها حجما ويقع في المؤخرة إلى الجهة السفلى من المخ. وينحصر اختصاص هذا الفص في استقبال السيالات البصرية وتقديرها وتقويمها [الباحث: 80-73 .24:pp].

(3) وهي الاصوات التي ينطلق الهواء عند نطقها من الفم والانف معا. على سبيل المثال (من الاصوات البولندية) a,e [الباحث].

(4) ويقصد بالتناظرات هو تكوين صيغ ومفردات بالاستناد إلى نماذج صيغ ومفردات أخرى (دون اشتراك التطابق في الدلالة). على سبيل المثال (من اللغة البولندية)، من صيغة Syn (ابن) نشكل صيغة Synowi، ونجد عند الاطفال بشكل خاص، فمثلا من صيغة Pan(سيد) ـ Panowi (انعدام المعنى الدقيق). ومن نماذج المفردات نكون مفردات اخرى، فمثلا من المفردة pokojowe (صفة للسلام) ـ Kuchniowe وهي مفردة لا معنى لها قد تستخدم من قبل الاطفال للإشارة الى الورود مثلا [الباحث: 7: p.272].

(5) ويقصد بالتلويث هو تكوين مفردة جديدة خاطئة من خلال دمج (تقاطع) جزئي مفردتين متماثلتين في مفردة واحدة. فعلى سبيل المثال (من اللغة البولندية) تقاطع كلمتي pstry (متعدد الالوان) X Srokaty (متعدد الالوان) = pstrokaty [7: p.276].

(6) التبادل الخاطىء هو وضع صوت محل آخر تبادليا في نفس الكلمة خطأ، مثل قول الطفل (تكاب) بدلا من (كتاب) او aks بدلا من ask [28:p.168].

(7) للحبسة الكلامية (الافازيا) عدة تصنيفات وأنواع (كما ورد في المخطط رقم 4) ولكتاب مختلفين. ونستند هنا في تعريف الحبسة إلى العالم L. Kaczmarek (وهو الاقرب إلى الدراسة المرفقة) حيث يؤكد العالم المذكور ان الحبسة إما كلية aphasia او جزئية dysphasia ـ وتعني فقدان المقدرة على بناء (الحبسة الحركية الكلية او الجزئية motoric aphasia, motoric dysphasia) واستقبال الموضوع الشفوي (الحبسة الحسية الكلية أو الجزئية Semsory aphasia, Sensory dysphasia) نتيجة عطل أو تغير في مناطق مخية محددة. وفقدان مقدرة البناء هذه يمكن أن تشمل مهارة الاختيار من المخزن اللغوي الرموز الضرورية (الصوتية، الصرفية، المفردات) واستخدامها في ترتيب منطقي وربطها وإنتاج الوعاء الناقل الذي يجسد نقل الفكرة، او كما يقول جاكبسون: الاختيار والتوليف [6:p.8].

(8) وتعني الاذن الكلامية ـ القدرة على التميز والفرز الدقيق للعناصر الصوتية في الكلام، فيما إذا كانت هذه العناصر مناسبة أم غريبة. وهي ذات صلة بعمليتي التحليل والتركيب السمعي [7:p.280].

(9) وهو علم دراسة آلية الضبط في الآلات وفي الكائنات الحية وهو وثيق الصلة بالهندسة وعلم النفس والفيزيولجيا والاقتصاد والطب [23:p.123; 27:p.99].

(10) المقصود بالتغذية الراجعة ـ على سبيل المثال في الماكنة أو المنظومة الالكترونية هي طريقة في تنظيم المدخل بربطه بالمخرج

وهكذا فإن المنظم الحراري في بيت ما ينظم المدخل بالاستجابة السلبية إلى زيادة المخرج. أما بالنسبة لعملية الاتصال اللغوي فهي تعني (على المستوى الفردي) أن المرسل هو في نفس الوقت مستمع لنفسه، حيث يسمع حديثه أثناء الإرسال ويقوم بإجراء التعديلات الذاتية عليه. أما على المستوى الاجتماعي فهي رد فعل المستمع للمتكلم من انفعالات وملامح وإشارات وتعليقات تؤدي بدورها إلى ضبط فعل الإرسال لإنجاز أهدافه المحددة. وبصورة عامة فإن التغذية الراجعة تعني أية معلومات راجعة من مصدر ما تفيد في تنظيم السلوك وضبطه [الباحث؛ 27;p.149 ;28:p.94].

(11) تعتبر دائرة المعلومات الأساسية دائرة رئيسية، حيث يتم من خلالها تأثير النظام الموجِّه في النظام الموجَّه. أما بقية الدوائر (دائرة المراقبة والتوجيه) فإنها تقوم بنقل المعلومات لخدمة النشاط المناسب للدائرة الأولى أي أن معلومات الدائرة الثانية والثالثة كما يقول ـ L. Zabrocki ـ هي بمثابة معلومات واصفة (معلومات ما ورائية) Metainformation لأنها تحمل لنا المعلومات حول موضوع دائرة المعلومات الأساسية. ففي عملية التدريس ـ على سبيل المثال ـ يقوم المدرس بتشغيل دائرة المعلومات الأساسية (بإرسال معلوماته الخاصة حول مادة الدرس المعني إلى الطلاب)، وتكون الاختبارات المختلفة وإجابات الطلبة واستجاباتهم السلوكية هي بمثابة دائرة مراقبة، حيث تقوم بإخبار المدرس عن مدى استيعاب المعلومات المرسلة إليهم. ويقوم المدرس في ضوء المعلومات التي حصل عليها بتعديل أسلوب تدريسه أو تقديم شروحات إضافية. وتقوم بهذه المهمة دائرة المعلومات الأساسية مع دائرة التوجيه [الباحث؛ 21:p.137].

(12) ونعني بالمنظومة الخطية هو تتابع المكونات اللغوية الواحدة بعد الأخرى للموضوعات المُرسَلة بمختلف أشكالها: شفوية أم كتابية، بشكل خطي وفقا لترتيب معين وهذه سمة تنطبق على اللغة في المستويات الصوتية (في حالة الكلام) والصرفية والنحوية والدلالية [الباحث؛ 28:p.155].

(13) ويقصد بالتركيب المغلق هو تركيب غير قابل للتوسع عن طريق التعويض أو الإضافة، كما هو الحال بالنسبة للأصوات والجانب الموسيقي في اللغة (النغم، النبر، الايقاع) [الباحث؛ 28:p.44].

(14) التركيب المفتوح هو تركيب يمكن توسيعه بالتعويض أو بإضافة عناصر جديدة إليه. ويشمل مثلا المفردات والتعبيرات مثل: the man الذي يمكن أن يصبح the very tall man [الباحث: 28:p.193].

(15) لقد خضعت مفاهيم وآراء L.Zabrocki إلى محاولات جديدة لإعطائها صفة أكثر ملموسية، وخاصة المحاولات التي شملت المخططات الخاصة بعملية التخاطب اللغوي التي تم توضيحها. وقد تناول الباحث محاولات L. Kaczmarek في هذا الميدان في دراسة تفصيلية سابقة [26].

(16) يعرف علم اللسانيات المرضية Logopedy الكلام من منظورين: فردي واجتماعي. فمن وجهة النظر الاجتماعية فإن الكلام هو نشاط في عملية التخاطب اللغوي الشفوي. أما من الناحية الفردية فإنه عملية بناء Construction واستقبال Reception للموضوع Text. ويسمح لنا التعريف الأخير بفرز أربع عناصر أساسية مكونة للكلام، هي:
اللغة Language، التكلم Talking، الموضوع Text والفهم والاستقبال Reception. وإن كل عنصر من هذه العناصر هو ذو مغزى هام للجوانب التطبيقية لعلم اللسانيات المرضية. حيث أن التحليل الدقيق لنتاج عملية التكلم، ونقصد به الموضوع الشفوي Text، يعتبر أساس عملية التشخيص لوحدات الاضطرابات اللغوية. وبالتالي فإن مستوى الدقة لنوعية وتركيبة الموضوع المُرسَل ممكن أن يؤكد لنا سلامة أو عدم سلامة مكونات الكلام ـ وقد شرح الباحث ذلك بالتفصيل في دراسة سابقة [26].

(17) لقد تناول الباحث هذا التصنيف للاضطرابات اللغوية بالإضافة إلى تصنيفات أخرى بالتفصيل في الدراسة السالفة الذكر [26]. وقد آثرنا هنا باختصار شديد تصنيف العالم L. Kaczmarek المؤسس الأول لمدرسة اللسانيات المرضية في بولنده، نظرا لاقترابه الشديد من موضوع البحث المرفق.

(18) الديسبيل وهي وحدة قياس الشدة الصوتية، ويرمز لها dB. وهي لا تشكل وحدة قياس ثابتة مثل المتر والغرام. فعندما نقول أن الشدة الصوتية لموجه ما هي ديسبيل واحد فإننا نعني فقط أنها أكبر من شدة صوتية أخرى بعدد ثابت ومحدد. أما بالنسبة لقياس القدرة السمعية فيكون ذلك بواسطة أجهزة تسمى المسماع Audiometer، وهي أجهزة اما تكون فردية أو جماعية. وبخصوص الجهاز الفردي (وهو الأكثر شيوعا) نستطيع أن نحصل بواسطته على رسم بياني لكل أذن على حدة ثم نقارن بالمستوى المتفق عليه للفرد، حيث نقوم بضبط القرص الخاص بالذبذبات على نقطة معينة ولتكن نقطة البداية 1024 ذبذبة في الثانية، ثم نحرك المفتاح الخاص بوحدات الصوت ـ الديسبيل dB وهو موجود في الجهة المقابلة للقرص الدال على الذبذبات، من أسفل الى أعلى (وحدات الصوت مقسمة من 10 ـ 100 dB) وعند سماع المختبر للصوت الحادث نطلب منه أن يرفع يده للدلالة على أنه يسمع، ويحسن أن تجرى التجربة أكثر من مرة قبل تسجيل درجة النقص في القدرة السمعية على البطاقة الخاصة بذلك، ثم تعاد التجربة على الذبذبات الأخرى التالية: 2048، 4096، 1892 وهي كلها ذبذبات من النوع المعروف (High-Pitched Sound) وبعد ذلك تقاس الذبذبات (Low-Pitched) مرموزا لها بالأرقام: 512، 206، 128: ان درجة الصوت Pitch تتوقف على عدد الاهتزازات في الثانية، فإذا زادت الاهتزازات أو الذبذبات على عدد خاص ازداد الصوت حدة، وبذا تختلف درجته. وعدد الاهتزازات في الثانية يسمى في الاصطلاح الصوتي التردد Frequency، فالصوت العميق عدد اهتزازاته في الثانية أقل من الصوت الحاد [الباحث: 29: p.116].

المـراجـع

1 - Austin, J.L. : "Speech acts". In : J.P.B. Allen : S.PitCorder (red.) : Readings for Applied Linguistics. London 1975 : Oxford University Press, PP.37-52.

2 - Bielajew B. : Zarys Psychologii nauczania Jezyków obcych. Warszawa 1969 : PZWS.

3 - Clark, H.H. : Clark, E.V. : Psychology and Language : An Introduction to Psychcholinguistics. New York, Chicago etc. 1977 : Harcourt Brace Jovanovich.

4 - Jakobson R. : "Functions of language". In : J.B.P. Allen, : S. Pit Corder (red.) : Readings for Applied Linguistics. London, Oxford 1975 : University press, vol. I. PP.53-57.

5 - Kaczmarek L. : Cyberntyczne Podstawy Ksztattowania mowy w gtuchych. "Logopedia" 1969 nr. 8/9. Lublin, SS-3-15.

6 - Kaczmarek L. : Korelacyjna klasyfikacja Zaburzein Stownego: Pisemnego Porozumiewa - nia sie. "Logopedia" 1975 nr 12. Lublin, SS-5-13.

7 - Kaczmarek L. : Nsze dziecko uczy sie mowy. Lublin 1977 : Wyd. Lub.

8 - Krashen, Stephen D. : Second Language Acquisition and Second Language Learning. Oxford, New York etc. 1981 : Pergaman Press.

9 - Kurcz. I. : Jezyk a psychologia. Warszawa 1992 : WSIP.

10 - Linder G. : Próba Okreslenia efektu Komunikacji w Logopedii. "logopedia" 1971 nr Lublin, SS-3-15.

11 - Marusszewski M. Mózgowe mechanizmy zachpwania" W T. Tomaszewski (red.) : Psychologia. Warszawa 1976 : SS-75-126;

12 - Maruszewski M. Mowa a mózg "zagadnienia neuropsychologiszne". Warszawa 1970 : PWN.

13 - Marton W. Nowe horyzonty w nauczaniu Jezyków obsych. Warszawa 1976. WSIP.

14 - Milewski T. Jezykoznawstwo. Warszawa 1969. PWN.

15 - Mineczakiewicz E. : Logopedia. Kraków 1990. Wyd. Nauk. WSP.

16 - Sekowska Z. : Pedagogika Specjalna, Warszawa 1985. PWN.

18 - Whitaker H.A. "Bilingualism : a neurolonguistics Perspective". In W. Ritchie (red) : Second Language Acquisition Research : Issues and implications. New York, San Francisco, London : Academic Press 1978, PP-21-32.

19 - Wierzchoska B. : Wymowa Polska, Wyd. 2, Warszawa 1971. PZWS.

20 - Zabrocki L. Cybernetyczny uktad komunikacji Jezykowej. "Logopedia"1967 nr. 7 Lublin. SS-3-25.

21 - Zabrocki L. "kodematyczne Podstawy teoriinauczania Jezyków obcych. Jezykoznawstwa strukturalne a teoria nauczania Jezyków obcych" W : F. Grucza (red.) : Polska mysl glottodydaktyczna 1945-1975. Warszawa 1979. PWN, PP. 133-164.

22 ـ أليكسو ـ مكتب تنسيق التعريب ـ المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات (انكليزي ـ فرنسي ـ عربي) مطابع أليكسو 1989 ـ تونس.

23 ـ د. حامد زهران، قاموس علم النفس (انكليزي ـ عربي)، عالم الكتب 1987 ـ القاهرة.

24 ـ د. حكمت عبد الكريم فريحات، تشريح جسم الانسان، دار الشروق للنشر والتوزيع 1992 ط.3 ـ عمان.

25 ـ د. عامر جبار صالح، « مخططات الاصوات العربية » مجلة اللسان العربي، العدد 36 سنة 1992.

26 ـ د. عامر جبار صالح، « اللسانيات المرضية : تأملات في النظرية مع التركيز على أسس تصنيف الاضطرابات اللغوية »، مجلة اللسان العربي، العدد 38 سنة 1994.

27 ـ د. فاخر عاقل، معجم العلوم النفسية (انكليزي ـ عربي) دار الرائد العربي 1988 ـ بيروت.

28 ـ د. محمد علي الخولي، معجم علم اللغة النظري، مكتبة لبنان 1982 ـ بيروت.

29 ـ د. مصطفى فهمي، أمراض الكلام، دار مصر للطباعة 1977 ط.4 ـ القاهرة.

30 ـ د. نوري جعفر، اللغة والتفكير، مكتبة التومي 1971 ـ الرباط.

31 ـ د. نوري جعفر، الفكر طبيعته وتطوره، مطبعة وأوفسيت التحرير 1977 ـ بغداد.

II ـ أبحاث مصطلحية

*** المصطلحية والمعجم التقني**

بقلم / ج. ساجر

ترجمة د. / محمد حسن عبد العزيز

(جامعة القاهرة وجامعة الكويت)

*** التعريف المصطلحاتي**

الأستاذ / حلام الجيلالي

(معهد اللغات بجامعة سيدي بلعباس ـ الجزائر)

*** مسيرة الإصطلاح الطبي في الغرب**

الأستاذ / ادريس بن الحسن العلمي

(االمملكة المغربية)

*** الدكتور أمين المعلوف وجهوده المعجمية المتخصصة في علمي الحيوان والفلك**

د. / محمد علي الزركان

(كلية الآداب والعلوم الانسانية بجامعة حلب)

*** ظاهرة التعريب اللفظي وأثرها في المعجم المختص**

الأستاذ / جواد حسني سماعنه

(مكتب تنسيق التعريب)

المصطلحية والمعجم التقني(*)

بقلم : ج . س . ساجر
ترجمة د . / محمد حسن عبد العزيز(**)

مقدمة :

ربما يكون عنوان هذه الورقة سؤالا أو قولاً مأثوراً أو عبارة مستفزة أو أُحْجِية . أما هدفها فهو توضيح الفرق بين:

1 ـ المصطلحية Terminology

و2 ـ المعجم اللغوي المتخصص Special - Languge Lexicography الذي يعد المعجم التقني Technical dictionary فرعاً منه .

وعندما نمضي قدما سوف ألخص دعاوى المصطلحية في أن تكون علما مستقلا .

ومن غير المرضيِّ تماما أن تبدو المصطلحية عاجزة عن حل مشكلتها المتمثلة في تعدد مدلول مصطلحاتها الخاصة، فكثيرا ما تستخدم عبارة (المعجم التقني) مرادفة لكلمة (المصطلحية) التي ربما تكون بدورها مرادفة للعبارة (المعجم اللغوي المتخصص) أو ما أطلق عليه حديثا جداً ـ وإن لم يكن مقبولاً تماماً ـ Terminography، ومع هذا فإن هذه المعاني المتعددة لا تغطي تماماً المجال الدلالي للكلمة .

والمصطلحية ـ بأوسع معنى (أي الفرع المختص بالمصطلحات) ينبغي أن تعد منطقة خلاف بين المصطلحيين والمعجميين، لأنها تضع حداً فاصلاً بين المصطلحات Terms والكلمات Words، ولم يحظ هذا الحد بقبول واسع حتى الآن .

وآمل في هذه الورقة أن أوضح كيف تكون المصطلحية مفهوماً نافعا تدور حوله مجموعة من المناهج والتطبيقات للمعجم اللغوي المختص، وأن أوضح أهو معجم لغوي لأغراض خاصة، وهو ما يشار إليه اختصارا بـLSP؟ (أي اللغة الخاصة بغرض محدد Language For Special Purpose) .

(*) القي هذا البحث في The Internatinal Conference on Lexicography at Exeter, 9-12 September 1983.
ونشر في مجلة : Lexicographica,Tùbingen, 1984.

(**) أستاذ علم اللغة بجامعتي القاهرة والكويت

وهل من المعقول أن نتحدث عن المصطلحية كفرع متميز دون أن نتخطى مجال المعجمية والمعجمية العامة (معجم لغة خاصة لأغراض محددة؟).

وفي النهاية فمن الواضح أن بعض المعجميين هم أيضا مصطلحيون، ولكن ليس كل المصلحيين معجميين.

والآن لنبين كيف تطورت المصطلحية كنشاط منفصل وكمجال للدراسة؟ لدينا جواب واحد هو: بتجاهل علم اللغة لهذا المجال ارتبطت المصطلحية بتجارب جماعة متنوعة من الباحثين شُغلوا أولاً بهذا النشاط. إن المصطلحيين الأوائل - بالمعنى الحديث - كانوا علماء ومهندسين.

ومن المألوف جداً أن نمثل أو نشير هنا الى (يوجين فوستر Eugen Wuster) الأب الروحي للمصطلحية، لقد كان - مع ريادته - رجلاً متواضعاً ثَقَّف نفسه بنفسه لغوياً، مما جعل عبارته تبدو غريبة على آذاننا، بل إنها تنحو إلى أن تكون غير مفهومة، بقصد أو بغير قصد، لأن الناس أرادوا أن يعمموا ما كان بالنسبة له خاصاً، ومن ثم وقع لبس في ترجمة عمله إلى الجرمانية الحديثة وإلى اللغات الأخرى.

وفي عام 1974 حدد (فوستر) ما يعنيه بعلم المصطلح بالعبارة (allgemone terminologichre) وهي لا تعني تماماً ما نعنيه بالانجليزية بـ(نظرية المصطلحية theory of terminolgoy) من حيث إنه منطقة واسعة بين علم اللغة والمنطق وعلم الوجود وعلم المعلومات وكل الفروع العلمية الأخرى التي دعاها (Sachwissenschotten)، وفيما بعد حدد مجالاً أوسع لعلم المصطلح بإعلانه أنه فرع من فروع علم اللغة التطبيقي.

وفي عام 1979 أعاد (فوستر) صياغة المصطلحية بمعنى أضيق على أنها نظام يحكم معجم اللغات ذات الموضوعات الخاصة، وحَدَّه بالسمات أو المعايير الآتية:

أ) المصطلحية تبدأ من التصورات أو المفاهيم concepts ومن ثم تربطها بالمصطلحات terms.

ب) المصطلحية تنتهج منهجاً وصفياً.

جـ) المصطلحية تسلم بمفهوم التخطيط اللغوي أو التقييس standardization

د) المصطلحية بينلغوية interlingual

هـ) المصطلحية مختصة غالباً باللغة المكتوبة.

ونوجز فنقول: إن المصطلحية مفهوم أوسع من مفهوم المعجم اللغوي المتخصص وإن كان يؤثر فيه.

اللغات الخاصة والمصطلحية

من المفيد لتوضيح رؤية خاصة للمصطلحية أن نضع فرقا أو حداً بين اللغة الطبيعية Natural واللغة الاصطناعية artificial.

تنشأ اللغة الطبيعية نشأة زمنية أي تتوجه للوفاء بحاجاتنا للتعبير مع توالي الأزمان، ومن ثم تخضع العلاقات بين مضمون التعبير وشكله للتغير، مما يؤدي الى ظواهر لغوية مثل: المشترك والتراف وشبه التراف وتعدد المعنى.

أما اللغات الاصطناعية فإنها - من جانب آخر - قد

بنيت بحيث لا تسمح بأي لبس يلحق دوال المفاهيم، ومن ثم فهي مقيدة أو محكمة الاستعمال بظروف محددة بكل دقة، ولا يمكن أبدا أن تتغير في أثناء الاستعمال مثل اللغات المبرمجة والمعادلات الكيميائية والتصنيفات البيولوجية.

وبعامة فإن تعدد المعنى في الاستعمال يقدر على أنه عنصر إيجابي. إن أي اتصال لغوي خاص ينحو إلى أن يُنْقِص ما قد يلحق اللغات الطبيعية من لبس بتثبيت العلاقة بين مفهوم ما والمصطلح المتعلق به (بالتعريف) وباستخدام تقنيات خاصة لصياغة الكلمة. وبهذه الطريقة فإن اللغات الخاصة موضوعياً لن تصبح قوائم فرعية فحسب للغة طبيعية، بل إنها تضيف عناصر ليست متضمنة في اللغة العامة (معان جديدة، كلمات جديدة وقواعد لصياغتها)، وهذا لا يعني أن اللغات الخاصة لغات اصطناعية تستعمل مثل اللغة الطبيعية، بل ثمة تجاذب أو توتر بين النزعة الذاتية في اللغة الطبيعية إلى خلق المشترك والترادف وإلى توسيع معنى الكلمات من ناحية ونزعة اللغات الاصطناعية الى صياغة علامات محكومة بمواضعها بتعريف دقيق وبحدود مضبوطة مقننة بالقياس الى العلامات الأخرى. من جانب آخر وبعبارة موجزة جداً ثمة جهد عظيم واع ومقصود لقياسية العلامات أو اطرادها. (انظر Sager et al. 1980).

ويعرف (ريسج Wersig) المصطلحية بأنها: رموز لغة ما في موضوع خاص، تتميز عن معجم اللغة العامة أعني: قائمة فرعية لمعجم يتضمن عناصر ليست متضمنة في المعجم العام. وهو يقترح تقسيماً خاصاً للعمل، قُل مثلاً إن المعجمية Lexi-cography تدرس الحالة الراهنة للمعجم واستعماله بتسجيل الرموز الموجودة ومعانيها. وهو يرى أن دور المصطلحية يتمثل في تأسيس علاقات ثابتة بين المفاهيم والرموز، فيحدد بطريقة معيارية أي الرموز ينبغي استخدامها وكيف تستخدم.

وهذه الملاحظات تقود إلى نقاط متعددة علينا أن نناقشها واحدة واحدة.

1 - المصطلحية مختصة باللغات الخاصة، وينبغي - لهذا - أن تكون فرعاً من المعجم.

2 - المصطلحية لها دور عملي في توجيه الاستعمال، ومن ثم تبدو حاجتها ملحة إلى دراسة الاستعمال الجاري. ومن ثم فلها دور تعليمي.

3 - المصطلحية مشغولة بقوة بخلق رموز جديدة، ومن ثم تهتم بنظرية خاصة بصياغة فعالة ومنتجة للكلمات والمصطلحات.

وعلى حين لا تؤثر تلك القضايا جميعها على إخراج المعجمات التقنية - بل يمكن القول إنها في حقيقة الأمر قد تصبح مصدر خطر عند تأليف المعجم - فإنها تشير الى أنه من الممكن الفصل بين المصطلحية وبين المعجم اللغوي المتخصص من حيث الوظيفة.

الحقول الموضوعية وبنية المعرفة

النشأة العملية للمصطلحية تنعكس في فروضها الأساسية وفي طرق العمل. وبفحص الحقول الموضوعية المفردة يتبين لنا أن المعجم هو: عدد كبير من الأنظمة الفرعية تتعلق بالبنية المعرفية لكل حقل

أو فرع موضوعي. ومن ثم يمكن استخدامه باعتباره نقطة بداية للبنية التصورية أو المفهومية conceptual structure لمجال معرفي محدد. (انظر Rondeau 1981).

أما حدود الحقول الأصول والحقول الفرعية فتخططها الأقسام العرفية بين المجالات الموضوعية التي يقررها المجتمع من وقت لآخر. إن الأعراف الاجتماعية هي التي تحدد ما هو معرفة عامة أو خاصة، كما نفعل نحن عند تقسيم المقررات الدراسية في المدرسة أو الجامعة، فنقرر ما هو فرع علمي أكاديمي، وما هو مهنة أو هواية. إن التغيرات العلمية والتقنية تنتج مجموعات مختلفة، ومن ثم فإن كلمة مثل noise أو entropy لها موضع محدد في كل فرع من فروع العلم مثل: الاليكترونات أو علم اللغة بتعريفات مختلفة تماماً وبعلاقات تصورية مختلفة، بل إن مادة مثل: كلوريد الحديد (FeC13) تكشف عن علاقات تصورية مختلفة وفقاً لاستعمالها كمثبت في صناعة النسيج أو لبناء لوحات دائرة كهربية مطبوعة، ومن ثم فقد تصنف وتعرف بطرق مختلفة (انظر Johnson and Sager).

هذا هو ما يسمى بمنهج التسمية onomasiological approach

إن العلماء المتخصصين والمصطلحيون يميزيون الآن بين: الموجودات محسوسة أو مجردة، والعمليات processes والمنتجات products والحالات states التي لها علاقة بحقل خاص، ثم يبحثون عن الاسم أو الأسماء التي ينبغي أن تعرف بها.

وعلى خلاف ما فعله الأسقف (ولكنز) وفلاسفة آخرون في القرن السابع عشر حين حاولوا أن يبتدعوا أنظمة مصنفة مثالية على أساس منهج تنازلي من القمة الى القاع top-down واصلين في النهاية الى لغة عالمية، وقد كانوا مع ذلك روادا في التصنيف المصطلحيٍ فإن مصطلحيّي اليوم يستخدمون منهجاً تصاعدياً من القاع إلى القمة botom-up ومن ثم كانوا مَعْنيِّين بلغات فرعية عدة، وبقوائم ألفاظ خاصة بموضوع معرفي محدد، وبالعلاقات التصورية التي تربط بينها.

والمصطلحيون يؤسسون أنظمة من تصورات تتداخل وتتقاطع بالفعل مبتدئين من مجالات أو حقول محدودة. وقد تنشأ مشكلات من تداخل المجالات أو الحقول، كما يحدث في المعجم العام بين الكلمات التي يفترض نسبتها إلى مادة أو مدخل مشترك والتي تتطلب تصنيفاً موضوعياً، وكما يحدث في مجال التسمية الموضوعية في ذاتها. ويسمح منهج التصنيف التصاعدي باستبعاد أي تصنيف موضوعي جملة، لأنه مهتم أساساً بالعلاقات المصطلحية، أو قل بالعلاقات التصورية المباشرة، فإن هذه العلاقات هي التي تحدد البنية الواحدة أو المتعددة لهذا العمل. وعند الممارسة يعمل المصطلحي في مادة لغوية مكتوبة ومنطوقة مثال ذلك، في مجال عملي واسع، أو وصف مُنْتَج product أو في كُتَيِّب عن طرق التشغيل، أو قائمة من الوثائق متعلقة بعملية معينة. والمصطلحي تحكمه تقاليد وأعراف اجتماعية أو أكاديمية أو صناعية، ولا ينشغل بالمشكلات المحيطة بالصراع بين تصنيف الموضوع وتصنيف النص ويترك ذلك للمنظِّرين. إن المسرد glossary بطبيعته محدد ومعدل وفقاً للمستعمل أي: له مجال محدد واستعمال محدد.

ونشير - في هذا الصدد - إلى جانب هام من العمل المصطلحي هو العمل الموجه الذي يتطلب تعاوناً حميما بين المتخصصين في موضوع محدد والمصطلحيّين. وأشير - بهذا الخصوص - إلى المنهج المثير في العمل المصطلحي بعامة وفي عمليات التوثيق documentation بخاصة في مؤسسة سيمنس بميونخ.

وفي الوقت ذاته ومع تطور أي منتج فإن المصطلحات تُجْمَع وتنسق وتُعَد للكتاب التقنيين والتراجمة الذين ينبغي أن يكون لديهم وثيقة متوفرة بين أيديهم في الوقت نفسه كمنتج جاهز للتسويق.

وأنا أفهم أن شركات الترجمة تجمع - أيضا وبشكل متزايد - المسارد المصطلحية قبل مباشرة أي عقود كبيرة للترجمة، وهذا يقودنا إلى مفهوم مثير للمصطلحية المحددة توثيقيا في مقابل المصطلحية المحددة موضوعيا.

مثل هذا العمل ربما لا يطابق المقاييس المتوقعة لمعجم لغة خاصة كما هو سائد في ترجمة الألفاظ من أجل إنشاء مصطلحات، لكن يمكن اعتبار هذا العمل مرحلة إعداد لمعجم اللغة المتخصص، لأن القواعد الأساسية هي هي. إن العمل المصطلحي من هذا النوع منتشر جداً، وإن تقديراً أكبر لثماره المرجوة ربما يقود إلى تعاون المعجمية والمصطلحية يؤدي حتماً إلى تحسين هذا العمل وتطويره.

وثمة نتيجة أخرى من نتائج منهج التسمية ومنهج التصور أو المفهوم تنشأ غالبا من الممارسة هي الاتجاه إلى إخراج مسارد متعددة اللغة multilingual glossaries. وحين نبدأ من تعريف التصورات أو المفاهيم العلمية والتقنية والتي تعد لغة مستقلة فمن المحتمل أن تحدد أسماء للمفاهيم في كل اللغات التي تتقاسم نفس الدرجة من التقدم العلمي والتقني. وتصدر مؤسسات دولية عديدة مسارد متعددة اللغة دون تأسيس على مسارد أحادية اللغة. ولدي الشركات المتخصصة في التصدير حاجة ملحة ودائمة إلى جهاز مصطلحي للغة أجنبية، بغض النظر عن أن هذه المصطلحات ربما تكون محدودة أو مؤقتة. وأقدم مثال حديث لمعجم تقني تصوري هو: المعجم التقني المصور الذي أصدره (شلومان) Illustrierte Technische Worterbucher : 1982.1906.

وقد ظهر هذا المعجم بالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والإسبانية، ومعجم (فوستر): The Machine Tool المعتمد على وثائق مُقَيَّسَة في الإنجليزية والفرنسية والألمانية.

إن تنامي الحاجة إلى نقل التقنية بين الأمم واللغات، ينشيء طلباً متزايداً للمصطلحية متعددة اللغة، ويزيد من مخاطر توليد مصطلحات ربما لا تكون مناسبة.

إن النتيجة الكبرى التي يمكن أن نستخلصها مما سبق هي أن الممارسة المصطلحية قائمة بشكل مكثف وفقاً لأغراض المستعمل، وقد نهض بها عدد كبير من العاملين المدربين تدريباً ناقصاً. وفي السنوات الأخيرة فحسب مع إنشاء بنوك المصطلحات، واللجان المصطلحية جرت محاولات ناجحة لإنتاج أدلة guidlines من أجل ممارسة جيدة. إن نمو الاهتمام بتعليم اللغات الخاصة لأغراض محددة LSP قد وجه الناس إلى تقدير أكبر للنتائج والمشكلات المتوقعة في مجال المصطلحية.

التعريفات والعلاقات :

توصف تصورات مجال ما ـ أساساً ـ بثلاث طرق :

أ ـ بتعريفها

ب ـ بعلاقتها بتصورات أخرى

ج ـ بأشكالها اللغوية المتمثلة في : مصطلحات أو عبارات أو جمل بها تفهم في أية لغة من اللغات .

إن استخدام التعريفات عمل جدير بالتقدير، وله تاريخ طويل فضلاً عن أنه ليس موضع خلاف، ومع ذلك فقد تنشأ عند الممارسة مشكلة تهيئة المصطلح للمستعمل، أي مستوى التخصص ودرجة الاستيعاب ومن ثم موضع المصطلح في المعجم .

ونوضح هذا بثلاثة تعريفات في (مدخل) واحد من معجم : Chambers

(1) Dictionary of Science and Technolgoy Phosphorescence (chem.) the greenish glow during the slow oxidation of white phosporus in the air.

(Phys.) a glow emitted by certain substances after having been illuminated by visible or ultraviolet rays. It may be regarded as fluorescence which persists after the exciting radiation has ceased.

(Zool) luminosity; production of light usually (in animals) with little production of heat; as in glow-worms.

ولم يعد المصطلحي ينشغل بمشكلات الاختيار حيث إنه يعمل عادة من أجل مستعمل على درجة عالية من التخصص، ولأن موضوع حيز التخزين لم يعد مشكلة خطيرة حيث إن التطورات التقنية الأخيرة في مجال تخزين المعلومات تتيح إمكانات ضخمة لاسترجاع المعلومات . إن ما يشغل المصطلحي حقاً هو الحصول على تعريفات سياقية جاهزة للتحقق من المفهوم ومن ثم تخزينه كمفهوم واحد .

وهذا التعريف يحدد عناصر المفهوم أي المدلول الدقيق للمصطلح، وهو يتراوح بين الصرامة المطلقة للتعريف في الأنظمة المغلقة للمعنى والمستخدمة في أنظمة التصنيف وفي غيرها من اللغات الاصطناعية البالغة الدقة ـ وبين التعريف المرن المستخدم في الصناعات حيث يتم استخدام الخصائص الوظيفية أكثر من استخدام الخصائص الشكلية أو المادية . (مثال ذلك أننا مازلنا نشير إلى أجهزة الهاتف ومؤشرات الاتجاه في السيارة بأسمائها التي أطلقت عليها أول ظهورها مع أن شكلها ومادتها قد تغيرتا كثيراً، فاللفظ باق لأن الوظيفة لم تتغير) .

لكن مثل هذا التعريف الظاهري ربما لا يناسب متطلبات جماعة خاصة من المستعملين، لأنه ربما يكون ضيقاً جداً أو واسعاً جداً بحيث لا يكافىء التصنيف الموضوعي المفترض . وربما ـ لهذا ـ يضطر المصطلحي إلى بناء تعريف لكي يضع المصطلح في البنية المعرفية الملائمة، وهذا العمل يفترض فهماً لمضمون المصطلح الذي اكتسبه من تعريفات سابقة أو من سياقات خاصة أو من مؤتمر يجمع متخصصين أو من خلال معرفته بموضوعه . إنه يعمل من أجل تخصيص السمات الجوهرية في الحقل التصوري لكي يحدد المقصود بالرجوع إلى المصطلحات الأخرى .

إن منظومة التصورات أو المفاهيم التي تشكل هيكل أي عمل مصطلحي لا تُبْنَى في أية ظروف بل تتأسس من ذاتها وفق تعريفات موجودة وعلاقات مقررة بعامة . وثمة أنماط محددة لمفاهيم أو

مصطلحات تعد - من ثم - هيكلاً عاماً يمكن البناء عليه، وهذه هي:

(أ) مصطلحات تشير إلى موجودات مادية مشاهدة، فالمواد الكيميائية والنباتات والمعادن.. الخ لا تستلزم تعريفا؛ لأنها معلومة ومُعَرَّفة جيداً في مرجع ما، وكل ما في الأمر أن لها وظائف مختلفة في حقول موضوعية مختلفة ومن ثم تتطلب تعريفاً وظيفياً كاملاً.

(ب) مصطلحات تشير إلى طرائق علمية للتحليل والوصف، وهي لا تتطلب تعريفاً، لأنها معروفة جيداً، ونادراً ما تسبب لبساً أو سوء فهم.

(جـ) مصطلحات تشير إلى خواص متعلقة بعمليات علمية وتقنية مقننة، وعادة ما تكون مُعَرَّفة تعريفاً كافياً، مثل وحدات القياس.

(د) مصطلحات مقيسة ومُعَرَّفة بالفعل، وفي أغلب الأحوال تكون مصنفة وفقاً لموقعها في هيكل مصطلحي، لأن المعاجم المقيسة (المعيارية) عادة ما تؤلف في منظومة محددة.

كل هذه المصطلحات يمكن اعتبارها معالم مرجعية ضرورية لتحديد مضمون المصطلحات الأخرى (انظر Sager 1982).

ويبقى مع هذا عدد كبير من المصطلحات التي تشير الى أشياء أخرى محسوسة أومجردة ولم يتم بعدُ تحديد موقعها في البنية المعرفية بنفس الصرامة، والتي يعتمد تحديد مدلولها - من ثم - على العرف الذي يتفق عليه مستخدمو هذه المصطلحات، مثال ذلك: المنتجات الصناعية، العمليات الصناعية، وخصائص هذه المنتجات والعمليات.

هذا وبعض هذه المصطلحات له مضمون محدود جدا بمجال صغير من مجالات الاستعمال مثل المنتجات الواردة في قوائم التعريفة الجمركية. مثل هذه التعريفات ينبغي اعتمادها جملة مصحوبة بإرشادات أو تعليمات تحدد مجال استعمالها. ومع ذلك - ومن نظرة معيارية - فإن تعريفاً لهذه المصطلحات لا يمكن أبداً أن يُفْرَغ من مضمون، لأن أي وصف وظيفي متصل بالتعريف يساوي تماماً ما يعرف بالتقييس Standardization. وربما يعد التعريف - مع ذلك - مرغوبا فيه، لأنه يحدد المجال الدلالي أو المرجعي للمصطلح. وفي مثل هذه الحالة يُنْصَح باختيار منهج ذو قوائم مركبة من الخواص الدلالية أو المرجعية التي تعد ضرورية لوضع المصطلح في مجاله أو محيطه. (نمط من تعريفات ما وراء اللغة meta-language).

إن عملية وضع قائمة بالخصائص الجوهرية لمفهوم ما يشير إليه المصطلح تعد عملية مكملة لعملية تحديد موقع المصطلح نفسه بالنسبة إلى المصطلحات الأخرى المستخدمة في نفس المجال، وفي هذه الحالة يحسن تبني بعض الأساليب المتطورة التي يستخدمها علم المعلومات لهذا الغرض كواصفات descriptors، كالملاحظات المِجْهَرية، والمواصفات والنواحي المظهرية، وحين يوصف المنهج بدقة وتتحدد أغراضه بوضوح يطلق عليه الوصف مصطلحي (Terminological).

ويُعَرَّف الحقل الدلالي أو المرجعي المعلوم في الوقت الحاضر بأنه: حقل موضوعي (مفهومي) ضيق، لا مجال فيه لأي حكم مسبق بتوسيع مدلوله أو تضييقه أو تغييره في إطار المجال المعرفي المفرد،

ولعله قد اتضح أن مثل هذا المنهج لن يكون ملائما للأقسام الأربعة السابق ذكرها من المصطلحات.

ونستنتج مما سبق أن التعريفات المصطلحية يمكن أن تنطبق على تلك المصطلحات التي لم يتم تعريفها بوضوح بعدُ، والتي تستلزم - من ثم - وصفاً أدق مع بيان يوضح علاقاتها المصطلحية وتقدم في شكل مكنز thesaurus. إن مرونة المادة المختارة والرموز الممثّلة في علم المصطلح الحاسوبي الحديث تسمح بعرض مصطلحات مصحوبة بمصطلحات أخرى أوسع أو أضيق أو أكثر تعلقا بغيرها، وقد اتضحت فائدة هذا الأسلوب من المعالجة في المكانز الوثائقية، وكذا في بعض الأعمال الرائدة مثل معجم (فوستر) Machine Tool.

وثمة اتجاه يتيح الفرصة لعمل هيئة استشارية للأغراض المصطلحية، ومن أحدثها:

- Root Thesaurus of BSI
- Construction Industry Thesaurus

وثمة مكانز أخرى (انظر: Nikitina 1979)

وتتضمن العلاقات بين المصطلحات عناصر موضّحة، كما يظهر في بعض المقولات التي يعبر عنها برموز على النحو الآتي:

م و (مصطلح واسع) م ض (مصطلح ضيق)

م ع (مصطلح ذو علاقة)

س نوع لـ ص

س جزء من ص

س ذات علاقة بـ ص

ويمكن لهذه المقولات أن تتوالد بوساطة حاسوب يحول هذا النوع من المعلومات إلى تعريف بسيط، ومن الممكن كذلك - آلياً - توليد مقولات موسعة على النحو الآتي:

س نوع لـ ص وكذا ن. هـ.

س جزء من ص وكذا ن، هـ.

س متعلقة بـ ص وكذا ن، هـ.

إن احتمالات الانتقال عبر العلاقات صعودا ونزولا أو خطيا diagonally - مقولات موسعة لتحديد موضع المصطلحات قمة أو قاعا في ترتيب هرمي - احتمالات متساوية.

إن الرسوم البيانية التي توضح الموضوع على النحو الذي تطور في مكانز الوثائق ربما يثبت فائدتها أيضاً في تمثيل الشبكات الدلالية لأنظمة المصطلحية مثل: مكنز Eurat Thesaurus.

وثمة علاقة وثيقة بين التعريف وموقع المصطلح في محيطه، فتعريف مصطلح ما قد يكون مرادفاً لتحديد هويته من حيث علاقته بغيره من المصطلحات.

ومايزال مثل هذا العمل الخاص ببيان العلاقات المصطلحية في دور النشأة. أما العلاقات الأساسية الموجودة عادة في الكتب المقررة وفي المسارد مثل: علاقة العام بالخاص، وعلاقة الجزء بالكل وعلاقة الارتباط فما هي إلا البدايات الأولى لعدد غير منحصر من الاحتمالات باستخدام الحواسيب لتعقب نقاط الاتصال، والتفسيرات المتعلقة بالعلاقات في الحقول الدلالية.

ومن الهام على المستوى العملي أن نبتدع وسائل

بسيطة لتحقيق درجة عالية من الدقة والثبات لعدد محدود من العلاقات التي غالبا ما تكون مثمرة للمستعمل النهائي، ومن ثم نخطو خطوة سهلة نسبيا لاستخدام معلومات مستخلصة آليا من قاعدة بيانات مصطلحية لصياغة تعريفات مولدة آلياً ومألوفة للمستعمل.

وقد أظهر استبيان لمستعملي المصطلحات جرى عام 1980 (انظر: Sager and McNaugh) أن مستعملي المعاجم المتخصصة كانوا راغبين بقوة في أن يكونوا قادرين على استخراج مثل هذه التعريفات من بنوك المصطلحات. وثمة سؤال يتردد كثيراً هو أي أنماط المعرفة يمكن أن يزودنا بالقدر الأكبر من المعلومات المترابطة لكل المتخصصين؟

والجواب الشائع له أن هذا العمل غير معروف في المعجم العام، بيد أنه يبدو أكثر تطوراً في مجال (المصطلحية)، ومن المحتمل إثبات أنه أعظم فائدة في مجال (المعجم المتخصص).

ومن الناحية العملية يواجه (المصطلحي) بعدد من المشكلات المباشرة التي يمكن فحسب التمثيل لها وتبسيطها على النحو الآتي:

(1) عندما نتبنى منهج التسمية ومفهوم الحقول الدلالية الخاصة فلابد أن يتحدد كل حقل بالقياس إلى الحقول الأخرى وإلى مفردات اللغات العامة. ومن ثم فالمعايير ضرورية لاتخاذ مثل هذه القرارات. وفي غياب الأدلة الصالحة guidelines المؤسسة تأسيساً نظرياً عالياً يضطر المصطلحي الى استشارة المستعمل والاستجابة لمتطلباته. إن مشكلة التصنيف الفرعي لقاعدة بيانات data-base يمكن أن تحل مشكلة المستعمل فحسب حلاً جزئياً.

إن الاختلاف أو التباعد بين المجموعات المصطلحية الموجودة يقبع في التصنيف الموضوعي الذي يؤكد أن هذه المشكلة مشكلة رئيسية.

(2) بينما يرتبط العمل المصطلحي الجاد الآن ارتباطاً وثيقاً بالمعالجة الآلية والتي تجعل تخزين المصطلحات أقل إشكالاً فإن المشكلات الخاصة بطبيعة العلاقة الوثيقة بين عناصر المعرفة لم تحل بعد. ومازال اختيار المصادر أحد نقاط الاهتمام الرئيسية. فهل يمكن للمرء - مثلاً - أن يحل مشكلة المصطلحات المترادفة باستشارة عدد متنوع من المصادر (أي في شكل يمكن قراءته بالآلة) لتقرير الاستعمال المفضل من خلال تحليل معدل التكرار Frequency؟

(3) وعندما تؤسس بنية تصورية يتوجب على المصطلحي أن يوجد أو يختار المصطلحات المناسبة. وربما يقال - عندئذ - إنه يبدأ - في هذه المرحلة - من النقطة التي يبدأ منها المعجمي، إذ يمكنه أن يعمل في إطار عينة محدودة Corpus.

وإن كان اختيار العينة أسهل في المعجم العام - أما اختيار المصطلحات من العينة فصعب للغاية. دعنا الآن نقدم أمثلة قليلة من عينة محدودة للغاية، وهي جزء من رسالة علمية تبحث في هذه المشكلة. كيف يختار المرء المصطلح المناسب لتصور ما عندما يجد في نص واحد فحسب ثلاثة أو أربعة بدائل لغوية مركبة(2).

Gearbox end cover plate - end cover - cover

External full flow oil filter - external oil filter - oil filter

Layshaft ball journal bearing - ball journal bearing - layshaft bearing - bearing

Fabric oil filter element - febric filter element - oil filter element - filter element - element

مثل هذه الحالات من تنوع المترادفات ليست نادرة، وبينما يمكننا أن نصرف النظر عن المركبات الطويلة جدا من حيث إنها مفردات مبوبة في كتالوج catalogue items والمركبات القصيرة جدا من حيث إنها مختصرات سياقية - يبقى - بين هذا وذاك - تنوع كاف في الوسط لا يتطلب فحسب استشارة الخبراء بل يتطلب كذلك اتخاذ قرار بتفضيلها على غيرها من حيث إنها الصيغة المعيارية المتفق على استعمالها.

وثمة مجال آخر للمناقشة هو القيمة النسبية للتعريف وللسياق وللتصنيف المستعمل (إن زمن الاعتقاد المثالي برمز واحد لمعنى واحد (تصور واحد / مصطلح واحد في كل السياقات المكتوبة) قد ولّى. أما الآن فثمة تمييز أوضح قد تقرر اعتباره بين وظائف المصطلحية في اللغة الواحدة أو في لغتين.

إن أكثر العناصر إثارة للمشكلات هو عنصر المعلومات أي نوعية المشيرات أو المعالم Indicotors.

ومن المعروف أن عددا كبيرا من بنوك المصطلحات يستخدم مشيرات من نوعية موثقة ذات مقياس متدرج من خمسة أنماط بغرض التمييز بينها وهي:

- مصطلحات مُقَيَّسة أو مُنَمَّطة Standardized Terms
- مصطلحات مقررة Well established terms
- مصطلحات موجودة في مجال وثائقي محدود Terms founds in a limited range of documents
- مصطلحات مبتدعة بغرض الترجمة Terms created for the occusion of a translation

هذا ويبدي كثير من المصطلحيين شكهم في جدوى هذه الموضوعات، والمرء - بدوره - يتساءل عن مدى صلاحية مثل هذه الأنماط كعنصر متميز عن الأنماط المستعملة. وهذه الظاهرة تختلف بوضوح عن الممارسة المعجمية وتكشف عن توجه المصطلحي الى معالجة الكلمة أو المصطلح Term-face، واضطراره إلى العمل في هذا الإطار وعن دور الترجمة في دعم هذا التوجه. ومعظم الأعمال المترجمة تهتم بتوليد الألفاظ العلمية والتقنية، وتحرز تقدما أعظم في الترجمة حيث تكون الحاجة إلى نصيحة الخبراء فيما يتعلق بصياغة المصطلح أمرا محققا. ومن ثم فمن المتوقع للمصطلحين أن يسيروا في طريقين:

أ - الشرح المنظم للحقول المصطلحية الذي ينتهي إلى المعاجم المتخصصة أو إلى ما يناظرها في بنوك المصطلحات.

ب - تطوير الاهتمام العلمي بالقوائم المصطلحية في لغة واحدة أو بين لغات متعددة لتحقيق أغراض خاصة.

ومن الواضح - على سواء - أن المصطلحي الواعد سوف يرغب في أن يعمل بصورة منتظمة في المجال الذي يتوقع له أن يبتدع فيه مكافئا لغويا ثنائيا bi-lingual equivalent.

الضابط أو القاعدة:

نعود الآن إلى ناحية يدور حولها أعظم الخلاف في عمل المصطلحيين، وهي توليد المصطلحات ووضع الضوابط. إن أي تجديد أو تغيير يُفْتَرض في الاستعمال عرضةٌ لعدد من القيود الرئيسية التي تحدد نجاح أو فشل مثل هذا العمل، ومن ثم ضبط عمل

المصطلحيين. وينبغي الاعتداد بالاستعمال الموجود بالفعل إن ما أريد للتدخل المصطلحي أن يحقق هدفه. وبينما يهدف التدخل المصطلحي إلى تصحيح الاستعمال غير المناسب فإن ما يكون مناسبا لا يمكن تحديده إلا بالرجوع إلى المجال المعرفي لموضوع خاص وإلى بنيته التصورية. ويعتمد أي ضابط ناجح على الاعتداد باستعمال ثابت أو بمعرفة واضحة بالبنية النظرية للمجال التصوري. وإذا ما توحدت تلك الجهود فإن المصطلحي يمكن أن يطور البدائل المناسبة ويوفرها دون شكوى. ومع ذلك فإن الضابط في المصطلحية يعتمد على تسوية أو حل وسط، ومن ثم فإن المصطلحي يتنقل بين العمل الوصفي للمعجمي والعمل المعياري للمقعّد، أو صانع القاعدة اللغوية. إن المصطلحي الجيد لا يُقَعِّد أكثر من المعجمي، إنه يضع مقترحات أو فروضا يتوقع أن يقبلها أو ينفذها أو يرفضها الآخرون.

والآن دعني ألخص هذا الجزء من العرض بتحديد متطلبات المعالجة الجيدة في المصطلحية والتي تنطبق - بنفس الطريقة - على المعجم المتخصص.

1 - يبدأ تأليف المجموعات المصطلحية بفحص المعجم المتخصص الموجود في الحقل الموضوعي الضيق، وهذا عمل معقد جدا كالعمل المعجمي الذي على درجة عالية من التخصص والعصرية.

2 - ينبغي أن يبدأ المصطلحيون - باطراد - من الحقول الدلالية إلى الرموز أو الأسماء. وهذا ليس دعوةً مفتوحة لبناء سلسلة متدرجة خيالية أو أنظمة تصنيف والتي نقدها نقدا صحيحا (ويند Wiend) عام 1979 بل ضرورةً معتمدة على الملاحظة العملية. إن اكتشاف مجال خاص بمعرفة خاصة يمكن أن يزودنا بالمعاني المحددة بكل دقة للمصطلحات ذات العلاقة. وهذا العمل يتطلب تكيفا خاصا، وهذا يؤدي بنا إلى المتطلب الثالث.

3 - على المصطلحي أن يعمل في إطار علاقة وثيقة بالمتخصصين في موضوع محدد. عليه أن يعرف الموضوعات التي يعالجها كما يعرف أيضا المجالات الموضوعية المقاربة للموضوع الذي يبحث فيه. ويقوم بمعظم العمل في المصطلحية فريق عمل في مجال معرفي محدد، ونادرا ما يمتلك شخص واحد فحسب كل الخبرة المطلوبة.

4 - يؤدي المصطلحيون دورا فعالا من حيث إنهم مرشدون لغويون مهتمون بالكشف عما في النظام الدلالي من قصور وباقتراح مناهج معقولة لدرس الدلالة ولصياغة المصطلح. وقد أظهرت الخبرة الكندية مجال هذا الدور وحدوده الواضحة.

الخاتمـــة

ولكي ننهي حديثنا دعني أقدم بعض المعلومات عن المؤسسات العاملة في مجال المصطلحية. لقد بدأ العمل بسيطرة مؤسسات التوحيد القياسي لإصدار مسارد للمصطلحات المستخدمة في الهيئات الوطنية والعالمية للتقييس. وقد أظهر هذا العمل الحاجة الماسة إلى توحيد المعايير والرموز الخاصة بالأشياء والعمليات والمناهج والمسارد المقيسة والتي ظهر منها حتى الآن ما يقرب من ثمانية الاف. وقد بدأت هيئات كثيرة مثل (المنظمة العالمية للتوحيد القياسي (ISO (International Organization for Standarzation) و(البعثة العالمية لتقنيات الكهرباء (IEC (International Electrotechnical Commission)

والمؤسسات الوطنية تصدر أدلة Guidelines تتضمن المصطلحات التقنية وتعريفاتها إدراكا منها لأهمية اللغة للعمل المصطلحي الموحد.

وقد أصدرت الهيئة العالمية للتوحيد القياسي ISO عددا من التوصيات في أواخر عام 1960 بتأثير الرائد (فوستر) وهي تعالج العناصر الآتية:

على النحو الآتي:

تسمية المبادىء (1968) ISO/R 704

التحديد العالمي للمفاهيم والمصطلحات (1968) ISO/R 890

مرشد لإعداد المعجمات المصنفة (1969) ISO/R 919

معجم المصطلحية (1969) ISO/R 1087

تصميم المعاجم المصنفة متعددة اللغة (1969) ISO/R 1149

الرموز المعجمية وبخاصة المستعملة في المعجمات المصنفة المعرَّفة (1973) ISO/R1951

وهذه الوثائق كانت موجهة أساسا إلى الأيزو ISO نفسها كأدلة لإنتاج المسارد التي تدعم المقاييس العالمية الموحدة، وبعد عشر سنوات أصبحت مراجعة الوثائق ضرورية، وقد تكفلت لجنة التقنية رقم 37 بهذا العمل. بيد أن هذه المراجعة - مثل أي عمل في المقاييس الموحدة - كانت تمضي ببطء شديد، لأن بعض الخلافات الناتجة عن النزعات القومية كان ينبغي أن تُسوَّى أولا. وكانت الاجتماعات غير منتظمة وكذا كان حضور الوفود العالمية غير منتظم، وكان تعدد اللغات يسبب مشكلات كبيرة وبمرور الزمن انعقد لقاء هام في فيينا عام 1980 أكد على أن هذه الأدلة أو المرشدات Guidelines مناسبة تماماً لمعالجة المصطلحات بل تكاد تكون وحدها الصالحة لكل الأعمال المعجمية المتخصصة. وقد وسع ذلك من دائرة الأدلة المقترحة. ومن ثم ظهرت الحاجة الى مزيد من الاستشارات مما أفضى الى مزيد من التأخير. وقد طورت - في الوقت نفسه بعض الدول أدلتها الحديثة، وقد أدى هذا إلى تنامي الضغوط من أجل التعاون من ناحية، وإلى ضغوط جديدة للحصول على المقاييس العالمية الموحدة - من ناحية أخرى - مصوغة - على قدر الإمكان في وثائق عالمية.

وقد أدرك برنامج (UNISIST التابع لليونسكو) الأهمية البالغة والحاجة الملحة إلى مركز معلومات خاص بالمصطلحات، وقد أُسِّس مركز IFOTERM في فيينا عام 1971، وقد كان هذا المركز إلى حد بعيد ثمرة الجهود المتواصلة للرائد (فوستر). وقد أنجز هذا المركز الفقير في الاعتمادات المالية وفي الخبراء أعمالا مشهورة، وكان له برنامج طموح واعد، ولديه قائمة هامة من الإصدارات النافعة مثل (سلسلة الإنفوترم) التي أصدرها (سور) بميونخ، وقد أسهم هذا المركز في نجاح عديد من المؤتمرات واللقاءات بل وفي معظم الفهارس العالمية للمعاجم المقيَّسة. كما أنه يصدر نشرة إخبارية ربع سنوية يعاد طباعاتها كليا أو جزئيا عن طريق (Lebende Sprachen) وكذا الجريدة العالمية للتصنيف واللغات المتعددة. (International Journal for Classification and Multilingua).

ويقتضي دوره كمركز معلومات أن يهتم بجمع المعلومات، وقد توفر له بالفعل مجموعة هامة من مصادرها وبخاصة (Grey literature) (3) التي لم

تتوفر له من قبل وقد طور هذا المركز - حديثا جدا - شبكة مصطلحية Term Net تسنم بها دور الرائد بين العلماء وجعلته - مركز إشعاع للأنشطة المصطلحية. وقد عقدت عدة اجتماعات ومؤتمرات، ونشرت أخبار الشبكة مع دورية من ألف نسخة، وتهتم الدورية بنشر المعلومات العملية عن المصطلحية، ويتمثل معظم النشاط الواعد في إنشاء بنوك للمصطلح بعضها قائم بالفعل وبينها تعاون واضح. وآخر ثمرة لبرنامج شبكة المصطلحات هي تطوير هيكل مصطلحي موحد ومسجل كنموذج تحتذيه بنوك المصطلح الجديدة لتيسير تبادل المواد المسجلة - وفي دور الإعداد الآن مقاييس مقترحة لتبادل شكل ما للمادة المعجمية في أشرطة مغناطيسية ومن ثم تصبح معيارا دوليا.

كندا نشطة جدا في مجال المصطلحية، وفيها بنكان كبيران للمصطلحات، وثمة مقررات دراسية في المصطلحية، وبحوث جامعية فعالة في عديد من الجامعات وكذا نشرات منتظمة ومؤتمرات. ومع ذلك فلم يُؤلّف بعد وبشكل موسع عقد ندوات أو مؤتمرات في نواح خاصة من المصطلحية.

إن بنوك المصطلح الأوروبية معروفة جدا لما تتلقاه من دعم ولما تقوم به من تطوير المعالجات المصطلحية. وأحدث تطوارتها إنشاء الجمعية العالمية للمصطلحية TERMIA ويخطط الآن لمؤتمر دولي في نهاية أغسطس من عام 1984.

هوامش :

(1) يقدم المؤلف هذا المثال ليشير أن المصطلح الواحد قد تكون له تعريفات مختلفة في علوم مختلفة وقد آثرت ترجمته في هذا الهامش، وتركت للقارىء النص الانجليزي في المتن، فترجمتي له مقاربة فحسب :

فالمصطلح المذكور Phosphorescence يستخدم في الكيمياء ليشير إلى الوهج الذي يميل إلى اللون الأخضر والذي يشاهد خلال تأكسد مادة الفسفور في الهواء، ويستخدم في علم الفيزياء ليشير إلى الوهج الذي ينشأ من بعض المواد بعد سقوط الأشعة فوق البنفسجية عليها، وربما يستمر هذا الوهج حتى بعد انقطاع الإشعاع الذي أثاره.

ويستخدم في علم الاحياء ليشير إلى الضوء، أي عملية إصدار ضوء عند الحيوانات لا يصحبها حرارة في العادة، مثال ذلك : الديدان المضيئة.

ولدينا في تراثنا المصطلحي مثال جيد لهذه الفكرة يقول الخوارزمي في (مفاتيح العلوم) : ومثال هذه المواضعات لفظة الرجعة، فإنها عند أصحاب اللغة المرة الواحدة من الرجوع لا يكادون يعرفون غيرها، وهي عند الفقهاء الرجوع في الطلاق الذي ليس ببائن، وعند المتكلمين ما يزعمه بعض الشيعة من رجوع الإمام بعد موته أو غيبته، وعند الكتاب حساب يرفعه المعطى في العسكر لطمع واحد، وعند المنجمين سير الكواكب من الخمسة المتحيرة على خلاف نضد البروج).

(2) آثرنا الإبقاء على الأمثلة التي استشهد بها المؤلف: لان الترجمة تفسد التمثيل فربما لا تعطينا ما يماثل التراكيب الانجليزية في الطول.

(3) المقصود بالمصطلح grey literature الانتاج شبه المنشور، وهو مواد شبه منشورة، مثل التقارير والوثائق غير المنشورة رسميا أو غير المتاحة تجاريا والتي يصعب تتبعها ببلوجرافيا.

Références

1) Hope, C. (forthcoming) **Synonymy in Terminology.** M. Sc. thesis, University of manchester Institute of Science and Technology

2) Johnson, R.L. and sager, J.C. (1980) "Standardization of terminology in a model of communication" **International Journal of the Sociology of Language** 23 : 81-104

3) McNaught, J. (1982) "The role of terminological relationships" **Multilingua** 1, 1 : 53-55

4) Nikitina, S.E. (1979) "Thesaurus d'information comme moyen de systématiser la terminologie" **Travaux de Terminologie** 1 : 61-69

5) Rondeau, G. (1981) **Introduction à la terminologie.** Montréal : CEC

6) Sager, J.C. (1982) "Terminological thesaurus" **Lebende Sprachen** 27, 1 : 6-7

7) Sager, J.C. et al. (1980) **English Special Languages.** Wiesbaden : Brandstetter

8) Sager, J.C. and NcNaught, J. (1981) **Feasibility Study for the Establishment of a Terminological data Bank in the U.K.** (British Library Research and Development Report 5642) Manchester: CCL/UMIST 81/1

9) Wiegend, H.E. (1979) "Definition und Terminologienormung - Kritik und Vorschläge" in **Terminologie als angewandte Sprachwissenschaft. Gedenkschrift für E. Wüster** ed. by H. Felber et al. München : Saur

10) Wersig, G. (1976) "Probleme und Verfahren der Terminologiearbeit" in **Fachsprachen (Terminologie-Struktur-Normung).** Berlin : Beuth

11) Wüster, E. (1974) "Die allgemeine Terminologielehre" **Linguistics** No. 119 : 62-66

12) Wüster, E. (1979) **Einführung in die allgemeine Terminologielehre und terminologische Lexikographie.** Wien : Springer.

التعريف المصطلحاتي

الأستاذ / حلام الجيلالي (*)

إن البحث في إشكالية التعريف المصطلحاتي (Terminologique)، كبنية لها وجودها المستقل وخصائصها المميزة، أو كنموذج يختلف عن كل من التعريف المعاجمي والتعريف الموسوعي؛ مسألة تستدعي الوقوف على التأسيس النظري والإجراء التطبيقي لهذا النوع من التعريفات.

ولا يتسنى لنا تتبع معطيات هذه الإشكالية بالدراسة والتحليل إلا بعد ان نعطي إلماعة ـ ولو عجلى ـ حول مفهوم المصطلحاتية.

المفهـــــوم:

المصطلحاتية لغة: مصدر صناعي من كلمة (مصطلحات) في حالة للدلالة على العلم أو المذهب أو الفن الخاص بنشاط من الأنشطة المعارفية.(1)

واصطلاحيا: هي (عبارة عن اتفاق قوم (مختصين) على إسمية الشيء بإسم ما، ينقل عن موضعه الأول).(2)

وهذا المفهوم الذي يثبته الجرجاني (الشريف) (816 هـ/ 1413 م)، مفهوم عام يشمل كل ما يتصل بالوضع في الموجودات الكونية والألفاظ الحضارية إذا إختصت بمجال معين من الخبرة البشرية.

ومن هنا تفرع هذا المفهوم في الدرس اللساني الحديث الى فرعين يشكلان علم المصطلحات عاما كان أم خاصا.

أ ـ فرع نظري عام أو إصطلاحية (Terminologie) وهو (الدراسة النسقية للمصطلحات أو الكلمات أو التراكيب الخاصة، من حيث تسمية مجال الشيء أو المفهوم) (3)، ويعنى بالمبادىء العامة والقوانين التي تحكم وضع المصطلحات والوقوف على العلاقات التي تربط المفاهيم، في جميع حقول المعرفة، أنواع اللغات، والعمل على توحيدها عالميا، وإيجاد أرصدة لها تودع في بنوك خاصة.

ويعرف هذا الفرع بالنظرية العامة لعلم المصطلحات، (ويعود الفضل في انطلاقة البحث في

(*) أستاذ في معهد اللغات / جامعة سيدي بلعباس ـ الجزائر

(هذا الفرع) من علم المصطلحات الى الاستاذ فيستر (Wuster) الذي أسس مركز البحث في مدينة فيزلبورغ (Wiselbourg) بالنمسا) (4) . ثم ظهرت بعد ذلك عدة مراكز عبر العالم من بينها :

المنظمة العالمية للتوحيد المعياري، للمصطلحات (ISO) في جنيف، وقد تأسست سنة 1951م .

ب ـ فرع تطبقي خاص أو مصطلحاتية (Terminographie) وهو (مجموع المصطلحات التي تمثل المفاهيم أو الأشياء الخاصة بميدان معين من المعارف أو النشاط الإنساني، أو باحث، أو فريق من الباحثين . .) (5) . ويختص هذا الفرع بالجانب الاجرائي في وضع المصطلحات وجمعها وترتيبها وتعريفها، وإدراجها في معاجم مختصة .

وهذا يعني أن لكل علم مجموعة من المصطلحات محددة التعريف (6)، في اللسان الواحد، وفي مجال معين كالطب، أو الفيزياء، أو اللسانيات وغيرها من المعاجم المختصة .

ويعرف هذا الفرع بالنظرية الخاصة ويتصل بالدراسة المعاجمية (Lexicographie) اتصالا وثيقا، على خلاف النظرية العامة التي تقترب من المفرداتية (Lexicologie) الى حد ما، (7) . والذي يهمنا في هذا الصددهو النظرية الخاصة للمصطلحاتية حيث تتجسد بنية التعريف المصطلحاتي في ظلها .

أ ـ التأسيس النظري :

هل يوجد تعريف مصطلحاتي وآخر غير مصطلحاتي؟ وإذا كان موجودا فعلا فما هي بنيته في مقابل التعريفين المعاجمي والموسوعي؟

إن الدراسات الموجودة في هذا المجال لا تكاد تمنحنا الجواب؛ لأنها قليلة ان لم نقل نادرة، وهو الأمر الذي يدعونا الى إستفتاء المعاجم العربية القديمة المختصة منها وغير المختصة . ولعل أول لبنة في تأسيس التعريف المصطلحاتي تبدأ مع الخوارزمي الكاتب (387 هـ/997 م) في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي في موسوعة (مفاتيح العلوم) حين طرح قضية تباين التعاريف لتباين مجالات اختصاص الكلمة، يقول : (ومثال هذه المواضعات لفظة الرجعة : فإنها عند أصحاب اللغة المرة الواحدة من الرجوع لا يكادون يعرفون غيرها، وهي عند الفقهاء الرجوع في الطلاق الذي ليس ببائن، وعند المتكلمين ما يزعمه بعض الشيعة من رجوع الإمام بعد موته أو غيبته، وعند الكتاب حساب يرفعه المعطي في العسكر لطمع واحد، وعند المنجّمين سير الكواكب في الخمسة المتحيرة على خلاف نضد البروج)(8)) .

فالخوارزمي في هذا النموذج يذكر بالاضافة الى التعريف اللغوي المحض الذي لم يكن يتجاوزه بعض المعاجميين القدماء ـ في معاجمهم اللغوية ـ تعاريف مصطلحاتية أخرى اكتسبتها الكلمة في ميادين مختلفة وهي على التوالي :

مجال الفقه، مجال الفلسفة، مجال الاقتصاد، مجال الفلك .

ونستنتج من هذا النموذج ثلاث بنيات للتعريف هي :

أ ـ تعريف لغوي وتمثله الصيغة (المرة الواحدة من الرجوع) .

ب ـ تعريف معاجمي وتمثله الصيغة الكاملة لهذا النموذج ويشمل: الدلالة اللغوية والدلالات الخاصة بمجالات الإستعمال الاخرى. وهذا النوع تتفاوت مستوياته في المعاجم اللغوية اذ قد تضاف الدلالات السياقية والنظام اللساني والتأثيل والتأريخ.. ألخ، كما أنها تمثل التعريف الموسوعي أو شبه الموسوعي.

ج ـ تعريف مصطلحاتي، وتمثله إحدى الصيغ الخاصة بمجال من المجالات المقصودة كما في صيغة (الرجوع في الطلاق الذي ليس ببائن)؛ حيث ان هذا التعريف لا يمكن فهمه إلا من طرف المختص في العلوم الفقهية. ويفهم من هذا النموذج أن هناك تعريفا معاجميا وآخر مصطلحاتيا وثالثا موسوعيا.

وقد مرت الأنواع في مسار المعاجمية بمراحل عديدة قبل أن تتضح معالمها المنهجية في أصناف المعاجم المتعددة؛ من معجم لغوي إلى قاموس أو موسوعة إلى معجم مختص، أو معجم ترجمة ثنائي اللسان أو متعدد الألسن.

وبإسقراء المعاجم العربية ومحاولة حصر أنواع التعريفات، يبدو لنا أن التعريف اللغوي كان أسبقها الى الظهور، حيث نشأ إبتداء من القرن الأول الهجري فيما ينسب الى عبد الله بن عباس (68 هـ/ 687 م) حين عمد الى تفسير غريب القرآن (9) مستشهدا على شروحه بشواهد من الشعر الجاهلي وهو القائل:

(الشعر ديوان العرب، فإن خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا الى ديوانها والتمسنا معرفة ذلك) (10).

وفي القرن الثاني الهجري ظهر التعريف الإسمي واضحا في معجم العين للخليل بن احمد (175 هـ/ 791 م) وقد اشتمل كتاب العين على نوعين بارزين من التعاريف:

ا ـ تعريف إسمي وتعريف لفظي دلالي عام.

ب ـ تعريف شبه موسوعي.

بالاضافة إلى استثمار بعض الوسائل المساعدة كالشاهد والسياق.

وفي القرن الثالث ظهر التعريف الموسوعي العلمي الشامل على يد ابي حنيفة احمد بن داود الدينوري (282 هـ/ 895 م) بمعجمه (كتاب النبات)، وهو تعريف منطقي شبه موسوعي إلا أنه يتجاوز التعريف المنطقي من حيث سعة الأركان الأرسطية المعروفة(11)، فقد وصل بها أبو حنيفة إلى تسعة أركان، مثل: (المعلومات اللغوية، المعلومات العلمية بخصائص النبات، المعلومات الخاصة بمنافعه، ومواضع نباته... ألخ) (12).

وعلى الرغم من أن الأركان الثلاثة الأولى مأخوذة عن العالم اليوناني ديوسقريديس في كتابه المقالات الخمس (13)، فقد أضاف المعاجميون العرب وبخاصة أصحاب المعاجم المختصة الى هذا التعريف عدة أركان أخرى حتى وصلوا بها أثنى عشر ركنا هي: (التعريف اللغوي ـ وصف بنية النبات ـ خصائص الدواء ومنافعه ـ ذكر أسماء له بالألسن المختلفة ـ ذكر ماهيته من لون وطعم ورائحة وطول وقصر ولزوجة وخشونة... ـ جيدة ورديئه ـ درجته في الكيفيات الاربع للحرارة والرطوبة والبرودة واليبس ـ مضاره ـ ما يصلحه ـ مقاديره ـ ما يركبه ـ ما يعوضه ـ طريقة إستعماله.. ألخ (14).

وقد اختص هذا التعريف الموسوعي بمعاجم الأدوية، وتتفاوت هذه الأركان من معجم إلى آخر، وقد أخذ بهذا التعريف كل من ابن جلجل القرطبي (332 هـ/ 943 م) في كتابه تفسير الأودية المفردة من ديوسقريديس، وابن البيطار (623 هـ/ 1226 م) وابن الحشاء التونسي (647 هـ/ 1259 م) في معجمه مفيد العلوم ومبيد الهموم، ومدين بن عبد الرحمان القوصوني المصري (1044 هـ/ 1634 م) في معجمه قاموس الأطباء وناموس الألباء، وأخيرا عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري (بعد 1168 هـ/ 1754 م) في معجمه « كشف الرموز في بيان الأعشاب » .

ومن أمثلة التعريف الموسوعي نذكر المثال التالي من معجم كشف الرموز لشجر الساسفراس أو الشجر الشريف: « صاصفراص: (Sassafras) هو بلغة التركمان ما معناه: أنه شجر شريف، لم يذكر في كتب الأوائل لأنهم لم يجدوه. ورائحته كرائحة البسباس، وأصله من الهند الجديد (يعني امريكا) ينبت فيها، وعرضها خمسة وعشرون درجة وهو الأرياقي من إسبانيا إلى إسطنبول وغيرها، وأهل هذه البلاد يعتقدون أنه ينفع الأمراض المختلفة، وجُرِّب ذلك، ويسميه أهلها بوسيطة، والفرنسيس سافراس. وشجرته كشجرة الصنوبر في العظم، وطبعه معتدل، وشجره له قشور رقيقة وغليظة كالقرعة، وإذا قطعته وجدت رائحته كرائحة البسباس قوية وقوته في قشره، وورقه مدور، في أوراقه ثلاث شوكات، وهو خشن كورق الأجاص... إلخ)) (15) ويذهب في وصفه في صفحتين كاملتين حتى يأتي على جميع خصائصه.

وفي أواخر القرن الرابع الهجري بدأت بذور التعريف المصطلحاتي تظهر مع الخوارزمي الكاتب (387 هـ/ 997 م) ثم مع النحاة وعلماء أصول الفقه بخاصة، ولعل خير من يمثل التعريف المصطلحاتي، ابو الحسن السيد الشريف الجرجاني (740 هـ/ 1340 م - 816 هـ/ 1413 م) في معجمه التعريفات، حيث يخص مواده بتعريفات مصطلحاتية في مجملها وإن كان لا يخلو من تعريفات لغوية وموسوعية كما أنه لم يخص معجمه بمجال واحد من المجالات العلمية بل ضمنه مجموعة من المصطلحات تخص كثيرا من المجالات الفلسفية والفقهية واللغوية والفلكية وغيرها.

ومن أمثلة تلك التعاريف المصطلحاتية:

ـ الزهد: (في اصطلاح أهل الحقيقة) هو أن يخلو قلبك مما خلت منه يدك (16).

ـ الشمس: (في الفلك) هو كوكب نهاري مضيء (17).

ـ الدائرة: (في الهندسة) شكل مسطح يحيط به خط واحد وفي داخله نقطة. كل الخطوط المستقيمة الخارجة منها متساوية، وتسمى تلك النقطة مركز الدائرة، وذلك الخط محيطها. (18).

المبنى: (في النحو) ما كان حركته وسكونه لا بعامل (19).

ويتضح من هذه النماذج أن التعريف المصطلحاتي يختلف عن كل من التعريفين السابقين اللغوي والموسوعي اختلافا منهجيا دقيقا.

وقبل أن نأتي الى الحديث عن التعريف في جانبه الإجرائي، نود أن نذكر أهم الفروق التي توجد بين

هذه الأنواع من التعاريف.

فالتعريف المعاجمي وضمنه اللغوي ينطلق أساسا من الإشارة إلى التصور مؤكدا على المقابل الدلالي مهما كان حجمه: كلمة مرادفة أو جملة أو أكثر مراعيا أنظمة اللسان بما في ذلك التأثيل والتاريخ لتطور الدلالات مشيرا إلى اهم الاستعمالات السياقية والمجالات المختلفة وبذلك فهو تعريف دلالي مفتوح وغير محدد.

والتعريف الموسوعي أقرب إلى التعرف المعاجمي إلا أنه دلالي ومفهومي في آن واحد باعتباره تلخيصا للمعرفة ولذلك قد يطول ويتسع ليشمل مجموعة من الجمل أو نصا كاملا يحيط بكل الخصائص والمجالات ويذكر أكثر المعلومات المتصلة بالمعرَّف.

أما التعريف المصطلحاتي فينطلق من التصور إلى الإشارة باعتباره تعريفا مفهوما يؤكد على مجال واحد من مجالات المعرفة فهو شبه قالبي، تبدأ بنيته بالجملة فأكثر ولا يغادر المجال المحدد للمعرف.

ب ـ الإجراء التطبيقي:

في ضوء المعطيات السابقة يمكن تحديد التعريف المصطلحاتي بأنه: (صيغة تصف مفهوماً ما بواسطة مفاهيم أخرى معلومة وتميزه عن غيره من المفاهيم داخل المجال المفهومي كما يحدد موضعه فيها) (20) وهذا يعني أن التعريف المصطلحاتي اكثر ما يؤكد على أربعة شروط قد لا يراعيها كل من التعريفين المعاجمي/اللغوي والموسوعي، وهذه الشروط هي:

1ـ تحديد علاقة المصطلح بالمصطلحات الأخرى المتصلة به.

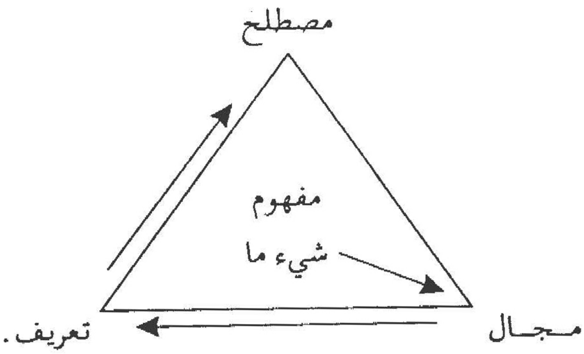
2 ـ ضبط المجال المعين للمصطلح.

3 ـ تقديم تعريف مفهومي لا دلالي؛ أي في شكل قاعدة أو قانون استلزامي.

4 ـ الانطلاق من التصور الى المفهوم، أي من المعنى الاصطلاحي الى الكلمة.

والمقصود بالشرط الرابع هو أن التصور المفهومي لشيء أو لحدث ما يعرف قبلا في مجال علمي معين كممارسة فعلية ثم يصاغ تعريفه بعد ذلك وعن التعريف المصاغ يتولد المصطلح أو الدال.

وهذه الفروق والعلاقات الموجودة بين كل من: المفهوم والمجال (الميدان)، والتعريف والمصطلح تسمى بما يعرف (بالمثلث المصطلحاتي) كما يظهر من الخطاطة التالية: (21).



وتوضيحا لهذه القضية نذكر النموذج التالي للمصلح: (ماء).

1 ـ ماء ج مياه: سائل عليه عماد الحياة في الأرض، وهو في نقائه شفاف لا لون له ولا رائحة ولا طعم (22).

ب ـ عنصر طبيعي، سائل أو صلب أو غازي، في حالته النقية عديم اللون والطعم والرائحة، يتجمد عند درجة الصفر ويتبخر عند 100. تحت الضغط

الجوي المعتاد، يزن السنتمتر المكعب من الماء عند الدرجة 4°م غراما واحدا.... ينحل الى عنصرين: اكسجين وهيدروجين بنسبة 2 إلى 1 وتنقسم المياه الطبيعية الى عدة أقسام.......(2).

جـ ـ 1: جوهر مركب من الهيدروجين والاكسجين أو (أ 2 هيد) =)كيمياء).

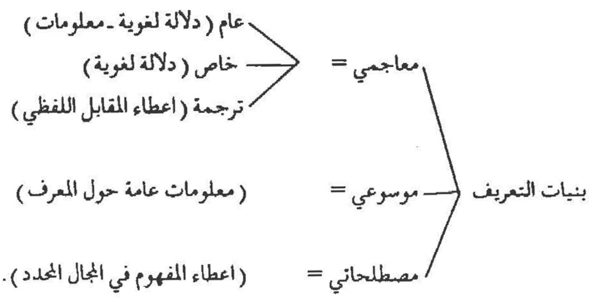
2: سائل يتجمد في الدرجة (O°) ويتبخر في الدرجة (100°) = (فيزياء). ففي (1) يبدو التعريف عاما مقربا لفهم كل من القارىء العادي والمختص، بحيث يستطيع كل واحد أن يكون فكرة توصله الى معرفة المدخل، غير أنه تعريف محدود لا يكاد يميز المفهوم عن غيره من المفاهيم الأخرى كالماء الثقيل والماء العسر والماء الملح وغيرهما من أنواع المياه، وهذا تعريف معاجمي محض.

وفي (ب) يتسع التعريف ليغطي كل خصائص الماء ومميزاته بإسهاب بما في ذلك تمييزه عن بقية المفاهيم الأخرى التي تشاركه في المجال، وبذلك فهو لا يعرّف بقدر ما يلخص المعرفة، وهذا تعريف موسوعي شامل.

اما في (جـ) فإن التعريف جاء موجزا لا يكاد يتعدى المفهوم في المجال المقصود، وبذلك فهو أكثر خصوصية، مما يجعله بعيد الفهم عن المختص، على أنه قد حدد المصطلح وميزه عن غيره من المفاهيم التي تشاركه في المجال ذاته كالماء الثقيل ـ مثلاً ـ الذي يتركب من الديوتريوم بدل الأكسجين، ويتبخر في درجة أعلى من المذكورة (24).

ومن الملاحظ أن بنية التعريف المصطلحاتي تتعدد بتعدد المجالات ولذلك لا توجد صيغة واحدة لتعريف المصطلح: كيمياء، فيزياء، رياضيات، هندسة، فقه، .... إلخ؛ غير أنها تشترك في خاصية تحديد المفهوم في المجال المعين.

ونخلص من هذا إلى أن هناك ثلاث بنيات للتعريف ـ كما يتضح من الخطاطة ـ هي: تعريف معاجمي، وينقسم الى ثلاثة أقسام: عام، وخاص، وترجمة.



وتعريف موسوعي يقدم خلاصة في المعرفة حول الشيء في جميع المجالات المعرفية.

وتعريف مصطلحاتي أكثر ما يؤكد على إعطاء المفهوم في المجال المحدد دون أن يتجاوزه.

وعلى الرغم من تعدد مناهج التعريف في الدرس المعاجمي؛ من تعريف إسمي، إلى تعريف منطقي، إلى تعريف بنيوي بأنواعها وتفرعاتها المختلفة، فإن التعريف المصطلحاتي أكثر ما يستثمر الجانب المفهومي في ظل الاتجاه البنيوي(25).

ويعتبر التعريف السيمي أو التحليل السيمي (A.Sémique) خير منهج في تحديد المصطلحات.

وقد عرف هذا المنهج بالتعريف المفهوَمي أو السيمي لاعتماده على ترصّد السمات الموجودة او المفقودة ليكون مجموعها تعريفا للمصطلح.

وجذور هذا المنهج ضاربة في أعماق الدراسات العربية، إلا أن اجراءاته التطبيقية في المجال المعاجمي لم تستغل إلا بعد ظهور المدارس اللسانية في العصر الحديث في ظل الاتجاه البنيوي.

فقد ظهر هذا المنهج أول مرة مع الفيلسوف الاشراقي السهروردي (588 هـ/1199 م) وذلك حين قدم بديلا لكل من التعريفين السابقين: الإسمي والمنطقي الأرسطي في تحديد المفهوم بمنهج أسماه: (التعريف بحسب المفهوم والعناية)، وحده بقوله: (هو تعريف الشيء بأمور تخصّه للإجتماع(26)، ومن الأمثلة التي ضربها تعريف الإنسان بأنه: (المنتصب القامة البادي البشرة، العريض الأظفار) (27) وبهذا جاء تعريفه للانسان مخالفاً لكل من التعريف الأسمى أو اللفظي الذي يكتفي بالمقابل اللفظي كمرادف أو المقارب والتعريف المنطقي الذي يعتمد الكليات الخمس كالجنس والنوع والعرض وما إليها.

وقد وجد هذا المنهج عناية مع النصف الثاني من القرن العشرين مع غاردن (Gardin) الذي صمم معجما (اصطلاحيا تستطيع كل مادة أن تحدد، وذلك اما بحضور بعض السمات الملائمة أو بغيابها) (28)، كما قدم بوتيي (B.Pottier) دراسة في التحليل المفهومي سنة 1967 م على نسق المقاعد(29).

ـ بقي أن نتساءل بعد هذا التحديد الموجز للتعريف المصطلحاتي، هل استطاعت المعاجم العربية المعاصرة المختصة الصادرة عن المجامع اللغوية والمنظمة العربية للتربية أن تستثمر التعريف المصطلحاتي؟ إن الإجابة تتطلب دراسة تطبيقية وعملا احصائيا مما يضيق عنه المجال عن تتبعه في هذا الصدد، ولذا سنكتفي بإشارات عجلى الى بنية التعاريف، ونومىء الى المنهج العام للتعريف في بعض المعاجم العربية المختصة.

التعريف المصطلحاتي في المعاجم العربية المعاصرة:

لا يكاد ينكر أحد ما بذلته المجامع اللغوية والمنظمات العربية في مجهال المعاجمية وما حققته من انجازات تنبو عن الحصر، وبخاصة ما اصدرته من معاجم مختصة في مجالات علمية أكثر تعقيدا، من طب وفيزياء وكيمياء وجيولوجيا وعمران ولسانيات وغيرها.

وباستقراء بعض هذه المعاجم، وبالخصوص المعاجم الصادرة عن مكتب تنسيق التعريب التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ـ وباعتبارها أكثر تطورا وأهمية ـ نخلص إلى الملاحظات الأولية التالية:

1 ـ إن التعريف المصطلحات غير واضح بدقة في هذه المعاجم، إذ كثير من التعاريف الواردة ـ وهي قليلة ـ تتباين من حيث البنية والشمول والدقة والتداخل والغموض.

ففي معجم مصطلحات علم الحيوان، مثلا، نجد تعريف (الخضيري) بأنه: (طير من فصيلة الحسّون من رتبة العصفوريات) (30)، وتعريف (النغر) بأنه: (طير صغير أخضر اللون من فصيلة الحسّون من رتبة العصفوريات) (31)، حيث لا نكاد نميز بين المصطلحين مع أن شرط التعريف أن يميز المصطلح

عن غيره من المفاهيم. كما قد نجد التعريف غامضا أو بعيد الفهم مثل: (ديناترون: احد الصمامات الألكترونية) (32)، ونحو: (خلية: وحدة الكائنات الحية) (33).

وهذا يؤكد أن ليس هناك منهج تعريفي متخذ مسبقا لصياغة التعاريف.

ب ـ إن اكثر هذه المعاجم المختصة لا تعد معاجم بمعنى الكلمة بقدرما هي مسارد مفرداتية ثنائية أو متعددة الألسن، خالية من التعاريف. ولعل هذا ما يجعل كثيرا من المصطلحات تتداخل، كما تشير الى ان هناك ثغرات مفرداتية نتيجة عدم استثمار نظرية الحقول الدلالية في إحصاء المصطلحات.

جـ ـ على الرغم من ان الهدف الأول من إصدار هذه المعاجم هو التعريب والتوحيد فإن هذا الهدف يظل بعيد المنال لسبب بسيط وهو أن هذه المعاجم لا تصل الى المستهلكين لها من أساتذة وباحثين وطلاب إلا نادرا، سواء على مستوى المؤسسات التعليمية أم على مستوى مكتبات البيع، أضف إلى ذلك عدم تخصيص حصص في وسائل الإعلام لإشهار هذه المصطلحات وتزكيتها.

بقي أن نشير في ختام هذا البحث الموجز إلى ما للتعريف المصطلحاتي من أهمية في صناعة المعاجم المختصة وبناء تعاريف المصطلحات العلمية التي هي أدوات المعرفة ومفاتيح العلوم، وبخاصة ونحن نحيا عصر الحواسيب وبنوك المصطلحات.

الهوامش والمراجع:

1 ـ اكثر ما يدل المصدر الصناعي في حالة الجمع أو مع الألف والنون (معاجمية ـ مفرداتية ـ تعليماتية..) على الحرفة أو الصناعة أو العلم.

2 ـ التعريفات، للجرجاني (السيد الشريف)، الدار التونسية للنشر 1971 ص 16

3 ـ P. Robert:Dictionnaire de la langue Française (I), Paris: Le Robert 1986, P. 1946

4 ـ د. علي القاسمي، علم اللغة وصناعة المعجم، مطبوعات جامعة الرياض، 1975و الرياض، ص 10.

5 ـ R. Galisson, et coll: Dictionnaire de Didactipue, Paris, Hachtte 1976, P 559.

6 ـ Dubois, J. et coll: Dictionnaire de linguistipue, Paris 1973, Larouss, p. 486

7 ـ 1. الجيلالي حلام، المعجمية العربية الحديثة، رسالة ماجستير مرقومة بمعهد اللغة العربية وآدابها، جامعة وهران، 1992، ص 3.

8 ـ الخوارزمي الكاتب، مفاتيح العلوم، بيروت، دار الكتب العلمية (د. ت) ص 3.

9 ـ السيوطي (جلال الدين)، الاتقان في علوم القرآن، القاهرة، 1900، ص 121 ج 1.

10 ـ م. س.

11 ـ د، ابراهيم بن مراد، دراسات في المعجم العربي، دار الغرب الاسلامي، ط 1، 1987 بيروت، ص 230.

12 ـ ابراهيم بن مراد، المعجم العلمي العربي المختص، دار الغرب الاسلامي، ط 1، بيروت، 1993، ص 29.

13 ـ م. س. ص 33.

14 ـ م. س. ص 134.

15 ـ ابن حمادوش، عبد الرزاق، كشف الرموز في بيان الاعشاب، الطبعة الثعالبية، الجزائر، ط 3، 1928، ص 109 وما بعدها.

16 ـ الجرجاني (السيد الشريف): م. س. ص 61.

17 ـ م. س. ص 68.

18 ـ م. س. ص 55.

19 ـ م. س. ص 105.

20 ـ Felber; H: Manuel de Terminologie Paris, Larousse, 1970, p. 136

21 ـ Bruno deBesse: La definition Terminologipue, Paris, Larousse 1990, P 255

22 ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المعجم العربي الأساسي، لاروس، ط 1، 1989، باريس، ص 1161.

23 ـ د. أنور محمود عبد الواحد، المعجم الهندسي، دار الشروق، ط 1/1973، القاهرة/بيروت، ص 330.

24 ـ م. س. ص 333.

25 ـ أ. الجيلالي حلام. م. س. ص 216.

26 ـ السهروردي، شرح حكمة الاشراق للشيرازي، عن مناهج البحث عند مفكري الإسلام، للدكتور علي سامي النشار، دار النهضة العربية، بيروت طبعة 1984، ص 306.

27 ـ م. س. ص 707.

28 ـ بيارجيرو، علم الدلالة، ترجمة: د. منذر عياشي دار طلاس، دمشق ط 1/1988، ص 170.

29 ـ R. Galisson, op. cit. p. 487

30 ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معجم مصطلحات علم الحيوان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1989، ص 67.

31 ـ م. س. ص 110.

32 ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم/معجم مصطلحات الفيزياء، م. س. ص 24.

33 ـ م. س. معجم مصطلحات علم النبات، ص 36.

مسيرة الاصطلاح الطبي في الغرب

ترجمة الاستاذ / إدريس بن الحسن العلمي(*)

إن الممارس لعمل التعريب الذي ينظر ولو نظرة سريعة في تاريخ الاصطلاح الطبي الغربي لن يملك نفسه من إرسال صيحة المفاجأة كلما طالعته من خلال مسيرة هذا الاصطلاح صعوبة من الصعوبات أو مشكلة من المشاكل العويصة التي واجهها أو يواجهها تعريب العلوم اليوم. وسيشعر بكثير من العزاء عندما يرى نقل علوم الطب من اللغة اللاتينية الى اللغات الأوروبية الحديثة يلاقي من غلاة المتعصبين للغة اللاتينية، الذين لا يبغون عنها حولا، ما يلاقيه عمل التعريب اليوم من مقاومة ومناهضة من بعض أبناء لغة الضاد أنفسهم.

وسيجد كثيرا من المواساة عندما يلاحظ في ذلك التاريخ أن الاصطلاح الطبي الغربي عانى نفس المعاناة التي يعانيها الآن الاصطلاح الطبي العربي (والعلمي بصفة عامة) من آفات الترادف، والاشتراك، والدخيل، والالتباس، والابهام، وتشبث الفرد أو الإقليم - في تعصب - بمصطلحه مهما تبين عدم صلاحه، ووجود ما هو أفضل منه، الى غير ذلك من الآفات.

إن الإطلاع على هذه الدراسة لتاريخ الاصطلاح الطبي الفرنسي، التي قام بها عالمان هما (جان - شارل صورنيا) و(ألكسندر مانويلا) : اللذان يعدان من أساطين الطب بفرنسا ومن رواد منهجية الاصطلاح الطبي والمعجمية الطبية في العالم، لخليق بأن يحل كل العقد النفسية الناشئة عن تخلف لغة الضاد في التعبير العلمي، وجدير بأن يخلص من مركب النقص اللغوي الذي مازال يتحكم في عقول الكثيرين من أبناء المغرب العربي على الأخص. فعسى أن نكون بترجمة هذه الدراسة إلى العربية قد وفقنا إلى حل البعض من هذه العقد وإلى تفكيك ذلك المركب. ولقد قمنا بترجمتها من اللغة الفرنسية إلى العربية نقلا عن موسوعة « تاريخ الطب والصيدلة وطب الأسنان والبيطرة » (المجلد الثامن) طبعة 1980 للشركة الفرنسية للنشر المهني والطبي والعلمي(**).

ويرجع الفضل في إمدادنا بالنص الفرنسي لهذه الدراسة إلى ولدنا الدكتور أمل العلمي حفظه الله وبارك في مشاريعه وأعماله. وقد أمدنا به ليكون فصلا من فصول كتابنا « مدخل لتعريب الطب ».

(*)خبير سابق في مكتب تنسيق التعريب

(**) Histoire du language médical/par Jean Charles Sournia et A lexandre Manuila.
p. 319 in "Histoire de la Médecine de la pharmacie de l'art dentaire et l'art vétérinaire". Tome 8 Collection dirigée par Jacques Poulet, Jean Charles Sournia et Marcel Martiny. Editeur: Société Française d'éditions professionnelles, Médicales et Scientifiques (1980).

تمهيد

«كثير من الأطباء كتبوا عبر القرون عن تاريخ فنهم وأساليبهم العلاجية وعن تاريخ من سبقوهم إلى فنهم لكنهم أهملوا لغتهم الاصطلاحية. والحالة أنه لا توجد أداة للتأمل والتدبر والعيار والمواصلة ضرورية بقدر ما هي اللغة، لأنها تحث الفكر، مثلما تكبحه، أو تحبسه. فعلماء الطبيعيات، والكيمياء، والإناسة (anthropologie)، قد اهتموا بأداة تعبيرهم. وقليل من فعل ذلك من الأطباء. ولذلك قل من سبقنا من الرواد الى ما نقوم به في هذا البحث من معالجة لرسم الخطوط الكبرى للغة الطبية.

فمن السهل الاستشهاد على أن تطور الطب عبر العصور لم يتأت بدون تطور لغته. فإنه لم يلاحظ قط أن ابتكارا علميا تم من غير أن يصحبه ابتكار لغوي.

وسنكون بطبيعة الحال مضطرين في هذا البحث إلى دراسة اللغة الطبية الفرنسية على الأخص مهما كانت معرفتنا للغات الأجنبية وتاريخها. ولا يمكننا أن نعالج من بين العلوم التي لا تحصى - مما أصبحت تتضمنه الدراسة الحديثة للغة ما - سوى علمين: الاصطلاح، والمعجمية (تأليف المعاجم). وعليه سنتحدث في القسم الأول من هذا البحث عن نمو المفردات الطبية ونتحدث في القسم الثاني عن المراحل التي قطعتها المعجمية لاسيما في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وأخيرا سنلم بالاهتمامات والتساؤلات التي تطرح نفسها على الأطباء اليوم.

نشأة المفردات الطبية الفرنسية

جميع فصول هذا التاريخ العام للطب تدل على أنه لا يمكن في أي مرحلة من مراحل تطوره أن يعزل عن سياقه الثقافي والتاريخي ولا عن المجتمع الذي يمارس فيه. ولا تستثنى من هذه القاعدة المفردات الطبية. فإن حياة ذات الإنسان تطرح من المشاكل العامية واليومية ما لا يسعه معها منذ كان إلا أن يخصها باصطلاح. فيمكننا إذن القول بأن المفردات الطبية الشعبية كانت موجودة في اللغة الفرنسية قبل أن ينشئ الأطباء هيئتهم ثم علمهم. كما يمكننا القول بأن المفردات الطبية الفرنسية تندمج اندماجا وثيقا في تاريخ اللغة الفرنسية، وبالتالي ليس في الإمكان رسم حدود مضبوطة لحقل المفردات الطبية.

ففي «أنشودة رولان»، التي هي من معالم اللغة الفرنسية الأولى، نجد مفردات تشريحية: منها ما لم تتغير ألفاظه حتى اليوم، ومنها ما بقي مستعملا ولكن عند العامة، ومنها ما تغير معناه، ومنها ما اندثر، واحتاجت القرون اللاحقة الى الاستعاضة عنها بمصطلحات أخرى. بحيث لو اقتصرنا على الوصف التشريحي لجروح فرسان (شارلمان) لوجدنا أنفسنا أمام أربع مغامرات ممكنة للمصطلح الواحد: إما استمراره عبر القرون، وإما تغير استعماله أو مدلوله، وإما موته المبكر، وإما تأخر ولادته.

فالصعوبة الأولى تأتي من كون الطبيب لا يمكنه نسيان المصطلحات العامية المتصلة بالجسم أو المرض المستعملة في الأوساط الشعبية التي يعالجها. فالمفردات الطبية لا تنحصر فيما عند الأطباء من مفردات. من أول الزمان توجد لجميع الحرف لغات تناسب ثقافات من أنماط مختلفة. فالمرأة من العامة لا تستعمل نفس اللفظ الذي تستعمله القابلة المولدة، التي لها مفردات تختلف عن مفردات الجزار، وهو

يتكلم على نحو مغاير لما يتكلم به المحامي، وهذا الأخير لفظه يقل دقة عن لفظ الطبيب. وهكذا كان الحال دائما في جميع المجتمعات. ولم تغير وسائل الإعلام الحديثة هذه الثابتة. فاللغة الطبية المتداولة، في حقبة ما، تضم إذن ألفاظا شعبية، وألفاظا مستعملة من لدن أوساط محدودة.

بيد أن الطبيب، يوم يحتاج إلى صورة جديدة لوصف مرض ما، يعمد إلى صنع لفظ جديد. فإذا ما انتشر هذا اللفظ فإنه ينتقل من الكلام الشفوي إلى الكتابي ويؤمئذ يعلن على أنه لفظ جديد. وهذه صعوبة ثانية في سبيل دراسة المفردات الطبية، ناشئة عن التفاوت الحاصل ما بين استعمال لفظ وبين بروزه بروزا تاريخيا: وعليه فتاريخ ولادته يكون دائما غير مضبوط.

ثم قد يبور هذا اللفظ إذا ما مات صانعه أو إذا لم يعد العمل جاريا بالإطار الذي نشأ فيه سواء كان هذا الإطار فلسفة، أو مذهبا خلقيا، أو علما لتصنيف الأمراض، أو مفهوما علميا. فهو يقل استعماله شيئا فشيئا. فعندما تخرج نظرية (فرود) و(صيلي) من الطب فإن لفظ «العقد النفسية» (Les complexes) ولفظ "Stress" سيبقيان بعدهما قليلا ويكتبان بين هلالين مزدوجين ثم ينسيان. فالألفاظ لها حياة، وتاريخ موتها مشكل عويص، مثل تاريخ ولادتها. بيد أنها قد تظهر، فيما بعد، مكللة بهالة غريبة من الجدة وبمعنى جديد أيضا مثلما هو الحال مع لفظ "relaxation" (الاسترخاء).

والصعوبة الرابعة في دراسة المفردات تأتي من تغيير معانيها. فمثلا لفظ "Fievre" (الحمى) نجد، ونحن في نهاية القرن العشرين، مشقة كبيرة في التخلص من مدلوله الحالي الذي يعني ارتفاعا في الحرارة الباطنية مقيسا بمحرار مدرج الترقيم. فهذا المعنى لم يكن يتصور منذ بضعة قرون. وهذا المثل يؤكد مرة أخرى أن اللفظ لا يفهم إلا في سياق عصره الاجتماعي واللغوي والثقافي والمهني (ولا نجرؤ على القول و«العلمي»): فالإقدام على ترجمة نص طبي يرجع عهده إلى القرون الماضية، ودون الاطلاع الكامل على طب عصره، ولغته، يعد مغامرة خطيرة، وذلك هو السبب في أخطاء الأطباء القليلي الإطلاع على التاريخ، وفي أخطاء المؤرخين من غير الأطباء.

ولا ينبغي لعرض هذه الصعوبات المنهجية أن يؤخر - أكثر مما فعلناه - ذكر التسلسل التاريخي للمفردات الطبية. ولا يسوغ لنا في إطار تاريخ عام أن ندخل في تفاصيل كل مدرسة علمية، وحياة كل لفظ. ولذلك سنرسم مراحل هذا التطور في خطوط كبرى.

في العصور الوسطى، كان أطباء الجامعات يدرسون، ويناقشون رسميا، باللغة اللاتينية، مع أنهم كانوا يتكلمون باللغة الفرنسية مع مرضاهم، ومع أصحاب مهن صحية، لا تقل نفعا للعموم عن مهنتهم، مثل الحلاقين، والجراحين، والقابلات المولدات، والعطارين، والعشابين، والصيادلة، ولا يتكلمون معهم إلا باللغة الفرنسية وحدها. ولم تبق لنا المخطوطات من مفردات هذا الكلام سوى آثار قليلة تتمثل في الترجمات الفرنسية لمؤلفات (هنري دو موندوفيل) ثم (كي دي شولياك) في الجراحة.

قد كانت إذن مفردات تقنية موجودة، عندما ساعدت ظاهرة الطباعة، مع انخفاض ثمن الورق، على نشر الكتاب في القرن السادس عشر نشرا هائلا. فمن هذه الظاهرة يبدأ تاريخ اللغة الطبية الفرنسية. وفي نهاية القرن كان عدد الكتب الفرنسية المطبوعة يفوق بكثير عدد الكتب اللاتينية. وكانت مفردات اللغة الطبية الفرنسية في البداية جراحية. ولم يقبل الأطباء على اللغة الفرنسية إلا فيما بعد، وبشيء من الخجل، إذ كانوا يرون أن عليهم بصفتهم علماء جامعيين أن يتكلموا باللاتينية. وكانوا يترددون في الكتابة باللغة الفرنسية، آنفين من الانحدار إلى مستوى الجهال الذين يكتبون بها ولا يستطيعون التعبير باللغة اللاتينية: وهذه كانت حالة الجراحين. فإن التقليديين كانوا يعتقدون أن طبا جادا لا يمكن أن يكون إلا لاتينيا.

من الجامعة أتت المعارضة الشديدة لطبع الكتب الطبية بالفرنسية. ولنا تعليلات عديدة لهذه المقاومة. فقبل كل شيء، كانت فرنسة الطب تؤذن بنهاية عهد، وببداية عهد جديد. فكانت جديرة بأن تقاوم، لأن محاربة اللغة الفرنسية كانت تحمي مصالح طائفة، واستمرار ثقافة. وهكذا هيمنت المعارضة بين العقليتين على حياة كليات الطب، بمظاهرات هائلة وبتصرفات ماكرة، مدة ثلاثة قرون.

في خضم هذا الجدل كان موقف الكنيسة يختلف حسب الحقب، وحسب الأساقفة. فمبدئيا، كان عليها أن أن تشاطر الجامعة موقفها، ولكنها راعت هيجان العقول الذي أحدثته دعايات المبشرين من دعاة التجديد باللغة الدارجة: فما كان يسعها إلا أن تستجيب على غرارهم للتجديد لكي تكون ذات فعالية. فلم يتمكن الأطباء التقليديون من الإعتماد على مساندة الكنيسة.

وفي النهاية، كان للملوك تأثير حاسم على انتصار اللغة الفرنسية. فالملكية بإنشائها (كوليج دي فرانس) (College de France) لمضاهاة (لاصوربون La Sorbonne) و كوليج جراحي سانت - كوم (College des Chirugiens de Saint-come) في ميدان آخر، وبتوحيدها اللغة القضائية، في مجموع المملكة بمرسوم (فيلير - كوطوري Villers Cotteret (1539) وبتشجيعها المؤلفين، والطابعين، باللغة الفرنسية، كانت بذلك تدعم معارضتها للامتيازات الكنيسية، والجامعية، وللخصائص الأقاليمية، أو المهنية. فبينما كانت الأمبراطورية والكنيسة تتكلمان باللاتينية لأسباب تختلف فيها إحداهما عن الأخرى كانت سلطة اللغة الفرنسية وذيوعها يشهدان بوحدة مملكة فرنسا وقوة أميرها.

فالمؤلفون باللغة الفرنسية - كما كانوا يقولون هم أنفسهم - كانت لهم حظوة، مع أن لغتهم كانت تنقصها المصطلحات الصالحة للتشريح، وللصيدلة، ولعلم النبات. فكان فكرهم، وحركاتهم، وتقنياتهم تعاني كثيرا من هذا النقص في التعبير. وهذا ما حداهم لابتكار ألفاظهم.

من القرن السادس عشر بدأ اصطلاحنا الطبي الناتج عن رغبة الأطباء في أن يعبروا ويترجموا بمصطلحات فرنسية جديدة، عما كانوا يتعلمونه من علم التشريح وعما كانوا يريدون تعليمه من مبادئ الصيدلة الجديدة. إن اللغة الطبية قد نشأت من

ضرورة نشر عرفان، لا من ضرورة فرض سلطان.

فالمؤلفون، الذين كانوا مضطرين إلى أن يصنعوا لأنفسهم طريقة للتعبير، استعملوا وسائل عديدة ليقولوا بالفرنسية ما كان يقال زمنا طويلا باللاتينية، أو ما لم يسبق قوله قط.

وأبسط هذه الوسائل طبعا هو إدماج المصطلحات الدارجة في كلامهم فالألفاظ العادية مثل الساعد، والساق، والفخذ، والشهيق، والغدة، والدمل، والعصب، والمبزلة، والمبزغ إلخ.. دخلت في جملة مفردات الجامعيين. فهذا الأسلوب، الذي اتبع في إدماج مصطلحات دارجة في اصطلاح قد ضم مصطلحات علمية غميسة، في القرون اللاحقة، يلاحظ في شتى العلوم، ويتصف بجسامة ضخمة في علم الطب بالخصوص.

وإلى هذه النواة الجوهرية ـ التي هي مفردات اللغة الطبية الفرنسية المشتقة من اللاتينية السفلى، ومن اللغة السلتية، ومن مختلف اللهجات الجرمانية ـ أضافت تجديدات ذلك العصر مصطلحات عديدة مشتقة من اللاتينية. فإلى ذلك العهد يرجع تاريخ ألفاظ متداولة اليوم مثل:

Plexusو Relaxationو Processus و Revulsionو Serum و Vesicatoireو Virus و Sacrum، إلخ...

وفي كثير من الأحيان لا تكفي اللاتينية ويستنجد باللغة الإغريقية بواسطة اللاتينية أو بدونها. تلك اللاتينية التي استعارت منها ألفاظا مثل: Hygieneو nephretiqueو Pancreas و Paraplegie و Phlegmon و Thyroide الخ... وعندما لا يوجد اللفظ كان يصاغ من مركبات لاتينية أو إغريقية. ومنذ القرن السادس ظهرت ألفاظ خلاسية إغريقية ـ لاتينية أثارت حفيظة اللغويين المتشددين وتكاثرت رغم أنفهم ألفاظ من أمثال: Coecostomie و Ovariectomie إلخ.. وأخيرا احتلت الكتب الطبية العربية مكانة كبيرة في تدريس كليات القرون الوسطى بحيث رغم ترجمتها إلى اللاتينية أعطت كلمات متداولة مثل "alcool"و "Sirop"... وكذلك "Bézoard" التي استعارتها اللغة العربية من اللغة الفارسية.

فالنهضة قد أثْرَتْ إذن اللغة التقنية الطبية إثراء عظيما. وهذا التطور الذي انتقده فوجيلاس (Vau-gelas) سار بدون التواء ولا رجعة. وبعث هذا التطور عناية كبيرة بالطب في مختلف الأوساط. فقد اهتمت به الأوساط البورجوازية الباريسية، والاقليمية، والعلماء والمتحذلقون، والمقربون الى الأمراء، والنبلاء البدويون الأمناء على صحة فلاحيهم. وتشهد على هذه العناية المكانة الكبيرة التي احتلها الطب في المراسلات، وفي النقد والهجاء، والتقويمات الفلكية، والمقالات، والمعاجم، والنثر، والشعر بسونياته (سان كوم ـ Saint-Come) وكان مرتادو الصالونات يتعرفون فيما بينهم على مستحضرات تشريحية. وفجأة كانت، تظهر في كتابات (مدام دي سيفينيي) أو على لسان (سكا ناريل) مصطلحات كانت تعتبر، عقودا من السنين من قبل، مفردات علمية صرفة.

هذه «المباهاة» بين علية القوم بالطب (إذ لم يكن بلغ حد تعميمه بين الناس بعد) لم يكن يستسيغها ذوق الجامعات عندما انتشرت ابتداء من سنة 1965 (جريدة العلماء Le Journal des Savants) ثم «جرائد الطب».

وجاء القرن الثامن عشر فلم يكن له بد من استحثاث هذه الحركة. ثم مضى زمن طويل على بعض الأطباء وهم يتحسرون على هجر اللاتينية، مع حنين إلى الماضي، وإلى ثقافته الطبية الأدبية. ولكن استمرت مع الأيام في التكاثر، المراسلات باللغة الفرنسية بين الأطباء. وكانوا ينشرون بها رسائلهم. وكانت المناقشات في الأكاديميات تجري باللغة الفرنسية ثم بعد لأي كتبت الموسوعة بهذه اللغة.

وطوال القرن، كان العلماء يتحدثون عن صحة الكلمات المولدة. فإذا كان بعضهم يزعمون أن المفردات الفرنسية كافية للتعبير عن كل شيء، فجلهم كانوا يرون أن الكلمات القديمة مشحونة بمفاهيم خارجة عن العلم الجديد، بحيث لا يمكن الاحتفاظ بها، وان الحاجة ماسة الى مصطلحات مجردة غير موجودة، إلى مصطلحات جديدة، تساعد جدتها على فهمها بمعنى واحد، في جميع الأقطار.

وأعطى الموسوعيان (لافوازيي وصوصور) لنظريتهما وللأجسام التي كانا يكتشفانها، وللالات التي كانا يصنعانها، أسماء لم تكن مستعملة من قبل. وعلى غرار (ليني، Linne) تعممت التصنيفات، فشملت مختلف أصناف فصائل الطبيعة، وامتدت الى الطب. وكان أول تصنيف معقول للأمراض - على ما يبدو - هو تصنيف (مون بيلييران بواصي دي صوفاج Mont-Pelliérain Boissier de Sauvages) في سنة 1759 ثم أعقبته عدة تصنيفات أخرى.

وأعاد الطب الاعتبار لبعض المصطلحات الشعبية القديمة، التي كان القرن السابع عشر قد نحّاها. فتجددت بالضبط مدلولات مصطلحات التشريح، وانتفت نهائيا ألفاظ أخرى وبصفة عامة استنجدت الألفاظ المولدة الجديدة بالجذور الإغريقية. وفي نهاية النظام القديم، كانت جميع كليات الطب الفرنسية تدرس باللغة الفرنسية، وينشر أساتذتها بالفرنسية جرائدهم، وكتبهم، ومذكرات جمعياتهم العلمية. وكانت لديهم وفرة هائلة من المفردات، يرجع عهد بعضها الى غابر الأزمان، وبعضها الآخر الى بضع سنين. ولم يكن تاريخ الطب بفرنسا هو نفسه في سائر أقطار أوروبا. فلئن كانت فرنسا سباقة إلى الإنتقال من اللاتينية، اللغة الميتة، إلى لغة شعبية جديدة كل الجدة، فقد تلتها عن كثب، إيطاليا، حيث بدأ منذ نهاية القرن الخامس عشر إصدار مطبوعات الطب باللغة الايطالية في (بادو Padoue وفلورانس FLorence. وفي هاتين الكليتين، وكذلك في (بولوني Bologne) أخذ التدريس يتسع شيئا فشيئا، باللغة الايطالية، في حلتها التوسكانية.

وكانت انجلترا بطيئة نوعا ما، حيث ظهرت دورية (Philosophical Transactions) مثل (جريدة العلماء Le Journal des Savants) بباريس في سنة 1665؛ ولاريب في أن الطب بانجلترا بقي وفيا للاتينية أكثر منه في فرنسا، بسبب انتشار اللغة الفرنسة بأوروبا أكثر من انتشار الانجليزية فيها. وألمانيا هي التي كانت أكثر تعلقا بالقرون الوسطى. فحتى قبيل الحرب العالمية الثانية كانت أطروحات الطب بألمانيا تناقش بعضها باللغة اللاتينية، هذا مع أن (برونشويك Brunsch-wig) نشر باللغة الالمانية دراسات تشريحية، مرتكزة على الاعمال التشريحية المنجزة خلال حرب سنة

1490 وذلك زمنا طويلا قبل نشر (باري Pare) أعماله بالفرنسية، ومع أن علومها كانت في القرن الثامن عشر تفخر بعلماء ألمانيين من كبار علماء العالم، ومع أن الطب ما كان له أن يكون على ما هو عليه اليوم لو لم يحظ في القرن التاسع عشر بالعالمين الألمانيين (فير شوف وكوش Virchow et Koch)؛ ومع أن إنتاج ألمانيا الطبي باللغة الالمانية أصبح عظيما من حيث قيمته ووفرته، فمع هذا كله بقيت ألمانيا أشد محافظة على اللغة اللاتينية.

فلا ينبغي لنا أن نستهين بقدر هذه المصارعة بين اللاتينية والفرنسية كما لو كانت شيئا تافها، اذ لا يجدر بنا أن نعتبرها مجرد انتقال في التعبير من طريقة الى أخرى، بل هي طفرة من ثقافة الى ثقافة أخرى، ومن علم إلى علم آخر، ولم ينجز أي شعب هذا الإنفصام بسهولة. فلنفكر في معاصرينا من أطباء الأقطار النامية المضطرين إلى ازدواجية ثقافية. فهم يدرسون ويعملون بلغة دولية قويمة ثم هم يقومون بعلاجاتهم متحدثين بلغة عامية غير دقيقة. فلا أحد يعرف كيف يساعدهم في هذه الوضعية العسيرة من الناحية الثقافية والقليلة الجدوى من الناحية العلمية.

المعاجم في خدمة العقل

إن إعادة استعمال الترتيب الألفبائي، لجمع المعارف، بطريقة تعليمية وسهلة القراءة، انتشرت منذ القرون الوسطى. وشارك فيها الطب. وطبعت مؤلفات من هذا النوع منذ القرن السادس عشر.

المعاجم ميادين دراسة نفيسة لرسم تاريخ لغة ما، لكن ينبغي توضيح قيمتها الوثائقية. فمحتواها يختلف حسب الأهداف التي نصبها مؤلفوها. فبعضهم يحصرون عملهم في فرع من فروع الطب، كعلم الحمية الغذائية، أو المداواة بالنباتات الطبية، او الفسلجة (علم وظائف (الأعضاء) أو حتى النظم الشعري للمصطلحات الطبية، وبعضهم يريدون الإحاطة بعلم الطب كله. والى جانب المعاجم الصغيرة نرى مؤلفات ضخمة ليست تكرارا لها بل هي لها تتمة وتكملة.

من دون أن نقصد تكرار كلامنا على مفهوم «حياة لفظ» نذكر بأن اللفظ كان يتداول مشافهة زمنا طويلا قبل ظهوره في المعجم الذي هو دائما مسبوق باستعماله: وعلى العكس تتضمن المعاجم مصطلحات مهجورة وذلك ليتمكن من فهم معناها القارئ الذي يعثر عليها في كتاب قديم: ولأن مؤلف المعجم ليس بالضرورة على علم بالتطور الحاصل يوميا في كل فرع من فروع الطب. فالمعجم، بسبب ثغراته ومصطلحاته الزائدة، هو وثيقة تاريخية ينبغي تقدير مالها من قيمة وحدود. إن إنتاج المعاجم المطبوعة خلال الخمسة قرون الماضية قد تتبع عن كثب اتساع المعارف الطبية، وتعدد المذاهب المتعاقبة، وتضخم إصدار المطبوعات العلمية او التعميمية. لكن تاريخنا للمعاجم لن يتناول منها سوى الطبية المحضة.

فلئن كان القرن السادس عشر لا يعطينا منها سوى بضعة عناوين فإن القائمة التي يزودنا بها القرن السابع عشر اشمل وأوفر. فان (كيمادا Quemada) يذكر تسعة معاجم محررة باللغة الفرنسية على رأسها معجم (طوماس بيرني Thomas Burnet) في

سنة 1691 بمدينة ليون). وينبغي ان نضيف اليها نحو خمسة عشر معجما طبيا باللغة اللاتينية يتضمن كثير منها جداول ثنائية اللغة مفيدة لنا كثيرا.

وكانت معاجم القرن الثامن عشر يهيمن عليها المعجم الانجليزي الذي ألفه (جامس James) ونشر بالفرنسية في سنة 1746 مترجما بقلم (ديدورو وايدوس وطوسان Diderot, Eidous et Toussaint) ويبين (ديدورو) مقاصد المؤلف التي هي: اشاعةالمعارف الضرورية وتصحيح الممارسة... وفي ذلك الحين اصطدم (جامس) بصعوبة لم تزدها الأيام إلا ضخامة واستفحالا وهي « ذكر مختلف الأسماء التي أطلقت على نفس الشيء وبيان الفرق الحاصل بين عدة أشياء مختلفة أطلق عليها نفس الإسم. ولم يهمل المعجم أي فرع من فروع الطب، لا التشريح، ولا التشخيص، ولا التجسب (Pronostics)، ولا المعالجة بالصيدلية، أو بالجراحة. وعلاوة على ذلك أسهم إسهاما كبيرا في تاريخ الطب، فقد ذكر عند شرحه للأمراض أسماء الشخصيات البارزة التي ماتت مصابة بها، ثم تناول ترجمة حياة الأطباء الجديرين بالخلود.

وأخيرا لن نغفل اشتماله على ستين صورة جيدة النوع زينت مجلداته الستة الضخمة من الحجم الكبير. ولم يحذ حذوه فيما بعد إلا القليل من المعاجم نظرا لغلاء تكلفته.

وإمتاز القرن التاسع عشر بازدهار التاليف المعجمي إزدهارا عظيما. وأول المؤلفات ظهورا كان معجم (كابيرون Capuron) في سنة 1806، ويمكننا القول بأن خلفه باق حتى اليوم، إذ أن هذه الطبعة الأولى التي كانت بين بين، أعقبتها طبعة (نيستين Nysten) المتأصل من (ليبج Liege) وصديق وتلميذ (بيشاط Bighat)، ثم تتالت الطبعات طوال القرن التاسع عشر.

وصدرت الطبعة الثانية لنفس المعجم في سنة 1865 بإسم (ليتري وروبان Littré et Robin) وهي، باحتوائها ألفا ستمائة صفحة، كانت أضخم من الأولى بكثير. فقد أرادت أن تكون موسوعة، وأن تقدم صورة صحيحة وكاملة لعلم الطب، بما فيه « العناية بالنظافة والصحة العمومية التي يزداد اهتمام الرأي العام بها ». وكان (روبان Robin) مادي المذهب (مثل « ليتري Littré) وكانت له قضايا مع العدالة لأن تعريفاته الأصيلة للروح وللضمير كانت قمينة بأن « تفسد الشباب ».

ومن سنة 1812 إلى سنة 1822 (استمر اصدار معجم للطب بعنوان Dictionnaire de Médecine كانت تصدره « شركة أطباء Société de Médecins منهم حسب الترتيب الألفبائي (اديلون وألار Adelon et Alard) يتبعهما (بايل Bayle) و(لائينيك Laennec) و (لاري Larrey) و(بينيل Pinel)... وابتداء من الطبعة الثانية 1833 أضيفت أبواب جديدة، منها باب للكتبانية (الببليوغرافية)، ومنها على الأخص باب إحصائيات طبية، وهو فرع حديث النشوء. خطط المعجم في سنة 1812 لكي يشمل عشرين مجلدا فاشتمل في الواقع على ستين.

ثم ظهر في سنة 1864 المجلد الأول من (معجم جديد للطب والجراحة العملية - Nouveau Dictionnaire de Medecinee et de Chirurgie Pratique) بقلم

ستة وثلاثين محررا مديرهم كان (جاكود Jacoud) وكان المعجم ينفي كونه موسوعيا، ويثبت قصده أن يكون « عمليا ».

وفي نفس السنة، سنة 1864 ظهر من « معجم موسوعي للعلوم الطبية » Dictiooaire Encyclopédique des Sciences Médicales المجلد الأول بقلم مائة وتسعة وسبعين محررا منهم (باستور Pasteur) و(ليتري Lit-tré). ولما كان المدير هو (أ. ديشمبر A.Dechambre) فقد عرف بهذا الاسم ذلك العمل الضخم، المتكون من مائة جزء، والحاوي مجموع علم الطب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وفي مقدمته الطويلة يسرد (ديشمبر Dechambre) جميع العلوم التي أصبحت لازمة للطب وهي : الكمياء (التي استتبعت تفصيلا طويلا)، والفيزياء، والتشريح، والفسلجة، والتاريخ الطبيعي الطبي، حيث يحتل علم النبات مكانا كبيرا، والطبابة Thérapeutique والطريقة التجريبية (مع التنويه بكلود برنار Claude Bernard)، وعلم الصحة، والطب الشرعي، والجغرافية الطبية، والاحصائيات التي عزز ذكرها بهذه الجملة : « لعل دور الطبيب الاجتماعي لا يظهر أكثر ولا أكبر في أي مكان ».

ولم تنته ثورة الطب بمعجم (دشمير)، لأن علم الجراثيم وعلم الاشعاعيات أو « الرديلجة » (Radiologie) لم يولدا حتى نهاية القرن. لكن لم يجرؤ أحد على استئناف الجهد العظيم المبذول في هذا العمل الذي بلغ ذروة المعجمية الطبية الفرنسية واستقر فيها طوال مائة سنة ولم يكن يفوق المعجمية الطبية الفرنسية في وفرتها وتنوعها، أي معجمية في أي قطر.

اهتمامات ومجهودات معاصرة

في نهاية قرننا العشرين يمكن الإتيان بوصف مؤقت للغة الطبية. قد إتسع نطاق المفردات خصوصا منذ خمسين سنة إتساعا عظيما لعدة أسباب، فالأطباء والباحثون ارتادوا ميادين جديدة، وجددوا القديمة : مثل علم الأحياء الجزيئي، وعلم الوراثيات، والطب الفضائي، والطب النووي، وعلم المناعة، والإحصائيات الطبية والمعلوماتية، وعلم الألرجة (الحساسية)، وعلم الهرمونات، وكمياء الدماغ الخ... وكان للتدويل دور في الإكثار من مناسبات الكلام والكتابة، في المؤتمرات، والندوات، والمناظرات، والمجالس، والإجتماعات وهي مما يتلهف الأطباء عليه. وأعقب تراكم العرفان تقسيمه. فانقسمت الفروع الكبرى للطب إلى فريعات اختصاصية وكانت لكل فرد حائز على قسط صغير من العلم نزعة، في برجه، إلى إحداث مفرداته الخاصة.

ومن هذا الشتات الذي أصاب الطب، مضافا إلى إثرائه العلمي، وتوسعه الكوكبي، نشأ خلط كبير في لغته، وبالإمكان جرد قائمة بأمراضه الكبرى.

فاللهجة الطبية الفرنسية تعاني قبل كل شيء تهافتا باطنيا سبق لنا أن شرحنا بعض أصوله التاريخية. فإننا (يعني الفرنسيين) خلطنا العامي بالعلمي، ولأن الكلمات دخلت في الاستعمال على فترات من حقب مختلفة. فماله صلة بالقلب له « Cardiaque » مع أن لفظ « Cardia » هو الملتقى البلعومي - المعدي (la jonction oeso-gastrique)، ثم من أصل اشتقاقي واحد نكتب « Colère » (غضب)

و« Cholèra » (هيضة)، و« mélancolie » (سوداوية، كآبة مبهمة) و« choledoque » (صفراوي جامعي)، و« Phrénique » (حجابي) و« frénésie » (هيجان جنوني). وهنا ينبغي أن نحترز من اعتبار هذه الشذوذات والمخالفات المتراكمة مجرد نزوات في الكتابة، أو رسابات تاريخية، لا تمثل سوى ظواهر سطحية لا شأن لها في الواقع. فهذا الإعتبار خطأ، لأنها تعكس تذبذبات، وتناقضات حقيقية، يتصف بها الطب الذي يسعى جاهدا في الاستقامة والسداد.

إن آفة الترادف هي المشكلة الكبرى لعلم دائم الحركة مثل الطب. ولذلك تعليلات كثيرة فالمرض حين يكتشفه في نفس الوقت، أو على بضع سنين من التفاوت، علماء متباعدون بعضهم عن بعض، يكون مصدرا لتعدد التعريفات بعدد العلماء المكتشفين الذين يعرفه كل منهم تعريفا مختلفا. فالعالم المرضجي التشريحي يعرفه بمميزاته المرضجية التشريحية. والعالم السريري يعرفه حسب أكبر أعراضه السريرية، والعالم الرديلجي يعرفه حسب رسمه التصويري. هذه التعريفات ليست مترادفة كل الترادف بما أنها تترجم نظرة المكتشف الخاصة.

وبهذا الصدد أرسل صيحة إنذار لفيف من خبراء أقطار، جمعهم بأمستردام في سنة 1967، مجلس أوروبا، وذلك بقوله: إن المخابرة في الطب صارت تزداد تهافتا يوما عن يوم، لأن المؤلفين والمعلمين يسمون نفس المفهوم بأسماء مختلفة، تكون في غالب الأحيان غير مألوفة من القارىء المتوسط، أو غير صحيحة، أو مهجورة، فهي بذلك ولغير ذلك من الأسباب تخلق البلبلة).

وهناك آفة أخرى أحدث عهدا، نشأت في القرن التاسع عشر، تتمثل في تسمية عضو تشريحي أو أحد الأعراض أو مجموعة أعراض باسم الشخص الذي كان أول من وصفه أو يعتبر أول واصف له فاكتظت اللغة بأسماء الأعلام التي تختلف من قطر لقطر. فمرض « كراف » (Maladie de Graves) في انجلترا يسمى مرض « باسيدو » (Maladie de Base-dow) في فرنسا وألمانيا، وقد تختلف التسمية حتى من مدينة لمدينة. وآخر آفة نذكرها للغة الطبية في هذا العصر هي الإقتراضات الأجنبية أي (الدخيل) وهي ظاهرة ثابتة في تاريخ اللغات. فعندما تدخل عادة، أو شيء أو تقنية، أو فكرة، من قطر لآخر، تصطحب غالبا إسمها الأجنبي الذي يبقى ما بقي الشيء ثم ينقرض بانقراضه أو يترجم لمصطلح قومي وذلك كله عرفته لغة الطب.

فلئن كان اصطلاح الأشعة السينية (rayons x) تمت صياغته باللغة الفرنسية فلم يكن الشأن كذلك مع علم مرض السل الذي أدخل إلى فرنسا تصورات (رانك Ranke) لعلم تصنيف الأمراض و« عقده » Complexes التشريحية المرضجية فلفظ (Complexes) قد تفرنس قبل ان تستورد نظرية (فرود Freud) في التحليل النفسي. وعلى إثر لفظ « العقد Complexes » دخلت الألفاظ « Gestalt » (نظرية الشكل) و« Ego » (الأنا، الذات) و« libido » (الشبق): وهذان المثالان يصوران وفاء الأطباء الألمان المستديم للغة اللاتينية، بحيث اللفظ اللاتيني يواتيهم بسهولة.

وبعد سنة 1945 ثقل وزن العلم المعبر عنه باللغة الانجليزية السكسونية، وتميز تاريخ الاصطلاح الفرنسي الحديث في الطب بوفرة اقتراضاته

(استعاراته) من اللغة الإنجليزية. فخلال ثلاثة عقود من السنين بلغ عددها المئات، ولم ينج أي علم من الزحف الدخيل. وتفاوتت حياة هذه الألفاظ الدخيلة فمنها من لم يعمر سوى بضع سنين. ومنها ما هو مشرف على الموت ثم منها ما هو حي بكل قوة. ليس الاقتراض طريقة صالحة لإثراء لغة علمية. وهذه التقنية اللغوية تثير ردود فعل من الاستنكار.، ليس التطور في اللغة الطبية الحديثة إذن خاليا من عيوب الترادف، والتسمية بالأعلام، والدخيل من الألفاظ، وهي عيوب تضر بدقتها العلمية. وهذا على كل حال يدل على حيوية العلم التي تفرغ هذه اللغة جهدها فيه، كما يدل على تقلباته، وقدرته على التجدد، وعلى صبغته الدولية، وسنرى فيما بقي من هذا البحث أن الأطباء وعوا ما لهذه الحركات السريعة غير المنسقة من محاسن ومساوىء ولم يفت المعجمية الحديثة تسجيل هذا التطور، وهي نفسها تغيرت مع أن انتاجها في هذا القرن لا يعادل في كميته انتاج القرن السابق.

ففي سنة 1900 نشر (م. كارني وف. ديلامار) معجما لمصطلحات الطب التقنية Dictionnaire des termes techniques de Médecine فاز بإقبال عظيم، واضطرت شهرته مؤلفيه إلى إعادة طبعه طبعات سريعة، وهي ظاهرة نادرة جدا في تاريخ المعجمية. وما زالت طبعته التاسعة عشر (1972)) تحمل إسم أحد من عقب أحد مؤلفيه الأولين في سنة 1900.

إن هذا الاستمرار الطويل في المظهر، وفي المحتوى المتجدد بلا انقطاع يجعل من معجم (-Garnier Delamare) وثيقة فريدة من نوعها من حيث الإتساق والإنسجام في تاريخ اللغة الطبية طوال ثلاثة أرباع القرن مما أثار فضول الباحثين وحدا: (ي. غازي .Y Ghazi) ان يتخذه موضوع أطروحته في السوربون (سنة 1976) بجرد دقيق لمحتوى طبعاته التسعة عشر. ولن يمكننا أن نحلل هذه الأطروحة بالتفصيل ولا أن نتتبع معه من خلال الأربعة آلاف والثمانمائة مصطلح التي يرجع عهدها إلى سنة 1900 التي بلغت تسعة عشر ألف مصطلح في سنة 1972 نقول لن يمكننا أن نحلل ولا أن نتتبع فعليا ميلاد ونمو فروع علمية جديدة مثل الرديلجة (Radiologie)، أو علم المناعة. ولا أن نرقب ظهور مصطلحات جديدة. وفيما يخص هذه النقطة الأخيرة نلاحظ أن في لغتنا الطبية الحالية 11٪ من الألفاظ يرجع عهدها إلى القرن السادس عشر: 26٪ إلى القرن التاسع عشر، و42٪ إلى القرن العشرين. وتدل هذه الأطروحة إلى أي مدى يمكن لتاريخ الطب أن يتألف من تاريخ لغته.

وكان أكثر المعاجم طموحا (معجم الطب لفلاماريون Dictionnaire de Médecine Flammarion) المطبوع في سنة 1975 بإشراف (ج. هامبرجي J. Hamburger). فهو بمداخله العشرين ألفا، وبذيله الإنجليزي الفرنسي، له صبغة علمية أقوى من المعجم السابق الذكر، وهو معد خصيصا للأطباء.

وكان أضخم معجم في هذا القرن بلا نزاع هو (المعجم الفرنسي للطب وعلم الأحياء: (Dictiooaire Français de Médecine et de Biologie) المحرر بأدارة .A Manuilaو L. Manuila و M. Nicoleو H. Lambert. ظهر الجزء الأول منه في سنة 1970 وشارك في إعداده مائة وثلاثة وخمسون معاونا ومائة وأحد عشر مستشارا لتحرير مداخله المائة وخمسين الفا: وكل مصطلح فيه يشفع تحديده بشروح وتعاليق تاريخية أو

تصنيفية. ويضم الجزء الرابع منه عدة أثبات وعناصر اشتقاقية. ونظرا للصعوبات العلمية المتصلة بهذا المعجم ونظرا لما طرحه من مشاكل إقتصادية، فإنه يستبعد زمنا طويلا أن يجدد مثل هذا العمل في فرنسا.

ولم نذكر هذه المعاجم الثلاثة إلا لمالها من قيمة وما نالته من إقبال. أما المعجمية الطبية التي مكثت زمنا متلكئة فإنها أنتجت عدة مؤلفات في العقدين الأخيرين. وإلى جانب معاجم أخرى تشمل مثل المعاجم السابقة عموم الطب، لكنها لم تلق نجاحا، أو لم يرتب فحواها التشخيصي الطبابي ترتيبا ألفبائيا، ألفت عدة معاجم مختصة بفرع واحد من فروع الطب.

ثم إن تدويل العرفان والعلاقات الطبية زاد في طلب المعاجم الطبية الثنائية، أو المتعددة اللغات. وكان أكثرها تشعبا معجم (كوستيش Kostich)) بلفاته السبع وبمداخله البالغ عددها مائة وتسعة عشر ألف مدخل. وهذه المعاجم شأنها شأن المعاجم الفرنسية تختلف جودة وحجما وهذان الوصفان قلما يجتمعان.

وتم تنظيم ثلاث ندوات في الاصطلاح الطبي، والمعجمية الطبية، من لدن «مجلس المنظمات الدولية للعلوم الطبية» (بباريس سنة 1956) ومن لدن «مجلس أوربا» (بأمستردام سنة 1967 وبالمجلس الدولي للغة الفرنسية (بباريس سنة 1974) وحددت تحديدا دقيقا ما ينبغي أن يسمى حسب فحواه ب «قاموس» (Dictiooaire) وما يسمى ب «معجم» (Lexipue) وما يسمى بـ «مستدرك» (Glossaire) وما يسمى ب «مسرد» (répertoire). وذكرت هذه الندوات بما يجب ان يكون عليه النظام العام للكتاب، وهندامه الطباعي، واختياره للابواب، وإحالاته كما وكيفا وهي بذلك وضعت منهجية حقيقية للمعجم.

إن الحالة الراهنة للغة مهنة الطب تحدث صعوبات كبيرة للمخابرة والتقدم وهذا شيء يتحسر عليه الكثير: «اللغة الطبية صنعت الجديد بألفاظ لم تعد مواتية، بألفاظ رديئة الصياغة، تكونت من مفاهيم جزافية مبتسرة. فطب اليوم له اللغة التي يستحقها». هذا ما كتبه (همبرجي Hamburger) في مقدمة معجمه.

ولذلك امتازت العشرون سنة الاخيرة بجهود متنوعة لعلاج داء اللغة الطبية. فقبل كل شيء، انشئت داخل كل دولة لجان التدوين من اجل التبسيط والتنسيق. ففي فرنسا شاهدنا جمعيات للعلماء تخصص اجتماعات للنظر في اصطلاحها. وكذلك شأن علماء التبنيج، واطباء القلب، والجراحة التطبيقية، واطباء الدم. وعلى المستوى الدولي المشورة أصعب لكنها غير مستحيلة. فمنذ سنة 1895 جرت بين علماء التشريح مناقشة مدونتهم، وبعد مراجعات عديدة توصلوا في سنة 1955 الى وضع «مدونة باريس» التي فرضت وجودها على الجميع (Parisiena Nomina Anatomica, P.N.A).

فنشرت موجزات، ودلائل لكتابة، مخصصة لأطباء اللغة الأنجليزية، أو الفرنسية، من أجل كتابة نصوصهم بكيفية واضحة، وبسيطة، ومفهومة، ولكي يقدموها بكيفية متسقة في كل المجالات

العلمية التي لجان تحريرها وعت واجباتها. وأعدت موجزات لأصول إشتقاق المصطلحات الطبية (مثل موجزات سكنير Skinner وروبير Roberts وشوفاليي Chevalier) كان لها هدف مزدوج: الهدف الأول هو تذكير الطارئين الجدد على عالم الطب بمعاني الصدور الاشتقاقية، والجذور أو الكواسع اللاتينية أو الإغريقية. وهي مهمة ضرورية، لاسيما وأن الأطباء الناشئين لم يتعلموا هاتين اللغتين ويجهلون حتى الألفبائية الإغريقية. والهدف الثاني هو تيسير توليد ألفاظ المصطلحات.

وعملا على سد الطريق على الدخيل، وعلى لرديء الصياغة، وعلى الترادف الكثير المفرط، نشأت عدة هيآت بفرنسا تختلف طبائعها وطرائق عملها. وفي سنة 1963 تأسست لجنة لدراسة المصطلحات الطبية الفرنسية بإسم «Clair-Dire (قل بوضوح نشرت عدة قوائم للألفاظ الفرنسية المقابلة للمقترضات الأجنبية. فما كان من أكاديمية الطب الوطنية إلا أن أنعشت لجنتها الدائمة الخاصة باللغة الطبية، وتبعها في ذلك فرع الطب في أكاديمية العلوم.

ورغبة في توطيد اللغة الفرنسية وتنميتها فيما وراء العالم الناطق بالفرنسية عمدت الحكومة الفرنسية - في نفس الوقت الذي أنشئت فيه «اللجنة العليا للغة الفرنسية» و«المجلس الدولي للغة الفرنسية» - إلى الطلب من كل وزارة أن تنشىء لجنة للإصطلاح. ثم إن وزارة الصحة بعد أعمال لجنتها الخاصة نشرت في سنة 1975 وفي سنة 1979 قرارين مصحوبين بمنشور يفرضان ويوصيان باستعمال بعض المصطلحات في جميع الوثائق العمومية والنصوص القانونية والكتب الدراسية والأسواق العمومية ويمنعان إستعمال مصطلحات أخرى. وفي «كيبيك» (Quebec) نشر «مكتب اللغة الفرنسية» مستدركا للمصطلحات الطبية.

وتنشر «منظمة الصحة العالمية» على فترات منتظمة» قوائم التسميات المشتركة الدولية للمستحضرات الصيدلانية» (وهذا ميدان لم نرد التطرق إليه)، بيد أنها إقترحت كذلك إقرار عدد من التحديدات الدلالية الممكن قبولها لشتى مصطلحات الطب والصحة العمومية.

الدكتور أمين المعلوف وجهوده المعجمية المتخصصة في علمي الحيوان والفلك

د. / محمد الزركان(*)

1) الدكتور أمين المعلوف(*) (1871 ـ 1943) :

لم يقتصر الدكتور أمين المعلوف في بحوثه وتحقيقاته على المصطلحات العربية في علمي الحيوان والفلك، بل تناول اصطلاحات علم النبات، فضلا عن الاصطلاحات الطبية، وانتقاد كثير من المصطلحات العلمية التي اخطأ بعض العلماء بوضعها. ويشير مصطفى الشهابي الى ذلك بقوله: « ... وأتذكر أنني قرأت عليه في احدى رحلاتي الى مصر كلمات حرفي Aو B من (معجم الالفاظ الزراعية بالفرنسية والعربية) فنبهني الى تسع هفوات، اي دلني على تسع كلمات عربية اصلح من التي وضعتها أمام الكلم الفرنسية » (1).

1 ـ معجم الحيوان :

لقد نشر أمين المعلوف هذه الابحاث تباعا في مجلة (المقتطف) بدءا من اول تشرين الاول عام 1908. وكان يعقوب صروف صاحب المقتطف قد سمى ما نشر (معجم الحيوان) بمقال جاء فيه: « .... وقد عني صديقنا الدكتور أمين المعلوف منذ مدة بالبحث عن اسماء الحيوانات، ووضع لها معجما ذكر فيه الاسم العربي والاسم الفرنسوي والاسم الانكليزي والاسم العلمي. ووصف كل حيوان وصفا أوجز فيه أو أسهب، حسب مقتضى الحال. فرأينا ان ننشر هذا المعجم تباعا في المقتطف لعرضه على الباحثين في هذا الموضوع » (2).

وهذه الأبحاث جمعها المقتطف وطبعها باشراف المؤلف 1932 بعنوان (معجم الحيوان) وهو في مجلد واحد و(271) صفحة ولقد اضاف المؤلف الى هذه الأبحاث وحذف منها ما رآه مناسبا. ورتب ذلك كله على حروف المعجم الانكليزي، ووضع لها الفهارس العربية، واثبت لها الاسانيد. وقال في مقدمته:

« .... وكان ما نشرته يومئذ ثمرة بحث ومطالعة

(*) كلية الآداب والعلوم الانسانية بجامعة حلب

ومراجعة استمرت عدة سنين، فكان لذيوع ما تضمنه من التحقيقات أثر بين فيما ظهر بعده من الكتب التي على شاكلته... ثم ان جميع الاسانيد التي ذكرتها كانت من المؤلفات التي اخذت عنها بالذات، فنسبت كل قول الى قائله حيا كان او ميتا... ثم انه اذا لم يكن هناك اسناد، بل كانت اللفظة مما وصلت اليه بالبحث والاستقراء، فقد اتيت بأدلتي على ذلك. أي انني لم اثبت لفظة واحدة بمجرد الحدس او الظن. كذلك لم أترجم أو أعرب أو أضع إلا ألفاظا قليلة جدا، لأن الغرض من هذا المعجم كان تحقيق ألفاظ وردت في كتب اللغة والمؤلفات العربية وصحة ما يقابلها بلسان العلم الحديث. كذلك اهملت كثيرا من الألفاظ الواردة في اللغة، لأنني رأيت اهمالها خيرا من التخبط فيها بلا دليل كاف. على أنني ذكرت كثيرا من الألفاظ المعربة حديثا، او التي وضعها المحدثون من العلماء الذين يؤخذ بأقوالهم وأهملت ماسواها.

هذا وقد كان رائدي في العمل الصدق في الرواية، والأمانة في النقل. وقد توخيت ايراد أفصح الألفاظ أولا ثم الفصيح، ثم ما عربته العرب، ثم المولد، ثم ما عربه المولدون، ثم العامي وما عربه العامة (3). وابتداء مواده بالحرف (A) خنزير الارض: Ard vark. Sym Earth pig Orycterpus حيوان افريقي لبون من آكلات النمل، أدرد له هلب متفرق غليظ وفنطيسة كفنطيسة الخنزير، قصير الذنب غليظه قوى الاظافر، اسمه في السودان (أبو أظلاف) لقوة اظافره، و(ابودقن) لطول خطمه... الخ.

وانهى مواده بحرف (Z) أرقم: diadena (periops) Zamenis والأرقم في حياة الحيوان: الحية التي فيها بياض وسواد كأنه رقم اي نقش... وقيل الأرقم الحية التي فيها حمرة وسواد الخ وهذا نموذج من مفردات ومصطلحات (معجم الحيوان):

ذوات الايدي الاربع: qudrumana. البعام: Anthro-popithecus troglodytes E. chimpanzee F.chinpansé نوع من القرود الشبيهة بالانسان، وأقربها اليه في تركيب الجسم، طول البالغ منه نحو متر ونصف ويداه تصلان الى ركبتيه فقط، ولا ذنب له. وطنه الحراج الكثيفة في أواسط افريقية.

اما لفظة البعام هذه فقد سمعتها مرارا من عرب السودان، وهو الاسم الذي يعرف به هذا الحيوان عندهم، وذكر هذه اللفظة الدكتور شونيفورت، ونعوم شقير، والبكباشي أمرى.

القرد: الرباح: والانثى (إلقه) Papio E. Baboon F. Babouin وهو حيوان من ذوات الايدي الأربع، وهو قصير الذنب، متصلب الأليتين، قبيح المنظر، رأسه شبيه برأس الكلب، ويوجد منه انواع كثيرة. منها نوع واحد في اليمن والباقي في افريقية. والقرود هي الحيوانات التي نراها مع القرادين، ويسميها اهل الشام: السعادين، ومن اسماء القرد الشائعة عند العامة (الميمون)، وهو اسم القرد بالتركية، ومن الغريب ان علماء الحيوان يطلقون لفظة (الميمون) ايضا على نوع من القرود قائم بنفسه، ويسمى عندهم (C. Maimon). وهذه اللفظة ليست مشتقة من العربية او التركية، بل من لفظة يونانية معناها السعلاة.

والقرد كما وصفه العرب هو الحيوان الذي يعرفه أهل مصر والسودان وبلاد العرب بهذا الاسم في

وقتنا الحاضر، وهو ما يسميه الإفرنج (بابون)، ولذلك لا أرى موجبا لاستعمال لفظة سعدان أو ميمون أو بابون، كما نجد ذلك في بعض المؤلفات الحديثة. ولا بأس بتسمية الحيوان الذي يسميه الإنكليز (Mandrill) بالميمون، فهو احد انواع القرود ويعرف عند الإفرنج بالميمون ايضا.

اما (البَعام) وما يليه من القرود فالأصلح تسميتها بـ (القرود الشبيهة بالانسان) كما يفعل الإفرنج. اما الرباح فهو ذكر القرود في كتب اللغة وحسب رواية المسعودي هو القرد بلغة اهل اليمن. ويظن ان هذه اللفظة من اصل سامي بمعنى (رب) أو (سيد) لأنهم كانوا يعظمون القرد في اليمن كما يفعل قدماء المصريين (4).

ووضع الدكتور أمين المعلوف ألفاظا عديدة في علم الحيوان مثل:

1 ـ مهاة: Addax وهي بقرة وحشية بيضاء اللون سويداء العنق.

2 ـ مالك الحزين: Héron.

3 ـ براك: Belonidae: فصيلة من الأسماك شائكة الزعانف.

4 ـ واق: Bittern Botaurus Stellaris وهو طائر من فصيلة مالك الحزين.

5 ـ دغناش أوروبي: Bullfinch Pyrrahulaطويئر لا وجود له في البلاد العربية.

6 ـ صقر: Falcon الخ (5).

ولذلك وصف مصطفى الشهابي (معجم الحيوان) بقوله: « ومن أوثق المعاجم العلمية التي ألفت في هذا القرن معجم الحيوان للدكتور أمين المعلوف... وقد حقق فيه عددا من الاسماء العربية لأعيان الحيوان، وذكر صحة ما يقابلها بلسان العلم وباللغة الانكليزية.

وهذا المعجم لا يشتمل على مصطلحات علم الحيوان، ولا على أسماء آلاف الحيوانات التي خلت منها معاجمنا وكتبنا القديمة، ولكنه أجمل صورة للتحقيق العلمي وتحري الأسماء العربية الصحيحة للحيوانات القليلة التي ذكرت فيه. وهو أفصح دليل على صحة ما قلناه من أن عمل الفرد في تحقيق الألفاظ العلمية يكون مفيدا عندما يقتصر ذلك الفرد في علمه على علم واحد، أو على فرع من علم واحد (6).

« ... ولقد جاء معجم أمين المعلوف آية في التحقيق العلمي، ومرجعا مهما ومضبوطا لكل معجم افرنجي عربي يؤلف، وبخاصة لمعجم المصطلحات العلمية الذي طالما تمنينا أن يتكاتف العالم العربي على إصداره في المستقبل القريب.

واذا شاء المطالع الوقوف على فرط التحقيق في معجم الحيوان، فليراجع ما كتب صاحبه عن الببر والنمر والنسر والعقاب والخلد والطوبين (الخلد الأوربي) والبخت هل هي عربية أم لا الى عشرات من الألفاظ التي لم يكتف بوضع اسمائها العلمية، بل ناقش وقارن واستدل الى ان استنتج ان اللفظة العربية الفلانية، يجب ان تدل على الحيوان الفلاني بلا تردد وربما ملأ المؤلف صفحة كاملة او صحفتين في مناقشة ما أورده العلماء من الأسماء لحيوان واحد.

وأظن ان المعجم على كبره لا يحوى أكثر من

نوع، مع أن دوحة الحيوان اليوم تحوي مئات الألوف من الأنواع، ولا سيما الحشرات. فالمعجم يكاد يكون خاليا منها، على حين، أن فيها نحو مائة نوع على الأقل، اشتهرت بما توقعه من الأضرار في النباتات الزراعية. ومن المفيد ذكرها وتسميتها بأسماء عربية.

ولفت نظري أيضا أن العلامة أمين المعلوف أهمل في المعجم الأسماء الفرنسية للحيوانات مع انه كان ذكر كثيرا منها يوم نشر المعجم في (المقتطف).

وهذا لا يسر الذين تعلموا في مدارس فرنسية. ولعل ضيق الوقت المحدد للطبع جعله يقتصر على الأسماء اللاتينية والانكليزية دون الفرنسية... (7).

هذا وقد جرت على صفحات المقتطف مناقشات وملاحظات لمعجم الحيوان قام بها الأب انسطاس ماري الكرملي في باب المراسلة والمناظرة، استمرت عدة أشهر وكانت بعنوان: (نظر في معجم الحيوان). وكان أمين المعلوف يجيب عن كل مادة بمفردها ليدعم موقفه ويدافع عن وجهة نظره، وكثيرا ما كانا يتفقان بصحة بعض المواد.

ويتعرف الكرملي بانهما اذا اختلفا في الرأي، فلا يعني أن أحدهما مخطىء والآخر مصيب، وانما يدل هذا الخاطر على أن نظر الكرملي لا يختلف عن نظر المعلوف.

وقد تناول الكرملي في ملاحظاته لفظة (البعام) و(القرد) و(النمس) وغيرها(8). وقد انتقد عليه قسما مما في هذا المعجم الدكتور محمد شرف المصري في رسالة سماها (اسماء الحيوان) في 76 صفحة حوت كثيرا من الاقذاع والتجافي عن الوقار العلمي، وقد رد أمين المعلوف على محمد شرف في رسالة سماها (ملحق معجم الحيوان او الرد على الدكتور محمد شرف) في 60 صفحة، وقد ذكر فيها ان الدكتور محمد شرف سطا على كثير من مادة معجمه الحيواني ونقله الى معجمه (9).

المعجم الفلكي:

لقد وضع المعلوف معجمه هذا وفيه أسماء النجوم وصورها، وأهم المصطلحات الخاصة بأقدارها وأفلاكها وهو يقع في 144 صفحة متوسطة صغيرة، وطبع بالقاهرة عام 1935. وكان المؤلف قد نشر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق في سنة 1929 أسماء بعض النجوم بالانكليزية وما يقابلها بالعربية، ثم تأثر في هذا المعجم بالدكتور فانديك الذي ألف (علم الهيئة) و(محاسن القبة الزرقاء)، وبالدكتور يعقوب صروف في كتابه (بسائط علم الفلك) وبكارلونلينو في كتبه (علم الفلك عند العرب) و(زيج الصابي) وغير ذلك.

قال المؤلف في مقدمة معجمه: «نشرت في 1929 في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق أسماء بعض النجوم بالانكليزية وما يقابلها بالعربية... وكان جملة ما نشرته في مجلة المجمع نحو مئة كلمة، بلغت نحو 24 صفحة من قطع الربع، وقد أضفت إليها الآن سائر المصطلحات الفلكية، فصارت كأنها معجم فلكي يقع في ما يقرب من مائة وخمسين صفحة (10).

والمعجم مرتب وفقا للألف باء الاعجمية.

وأما الملاحظات التي أخذت عليه فقد وردت في (المقتطف) كما يلي:

«لم يكتف المؤلف بذكر الإسم العلمي باللغة الأعجمية، وما يقابله باللغة العربية، بل وضح الإسم العربي في الغالب بنبذة تاريخية أو علمية تدل على واسع علمه، ولا يستغني عنها الباحث ففي الصفحة 31 تحقيق تاريخي نفيس لإسم النجم الكبير في صورة الجبار المشهور باللغة الأعجمية باسم (Betelgueuse)، فقال بعد أن وضع أمام الإسم الإفرنجي مقابلين عربيين هما: (منكب الجوزاء) و(يد الجوزاء) ما يلي: «والمشهور عند الإفرنج أن الكلمة من (ابط الجوزاء) بالعربية، وهي ليست كذلك، بل ربما قرأ الإفرنج (يد الجوزاء) بالياء المثناة يد الجوزاء بالباء الموحدة، وهذا تصحيف وقع به الإفرنج، فتنبه له المؤلف.

وفي الصفحة 73 نجد (Menkalinan) وهو (منكب ذي الأعنة) و(Menkar) نجم في صورة فيطس، وهو (منخر فيطس) وكذا (Menkib) (منكب الفرس) و(Merak) وهي (مراق الدب الاكبر). وهذا يدل على كثرة الأسماء الفلكية ذات الأصول العربية، انتقلت الى اللغات الأعجمية بعد تحريفها قليلا.

ولم يكتف المؤلف بترتيب ما حققه السابقون من أعلام البحث بل حقق بنفسه ألفاظا مختلفة وأسماء عدة نجوم، منها (الماصح) Achromatic، اي الخالي من اللون و(اللصيق) Acrolyte وهو نجم خفي قرب نجم آخر أشد لمعانا (11). كما وضع المعلوف بضع كلمات اصطلاحية في علم الفلك مثل:

1 ـ امتصاص الضوء: Absorption of light

2 ـ التسارع: Accéleration

3 ـ الماصح: (وقد مر) Achromatic

4 ـ اللصيق: Acrolyte

5 ـ أفولي: Acronycal

6 ـ حجر جوي: Acrolite

«وكنا نود» ان يشتمل المعجم على بعض المصطلحات في علم الفلك الحديث، مما لا يستغني عنه الباحث في هذا الموضوع مثل عبارة (Expanding Universe) وقد ترجمت بألفاظ وعبارات عربية مختلفة، فقيل: (الكون المتمدد، والمتشتت، والآخذ في التمدد أو التشتت، أوالاتساع وغيرها. وعبارة (Red Line Schift) وقد ترجمت بـ(حيود الخط الأحمر) و(انحراف الخط الأحمر) وهذه العبارة من مصطلحات علم البصريات ولها صلة بظاهرة تفرق السدم اللولبية خارج المجرة. ولا يمكن ان يكتب فصل في علم الفلك الحديث من دون الإشارة اليها. ثم هناك لفظ (Interferometer) وهو جهاز دقيق استنبطه العلامة (ميكلصن) لقياس اقطار النجوم السحيقة. وثمة عبارات وألفاظ اخرى لا غنى عنها.

و(السدم) انواع ميز بينها العلم الحديث، منها ما هو داخل المجرة ومنها ما هو خارجها. وما كان منها داخل المجرة انواع كذلك، ولكن المؤلف لم يشر الى كل هذا، واكتفى بذكر السدم، مع ان الكاتب العلمي باللغة العربية، لا يكاد يطرق موضوع السدم، حتى يشعر بالحاجة الى أسماء غربية تطلق على انواعها المختلفة.

ثم اننا لا نعلم لماذا رسم المؤلف الفاضل لفظ (Ether) (وهو الوسط المفروض في الطبيعة لرحاب الفضاء) بـ(ايثر) بتقديم الياء على الثاء، تميزا له عن السائل الطيار المخدر المعروف للاطباء. فالوسط المفروض في الطبيعة (اثير) والسائل الطيار (ايثر).

وبهذا الفرق يميز أحدهما عن الآخر. وفي هذا تحديد لمعنى اللفظين.

وفي ترجمة لفظ (Epoch) (مبدأ التاريخ) ولفظ (ERA) بـ (التاريخ) غموض لأن لكل من هذين اللفظين معنى عاما ومعنى فلكيا ومعنى جيولوجيا. فالتفصيل في هذا المقام كان ادل، أو على الأقل تفصيل المعنى الفلكي، لأن المعجم فلكي (12).

ويبدو ان المعلوف لم يستفد من كتاب (صور الكواكب الثماني والأربعين) لأبي الحسين عبد الرحمن الصوفي الفلكي المشهور، فله تقسيمات ومصورات فلكية، فائقة.

3 ـ بحث في بعض اصطلاحات النبات

لقد نشر الدكتور أمين المعلوف بحثا مطولا في اصطلاحات علم النبات في المجلدين السابع والثامن من مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق. وتعد من أهم المصطلحات النباتية وأدقها، في علم النبات والحيوان. ولقد ذكر بعد كل اصطلاح ما يقابله بالانكليزية أو باللاتينية، ولم يذكر المصطلح الفرنسي لانه لا يكاد يختلف عن المصطلح الانكليزي في غالب الأحيان إلا في كتابته. ولكنه قد يذكر المصطلحين معا متى كان الفرق بينهما كبيرا.

وقال ايضا: «لم أكثر من الألفاظ الأعجمية بحروف لاتينية تسهيلا لجمع الحروف، بل ذكرت عددا وافرا منها بحروف عربية، لا يصعب على الأديب معرفة أصلها الإفرنجي» (13).

وهذه نماذج من الألفاظ في علم النبات التي تناولها أمين المعلوف الذي سبقت الإشادة به من قبل مصطفى الشهابي قبل صفحات قليلة في علمي الحيوان والنبات:

(البَزْرة) من النبات كالبيضة الملقحة من الحيوان، أي هي نبات صغير في حالة السكون، فإذا أصابتها الحرارة والرطوبة فرخت ونمت وصارت نباتا مثل النبات الذي حملها، ففيها اذن الأصل او الجنين الذي يخرج منه النبات. وهذا الأصل أو الجنين اسمه (الفوف) بالعربية (Embryo). وقال في (التاج): «هو الحبة البيضاء في باطن النواة التي تنبت منها النخلة» وهو قول لا يحتاج الى تفسير، فالفوف هو الأنبريون عند علماء النبات، وكذا ترجمها (لين Laine) صاحب (مد القاموس).

وفي البزرة نكتة في الوضع الذي يكون الفوف وراءه يقال لها (النقير) و(النقيرة) و(النقرة) و(الأنقور) Hilum. قال ابوزيد (14): النَّقير النُّقرة التي في ظهر النواة، ومنها تنبت النخلة من حبة صغيرة مدورة تكون في ذلك الموضع (المخصص /102 11). واللفظة اللاتينية التي تقدم ذكرها والتي اتخذها النباتيون لهذا المعنى هي كالعربية حقيقة ومجازا أي معناها النقرة التي في البزرة، والشيء الزهيد كذلك بالعربيّة، فإنه يقال: (لا يملك شروى نقير) أي لا يملك شيئا.

واللفظة عينها مستعملة في التشريح، ويراد بها النُّقرة التي تدخل الأوعية والأعصاب والقنوات. فالأصح أن يقال: نَقير الكبد أو أُنقورها، ونقير الرئة، ونقير الكلية الخ... وهو أفضل من قولنا

(سرة)، لأن السرة كما لا يخفى هي موضع آخر له اسم آخر عند علماء التشريح. ولا شبهة ان (الفوف) هو جنين البزرة، وهي أفضل من (الرُّشَيْم) تصغير رشم كما في مدارس الاستانة. فمادة رسم ورشم واحدة. والرشم في اللغة الأثر وأول ما يظهر من النبت. ولكن النبت اذا ظهر يكون فرَّخ وخرج من البزرة، اي ان الرشم هو الفرخ من النبت، فلا يصح ان يقال هو الجنين، وإلاّ جاز ان نسمي جنين الإنسان وُلَيِّدا تصغير وُلَيْد، وطُفَيِّلا تصغير طفل. وان نسمي جنين الفرس مُهَيِّرا وهلم جرا.

ثم ان اللغويين ذكروا للنبت في أول ظهوره أسماء كثيرة غير الرشم، معظمها في كتاب المخصص لابن سيدة (10/182-187) وكلها أفضل من الرشم، ولكنها لا تصلح للجنين، ثم ما المانع من اطلاقنا لفظة الجنين على الصغير من الاحياء قبل خروجه، سواء أكان في النبات أم الحيوان. قال ابن سيده : « مادام الولد في بطن أمه فهو جنين... وقد يكون في غير الناس (المخصص 1/30). (15)

وإن قيل أن علماء الأحياء يستعملون لفظتين : احداهما يونانية وهي الأنبريون مشتقة من فعل معناه علِقَت اي حَبِلت، ويريدون بها في النبات والحيوانات الدنيا الصغير مطلقا الذي مازال في البزرة، او في البيضة او في بطن أمه. وفي الحيوانات اللبونة، الجنين في أوله وهو في الانسان من زمن العلوق الى آخر الاسبوع الخامس او اكثر من ذلك.

واللفظة الثانية لا تينية وهي (فيتس) ويريدون بها الصغير في دوره الأخير، اي بعد الأسبوع الخامس في الإنسان. فالجواب على ذلك ان الأنبريون في الإنسان هو العلقة وقد وردت في وصف خلق الإنسان في سورة (المؤمنون) في قوله : « ولقد خلقنا الانسان... الى آخر قوله : فتبارك الله أحسن الخالقين ». والأنبريون في النبات هو الجنين أو الفوف. وفي الحيوان النقرة، وفي الانسان العلقة او المضغة، وفي دوره الأخير الجنين.

وقد استعمل اطباء مصر هذه اللفظة اي العلقة، ووردت في معجم النجاري ومعجم البقلي على انهم قالوا في غالب الاحيان الجنين، سواء كان في دوره الأول او الثاني...

ولم يجد اطباء مصر وبيروت حاجة الى استعمال لفظة غير الجنين في الأحياء كلها، وفي جميع الأدوار. وقالوا : علم الأجنة، او الكلام على الجنين، او مبحث الجنين، ولم يقولوا مبحث الرشيم، ولم يروا حاجة الى هذا الإستعمال الغريب. (16)

ففي علم النبات كان أمين المعلوف قد عثر على كثير من الألفاظ الاصطلاحية التي ذكرها في بحثه السابق اهمها :

1 ـ الفوف : Embryo لاتيني، وهو الحبة البيضاء في باطن النواة التي تنبت منها النخلة.

2 ـ النقير والنقرة والأُنقور Hilum لاتيني، اي النقرة التي في البزرة.

3 ـ البويب : Micropyle يونانية، الثقبة التي في النقير.

4 ـ الغدفة : Testa، وهو لباس الغول (البزرة)

5 ـ خَلِيُوس : Cellulose، اي لكل خلية عضو او جدار يقال له خليوس.

6 ـ السَّبَد : Plumule، وهو صغار الريش

7 - زغب : Cilia، ما يوجد على سطح الجذور
8 - الساق : Tige
9 - الجذع : Tronc
10 - قصبة او يراعة او قلم : Culm لاتينية
11 - أنبوب : internode
12 - البقلة : Herba الخ. (17)

وأما الملاحظات التي أخذت على بحث أمين المعلوف في اصطلاحات النبات والحيوان فكانت من الدكتور داود الجلبي الطبيب العراقي حين قال :

«إن الإتيان بكلمة تصلح لأن تكون مقابل كلمة (أنبريون) قد شغل فكري كثيرا قبل الان كما دفعكم في مقالتكم الى الكتابة عنه وعن (الفيتس) سطورا كثيرة. اما كون مقابل فيتس هو الجنين فمما لا يتردد فيه أحد. وأما إطلاق كلمة (جنين) على الفيتس والانبريون معا فليس مستحسنا لان علماء الطبيعة لم يفرقوا بينهما عبثا، ولان تشكلات مهمة في الاعضاء، تفرق بينهما. فاكتفاء مؤلفي كتاب الطب الشرعي المصري بكلمة جنين للاثنين لا يعد حجة على الاستغناء عن كلمة الانبويون بل هو دليل على العجز عن الإتيان بكلمة صالحة. وأرى أن جميع الكلمات المقترحة او المستعملة حتى الان غير صالحة للاسباب التالية :

(العلقة) نحتاج اليها لاداء معنى الدم الجامد، ولا يمكن استعمالها في النبات، و(المضغة) لا تفيد الا معنى قطعة اللحم، ولا يمكن استعمالها لأنبريون النبات. و(الفوف) هو الفتيل او القطمير، وهو غلاف النواة، وقد صرحت به جميع كتب اللغة بصورة واضحة. ولم يقل انه أنبريون النبات سوى الجوهري وحده، ولا يمكن تسمية انبريون الحيوان به. و(الرشم والرشيم) شيء آخر والنُّعَرَة جنين الحيوان لا غير.

فهذه الكلمات لا تخلو من نقيصة او نقائص من كل جهة، والمطلوب لفظة تفيد معنى الأنبريون في الحيوان والنبات معا أو يمكن أن تستعمل بهذا المعنى. وأظن أنني عثرت على كلمة صالحة لهذا الغرض وهو (الملقوح) او (الملقوحة)، جمعها ملاقيح... وان الأنبريون في النبات والحيوان لا يحصل طبعا إلاّ بالإلقاح، فكلاهما ملقوح (18)... الخ.

الهوامش

(*) طبيب وعالم بالحيوان والنبات والفلك، لبناني تخرج من الجامعة الامريكية في بيروت وعمل في الجيشين المصري والعراقي ودرس في مدرسة الطب بدمشق في أول نشاتها، وهو من اعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، له معجم الحيوان والمعجم الفلكي ومشروع معجم النبات (الاعلام/ ج 1).

(1) الشهابي، مصطفى / الدكتور امين المعلوف / مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مج 18 ج 5 و6 ص 1943/258.

(2) صروف، يعقوب / معجم الحيوان/ المقتطف مج 33 ج 10 ص 1908/843. ومقدمة معجم الحيوان ص 2.

(3) المعلوف، امين/ معجم الحيوان/ المقدمة ص 2-3.

(4) المعلوف، امين/ معجم الحيوان/ المقتطف/ مج 33 ج 10/ 1908,845-843.

(5) المعلوف، أمين/ معجم الحيوان/ الصفحات 5 و20 و34 و35 و41 و102.

(6) الشهابي مصطفى/ المصطلحات العلمية في اللغة العربية /56.

(7) الشهابي، مصطفى. معجم الحيوان/ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق. مج 13 ج 1/ 60-1932/62.

(8) الكرملي، انسطاس ماري / باب المراسلة والمناظرة / نظر في معجم الحيوان / المقتطف. مج 39 ج2 / 169 وما بعدها - 1911.

(9) جواد، مصطفى / المباحث اللغوية في العراق / معهد الدراسات العربية العالية / 131 / القاهرة 1955.

(10) المعلوف، أمين / المعجم الفلكي. مطبعة دار الكتب المصرية / ص 5 القاهرة 1935.

(11) صروف، يعقوب. المعجم الفلكي. المقتطف مج 87 ج 3 / 370-371 (عرض ونقد).

(12) صروف. يعقوب / المرجع نفسه ص 370-371 / 1935.

(13) المعلوف، أمين / بحث في بعض اصطلاحات النبات والحيوان / مجلة المجمع العلمي العربي مج 7 ج 7 / 289، 1927.

(14) هو ابوزيد الانصاري النحوي.

(15) المعلوف، أمين / بحث في بعض اصطلاحات النبات / مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مج 7 ج 7 / 289-292، 1927.

(16) المرجع نفسه / 292.

(17) المعلوف، أمين / المرجع نفسه ص.289.

(18) الجلبي، داود / بحث في بعض اصطلاحات النبات / مجلة المجمع العلمي العربي بدمش مج 8 ج 6 / 321-322.

ظاهرة التعريب اللفظي وأثرها في المعجم المختص

الاستاذ / جواد حسني سماعنه(*)

من بين القضايا المصطلحية التي تستدعي التأمل قضية التعريب المنبثقة عن ظاهرة الاقتراض اللغوي المعروفة، ولفظة تعريب من (عَرِبَ) ومشتقاتها بمعنى فَصُحَ بعد لكنة. . . ومنه أعرب الإسم الأعجمي : نطق به على منهاج العرب، فهو مُعَرَّب ومُعَرَبَ، والأول أشيع وأكثر تداولا . وقد أفرزت ظاهرة الإقتراض اللغوي في اللغة العربية مصطلحين معروفين متداخلين هما المعرب والدخيل، فمع ما لكل منهما من طبيعة البحث الخاصة، إلا أن الفوارق والحدود سرعان ما تتلاشى بينهما لانتماء المصطلحين الى أرومة واحدة، وخاصة في البحوث اللغوية القديمة .

أولا : التعريب اللفظي في الدرس اللغوي القديم

اسمحوا لنا أن نتجاوز الموقف الفقهي من ظاهرة الإقتراض اللفظي بما لها وما عليها لننتقل مباشرة الى الموقف اللغوي من هذه الظاهرة، فقد تناول اللغويون العرب القدامى موضوع التعريب، في إطار ظاهرة الإقتراض اللغوي، من خلال منطلقين أساسيين الأول يتعلق بطبيعة الظاهرة ونتائجها، والثاني بإشكالية مناقلة الأصوات والحركات والحروف الأعجمية الى العربية .

فمن الناحية النظرية، كان سيبويه (ـ 180 هـ) أول من تناول الموضوع في (الكتاب (ج 4) صوتيا وصرفيا وذلك في (هذا باب ما أعرب من الأعجمي) و(هذا باب إطراد الإبدال في الفارسية) . في هذين البابين وصف لما درج العرب على انتهاجه في تعريب الألفاظ وطرائقهم في ذلك، وفي الثاني طرح دقيق لقواعد الإبدال الصوتي الأعجمي وإشكالاته .

يقول في الموضوع الأول؛ مفصلين نصه في نقاط :

(1) ـ إعلم إنهم مما يغيرون من الحروف الأعجمية (أي الألفاظ) ما ليس من حروفهم (أي ألفاظهم) البتة، فربما ألحقوه ببناء كلامهم (أي بأبنية العرب اللفظية)، وربما لم يلحقوه (1) .

(*) خبير بمكتب تنسيق التعريب

القاعدة الأولى: تعريب اللفظ الأعجمي وفقا لبناء عربي نحو درهم عرّبوه على زنة هِجرَع، وبَهْرَج ألحقوه بسَلْهَب ودينار بديماس (2).

القاعدة الثانية: تعريب اللفظ الأعجمي مع تغيير محتمل فيه دون أن يلحق بمثال عربي.

يقول سيبويه: (ربما غيروا حاله عن حاله في الأعجمية مع إلحاقهم بالعربية غير الحروف العربية: فأبدلوا مكان الحرف الذي هو للعرب عربيا غيره، وغيروا الحركة وأبدلوا مكان الزيادة، ولا يَبْلُغون به بناء كلامهم) (3).

ومن ذلك قولهم آجُر وإبرَيْسم وإسماعيل وسراويل.

القاعدة الثالثة: ترك الإسم الأعجمي على حاله إذا كانت حروفه من حروف العربية، أكان على بناء عربي أم لم يكن، نحو خراسان وخُرَّم وكُرْكُم (4).

هذه القواعد الثلاث هي في رأي سيبويه المنهج الذي اتبعه العرب في تعريب الألفاظ الأعجمية، وهي كما نلاحظ، فيها من الاضطراب في التعريب ما جعل المعجم المختص حافلاً بأنماط متضاربة شديدة الغرابة من المعرب والدخيل.

فلفظة مثل آجر عربت: آجور وياجور وآجُرون وآجِرون... وجبريل نطقت بسبع لغات، ولفظة Taraxacum اليونانية التي تعني (نبات اليعضيد) عربت في ثلاثين لفظة نحو: طرخشوقوق وطرشقوق وطرشقون وتلخشكوك وطركسينا (5).

ومن أسباب هذا التباين في تعريب اللفظة الواحدة الفوضى في تعريب الأصوات والحركات والحروف الأعجمية مما لا يوجد له نظير في الأبجدية العربية أو في نظامها الصوتي. وقد كشف سيبويه عن هذه الإشكالية في الباب الثاني الذي جاء بعنوان (هذا باب اطراد الإبدال في الفارسية). وكانت هذه الإشكالية أكثر تمظهرا في النقل عن اليونانية من نظيرتها الفارسية بطبيعة الحال. فثمة حروف فارسية تخضع لما يسمى بالإبدال المطرد (أي اللازم) عند نقلها الى العربية، ذكر منها سيبويه الحرف الذي بين الكاف والجيم أي حرف الـ (G) الأجنبي الذي ليس له ما يشبهه في العربية... قال سيبويه ان هذا الحرف يجب إبداله وقد أبدله العرب بالكاف والجيم والقاف العربيات، فقالوا جَوْرَب، وكُرْبَق وقُرْبَق، ومعن الأخيرة (الحانوت) (6).

وأما ما لا يطرد إبداله، أي ما لا يلزم، فهي الحروف الأعجمية التي لها ما يشاكلها في الأبجدية العربية نحو إبدال سين سراويل أبدلت من شين، وعين إسماعيل أبدلت من همزة (7).. ونحن نتساءل، هنا عن الفائدة المنتظرة من مثل هذا النوع من الإبدال، إذ لا نرى فائدة يمكن قبولها من إبدال حرف أعجمي بآخر، خاصة وأن له ما يشاكله في العربية.

ما موقف اللغويين من هذه المعربات والدخائل؟

إذا كان سيبويه قد صب اهتمامه على وصف الظاهرة واستقراء القواعد التي استعملها العرب في التعريب فإن بعض اللغويين المتفتحين قاربوا الموضوع من زاوية أخرى، أي من زاوية الرفض أو القبول له. فابن جني خصص لها مكانا واسعا في (الخصائص) فثمة باب (ما قيس على كلام العرب فهو من كلام

العرب) أبان فيه عن موقف متقدم من الظاهرة ليس باعتبارها موضوعا للنقاش ولكن كجزء من متن اللغة بل ووسيلة لإثراء معجمها اللغوي توليدا واشتقاقا وغير ذلك مما تسمح به طبيعة اللفظ المعرب، كَزَرْجَن من الزَرجون وعَرجَن من العرجون ومفضض من الفضة.

أما المعجميون فقد فتحوا صفحات معاجمهم لهذا الغريب الوافد بشيء من الاضطراب قد يكون دافع إثراء اللغة وراء هذا الملحظ، فإبن رديد (ـ 321 هـ) مثلا في (الجمهرة) نجده يميز بين نوعين من المعرب، معرب بثّه في ثنايا المعجم وتحت أبوابه وحروفه، وآخر آفرد له بابا بعنوان (ما تكلمت به العرب من كلام العجم حتى صار كاللغة) (8) فهو يعتبر التوت والزنجبيل وبرنكان (وهو كساءً) عربيا وأن كان قد أشار الى أصولها الأعجمية، بينما يعتبر البستان والدشت والهاون (كالعربي) ويضعها في الباب الذي أشرنا إليه، دون ان يبدي من وجاهة الأسباب ما دفعه الى هذا التمييز (9).

وقد ظل هذا الغريب على حاله من القلق والاضطراب انتماء وتأصيلاً ومَعْجَمَةً... الى ان أولاه أبو منصور الجواليقي (ـ 540) اهتماما خاصا، فدبج فيه معجمه الشهير (المعرب من كلام الأعجمي على حروف المعجم) الذي يعتبر أفضل مرجع تأصيلي للمعربات في العربية، وشهادة اعتراف بوجودها وإنتمائها وإمكانية ادخالها في المعجم اللغوي العام، كما حدث بعد ذلك فعلا.

على أن ما يمكن أن نسجله على مقاربات العرب القدماء لظاهرة التعريب اللفظي أن اصحابها قد وصفوا الظاهرة وصفا خارجيا دون أن يتعمقوا فيها، أو يقدموا قواعد لما يمكن أن يُعمَل به لاحقا.. بمعنى أن الدراسات التي اطلعنا عليها لم تكن دراسات نقدية تهدف الى تحديد الوسائل لمعالجة الظاهرة، ووضع القواعد التي يجب اتباعها في التعريب، ولكنها تبيان لحصيلة لغوية أعدت سابقا، وهذا يعني فقدان هذه الأصول لمنهج في التعريب يمكن اتباعه بعد تلك المرحلة التراثية.

ثانيا: التعريب اللفظي في العصر الحديث

برهن اللغويون والاصطلاحيون المحدثون منذ أوائل هذا القرن على وعيهم الشديد بالإرث المنهجي الإشكالي الذي تركه لهم الأسلاف، خاصة وان العربية خلال المرحلة المذكورة قد أُثقلتْ كاهلاً بآلاف المصطلحات المستجدة في كل نوع من انواع العلوم الحديثة، مما استوجب ترجمته او تعريبه، وإزاء هذا، كان لابد للعرب من أن يحاربوا على أكثر من جبهة، فهم مدعوون من جهة الى تلافي الثغرات المنهجية التي ورثوها عن الأجداد، بايجاد منهجية محكمة للترجمة والتعريب والتوليد، ومن جهة أخرى الى الإسراع في تقديم بدائل مقبولة لهذه الالاف المؤلفة من المصطلحات تلبية لمتطلبات عديدة لا يجهلها أحد.

إزاء هذا الوضع كان لابد من ظاهرة التعريب ان تفرض نفسها في بحوث علماء اللغة المحدثين وجلسات مجامع اللغة ومؤتمراتها، متجلية في النزاعات الثلاث التالية:

ـ نزعة متشددة أحسّت بخطورة الظاهرة، ومن ثم فإنها رفضت مقاربتها، وكان يمثل هذه النزعة

مجموعة من المعجميين السلفيين امثال الشيخ أحمد الاسكندري (ـ 1938) عضو مجمع اللغة العربية.

ـ نزعة موضوعية تعترف بالظاهرة وتدعو الى عدم الشطط في التعريب، والى ضرورة وضع القواعد المنهجية والنظام الموحد، ومن أصحاب هذه النزعة أحمد عيسى والأب انستاس الكرملي والأمير مصطفى الشهابي وحامد عبد القادر وصبحي صالح.

ـ نزعة متطرفة تؤمن إيمانا مطلقا بالتعريب وتدعو الى إطلاقة في التوليد والترجمة، ولا ترى فيه خطرا علي اللغة، ومن أنصارها عبد القادر المغربي ومحمد شوقي أمين وبعض المستشرقين أمثال جب ونيلنو وماسينيون.

وكان الشيخ المغربي قد دعا في كتابه الاشتقاق والتعريب الذي صدر في العشرينات من هذا القرن الى التعريب مطلقاً وحتى بدون اتباع المناهج العربية الموروثة، لأن المعربات في نظره لا تحط من قدر فصاحة الفصيح ولا تخرج البليغ عن بلاغته (10).

وقد شهد مجمع اللغة العربية نقاشات حادة وجلسات كثيرة حول موضوع التعريب، أصدر على إثرها قرارا توفيقيا ينص على تجويز إستعمال بعض الألفاظ الأعجمية (عند الضرورة) على طريقة العرب في تعريبهم (11).

وقد اثبتت بعض الدراسات الإحصائية للمعرب والدخيل في المعاجم العلمية المختصة أن المجالات العلمية والتقنية والحضارية أكثر استقطاباً للمعربات، وان عبارة (عند الضرورة) التي ينصّ عليها قرار المجمع لم تُحترم بما فيه الكفاية. ولدى اطلاعنا على معجم حضاري أصدره مجمع اللغة العربية بعنوان (معجم ألفاظ الحضارة الحديثة ومصطلحات الفنون)، تبيّن لنا أن نسبة المعرب والدخيل في الخمسين صفحة الأولى فقط تتجاوز الـ 25٪ من مجموع مصطلحات العينة وتزداد هذه النسبة في المعاجم العلمية للمجمع، كما تزداد أكثر في المدونات المصطلحية غير المجمعية.

ومن بين أهم الموضوعات الأكثر إشكالية في ظاهرة الاقتراض اللغوي والتي أعطاها اللغويون والمصطلحيون المحدثون اهتماما ملحوظا: المناقلة الصوتية وترجمة الحروف الأجنبية الى العربية؛ وهي القضية ذاتها التي كانت مثار اهتمام اللغويين العرب القدامى طارحة في طريقها ضروبا شتى من المتناقضات. فقد أحسّ المحدثون اذن بضرورة ايجاد المنهج لنقل الحروف والأصوات والحركات الأعجمية في الألفاظ الأجنبية وفق نظام محدد وملائم لخصائص العربية. لذلك عنى عدد من علماء اللغة والمصطلح الرواد بداية من عشرينات هذا القرن بوضع منهجيات في التعريب أهمها منهجية الدكتور أحمد عيسى المتضمنة في كتابه الشهير (التهذيب في أصول التعريب) (القاهرة ـ 1923)، ومنهجية الدكتور محمد شرف في (معجم انجليزي عربي في العلوم الطبية والطبيعية) (القاهرة ـ1924) ومنهجية أمين المعلوف ومنهجية الأمير مصطفى الشهابي وهما عالمان في علمي النبات والحيوان، وأخيرا وليس آخرا منهجية مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

ولعل ما يمكن أن يقال في هذه المنهجيات أنها لم تتمكن من ايجاد نظام موحد لنقل الحروف والأصوات بالنظر اليها فرادى، أو كمجموعة

متجانسة ذات هدف واحد، إذ أبقت على المشكلات ذاتها التي عرفناها في الدرس اللغوي القديم، وعلى الخيارات نفسها بل إنها أضافت الى ذلك إشكالات جديدة ناتجة عن تعامل العربية مع لغات جديدة كالانجليزية والفرنسية. فالحرف الأعجمي الذي وصف سيبويه مخرجه فيما بين الكاف والجيم العربيتين ووضع له التراثيون الحروف (ك ج ق) أضاف اليها اللغويون الجدد (الغين والجيم ذات الثلاث نقط)، فهو في:

- منهجية أحمد عيسى: غ، ك، ق، ج
- منهجية محمد شرف: ج، غ، ج (بثلاث نقط)
- منهجية أمين المعلوف: غ، ج
- منهجية مجمع اللغة العربية: غ، ج
- منهجية الأمير الشهابي: غ

فهذا مثال واحد من أمثلة الإبدال اللازم قد يهون أمره أمام حروف الإبدال الأخرى الأكثر حدة كالحرف P والمقاطع الصوتية المركبة. والحقيقة ان هذه المنهجيات لم تنجح كثيرا في تقديم الحلول لتعريب الأصوات والحروف على النحو الذي نأمله، فضلا عن أنها فاقمت من حدة المشكلة باقتراحها اضافة حروف جديدة الى العربية لا تلائم مدرجها الصوتي ولانظامها الإملائي ولا تقنياتها الطباعية.

هذه المشكلات يمكن تلمسها جيدا في المعاجم المختصة القديمة والحديثة، ومما لفت انتباهنا في معاجم مكتب تنسيق التعريب الموحدة كاللسانيات(12)، والجغرافيا (13)، والآثار والتاريخ(14)، فيما يخص ظاهرة التعريب، ما يلي:

- عدم وجود منهج موحد في نقل الأصوات والحركات والحروف الأعجمية في المعاجم الثلاثة، فحرف الـ (G) عرب في اللسانيات (كافا) كما في (glagolitic – = كلاكوليتية) (ص 57)، (وغينا) كما في (غوتية geothic (ص 58) (وجيما) كما في (فونولوجي (ص 108))، ومثل ذلك في معجم الجغرافيا (ص 48 و49) وغيرهما من صفحات.

- التعريب دون تعريف أو شرح وهو أمر مناقض لمبدأ تحديد الدلالة الذي ينبغي أخذه بعين الاعتبار في التأليف المعجمي (انظر اللسانيات: ص 23، ص 59)، (الجغرافيا: ص 10، ص 13، ص 17): وغيرها من صفحات.

- عدم اتباع خطة موحدة في تدوين المعرب عند وجود مرادف أو مرادفات عربية بازائه، فمرة يقدم على العربي وأخرى يؤخر، بدون خطة واضحة تبين متى تعطى للأعجمي الأسبقية في التدوين، ومتى يعتبر مرادفه العربي شرحا، أو مصطلحا من الدرجة الثانية. (انظر اللسانيات رقم المصطلح 246، والمصطلح رقم 1467، 1468) وغيره الكثير.

- اللجوء الى التعريب اللفظي مع وجود مقابل عربي، أو التمحل في وضع مقابل عربي مع أفضلية التعريب، وهذا يعني المزاجية الملحوظة في التعريب وعدم الاعتماد على منهج محدد فيه. (التاريخ: المصطلحات 365، 413، 625، 1258).

ومن ذلك التعريب اللفظي لبعض أجهزة القياس وأسماء العلوم أحيانا، وأحيانا أخرى وضع مقابلات عربية لها، دون اتباع نظام محدد في ذلك. (انظر: الآثار والتاريخ - المصطلحات 1659، 2013، 2016،

2014، 2023، 2025).

هذه إلماعات خاطفة لما هي عليه ظاهرة الاقتراض اللفظي في اللغة العربية، وفي معاجمها المختصة، إن دلت فإنما تدل على أن هذه الظاهرة بحاجة الى مراجعة جديدة تكون أشبه بنقطة جمارك لغوية (إن صح التعبير!) تهدف الى مراقبة هذه الكائنات الغريبة الوافدة (الألفاظ الدخيلة) ومساءلتها وتنظيم استيعابها اذا لم يكن منها بد، حماية للغة ولأهلها من أن يصبحا غريبين في وطنهما العربي الكبير.

هوامش:

(1) ـ الكتاب لسيبويه ـ (ج 4) تحقيق عبد السلام محمد هارون (بيروت: دار الكتب العلمية) ص 303

(2) م. ن، ص. ن

(3) م. ن، ص 304

(4) م. ن، ص. ن

(5) الجامع لمفردات الادوية والاغذية لإبن البيطار (ـ 646 هـ)، طبعة أوفست، مكتبة المثنى: بغداد ب. لا.

(6) الكتاب لسيبويه، ج 4، ص 305

(7) م. ن، ص 306.

(8) الجمهرة لإبن دريد (ـ 321)، (القاهرة: مؤسسة الحلبي وشركاه) طبعة بالاوفسيت. مج 3، ص: 499 ـ 504.

(9) م. ن، ص: 447، 222، 251، 305، 309، 400، وغير ذلك من صفحات.

(10) الاشتقاق والتعريب، عبد القادر الغربي (القاهرة: 1924)، ص 5، ص 48 ـ 49.

(11) مجموعة القرارات العلمية الصادرة عن المجمع، (د 1 ـ 28)، ص 83، صدر القرار في ج 1، د1.

(12) المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات (انجليزي ـ فرنسي ـ عربي)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (مكتب تنسيق التعريب) 1989.

(13) المعجم الموحد لمصطلحات الجغرافيا (انجليزي ـ فرنسي ـ عربي)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (مكتب تنسيق التعريب)، 1994.

(14) المعجم الموحد لمصطلحات الآثار والتاريخ (انجليزي ـ فرنسي ـ عربي)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (مكتب تنسيق التعريب)، 1993

III - مشروعات معجمية

* معجم مصطلحات علوم البيئة (انجليزي - عربي) (القسم السابع)

د. / فاضل حسن أحمد

(كلية الهندسة بجامعة عمر المختار)

معجم مصطلحات علوم البيئة

د. فاضل حسن أحمد(*)

(القسم السابع)

O

3915 - Oakum	=	دسار
3916 - Oasis	=	واحة
3917 - Oblate	=	مُفَلْطَح
3918 - Obligate	=	اجباري، الزامي
3919 - Obligate aerobe	=	كائن هوائى الزامي
3920 - Obligate anaerobe	=	كائن لاهوائي الزامي
3921 - Oblong	=	مستطيل
3922 - Obsequent stream	=	مَجرى عكسي
3923 - Observation	=	رصد، مراقبه
3924 - Observation balloon	=	منطاد رصد
3925 - Observation well	=	بئر الرصد
3926 - Obsolescence	=	تقادم
3927 - Obstinate disease	=	مرض عضال
3928 - Occupational disease	=	مَرَض مهني
3929 - Occupational exposure	=	التعرّض المهني
3930 - Occupational health	=	الصحة المهنية
3931 - Occupational noise	=	الضوضاء المهني
3932 - Occupational Safety and Health Administration (OSHA)	=	ادارة السلامة والصحة المهنية
3933 - Occupational therapy	=	المعالجة بالعمل

(*) جامعة عمر المختار - الجماهيرية الليبية

3934 - Occupational selection	=	الاختيار المهني
3935 - Océan	=	المحيط
3936 - Océan disposal	=	الطرح في المحيطات
3937 - Océanic climate	=	مناخ محيطي
3938 - Oceanography	=	علم المحيطات
3939 - Octane Number (ON)	=	الرقم الأوكتيني
3940 - Octave band	=	النطاق الثُمانيّ
3941 - Octave fréquency bands	=	نطاقات التردد الثمانيّ
3942 - Oddity	=	شذود
3943 - Odor	=	رائحة
3944 - Odor removal	=	إزالة الرائحة
3945 - Odorous compounds	=	مركبات ذات رائحة
3946 - Offal	=	فضلات
3947 - Offensive gases	=	غازات قتّالة
3948 - Off - route time	=	
3949 - Offshore drilling	=	حفر بعيد عن الشاطىء
3950 - Offshore wind	=	ريح متجهة بعيداً عن الشاطىء
3951 - Offspring	=	نسلٌ
3952 - Offtate	=	مآخذ
3953 - Oil	=	زيت، نفط
3954 - Oil - bearing layer	=	طبقة نفطية
3955 - Oil burning	=	حرق زيتي
3956 - Oil consumption	=	استهلاك النفط
3957 - Oil dispersants	=	مشتات الزيت
3958 - Oil distillation	=	تقطير الزيت
3959 - Oil mill effluents	=	نفايات معصرة الزيت
3960 - Oiling	=	تزييت
3961 - Oil - in - water emulsification	=	استحلاب الزيت في الماء
3962 - Oil pollution	=	التلوث بالزيت
3963 - Oil refinery	=	مصفى النفط
3964 - Oil seeps	=	تسربات الزيت
3965 - Oil separator	=	فاصِل الزيت

3966 - Oil shale	=	طَفل نفطي
3967 - Oil Sinking	=	غطس الزيت
3968 - Oil Slick	=	طبقة زيتية رقيقة
3969 - Oil Sorption capacity	=	سعة امتزاز الزيت
3970 - Oil spillages	=	منسكبات زيتية
3971 - Old valley	=	الوادي العتيق
3972 - Oldage	=	شيخوخة
3973 - Olefins	=	اولفين
3974 - Olego - elements	=	عناصر قليلة الحركة
3975 - Oleophilic	=	أليف الزيت
3976 - Oligodynamic	=	قليلُ الحركة، ضعيف الدينامية
3977 - Oligotrophic	=	قليل التغذية
3978 - Oligotrophic water	=	ماء قليل التغذية
3979 - Onchocerciasis	=	داء المذنّبات الملتحية
3980 - One - person collection	=	التجميع بواسطة شخص واحد
3981 - One - way bottle	=	قنينة ضائعة
3982 - Onshore wind	=	ريح نحو الشاطىء
3983 - Onsite handling	=	مداولة موقعية
3984 - Onsite processing	=	عملية موقعية
3985 - Onsite storage	=	خزن موقعي
3986 - Ooze	=	ينضج
3987 - Opacity	=	لا انفاذية
3988 - Opaque	=	مُعتِم
3989 - Open air	=	الهواء الطلق
3990 - Open channel	=	قناة مفتوحة
3991 - Open dump	=	انقاض مكشوفة
3992 - Open evaporative system	=	نظام التبخر المفتوح
3993 - Open filter	=	مرشح مفتوح
3994 - Opening new lands	=	تدشين الأراضي
3995 - Open space	=	فضاء مفتوح
3996 - Open top containers	=	حاويات مفتوحة من الأعلى
3997 - Operating lines	=	خطوط التشغيل

3998 - Ophthalmia	=	رَمَد
3999 - Ophthalmology	=	أمراض العيون
4000 - Optician	=	اخصائي نظارات
4001 - Optimism	=	تفاؤل
4002 - Optimum section	=	المقطع الأمثل
4003 - Orders reaction	=	تفاعل متعاقب
4004 - Ore	=	خام
4005 - Ore deposits	=	رواسب الخامات
4006 - Organic compounds	=	مركبات عضوية
4007 - Organic content	=	المحتوى العضوي
4008 - Organic matter	=	مادة عضوية
4009 - Oragnic pollutants	=	ملوثات عضوية
4010 - Organics	=	مواد عضوية
4011 - Organic turbidity	=	عكورة عضوية
4012 - Organisilicon	=	سليكون عضوي
4013 - Organization	=	تنظيم، منظمة
4014 - Organochlorine insecticide	=	مبيد حشري من الكلور العضوي
4015 - Organoleptic substances	=	مواد ذات تأثير عضوي
4016 - Organophosphates		الفوسفات العضوية
4017 - Orifice		فُتحة
4018 - Orifice flow meter	=	فتحة قياس الجريان
4019 - Originality	=	أصالة
4020 - Origin of birds	=	أصل الطيور
4021 - Ornithology	=	علم الطيور
4022 - Ornithosis	=	داء طيري
4023 - Orographic précipitation	=	هطول التضاريس
4024 - Orographic rainfall	=	مطر الجبال
4025 - Orphanage	=	ملجأ الأيتام
4026 - Orthopaedics	=	الكسور
4027 - Orthophosphate	=	أورثوفوسفات
4028 - Orthotolidine	=	الأورثوتولدين
4029 - Oscillation	=	تذبذب، ذبذبه

4030 - Oslo convention	=	
4031 - Osmosis	=	تنافُذ
4032 - Osmotic pressure	=	ضغط تنافذي
4033 - Ossification	=	تكلّس
4034 - Osteopathy	=	علاج العظام
4035 - Otolaryngology	=	أمراض الأنف والأذن والحنجرة
4036 - Outbreak	=	تفشٍّ، اندلاع
4037 - Outcrop	=	نتوء
4038 - Outer cover	=	غطاء الوقاية
4039 - Outer space	=	الفضاء الكوني
4040 - Outfalls	=	ذنائب، مصارف رئيسية
4041 - Outfall diffuser	=	ناشر المصرف الرئيسي
4042 - Outflow	=	تدفّق، مصب
4043 - Outflow lag	=	تأخر الدفق
4044 - Outlet	=	مَخْرَج
4045 - Outpatient	=	مريض خارجي
4046 - Output yield	=	مردود، محصول
4047 - Outwash	=	جُفَاء السيل
4048 - Overchute	=	مسيل مرفوع
4049 - Overcropping	=	الاحفاء (في الصيد)
4050 - Overcrowded	=	مزدَحِم
4051 - Overdose	=	جرعة مفرطة
4052 - Overfall	=	مَطفَح
4053 - Overfall dam	=	سد مطفحي
4054 - Over - fertilization of aquatic ecosystem	=	الخصوبة العالية للنظام البيئي المائي
4055 - Overfire air	=	هواء الاشعال الكلي
4056 - Overfishing	=	الإفراط في صيد السمك
4057 - Overflow	=	طَفحْ
4058 - Overflow pipe	=	انبوب طفح
4059 - Overflow rate	=	معدل الطفح
4060 - Overflow spring	=	ينبوع طفح
4061 - Over - population	=	اكتظاظ بالسكان

4062 - Overland flow	=	جريان سطحي
4063 - Overland flow system	=	شبكة الجريان السطحي
4064 - Overland flow time	=	زمن الجريان السطحي
4065 - Overland runoff	=	السيح السطحي
4066 - Over pressure	=	ضغط زائد
4067 - Over pumping	=	الضخ المُفْرط
4068 - Overtop	=	يَغْمُر
4069 - Overturn	=	انقلاب
4070 - Overworking	=	عمل مُرْهِق
4071 - Ovicide	=	مبيد البُييضات
4072 - Ovolarvicide	=	مبيد البُييضات
4073 - Owl	=	بوم
4074 - Oyster	=	محار
4075 - Oxidant	=	عامل مؤكسد
4076 - Oxidation ditch	=	ساقية الأكسدة
4077 - Oxidation pond	=	بركة الأكسدة
4078 - Oxidation - reduction	=	الأكسدة والاختزال
4079 - Oxidation - Reduction Potential (ORP)	=	جهد الأكسدة والاختزال
4080 - Oxidizing agent	=	عامل الأكسدة
4081 - Oxygenating capacity	=	سعة الأكسجة
4082 - Oxygenation	=	أكسجة
4083 Oxygen balance	=	توازن الأوكسجين
4084 - Oxygen consumption	=	استهلاك الأوكسين
4085 - Oxygen content	=	محتوى الأوكسجين
4086 - Oxygen depletion	=	نقص الأوكسجين
4087 - Oxygen deficit	=	نقص الأوكسجين
4088 - Oxygen demand	=	طلب الأوكسجين
4089 - Oxygen meter	=	مقياس الأوكسجين
4090 - Oxygen sag curve	=	منحني انخفاض الأوكسجين
4091 - Oxygèn saturation	=	اشباع أوكسجيني
4092 - Oxygen scavenger	=	منظف الأوكسجين
4093 - Oxygen transfert	=	انتقال الاوكسجين

4094 - Oxygen transfert efficiency	=	كفاءة انتقال الاوكسجين
4095 - Oxygen transfert rate	=	معدل انتقال الأوكسجين
4096 - Oxygen uptake	=	امتصاص الاوكسجين
4097 - Oxygen utilization rate	=	معدل استهلاك الاوكسجين
4098 - Oxysphere	=	طبعة الاوكسجين
4099 - Ozonation	=	أوزنة
4100 - Ozone	=	أوزون
4101 - Ozonizer	=	مولّد الأوزون
4102 - Ozonosphere	=	طبقة الأوزون
4103 - Ozonometer	=	مقياس الأوزون
	=	

P

	=	
4104 - Package plant	=	مصنع متنقل، مصنع متكامل
4105 - Packaged extended aeration	=	تهوية ممتدة متنقلة
4106 - Packaged units	=	وحدات متنقلة
4107 - Packed	=	مَحشُو
4108 - Packed biblogical reactor	=	مفاعل بايولوجي متنقل
4109 - Packed tower	=	برج محشو
4110 - Packing - house wastes	=	فضلات السكن المتنقل
4111 - Packing joint	=	وصلة حشو
4112 - Packing material	=	مادة حشو
4113 - Pack - type fire extinguisher	=	مطفأة حريق محمولة
4114 - Paddle	=	مجذاف
4115 - Paediatric medicine	=	طب الأطفال
4116 - Pain	=	ألم
4117 - Painful	=	مؤلم
4118 - Painless	=	بلا ألم
4119 - Palaeobiology	=	علم الحفريات البيولوجية
4120 - Palaeogeography	=	الجغرافية القديمة
4121 - Palaeoecology	=	علم البيئة القديمة
4122 - Palliative	=	مُسَكِّن، مهدىء

4123 - Palsy	=	شلل
4124 - Palynology	=	علم الطَّلْع
4125 - Pan coefficient	=	معامل حوض التبخر
4126 - Pandemic	=	وباء عام
4127 - Pan evaporation	=	تبخر الحوض
4128 - Pantothermia	=	حرارة شاملة
4129 - Paper containers	=	الحاويات الورقية
4130 - Paper mill	=	فرز الورق
4131 - Papyrologist	=	علم البراكين
4132 - Parabola	=	قَطع مكافيء
4133 - Parabiosphere	=	الغلاف الملاصق، الغلاف الحياتي
4134 - Paraboliod	=	مجسُم مكافيء
4135 - Parachromatism	=	عَمَى الألوان
4136 - Paradox	=	نقيضه
4137 - Paraffins	=	البرافينات
4138 - Parallel operation	=	تشغيل متوازٍ
4139 - Paralysis	=	شلل
4140 - Paramecium	=	الفصليات
4141 - Parameter	=	معيار
4142 - Parasite	=	طُفَيْلي
4143 - Parasitic agent	=	عامل طفيلي
4144 - Parasitic infection	=	عدوى طفيلية
4145 - Parasitism	=	تطفُّل
4146 - Parasitology	=	علم الطفيليات
4147 - Parthenogenesis	=	تناسل عذري
4148 - Parathermy	=	اشعة قصيرة الموجات
4149 - Paratropy	=	تغذية فاسدة
4150 - Paratyphoid fever	=	حمى نظيرة التيفوئيد
4151 - Park	=	مُتنزه، رَحبَة
4152 - Parking	=	إيقاف
4153 - Parking meter	=	عداد الوقوف
4154 - Parking prohibition	=	منع الوقوف

4155 - Park mowing	=	حصاد المتنزه
4156 - Parshall flume	=	قناة بارشال
4157 - Partial coagulation	=	التخثير الجزئي
4158 - Partial flow	=	جريان جزئي
4159 - Partial pressure	=	ضغط جزئي
4160 - Partial vacuum	=	فراغ جزئي
4161 - Particle	=	جُسَيْم
4162 - Particle size distribution	=	توزيع مقاس الجسيمات
4163 - Particulate	=	دقائقي
4164 - Particulate control	=	السيطرة على الدقائقيات
4165 - Particulate matter	=	مادة دقائقية
4166 - Pass	=	مَمَرّ
4167 - Passage	=	مجرى، مَمَرّ
4168 - Passageway	=	مَمَرّ
4169 - Passing lights	=	أضوية المرور
4170 - Passivation of iron	=	كَبْت فعالية الحديد
4171 - Passive state	=	حالة سلبية
4172 - Passivity	=	لافعالية
4173 - Paste	=	عجينة
4174 - Pasteurella	=	الباستوريات
4175 - Pasteurization	=	بسترة
4176 - Pas	=	
4177 - Pathogen	=	ممرض، ناقل للمرض
4178 - Pathogenical wastes	=	فضلات ناقلة للأمراض
4179 - Pathogenic bacteria	=	بكتيريا مرضية
4180 - Pathogenic organisms	=	كائنات حية مرضية
4181 - Pathology	=	علم الأمراض
4182 - Patient	=	مريض
4183 - Pattern	=	نمط
4184 - Pavement	=	تبليط، بلاط
4185 - Peach potato aphid	=	أرَقة (حشرة المن)
4186 - Peach processing wastes	=	فضلات معالجة الخوخ

4187 - Peak	=	ذُروَة
4188 - Peak discharge	=	تصريف الذُّروة
4189 - Peak hour	=	ساعة الذُّروة
4190 - Peak value	=	قيمة الذُّروة
4191 - Pears processing wastes	=	فضلات معالجة الكمثري
4192 - Peat	=	الخُثّ
4193 - Pebble	=	حَصَبَة
4994 - Pédagogy	=	علم التربية
4195 - Pedestrain	=	ماشٍ، راجِل
4196 - Pedialgia	=	وجع القدم
4197 - Pediatrics	=	طب الأطفال
4198 - Pedigree	=	أصل، نسب
4199 - Pedosphere	=	الغلاف الترابي
4200 - Pelagic environment	=	بيئة بحرية
4201 - Pelagic organisms	=	الأحياء البحرية
4202 - Pelagic région	=	إقليم بحري
4203 - Pellagra	=	بلاجرا (مرض ينشأ عن سوء التغذية)
4204 - Peneplain	=	سَهب
4205 - Peninsula	=	شبه جزيرة
4206 - Penstock	=	أنبوب التشغيل
4207 - Peptization	=	شبغرة
4208 - Perch	=	رَوْد
4209 - Perched stream	=	مجرى جاثم
4210 - Perched water	=	ماء جاثم
4211 - Perched water table	=	سطح ماء جوفي جاثم
4212 - Perchloride	=	فوق كلوريد
4213 - Percolating water	=	الماء المترشح
4214 - Percolation	=	رَشْح
4215 - Percolation capacity	=	سعة الرشح
4216 - Percolation field	=	حقل الرشح
4217 - Percolation path	=	اتجاه الرشح
4218 - Percolation test	=	فحص الرشح

4219 - Percussion drilling	=	حفر بالدّق
4220 - Perenial	=	معمر، دائب
4221 - Perenial plants	=	نباتات معمرة
4222 - Perenial stream	=	مجرى دائب
4223 - Perfect gas	=	غاز مثالي
4224 - Perforated pan aerators	=	مهاوي الأحواض المثقبة
4225 - Perforated pipe	=	أنبوب مثقب
4226 - Perforation	=	ثقب
4227 - Performance curve	=	منحني الأداء
4228 - Performance standards	=	معايير الأداء
4229 - Perfume	=	عِطر
4230 - Perfumery	=	روائح عطرية
4231 - Peridot	=	زَبَرْجَد (صخر ناري)
4232 - Perigean tide	=	المد العالي
4233 - Perigee	=	حضيض
4234 - Periglacial	=	خاص بالتُّخوم الجليدية
4235 - Peril	=	خَطَر
4236 - Perimeter	=	محيط
4237 - Permafrost	=	أرض دائمة التجمد
4238 - Permeable	=	نَفوذ
4239 - Permeability	=	نفوذية
4240 - Permeability coefficient	=	معامل النفوذية
4241 - Permanent stream	=	مجرى دائم
4242 - Permanent hardness	=	العسرة الدائمية
4243 - Permanent threshold	=	مسموح دائم
4244 - Permissible dose	=	جرعة مسموحة
4245 - Permissible Speech - Interference Level (PSIL)	=	مستوي تداخل الكلام المحتمل
4246 - Permutite process	=	عملية البرموتيت (لتيسير الماء العسر)
4247 - Peroxyacetyl Nitrate (PAN)	=	نترات بيروكسي استيل
4248 - Personal hygiene	=	الصحة الشخصية
4249 - Personality assessment	=	تقييم الشخصية
4250 - Perspiration	=	عَرَق، تعرّف

4251 - Pertussis	=	شهقة
4252 - Perviouse	=	مَسَامّيّ
4253 - Pest	=	حشرة أونبتة مؤذية، وباء، طاعون
4254 - Pest control	=	مكافحة الحشرات والطفيليات
4255 - Pesticide	=	مبيد
4256 - Pesticide resistance	=	مقاومة المبيد
4257 - Pesticide rotation	=	دورة المبيد
4258 - Pestilential	=	وبائي
4259 - Petrography	=	صفة الصخور، بتروغرافيا
4260 - Petrochemicals	=	بتروكيمياويات
4261 - Petrol	=	بنزين
4262 - Petroleum	=	بترول، نفط
4263 - Petroleum industry effluents	=	مخلفات الصناعات البترولية
4264 - Petrology	=	علم الصخور
4265 - Phagedenic	=	أكّال
4266 - Phase	=	حالة، طور
4267 - Phase change	=	تغير الطور، تغير الحالة
4268 - Phenol	=	فينول
4269 - Phenol index	=	مؤشر الفينول
4270 - Phenol meter	=	مقياس الفينول
4271 - Phenol number	=	رقم الفينول
4272 - Phenol value	=	قيمة الفينول
4273 - Phenomental	=	ظواهري، غير عاديّ
4274 - Phenotype	=	مظهر موروث
4275 - Phenology	=	علم المناخ
4276 - Phenomenology	=	علم الظواهر
4277 - Phenomenon	=	ظاهرة
4278 - Phobia	=	خوف مرضي
4279 - Phone	=	صوت
4280 - Phonetics	=	علم الصَّوْتيات
4281 - Phosgene	=	فوسجين (غاز)
4282 - Phosphatase test	=	اختبار الفوسفاتاز

4283 - Phosphate	=	فوسفات
4284 - Phosphating	=	فسفتة
4285 - Phosphoric acid	=	حامض الفسفوريك
4286 - Phosphorus	=	فسفور
4287 - Phosphorylation	=	أستَرة فسفورية
4288 - Photochemical oxidant	=	مؤكسد كيميائي ضوئي
4289 - Photochemical smog	=	ضباب دخاني كيميائي ضوئي
4290 - Photocolorimeter	=	مقياس لون ضوئي
4291 - Photoelectric colorimeter	=	مقياس لون كهروضوئي
4292 - Photosynthesis	=	التمثيل الضوئي
4293 - Photosynthetic microorganism	=	كائن حي مجهوي ضوئي
4294 - Phreatophyte	=	نبات متعمق الجذورة
4295 - Phycology	=	علم الطحالب
4296 - Phylogeny	=	تطوّر السُلالات
4297 - Physical adsorption	=	امتزاز فيزيائي
4298 - Physical characteristics	=	خصائص فيزيائية
4299 - Physical climatology	=	علم المناخ الطبيعي
4300 - Physical models	=	نماذج طبيعية
4301 - Physico - chemical treatment	=	معالجة فيزيائية كيميائية
4302 - Physiology	=	فيسيولوجيا، علم وظائف الأعضاء
4303 - Physiotherapy	=	معالجة بالعوامل الطبيعية
4304 - Phytoclimatology	=	علم المناخ النباتي
4305 - Phytology	=	علم النباتات
4306 - Phytometer	=	نبات قياسي (يستخدم لقياس عوامل النمو)
4307 - Phytone	=	بروتين نباتي
4308 - Phytophagous	=	اكّال النبات، نباتيّ
4309 - Phytoplankton	=	عوالق نباتية
4310 - Phytotoxicant	=	سام للنبات
4311 - Phytotoxins	=	سموم نباتية
4312 - Pickle processing wastes	=	فضلات عمليات التنظيف
4313 - Pickling	=	تنظيف
4314 - Pickup time	=	زمن الألتقاط

4315 - Picloram	=	بيكلورام (مزيل الاعشاب)
4316 - Picocurie	=	بيكوكوري
4317 - Pier	=	دعامة
4318 - Piezometer	=	بيزومتر
4319 - Piezometric head	=	الشحنة البيزومترية
4320 - Piezometric level	=	المنسوب البيزومتري
4321 - Piezometric surface	=	السطح البيزومتري
4322 - Pig	=	مِكشَطَة، خنزير
4323 - Pigeon	=	حمام
4324 - Pig iron	=	حديد غُفْل
4325 - Pigging of sewers	=	كشط المجاري
4326 - Pilot - plant test	=	فحص لنموذج مصنع
4327 - Pinworm	=	دودة دبوسية
4328 - Pipe	=	أنبوب
4329 - Pipe assembly	=	مجموعة أنابيب
4330 - Pipe bender	=	حانية أنابيب
4331 - Pipe branch	=	فرع من أنبوب
4332 - Pipe connection	=	وصلة أنبوبية
4333 - Pipe cutter	=	مقطعة أنابيب
4334 - Pipe dog	=	مفتاح أنابيب
4335 - Pipe fitter	=	براد أنابيب
4336 - Pipe fittings	=	لواحق الأنابيب
4337 - Pipe grids	=	شبكات أنبوبية
4338 - Pipe joint	=	وصلة أنبوبية
4339 - Pipe laying	=	مد الأنابيب
4340 - Pipe line	=	خط الأنابيب
4341 - Pipe locator	=	موقع الأنابيب
4342 - Pipe manifold	=	مَشْعَب أنابيب
4343 - Piperonyl butoxide	=	بيوتوكسيد البيبرونال
4344 - Pipe scraper	=	مكشطة أنابيب
4345 - Pipe stopper	=	سِداد أنبوب التصريف
4346 - Pipe system	=	منظومة الأنابيب

4347 - Pipe thread	=	سن أنابيب
4348 - Pipette	=	ماصة مُدَرَّجة
4349 - Pipe union	=	وصلة أنابيب
4350 - Pipe welding	=	لحم الأنابيب
4351 - Pisciculture	=	سماكة (تربية السمك)
4352 - Piston	=	مكَبس
4353 - Piston meter	=	عداد مكبسي
4354 - Pit	=	حفرة
4355 - Pitch	=	انحدار، مدى، زِفت
4356 - Pitch lake	=	بحيرة زيت
4357 - Pitch of sound	=	درجة الصوت
4358 - Pit gas	=	غاز المناجم
4359 - Pitometer	=	بيتومتر
4360 - Pitot tube	=	أنبوبة بيتوت
4361 - Pit privy	=	مرحاض
4362 - Pitted outwash plain	=	سهل حبيبي منقّر
4363 - Pitting	=	تنقر
4364 - Placer deposits	=	رواسب غرينية
4365 - Plague	=	وباء، طاعون
4366 - Plain	=	سَهْل
4367 - Plain chlorination	=	كلورة بسيطة
4368 - Plain coupler	=	قارنة بسيطة
4369 - Plain sedimentation	=	ترسيب تمهيدي
4370 - Plan	=	خطة
4371 - Plane	=	مستوٍ
4372 - Plane of saturation	=	مستوى التشبع
4373 - Planification	=	تخطيط
4374 - Planimeter	=	مِمْسَاح
4375 - Planktonic material	=	مادة من العوالق
4376 - Planktons	=	عوالق مائية
4377 - Planner	=	مُخطِّط
4378 - Planning	=	تخطيط

4379 - Planning period	=	الفترة التخطيطية
4380 - Plant	=	محطة، نبات
4381 - Plantation	=	غرس، زراعة
4382 - Plant cycle	=	دورة حياة النبات
4383 - Plant evolution	=	علم تطور النباتات
4384 - Plant genetics	=	علم وراثة النباتات
4385 - Plant heat rate	=	معدل حرارة النبات
4386 - Plant life	=	حياة النبات
4387 - Plant morphology	=	علم تركيب النبات
4388 - Plant pathology	=	علم أمراض النبات
4389 - Plaster	=	لزقة
4390 - Plastic	=	لدن
4391 - Plastic bags	=	أكياس لدنة
4392 - Plastic medium	=	وسط لدن
4393 - Plastic pipe	=	أنبوب لدن
4394 - Plateau	=	نَجْد، هضبة
4395 - Plate count	=	حساب اللوح
4396 - Plate separator	=	فاصل لوحي
4397 - Plate type clarifier	=	مروِّق لوحي
4398 - Platform	=	رصيف
4399 - Plating wastes	=	فضلات الطلاء المعدني
4400 - Platinum cobalt	=	كوبلت البلاتين
4401 - Plaza	=	ساحة عامة
4402 - Pleasant environment	=	بيئة جميلة، بيئة سارة
4403 - Pleistocene	=	البلستوسين، العصر الحديث الأقرب
4404 - Plenum	=	امتلاء
4405 - Plug	=	سداد
4406 - Plug cock	=	محبس سدادي
4407 - Plug flow	=	الجريان الساد
4408 - Plug tap	=	حنفية سدادية
4409 - Plug valve	=	صمام سدادي
4410 - Plug weld	=	لحام سدادي

4411 - Plumb	=	لحام بالرصاص
4412 - Plumber	=	مصلح أدوات صحية
4413 - Plumbing	=	تأسيسات صحية
4414 - Plumbism	=	تسمُم بالرصاص
4415 - Plume	=	
4416 - Plunger	=	غطّاس
4417 - Plunger pump	=	مضخة غطّاسة
4418 - Pluvial	=	مَطَريّ
4419 - Pluviometer	=	مقياس المطر
4420 - Pneumatic mixing	=	خلط هوائي
4421 - Pneumatic pump	=	مضخة هوائية
4422 - Pneumatic systems	=	أنظمة هوائية
4423 - Pneumatic valve	=	صمام هوائي
4424 - Pneumology	=	علم أمراض الرئة
4425 - Pneumonia	=	التهاب الرئة، ذات الرئة
4426 - Podzol	=	زَمْدَه (تربة رمادية)
4427 - Point gage	=	مقياس مستدق
4428 - Point source discharge	=	تفريغ نُقَطي
4429 - Point welding	=	لحام نقطي
4430 - Poised stream	=	مَجْرَى مستقرّ
4431 - Poiseuille's equation	=	معادلة بوازُوي
4432 - Poison	=	سُمّ
4433 - Poison gas	=	غاز سام
4434 - Poisoning	=	تسمم
4435 - Poisonous substance	=	مادة سامة
4436 - Polar	=	قطبي
4437 - Polar air	=	هواء قطبي
4438 - Polar front	=	جبهة قطبية
4439 - Polder	=	أرض مائية مستصلحة
4440 - Pole	=	قطب
4441 - Polemology	=	علم الحَرْب
4442 - Poling board	=	لوح داعم

4443 - Poliomyelitis	=	شلل الأطفال
4444 - Polishes	=	ملمُعات
4445 - Polishing lagoon	=	بحيرة تنقية
4446 - Pollen	=	لقاح
4447 - Pollen sampler	=	جامع عينات اللقاح
4448 - Pollutant	=	ملوُث
4449 - Pollute	=	يلوث
4450 - Polluted water	=	ماء ملَوَّث
4451 - Pollution	=	تلوُث
4452 - Pollution control	=	السيطرة على التلوث
4453 - Pollution élimination	=	إزالة التلوث
4454 - Pollution gradient	=	تدرّج التلوث
4455 - Pollution incidents	=	حوادث التلوث
4456 - Pollution indices	=	أدلة التلوث
4457 - Pollution load	=	حمل التلوث
4458 - Polonium	=	بولونيوم (عنصر فلزي اشعاعي)
4459 - Polyacoustic	=	مقوي الصوت
4460 - Polyacrylamides	=	متعدد أكريل الأميد
4461 - Polyamide resin	=	راتنج متعدد الأميد
4462 - Polychlorinated Biphenyl (PCB)	=	ثنائي الفنيل المتعدّد الكلورة
4463 - Polyelimax	=	أوج متعدّد
4464 - Polycrop	=	زراعة متنوعة
4465 - Polyelectrolyte	=	البولي الكتروليت
4466 - Polymer	=	بوليمر، متماثر
4467 - Polymeric coagulant	=	مخثر بوليمري
4468 - Polymerization	=	بلمرة
4469 - Polymer membrane	=	غشاء بوليمريّ
4470 - Polymide	=	متعدد الأميد
4471 - Polymide membrane	=	غشاء متعدد الأميد
4472 - Polymorphic	=	متعدد الأشكال
4473 - Polynuclear aromatic hydrocarbons	=	هيدروكاربونات عطرية متعددة النوَى
4474 - Polyp	=	بوليب

4475 - Polyphosphate	=	فوسفات متعدد
4476 - Polyploid	=	تعدد المجموعات
4477 - Polypropylene	=	متعدد البروبيلين
4478 - Polyradiotherapy	=	المعالجة بالإشعاع المتعدد
4479 - Polysilicates	=	متعدد السليكات
4480 - Polystyrene	=	متعدد الستيرين
4481 - Polyurethane	=	متعدد اليوريتان
4482 - Polyvinyl Chloride (PVC)	=	كلوريد متعدد الفنيل
4483 - Polyvinyl chloride filter media	=	أوساط مرشحة من كلوريد متعدد الفنيل
4484 - Polyvinyl chloride pipe	=	أنبوب من كلوريد متعدد الفنيل
4485 - Pomalogy	=	علم الفاكهة
4486 - Pond	=	بركة
4487 - Pondage	=	اختزان
4488 - Ponded - stream	=	مجرى مُعَوّق
4489 - Ponding	=	تجمُّع، تبطُّح
4490 - Ponograph	=	مسجل الألم
4491 - Pontile	=	جسري
4492 - Pontoon	=	رَمَث
4493 - Pool	=	غدير، حوض
4494 - Pooled sample	=	عينة حوضية
4495 - Poor visibility	=	رؤية ضعيفة
4496 - Poppet air valve	=	متنفس الهواء القفّاز
4497 - Popular	=	شعبي
4498 - Population census	=	تعداد السكان
4499 - Population density	=	كثافة السكان
4500 - Population dynamics	=	حركية الجماعة
4501 - Population equivalent	=	مكافىء السكان
4502 - Population forecasting	=	تنبأ السكان
4503 - Population growth	=	نمو السكان
4504 - Populous	=	كثير السكان
4505 - Pop valve	=	صمام تنفيس
4506 - Pores	=	مَسَامّ

4507 - Porosity	=	مَسَامِيَة
4508 - Porous	=	مَسَامّي
4509 - Porous disc	=	قرص مساميّ
4510 - Port	=	مَرفأ
4511 - Portable equipements	=	مُعدات متنقلة
4512 - Portal	=	بابي
4513- Position	=	وَضْع
4514 - Positive axis	=	محور موجب
4515 - Positive ion	=	ايون موجب
4516 - Positivsm	=	وَضعية
4517 - Postchlorination	=	الكلورة اللاحقة
4518 - Post - emergence herbicide	=	مُبيد الأعشاب بعد بروزها
4519 - Post- heating	=	التسخين اللاحق
4520 - Posthole	=	بئر قليلة العمق
4521 - Potable	=	شَرُوب
4522 - Potamogenic déposits	=	قرارات نهرية
4523 - Potamology	=	علم مجاري المياه
4524 - Potamoplankton	=	عوالق نهرية
4525 - Potash	=	بوتاس (هيدروكسيد البوتاسيوم)
4526 - Potash alum	=	شب البوتاس
4527 - Potash soap	=	صابون البوتاس
4528 - Potassium permanganate	=	برمنكانات البوتاسيوم
4529 - Potential	=	جهد ، كامِن
4530 - Potential Alpha Energy Concentration (PAEC)	=	تركيز طاقة ألفا الكامنة
4531 - Potential energy	=	طاقة كامنة
4532 - Potential head	=	شحنة كامنة
4533 - Potential temperature gradient	=	انحدار درجة الحرارة الكامنة
4534 - Potentiation	=	تَقْوِيَة
4535 - Pot furnace	=	فُرن مرجليّ
4536 - Pothole	=	نُقرة
4537 - Poultry	=	دواجن
4538 - Poultry - farming	=	تربية الدواجن

4539 - Pound	=	باون
4540 - Pounding rod	=	مسبار
4541 - Pour-plate culture	=	الزرع بالسكب في أطباق
4542 - Pour point	=	نقطة التميُّع
4543 - Power	=	قدرة
4544 - Power control	=	السيطرة على القدرة
4545 - Powedered Activated Carbon (PAC)	=	مسحوق الكاربون المنشَّط
4546 - Powdered charcoal	=	مسحوق فحم الخشب
4547 - Preaeration	=	تهوية مُسبقة
4548- Precaution	=	حَذر (تدبير وقائي)
4549 - Precautionary measure	=	تدبير وقائقي
4550 - Precipitable	=	قابل للترسيب
4551 - Precipitable water	=	ماء الهطول
4552 - Precipitant	=	مُرَسِّب، مادة مرسبة
4553 - Precipitate	=	رُسابة
4554 - Precipitation	=	الهطول (للمطر)، ترسيب
4555 - Precipitation channel	=	قناة الترسيب
4556 - Precipitation cycle	=	دورة الهطول
4547 - Precipitator	=	مرسب
4558 - Precision	=	دقّة
4559 - Precoat filters	=	مرشحات مُسبقة التغليف
4560 - Predator	=	حيوان ضار
4561 - Predesign phase	=	طور مُسبِق التصميم
4562 - Predication	=	تنبّؤ
4563 - Preferred Noise Criterion (PNC)	=	معيار الضوضاء المفضل
4564 - Pregnancy	=	حمل
4565 - Prejudice	=	ضَرَر
4566 - Preliminary test	=	فحص أولي
4567 - Preliminary treatment	=	معالجة أولية
4568 - Premedication	=	المعالجة الاعدادية
4569 - Preparation	=	تحضير، إعداد
4570 - Prescription	=	وصفة طبية

4571 - Pressingtime	=	زمن الكبس
4572 - Pressure	=	ضغط
4573 - Pressure adjustment	=	ضبط الضغط
4574 - Pressure altitude	=	الارتفاع الضغطي
4575 - Pressure belt filters	=	مرشحات الحزام الضغطية
4576 - Pressure build-up	=	تزايد الضغط
4577 - Pressure chamber	=	حجرة الضغط
4578 - Pressure control valve	=	صمام تنظيم الضغط
4579 - Pressure drop	=	هبوط الضغط
4580 - Pressure filter	=	مرشح ضغطي
4581 - Pressure equalizing valve	=	صمام معادلة الضغط
4582 - Pressure gauge	=	مقياس الضغط
4583 - Pressure loss	=	ضائع الضغط
4584 - Pressure meter	=	مقياس الضغط
4585 - Pressure pump	=	مضخة ضغطية
4586 - Pressure recorder	=	مسجل الضغط
4587 - Pressure reducing valve	=	صمام تخفيض الضغط
4588 - Pressure regulating valve	=	صمام تنظيم الضغط
4589 - Pressure regulator	=	منظم الضغط
4590 - Pressure release valve	=	صمام تنظيم الضغط
4591 - Pressure sewer	=	مجرى تحت ضغط
4592 - Pressure tight	=	سدود للضغطط
4593 - Pressure tunnel	=	سَرَبُ الضغط
4594 - Pressure valve	=	صمام ضغط
4595 - Pressure vessel	=	وعاء ضغطي
4596 - Pressure welding	=	لحام ضغطي
4597 - Pretreatment	=	معالجة تحضيرية
4598 - Preternatural	=	لا طبيعي، شاذ
4599 - Prevailing lapse rate	=	معدل التفاوت السائدة
4600 - Prevailing wind	=	الريح السائدة
4601 - Prevention	=	وقاية
4602 - Prevention of pollution	=	منع التلوث

4603 - Preventive health = صحة وقائية
4604 - Prevention maintenance = صيانة وقائية
4605 - Preventive measures = تدابير وقائية
4606 - Preventive medicine = الطب الوقائي
4607 - Preventive method = المنهج الوقائي
4608 - Primacy = أوْلوية
4609 - Primary air pollutants = ملوثات الهواء الأساسية
4610 - Primary clarifier = المروق الأولي
4611 - Primary combustion chamber = حجرة الاحتراق الأولية
4612 - Primary era = الدهر الأول
4613 - Primary power = القدرة الأساسيّة
4614 - Primary sedimentation tank = حوض الترسيب الأولي
4615 - Primary sludge = الخبث الأولي
4616 - Primary standards = المعايير الأساسية
4617 - Primary treatment = المعالجة الأولية
4618 - Prime power = القدرة الأساسية
4619 - Priming = التهيئة
4620 - Priming valve = صمام الأشغال
4621 - Primitival = فطري
4622 - Primitive = بدائي، فطري
4623 - Primitivism = البدائية
4624 - Primordial = اصلي، مَنشأ
4625 - Principles = مَبادئ، أسُس، أصول
4626 - Priority = أسبقية، أولوية
4627 - Prism storage = خزن منشوري
4628 - Probability = احتمال
4629 - Probable Maximum Precipitation (PMP) = الهطول الأعظم المحتمل
4630 - Probing = سَبْر
4631 - Process = عملية
4632 - Process heat rate = معدل حرارة المعالجة، معدل حرارة العملية
4633 - Process loading = حمل العملية
4634 - Processing = معالجة متعاقبة

4635 - Processing systems	=	أنظمة المعالجة
4636 - Processing techniques	=	تقنيات المعالجة
4637 - Prodigiosis	=	شؤميّة
4638 - Prodromal stage	=	مرحلة الإنذار
4639 - Producers	=	مُنتجات
4640 - Product	=	نِتاج، محصول
4641 - Production	=	إنتاج
4642 - Production model	=	نموذج صناعي
4643 - Production reactor	=	مفاعل مُنتِج
4644 - Professional	=	مهني
4645 - Profile	=	مَقطع جانبيّ
4646 - Progradation	=	
4647 - Program	=	برنامج
4648 - Program for Assessment and Mitigation Earthquake Risk	=	برنامج تقدير وإزالة خطر الزلزال
(PAMERAR)	=	
4649 - Program plan content	=	محتوى خطة البرنامج
4650 - Program supervision	=	الإشراف على البرنامج
4651 - Prohibited discharge	=	تصريف ممنوع، تصريف مُحرم
4652 - Prognosis	=	تنبؤ المرض
4653 - Proof	=	صامد
4654 - Proof test	=	فحص الصمود
4655 - Propagation	=	انتشار
4656 - Propagule	=	مُنشِر
4657 - Propeller	=	رفّاس، داسرة
4658 - Propeller aerator	=	مهوّى، رفّاس
4659 - Propeller mixer	=	خلاّط رفّاس
4660 - Propeller pump	=	مضخة محورية المجرى
4661 - Propensity	=	نزعة فطرية
4662 - Property	=	خاصيّة، ملكيّة
4663 - Prophylactic	=	وقائي
4664 - Proposed Maximum Contaminant Level (PMCL)	=	منسوب الملوث الأعظم المقترح
4665 - Proportional mode	=	المُعاوِد التناسبي

4666 - Propulsion	=	دَفْع
4667 - Protection	=	حماية، وقاية
4668 - Protection cap	=	غطاء واقٍ
4669 - Protection forest	=	غابة وقائية
4670 - Protection plate	=	لوح وقاية
4671 - Protection survey	=	مسح وقائي
4672 - Protective	=	وقائي
4673 - Protective agent	=	عامل وقاية
4674 - Protective cloth	=	لباس واقٍ
4675 - Protective coating	=	طبقة واقية
4676 - Protective coloration	=	تلوّن وقائي
4677 - Protective gear	=	أجهزة الوقاية
4678 - Protective gloves	=	قفّازات واقية
4679 - Protective layer	=	طبقة واقية
4680 - Protective mask	=	قناع واقٍ
4681 - Protective measures	=	إجراءات وقائية
4682 - Protective screen	=	ستار واقٍ
4683 - Protective system	=	نظام وقائي
4684 - Protector	=	واقية
4685 - Protein synthesis	=	تركيب البروتين
4686 - Prothoate	=	بروتوات (مبيد حشري)
4687 - Protista	=	أوليات، بروتستا
4688 - Protoactinium (Pa)	=	بروتكتينوم (عنصر فلزي اشعاعي)
4689 - Protozoa	=	أوليات حيوانية
4690 - Protozoal infection	=	عدوى الأوليات الحيوانية
4691 - Province	=	إقليم، محافظة
4692 - Proximate analysis	=	تحليل تقريبي
4693 - Pseudosolution	=	محلول غرواني مُعلّق
4694 - Psittacosis	=	داء الببغائية
4695 - Psophometer	=	مقايس الضوضاء
4696 - Psyche	=	نفس
4697 - Psychiatry	=	طبّ نفسي

4698 - Psychoanalysis	=	تحليل نفسي
4699 - Psychological medecine	=	الطب النفسي
4700 - Psychology	=	علم النفس، سيكولوجيا
4701 - Psychometrics	=	مقاييس نفسية
4702 - Psychoneurosis	=	مرض نفسي
4703 - Psychopathology	=	علم النفس المرضي
4704 - Psychophysiology	=	علم النفس الفسلجي
4705 - Psychosis	=	مرض نفسي
4706 - Psychotechnic	=	تقنية نفسية
4707 - Psychotherapy	=	علاج نفسي
4708 - Psychrometer	=	مرطاب، مقياس رطوبة الجوّ
4709 - Psychrometer constant	=	ثابت المرطاب
4710 - Psychrophile	=	أليف البرودة
4711 - Psychrophilic bacteria	=	بكتيريا أليفة البرودة
4712 - Public	=	عامّ
4713 - Public acceptance	=	قبول عام
4714 - Public debate	=	مناظره عامة
4715 - Public health	=	الصحة العامة
4716 - Public law	=	قانون عام
4617 - Public participation	=	مشاركة عامة
4618 - Public paths	=	حمامات عمومية
4619 - Public relations	=	علاقات عامة
4620 - Public safety	=	السلامة العامة
4721 - Public use	=	الاستعمال العام
4722 - Public water	=	ماء عام
4723 - Public water supply	=	تجهيز الماء العام
4724 - Puddle	=	ملاط أصمّ
4725 - Pug hole	=	مدخَنَة
4726 - Pulmonary fibrosis	=	تليّف رئوي
4727 - Pulmonary Function Test (PFT)	=	اختبار وظيفة الرئتين
4728 - Pulmonary tuberculosis	=	التدرن الرئوي
4729 - Pulsator clarifier	=	مدوق نبضي

4730 - Pulsed radiation	=	إشعاع نبضي
4731 - Pulverization	=	إرذاذ، سحق
4732 - Pulverizer	=	مسحقة، مسحنة
4733 - Pump	=	مضخّة
4734 - Pumpage	=	تصريف الضخّ
4735 - Pump analysis	=	تحليل المضخة
4736 - Pump curve	=	منحني المضخة
4737 - Pump drive units	=	وحدات إدارة المضخة
4738 - Pumped storage	=	خزين الضخ
4739 - Pumped storage plant	=	منشأة خزن الضخ
4740 - Pump efficiency	=	كفاءة المضخة
4741 - Pumping	=	ضخ
4742 - Pumping equipement	=	معدّات الضخ
4743 - Pumping plant	=	وحدة الضخ
4744 - Pumping station	=	محطة الضخ
4745 - Pump primer	=	مُهَيِّئة المضخة
4746 - Pump selection	=	اختيار المضخة
4747 - Pump setting	=	تعميق المضخة
4748 - Pump stroke	=	شَوط المضخة
4749 - Pump suction	=	امتصاص المضخة
4750 - Pump valve	=	صمام المضخة
4751 - Puna	=	دوار الجبل
4752 - Pure	=	نقي
4753 - Pure forest	=	غابة نقية
4754 - Pure metal	=	معدن نقي
4755 - Pure oxygen	=	أوكسجين نقي
4756 - Pure water	=	ماء نقي
4757 - Purgation	=	إسهال
4758 - Purification	=	تنقية
4759 - Purification center	=	مركز تنقية
4760 - Purification degree	=	درجة التنقية
4761 - Putrefaction	=	تعفن، انحلال

4762 - Putrefactive odor	=	رائحة متعفنة
4763 - Putrescent	=	متفسخ
4764 - Putrid	=	عفن، متعفِّن
4765 - Pycnometer	=	مثْقَلَة
4766 - Pygmy mangold beetle	=	حشرة الشوندر
4767 - Pyretherapy	=	المعالجة بزيادة الحرارة
4768 - Pyrethrum	=	بيرثرم (مبيد حشري)
4769 - Pyrite	=	بيريت (معدن صلب)
4770 - Pyrogenous	=	مولد حرارة
4771 - Pyroligneous	=	ناري خشي
4772 - Pyrolization	=	تحلل بالحرارة العالية
4773 - Pyrolusite	=	بيرولوسيت
4774 - Pyrolysis	=	الانحلال الحراري
4775 - Pyrolytic oils	=	ريوت تُحلل حرارياً
4776 - Pyrometer	=	بيرومتر (مقياس درجات الحرارة العالية)
4777 - Pyrophobia	=	رهبة الحريق
4778 - Pyrostat	=	بيروستات (جهاز إنذار لمنع الحرائق)

Q

4779 - Quality	=	جودة، نوعية
4780 - Quality control	=	التحكم بالنوعية
4781 - Quality of drinking water	=	نوعية ماء الشرب
4782 - Quality ofwater	=	نوعية الماء
4783 - Quantitative	=	كمِّيّ
4784 - Quantity	=	كمية
4785 - Quantity of relief	=	حدّة التضاريس
4786 - Quarantine	=	الحَجر الصحي
4787 - Quarrying	=	احتجاز
4788 - Quarry wastes	=	فضلات المقالع
4789 - Quarter	=	حي سكني
4790 - Quaternary	=	رباعية العناصر

4791 - Quaternary ammonium compounds = مركبات الامونيا الرباعية العنصر

4792 - Quaternary era = الدّهر الرابع

4793 - Quicklime = جير حي

4794 - Quicksand = الوعساء

4795 - Quiescent settling = ترسيب السكون

4796 - Quiet pollutant = ملوث هادىء

R

4797 - Rabies = داء الكلب

4798 - Race = سلالة، مَجْرَى، نَسْل، عُنْصر

4799 - Races of man = سلالات الانسان

4800 - Raceway = مجرى مائي

4801- Rack = دَريئة

4802 - Rack chamber = حجرة الدريئة

4803 - Rack rake = مِرْآزة الدريئة

4804 - Rad = راد (وحدة إشعاع)

4805 - Radial flow = جريان نصف قطري

4806 - Radial - flow pump = مضخة انتباذية

4807 - Radial system = نظام شعاعيّ

4808 - Radian = زاوية نصف قطريّة

4809 - Radiation = إشعاع

4810 - Radiational inversion = انعكاس اشعاعي

4811 - Radiation chemistry = الكيماء الاشعاعية

4812 - Radiation coefficient = معامل الاشعاع

4813 - Radiation damage = أضرار الإشعاع

4814 - Radiation dosage = الجرعة الإشعاعية

4815 - Radiation drying = تجفيف إشعاعي

4816 - Radiation fog = ضَباب اشعاعي

4817 - Radiation hazard = خطر الإشعاع

4818 - Radiation load = حمل الإشعاع

4819 - Radiation losses = ضائعات الإشعاع

4820 - Radiation protection	=	الحماية من الإشعاع
4821 - Radiation sickness	=	داء الاشعاع
4822 - Radiation survey	=	المسح الإشعاعي
4823 - Radiation survey meter	=	مقياس المسح الإشعاعي
4824 - Radiation therapy	=	العلاج بالأشعة
4825 - Radioactive	=	مُشْع
4826 - Radioactive dust	=	غبار مشع
4827 - Radioactive elements	=	عناصر مشعة
4828 - Radioactive emanation	=	مُنْبَعث إشعاعي
4829 - Radioactive emission	=	انبعاث إشعاعي
4830 - Radioactive fallout	=	السَّقْط الإشعاعي
4831 - Radioactive family	=	فصيلة إشعاعية
4832 - Radioactive gold	=	ذهب مشع
4833 - Radioactive iodine	=	يود مشع
4834 - Radioactive isotopes	=	النظائر المشعة
4835 - Radioactive material	=	مادة مشعة
4836 - Radioactive pollution	=	تلوث إشعاعي
4837 - Radioactive product	=	انتاج مشع
4838 - Radioactive trace	=	مُقتفٍ مشع
4839 - Radioactive wastes	=	الفضلات الإشعاعية
4840 - Radioactivity	=	إشعاعية، نشاط إشعاعي
4841 - Radio astronomy	=	علم الفلك الإشعاعي
4842 - Radiocarbon	=	كاربون مشع
4843 - Radiocarbon dating	=	تأريخ الكاربون المشع
4844 - Radiochemistry	=	الكيمياء الإشعاعية
4845 - Radioecology	=	علم البيئة الإشعاعي
4846 - Radiograph	=	مسجل الإشعاع
4847 - Radioisotope	=	نظير مشع
4848 - Radionuclide	=	نويدة مشعة
4849 - Radiosonde	=	مسبار راديوي
4850 - Radioscope	=	كاشف الإشعاع
4851 - Radiometer	=	مقياس راديوي

4852 - Radioluminescence	=	ضياء إشعاعي
4853 - Radiopaque	=	غير منفذ للإشعاع
4854 - Radioparent	=	منفذ للإشعاع
4855 - Radiosensitivity	=	حساسية إشعاعية
4856 - Radio - tellurium	=	يلوريوم مشع
4857 - Radium	=	راديوم (عنصر فلزي)
4858 - Radium chloride	=	كلوريد الراديوم
4859 - Raduim emanation	=	منبعث راديومي
4860 - Radium lead	=	رصاص الراديوم
4861 - Radium minerals	=	معادن الراديوم
4862 - Radium ores	=	خامات الراديوم
4863 - Radium salts	=	أملاح الراديوم
4864 - Radon	=	رادون (عنصر غازي مشع)
4865 - Radius of visibility	=	نصف قطر الرؤية
4866 - Rag	=	خرقة
4867 - Ragweed control	=	
4868 - Rain	=	مطر
4869 - Rain ash	=	رماد مطري
4870 - Rainbow	=	قوس قزح
4871 - Rain cloud	=	سحابة ممطرة
4872- Rain erosion	=	تعرية بفعل المطر
4873 - Rainfall	=	سقوط المطر
4874 - Rainfall frequency	=	تكرار سقوط المطر
4875 - Rainfall intensity	=	شدة سقوط المطر
4876 - Rainfall record	=	سجل سقوط المطر
4877 - Rainfed stream	=	مجرى مطريّ
4878 - Rain gage	=	مقياس المطر
4879 - Rain gage network	=	شبكة مقياس المطر
4880 - Raining weather flow	=	جريان الطقس الممطر
4881 - Rain intensity	=	شدة المطر
4882 - Rain leader	=	مصرف مياه المطر
4883 - Rain - making	=	استمطار (انزال المطر اصطناعيا)

4884 - Rain of contact	=	الأمطار الجبهية
4885 - Rain of convection	=	الأمطار التصاعدية
4886 - Rain of relief	=	الأمطار التضاريسية
4887 - Rain print	=	نُقَيرة المطر
4888 - Rain rills	=	قنوات تصريف المطر
4889 - Rain spell	=	نوبة المطر
4890 - Rain storm	=	عاصفة مطرية
4891 - Rainwash	=	الجَريف
4892 - Rainwater	=	ماء المطر
4893 - Rainwater pipe	=	أنبوب ماء المطر
4894 - Raise	=	نفق صاعد
4895 - Rake	=	مرّازة
4896 - Rakings	=	المريزة
4897 - Ramp method for landfilling	=	طريقة الممر المنحدر للدفن الأرضي
4898 - Random event	=	حادثة عشوائية
4899 - Random noise	=	ضوضاء عرضي
4900 - Random sample	=	عينة عشوائية
4901 - Range	=	مدى
4902 - Range of sound	=	مدى الصوت
4903 - Range of visibility	=	مدى الرؤية
4904 - Range of vision	=	مدى الإبصار
4905 - Ranger	=	مصفوفة
4906 - Rapid filter	=	مرشح سريع
4907 - Rapid filtration	=	ترشيح سريع
4908 - Rapid flow	=	جريان عَرِم
4909 - Rapid infiltration	=	رشح سريع
4910 - Rapid mixing	=	مزج سريع
4911 - Rapids	=	المسيل
4912 - Rapid sand filter	=	مرشح رملي سريع
4913 - Rapid sand gravity filter	=	مرشح جاذبي رملي سريع
4914 - Rare earth metals	=	الفلزات الترابية النادرة
4915 - Rat	=	فأر

4916 - Ratbite fever	=	حُمّى عضّة
4917 - Rate	=	مُعدّل
4918 - Rated boost	=	التعزيز المقدّر
4919 - Rated head	=	الشحنة المقدّرة
4920 - Rate of percolation	=	معدّل الرُّشح
4921 - Rating	=	مُعايرة
4922 - Rating curve	=	منحني المعايرة
4923 - Rating curve adjustment	=	ضبط منحني المعايرة
4924 - Rating flume	=	قناة معايرة
4925 - Ratio	=	نسبة
4926 - Ratio nethod	=	طريقة النسبة
4927 - Rational	=	عقليّ، منطقيّ
4928 - Rational formula	=	مُعادلة منطقية
4929 - Ratio storage	=	نسبة الخزن
4930 - Ratsbane	=	سُمُّ الفأر
4931 - Ravine	=	إفجيج
4932 - Raw material	=	مادة خام
4933 - Raw sewage	=	مادة الصرف الخام
4934 - Raw water	=	ماء خام
4935 - Reach	=	امتداد
4936 - Reach of river	=	امتداد النهر
4937 - Reaction	=	ردُّ فِعل
4938 - Reaction chain	=	سلسلة تفاعل
4939 - Reactor	=	مُفاعِل
4940 - Reaeration	=	إعادة التهوية
4941 - Reagent	=	كاشف، مُفاعِل
4942 - Real gas	=	غاز حقيقي
4943 - Rebound	=	ارتداد
4944 - Recalcining	=	إعادة التكليس
4945 - Recarbonation	=	إعادة الكربَنَة
4946 - Recarbonation tank	=	حوض إعادة الكربنة
4947 - Receiving stream	=	مجرى الاستقبال